



قناة البصائر الوثائقية للتاريخ





قناة البصائر الوثائقية للشارع

Philip K. Barri

دار اليفظ العربى للنائلف والترجمة ونشر

الى الدكتور ضبيب حتى
على / ١٤٣٥
المنيرة كمال

297.09
M215A
C.1

تسائنج

الخلافه الامويه والعباده

والدول الاسلاميه ، والمصور الوسطى فى اوربا

كتاب بحث فى الخلافه الامويه فى الشرق والانداى والخلافه
العباسيه والفاطميه والدويلات المستقله . وفى (الجروب) الصليبيه
والماليك وبحاله اوربا فى القرون الوسطى

نائلف

رفيق المراهبى

ماجستر فى الآداب

مفروق الطبع محفوظه للمؤلف

دار اليفظ

فناه البصام الوثائقيه للتاريخ

بسم الله الرحمن الرحيم

وبعد ، فهذا كتاب موجز عن « تاريخ الحضارة العربية ، والعباسية ، وبعض الدويلات المستقرة ، وعن الحضارة الفاطمية والصليبية والممالك ، والامويين في بلاد الاندلس ، وفهرسة تاريخ اوروبا في العصور الوسطى . »

وضعت لمساعدة الطلاب على فهم تاريخ الامة العربية في أدق أدوار حياتها وأعقدها . وكانت هدفي الايضاح ، والتنظيم والتسهيل جهد المستطاع ، لذلك وضعت خطوطاً تحت بعض الاقسام الهامة . ليعيها القاري ، عن غيرها . كما استعنت بكثير من مقتطفات المؤرخين القدماء والحديثين ، ليطلع الطلاب على عبارات هامة وآراء جيدة في الموضوع ، وليست الغاية منها الحفظ وانما المراد قراءتها في أثناء الدرس . ووضعت هوامش للقراءة ايضاً لشرح بعض النواحي الفاضلة او ليراد بعض النقاط التي أهملها البرنامج والتي يحسن ذكرها حفظاً للتسلسل التاريخي . ووضعت بعض المصورات ليهتدي بها الطلاب لمواقع المدن والدويلات والاقاليم . وصدرت كل بحث بلائحة لاشياء الخلفاء ، أو الامراء ، أو السلاطين ليعرف الطلاب نسب كل شخص وزمن حكمه ، وأرجو إخواني الزملاء الاهتمام بتدريس هذه الواثق ليعطوا الطلاب فكرة عامة للبحث قبل تدريسه .

وبعد ان كتبت فصولاً عن حضارة كل قسم من أبحاث الكتاب اضطررت لحذفها نظراً لتأجيل البرنامج لبحث الحضارة للصف الرابع ، وكان الاولى دراسة حضارة كل دولة مع تاريخها السياسي ليعرف الطلاب على مقام به رجال هذه الدول في عمل الحضارة .

واني اشكر الاستاذ الشيخ زين الدين العايد بن لفضله بمراجعة هذا الكتاب ، كما اشكر بعض تلامذتي الذين ساعدوا في رسم المصورات ، وأشكر مقدماً كل زميل كريم يعرفني عن ملاحظاته عن هذا الكتاب والسلام .

دمشق في تشرين اول سنة ١٩٤٦

رفيق المرباني

1:55-13646

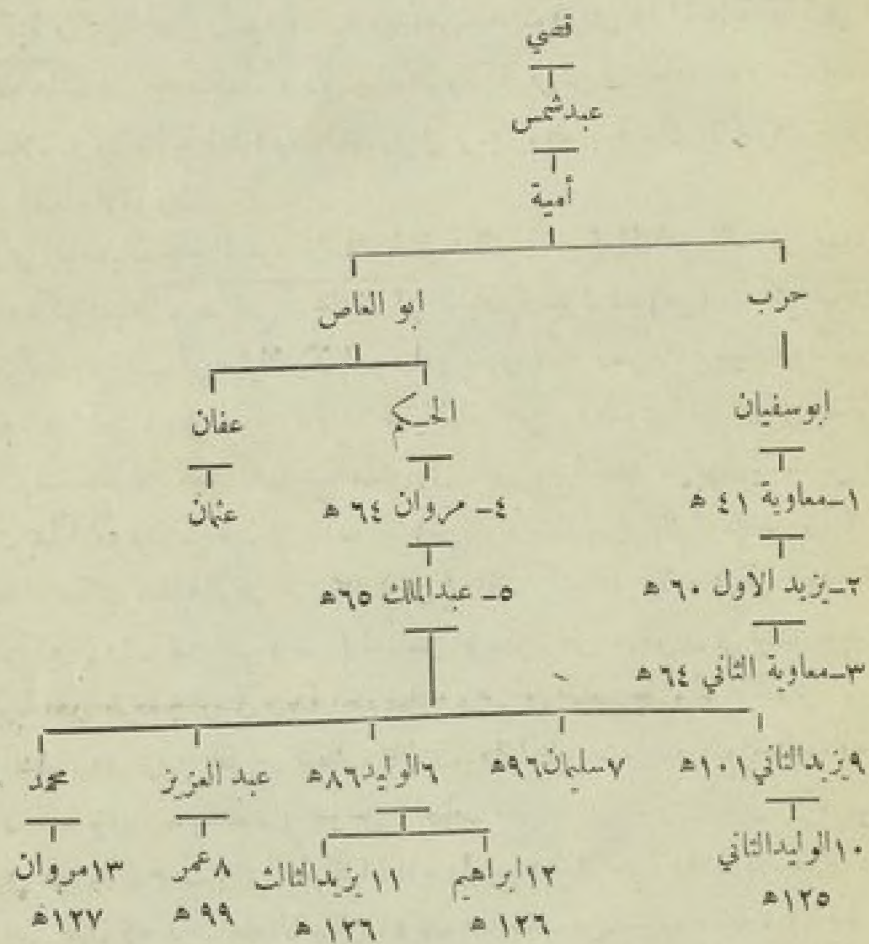
الكتاب

لعل عربي مخلص لا رويته ، ويحمل على تحقيق وحدة اليهود العربية

القسم الاول

الخلافه الاموية

السلالة الأموية



الباب الاول

الدولة الاموية

كان أمية بن عبد شمس بن عبد مناف سيداً من سادات قريش في الجاهلية يعادل في الشرف والرفعة عمه هاشم بن عبد مناف . وكانا يتنافسان رئاسة قريش في الجاهلية ، واستمرت المنافسة بينهما في الاسلام . وكان لأمية عشرة اولاد انقسموا الى فرعين . العنابة - أي الأسود - والانياس . ومنها تفرع الخلفاء الامويون .

ولما رأى ابو سفيان نجاح الدعوة الاسلامية على يد النبي (ص) الهاشمي خاف على مكانة بيته الاموي . وذكر العباس - عم النبي - مخاوف ابي سفيان الرسول محمد (ص) عند فتح مكة ، وبلغه اسلامه ، فتألف النبي قلب ابي سفيان بأن امر منادياً ينادي بمكة « من أغمد سيفه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن دخل دار ابي سفيان فهو آمن . » فسوى النبي بين ابي سفيان وبين الله وهذا شرف عظيم له . وبعد انتهاء فتح مكة ولي النبي عايباً شاباً من بني عبد شمس . ومنذ ذلك الوقت بدأ الامويون يدخلون في خدمة النبي (ص) والاسلام ليسترجعوا مكائهم التي كانت لهم في الجاهلية . فكتب معاوية الوحي للنبي محمد (ص) وانضم كثير من الامويين في جيش الاسلام لمحاربة المشركين . ولما توفي النبي (ص) استعمل ابوبكر بعض الامويين في قيادة الجيوش التي أرسلها لمحاربة اهل الردة كما أرسل يزيد وأخاه معاوية وعمر بن العاص على رأس الجيوش التي ذهبت لفتح بلاد الشام . وفي زمن عمر بن الخطاب كان يزيد والياً على دمشق ، وكان اخوه معاوية عاملاً على الأردن فلما توفي يزيد بطاعون (عمواس) اضاف الخليفة عمر الفاروق عمل يزيد الى اخيه معاوية . وفي عهد عثمان جمعت بلاد الشام كلها لمعاوية واصبح والياً لها العام . وقد ازداد نفوذ الامويين كثيراً في زمن عثمان لانه قرب اهله الامويين ، وكان هذا سبب من اسباب مقتله . ولما تولى الامام علي الخلافة قامت المنازعات بينه وبين معاوية . فلستطاع معاوية بدهائه وسياسته ان يأخذ الخلافة لنفسه ولاسرتة من بعده .

وسأعرض تاريخ الدولة الاموية التي استمر حكمها من سنة ٤١ هجرية الى سنة ١٣٢ هجرية او من سنة ٦٦٢ ميلادية الى سنة ٧٥٢ ميلادية اي مايقارب الاحدى والتسعين سنة بحسب تاريخ خلفائها.

١ - معاوية بن أبي سفيان

٤٠ - ٦٠ هـ أو ٦٦٠ - ٦٨٠ م

ولد معاوية بمكة واسلم يوم فتحها ، وأبوه أبو سفيان وأمه عند. وكان بعد إسلامه كاتب الوحي عند رسول الله (ص) ، وغزا الشام تحت إمرة أخيه يزيد وأصبح والياً للشام في زمن عثمان . ولما استشهد الخليفة عثمان وبويع الامام علي بالخلافة في المدينة امتنع معاوية عن مبايعته ، واتهمه بالجوادة تجاه قتلة عثمان وأيوأئهم بجيشه . وبأيع أهل الشام معاوية على المطالبة بدم عثمان ، وتحارب الطرفان في صفين وكانت الغلبة تكون لجيش علي ، إلا أن عمرو بن العاص اتخذ الموقف بطلب التحكيم ، فلما اجتمع الحكماء ونزل امر التحكيم بأيع أهل الشام معاوية بالخلافة ، وبأيع أهل العراق علياً خليفة عليهم ، وما زال الخلاف محتدماً بينهما حتى قتل علي بن أبي طالب ، وسلم ابنه الحسن الخلافة إلى معاوية عند ما بأس من نصرة أهل العراق له ورأى أن لا قبل له بمعاوية وجنده . فاجتمع أهل العراق والشام على بيع معاوية وبدأ بتدعيم أمور الدولة .

سياسة معاوية الداخلية :

قوى معاوية أمر الأمة وهي ثلاثة أقسام : القسم الأول شيعة بني أمية من أهل الشام ومن غيرهم في سائر الأمصار الإسلامية . القسم الثاني شيعة علي بن أبي طالب وأهل البيت كانوا يسمونه بـ الزويج أنه أحق بالأمر من معاوية وغيره . وأن إعاقته أحق بولاية أمر المسلمين من غيرهم . ولعظم هؤلاء من الشيعة يسكنون بلاد العراق وقليل منهم بمصر . القسم الثالث الخوارج (الذين هم أعداء الفريضة) يستحقون

أن يقتلوا .

(١) فرقة الخوارج هي أقدم الفرق الإسلامية خرجوا عنها على الإمام علي في معركة صفين ، وانضموا إلى فرق عديدة . أهمها فرقة الأزارقة ، والنجدات ، والصفرية ، والميمونية ، والشيانية ، والشيبيبة ، والبسية ، والاباضية ... وغيرها من الفرق الكبيرة التي تنتمي إلى الأكثرية بأسماء مؤسسيها وتتمثل هذه الفرق ببعض القضايا وتختلف بالاعتقاد الآخر . أما القضايا التي اشتركت فيها فهي : أولاً مسألة الإمامة ، وأنها حق لجميع المسلمين دون تفرق في الجلس أو القبيلة وأنها تكون لأكثر من المسلمين ، ثانياً التكفير علي وعثمان والخطاب الجمل والحكمين ومن رخصي بالتحكيم أو صوت الحكمين أو أحدهما . ثالثاً الخروج على الإمام الجائر . رابعاً تكفير أصحاب الكبار . (٢) فبدأوا (٣) خلافاً من تحت تحت عن فرق الخوارج المولفة)

دعاء مخالفين وبرونهم مارقين من الدين ، فكان على معاوية ان يسوس هذه الاحزاب المختلفة ويخضع
التأثر منها لسلطته فاتبع سياسة الحزم وولى الامصار رجلاً عرفوا بالدعاء والمقدرة ، وسأناكلم عن
احماله في كل قطر على حدة .

اولاً في العراق :

كان العراقي مركزاً لحركتين خطيرتين تثيران الشغب على معاوية وتزعمان تهديم الدولة الاموية
وهما حركة الخوارج والشيعة . وقد قلق معاوية من الخوارج لانهم قوم قدام ينفذ معهم حسن السياسة .
فقد غلوا في الدين غلواً عظيماً ، وقدموا كثيراً منه على غير وجهه ، وكانوا شجعاناً وابطالاً ، وعلمهم
لمبادئهم ، وادكر حادثة واحدة واحدة فقط جرت لهم في منازلهم مع معاوية لانيين شجاعاتهم وانظروا
قدريهم .

قولى امر الخوارج حويزة الاسدي ، فقال معاوية لابي حويزة : « اكفني امرائك » فذهب اليه
ابوه فدعاه الى الرجوع فابى فقال له يابني : « اجريتك بابك المالك تراه تمنح اليه » فقال : « يا ابا
وانه الى طمعة نافذة انتقلب فيها على كموت الرمح اسوق مني الى ابني » فرجع الى معاوية فاحسبه
فقال : « يا ابا حويزة عتاهذا جداً » وامر بحرقه . وعند المأثرة خرج اليه ابوه ودعاه الى العراق
فقال : « يا ابا حويزة انت في غيري مندوحة » ولي في غيرك مذهب عنك » ثم حمل على القوم وهو يقول :

اكبر على هذي الجوع حويزة فمن قليل ما تال العفوة

حمل عليه رجل من طلي فقتله فرأى اثر السجود وقد لوح جبهته فندم على قتله .

ثم تواتت اعمال الخوارج وثوراتهم حتى اختلفوا بلاد العراق ، فرأى معاوية ان لابد من تولية
العراق رجلاً ذوي مقدرة وحكمة يأخذون على ايدي السفهاء ويشددون في طلب الرب . فاختار
رجلين كلاهما عرف بالدياسة وحسن الرأي وهما : المنيرة بن شعبة . وزيد بن ابيد .

اما المنيرة : فهو ثقي الاصل من دماء العرب ، اشترك في معركة اليرموك واديب بعينه ، وتولى
البصرة ثم الكوفة في خلافة عمر ، وعزل له عنان وجبه معاوية والياً على الكوفة ، فظهر لينا في معاملة
الشيعة والخوارج وبقي والياً حتى سنة وفاة (٥١) هـ .

اما زيد بن ابيد : فقد كان من دماء العرب وهو ابن جارية تدعى حبة ، كانت تعيش في النخيل .
واما ابوه فشكوك فيه ويقال انه ابو سفيان . وقد قيل فيه : « لو كان ابو هذا القلام من قرين
لساق العرب بمصاه » . وهو من اتباع علي وكان والياً له على فارس ، وسأناكلم علي جعل معاوية
المنيرة بن شعبة وسيطاً في استقامته والاستقامة اليه . فاني المنيرة زهداً وقلة : « ان معاوية استخف
الرجل حتى بعث اليك ولم يكن احد مد يده الى الخلافة الا الحسن وقد بلغ معاوية فخذ لنفسك

فقبل الثومانين فاستغنى عنك معاوية ، فقال زياد : يا اشرعني وارم القرض الاقصى فان المستشار مؤتمن .
 فقال له المنيرة : يا اري ان تصل حبلك بحبله وتشخص اليه ويشفي الله . وكذب اليه معاوية بالامان
 بعد عودته المنيرة فأتى اليه وعفا عنه وولاه البصرة وخراسان وسجستان سنة ٤٤ هـ . فقدم البصرة
 وحملهم خطبته الشريفة بالبراء . وانما قيل لها ذلك لانه لم يحمد الله فيها وقد ذكر فيها حلة انه اد
 والفوضى التي ودلوا اليها . وبين سياسته التي سبقتها في معاملتهم وهي : يا ايها في غير طائف رشيده
 في غير غف ، ومنع الناس من الخروج في الليل . وكانت ثمراته تجول في الاسواق ثمن وجسمته
 خارج بيته قتله . وفي ذات ليلة لمسك رئيس الشرطة اعرابياً خرج ايلافتش عن بئرته فداقه الى زياد
 فقال له : هل سمعت النداء فقال : لا والله لا علم لي بما كان من الامير فقال ربه : اظنك صادق
 ولكن في قتلك صلاح الامة ، فلما يضرب عنقه . فغضب الناس واليهم الجديده خوفاً شديداً حتى
 امن بعضهم بعضاً فكان النبي يستط من يد الرجل او المرأة فلا يأخذ احد حتى يأتيه صاحبه ،
 ودار الرجل لا يغلق باب دونه . وبلغ عدد ثمرته زياد اربعة آلاف رجل .

وبعد وفاة المنيرة بن شعبة اضاف معاوية الى زياد ولاية الكوفة فنصار والي البصرين معا وهو
 اول من جماله . فصار الى الكوفة ودخل الجامع ليخطب الناس فخطبه بعضهم وهو على المنبر فجلس
 حتى امسكوا انهم دعا قوماً من حادته فاحذوا ابواب المسجد ودعا من كان فيه اربعة اربعة فاحذوا
 ما منا حبسك فمن حلف سلامه ومن لم يحلف جده حتى صار الى ثلاثين امتنعوا عن الخلف فامر
 بقطع ايديهم . وكان يقيم بالبصرة سنة اشر وبالكوفة مثلاً . وقد تمكن من تهدئة الخائفين الامن ،
 ومعاينة الناس من الموارج والشمية : وقبض على حجير بن عدي الكندي وارسله مع اخوانه معاوية ،
 فمربقته وبعض اصحابه من شامة علي . وقد نوسطت ناشئة بخلافه الا ان الحكم قد تعده به . وقد
 رأت هذه بنت زياد الانبارية حجيراً وكانت تشيع بقولها :

ترفع ايها القهر المنير	تبصر هل ترى حجيراً يسير
يسير الى معاوية بن حرب	ليفتنه كما زعم الامير
تجبرت الجوار بعد حجير	وطاب لها الخورق والدير
وامبحت البلاد له محولا	كأن فوجيا مزن مطير
الا يا حجير حجير بني عدي	تلكك الدامة والسرور
الخلف عليك ما اردي حسياً	وشيحاً في دمشق لها زفير
فان تهلك بكل زعم قوم	من الدنيا الى هناك يسير

وقد وجه زياد اهل العراق الى فتح بلاد المغرب فبصرهم عن النخيل الدائرية ، فخطبت له اطلاله

الولايات من نهر الفرات الى نهر جيحون ، وبهذه السياسة التي اتبعها هدأت البلاد وساد الامن فيها . وتوفي زياد سنة ٥٥ هـ بالطاعون . وخلفه في ولاية الكوفة عبد الله بن خالد ثم النعمان بن بشير الانصاري . اما في ولاية البصرة فخلفه ابنه عبيد الله وقد اشتد على الخوارج وقتل جماعة كثيرة منهم ونكل بعروة بن مرداس وامر بقطع يديه ورجليه وسأله كيف ؟ قل : هاري انك افسدت دنياي وافسدت آخرتك ، فقتله وأمر بقتل ابنته أيضاً نثار اخوه مرداس بالاهواز وخرج بأربعين رجلاً ، فبعث اليهم زياد جيشاً عدته الفان ، وطلبهم ابن حصن التميمي فبرزه الخوارج فقتل شاعرهم :

ألفا مؤمن فيما زعمتم وبقتاكم بأفسك اربعونا
كذبتم ليس ذلك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكبيرة بفصرونا

ولم يزل عبيد الله والياً على البصرة حتى توفي معاوية .

ثانياً مصر :

ان لمصر أهمية عظيمة نظراً لقربها من بلاد الشام ولتوقعها الجغرافي والحربي والاقتصادي . لذلك ترك معاوية ولايتها لداوية العرب عمرو بن العاص فاتحها واعرف الناس بها ، وهو الذي قدم اعظم الخدمات لمعاوية بإشارته عليه برفع المصاحف في معركة صفين وخدعته لابي موسى الأشعري وقت التحكيم ، وبني عمرو والياً على مصر حتى سنة وفاته ٤٢ للهجرة . ثم خلفه ابنه من بعده .

ثالثاً الحجاز :

أهتم معاوية كثيراً بأمر الحجاز فكان ولاته دائماً من بني أمية ، وانفق عليه اموالاً كثيراً في سبيل مشاريع الري ، واستماله زعمائه اليه . فجعل معاوية هذا القطر برخاء ورفاهية يشتمل اهله عن المطالبة بالخلافة ، وقد نجح معاوية بهذه السياسة طول حياته وجعل الحجاز ندوة الادب والطرب . وتتابع على ولاية الحجاز في زمن معاوية ولادة كثيرون وكان عند وفاته الوليد بن عتبة بن ابي سفيان والياً على المدينة وبني بن حكيم بن صفوان بن أمية والياً على مكة .

رابعاً الشام :

جعل معاوية بلاد الشام مركز حكمه ، وجعل دمشق قلب الدولة الناشئة عاصمة خلافته ، واتخذ أهلها بطائنه واعوانه ، ليساء دوره في حكم البلاد وادارتها . وقد كان أهل الشام سابقاً تحت حكم البيزنطيين فكتبوا لذلك شتبا من التنظيم والخصوع ، وعرفوا طرق الحرب والافادة ، وجعل

معاوية من القبائل العربية النازلة بأرض الشام نواة جيشه ، وصاهر بعض هذه القبائل ليربط معها بلحمه ودمه وقد بقيت بلاد الشام مخصصة له وللاويين من بعده .

وقد نجح معاوية بإدارة الدولة الداخلية نجاحاً عظيماً نظراً لحسن سياسته ، وبعد نظره وصبره ، وحزمه ، ومعرفته بخفايا الأمور ، وتقريبه لرؤساء العرب من قيسيين وبغائبين وبذلك الأموال لاشراف المسلمين من أبناء الأنصار والمهاجرين واختياره أحسن الولاة القادرين على العمل والإدارة : كعمرو ابن العاص والمنيرة بن شعبة ، وزباد بن أبيه ، وقد حصر الذهب فيهم فقد قيل : « الذهب أربعة معاوية للروية ، وعمرو بن العاص للبدية ، والمنيرة للمعضلات ، وزباد لكل صغيرة وكبيرة » . وقيل عنهم أيضاً « ما رأيت أثقلاً حليماً ولا أطول أناة من معاوية ، ولا رأيت أغلب للرجال ولا أبذلهم حين يجتمعون من عمرو بن العاص ، ولا أشبه سرّاً بهلانية من زياد ، ولو كان المنيرة في مدينة لها ثمانية أبواب لا يخرج من باب منها إلا بالمرحى لخرج من أبوابها كلها » . والحقيقة أن نجاح معاوية في حكمه يعود لحسن سياسته وحكمه وبذلك فهو دمري دول ، ومسانس أمم ، وراعي ملك . وذكر ابن عبد ربه في عقده أن معاوية قال : « لو أن بيني وبين الناس شجرة ما انقطعت أبداً ، إذا مدوها شددتها وإن شدوها رخيتها » .

سياسة معاوية الخارجية

انصرف معاوية في ابتداء حكمه لتهديئة الحالة الداخلية ، والقضاء على الآثار من أوتغاييب خواطرهم ، وبعد أن ثبت ملكه في الداخل وجه نظره للتوسع في الخارج وكان هناك ثلاث جهات يعمل بها :

أولاً جبهة الشمال :

كانت بلاد الروم قوية في زمن معاوية بحكمها ملكان أحدهما قسطنطين الثاني بن هرقل الثاني الذي ولي الملك من سنة ٦٤٦ إلى سنة ٦٦٨ . والآخر قسطنطين الرابع الذي ولي من سنة ٦٦٨ - ٦٨٥ م . وقد استفاد البيزنطيون من الفوضى الناشئة في بلاد العرب ليوسعوا حدودهم الجنوبية ، فسلعوا قبائل (البردي) التي كانت تسكن في جبال كليشيا وآسيا الصغرى على المناطق الجبلية في بلاد الشام لذلك عقد معاوية مع البيزنطيين ليرفعوا أذى هذه الأقوام عن بلاده مقابل مبلغ من المال يدفعه سنوياً لهم . ولم يلبث معاوية عندما استقر له الأمر في داخل بلاده أن حارب البيزنطيين بحراً وبراً :

منذ أن فتحت بلاد الشام ومعاوية يتوق لتزو الروم في البحر ، وقدمنه الخليفة عمر بن الخطاب من ذلك خوفاً على المسلمين من الفرق في البحر ، فلما ولي عثمان الخلافة استأذنه لتزو في البحر ، ولم

زل يلع عليه حتى اذن له بشرط ان لا يكره احداً من المسلمين على التزول في البحر وان يصحب معه زوجته : وفي آخر خلافة عثمان سنة ٤٣٥ هـ حدثت غزوة الصواري التي انتصر فيها الاسطول العربي على الاسطول البيزنطي وطرحه من شرق البحر الابيض المتوسط. وتدرتب معاوية الغزو في البحر مائة وشائية كما هي الحالة في البر . وانظم عمل حربي حدث في زمن معاوية في هذه الجبهة هو حصار القسطنطينية سنة ٤٤٩ هـ . وقد جيز معاوية اسطولاً مؤلفاً من ١٧٠٠ سفينة كاملة العدد والعدد ، و جيشاً برّاً عظيماً بقيادة سفيان بن عوف وامرته يزيد بن معاوية . وكان في هذا الجيش خيرة رجال العرب : كان عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وابي ايوب الانصاري : وعبد العزيز ابن زرارة الكلابي . فهاصر المسلمون اسوار القسطنطينية من ناحية البر والاسطول من ناحية البحر . ولم تكن السفن من تحتها نظراً لثانة اسوارها ومتمعة موقعها وتلك النار اليونانية (١) ينفق المسلمون . وقد استشهد أثناء هذا الحصار ابو ايوب الانصاري وعبد العزيز بن زرارة الكلابي الذي رثاه ابود عندما بلغه مثله بقوله :

فل يكن الموت اودى به واصبح مع الكلابي زيراً
فكن نقي شارب كأسه فلما صغيراً ولما كبيراً

ولا يزال قبر ابي ايوب بجوار مدينة القسطنطينية زار حتى الآن ، وعليه مسجد كان الخلفاء العثمانيون يتوجون فيه . والتجيب النابض العربي مع ولي العهد يزيد الى الشام بعد ان عقدوا كثيراً من جنودهم ومراكبهم .

وقد قام الاسطول في زمن معاوية بغتوات عظيمة في البحر منها : فتح جزيرة قبرص ، ورودس وبعض الجزر اليونانية .

ناباً جيرة الشرق :

لم يوسع المسلمون في جهة الشرق كثيراً في زمن معاوية ، الا انهم ارجعوا الناكبين من اهل

١ - النار اليونانية : هي نار احتريتها رجل سوري من اهالي بعلبك واسمه (كالينوس) اختدى لموائتها واخبر سرها البيزنطيين عند حصار العرب للقسطنطينية . وقد تمكن العرب فيما بعد من معرفة سر هذه النار وهي تتراكم من مواد محترقة يدكرها بن منكلي في كتابه بأنها تتخذ من شعير كلاب البحر ، والزفت ، والكبريت ، والرائنج . . . وغيرها على مقادير يحددها في كتابه فلتشتعل وتظل يومها وليلتها لا تطفى . ومن خصائص هذه النار انها تشتعل في الماء ولا تطفى الا بالتراب الندي او الرمل . . . (نقلاً من بحث عن الاسطول العربي للعولف)

ثبت البلاد إلى الطاعة ، وغزا المهلب بن أبي صفرة نجر السند ووادي الهندوس المنخفض . وقام
العرب ببعض الفتوحات في جهة الأفغان الشرقية .

ثانياً جبهة المغرب :

بعد أن فتح عمرو بن العاص مصر وجه اهتمامه بتوطيد حدودها الغربية ، فدار بجندة جبهة
المغرب واستولى على برقة وصالح أهلها على الجزية ، وأصبحت مركزاً للمغرب يوجهون حملاتهم منها
إلى المغرب . وكان شمال إفريقيا يسكنه قوم من البربر يخضع القسم الساحلي منه لحكم البيزنطيين .
وكان على الشواطيء المندقمين قرطاجة إلى طنججة حاكم يدعى : (شريفوس) أو (حرجير) يكاد يهزم
العرب . فخاربه المسلمون وانتصروا عليه ، ونهض الروم أن يدفعوا للمغرب جزية في كل سنة . ولما
وفي معاوية الخلافة وجه اهتمامه لأفريقية ، فأرسل سنة (٥٠) لهجرة عقبة بن نافع . فقطع عقبة تلك
الجهات بطاعة الخاص ، وأصبح مقدساً عند أهلها ، ولا يزال حتى الآن يدعى بسيدى عقبة . واحتل
مدينة القيروان بجنوب تونس ، وحملها قلعة أسكره ، ومركزاً يوجه ضرباته منها للروم والبربر
وتوغل داخل البلاد إلى الجنوب ، واستولى على الساكن البربر ومعاقبهم مثل (ودان) و (فزان)
واشتهر في معاملة البربر . فكان يجمع أنوف رؤسائهم أو يقطع آذان مشائخهم ويقول لهم :

« هذا أدباً لك حتى تتذكر أن لا تخارب العرب » . وبسبب هذه الشدة يعود كثرة قلب أولئك
البربر ، فلما دخل عليهم أمير اطلعوا وأظهر بعضهم الإسلام ، فلذا عاد الأمير عنهم نكثوا وارتد
من إسلام . إلا أن هذه الشدة سببت عزل عقبة عن ولاية المغرب وتولية أبي المهاجر دينار بدلاً منه .

البيعة يزيد

أن المغيرة بن شعبه هو أول من أشار على معاوية بولاية العهد لابنه يزيد ، ليثبت مركزه
بالكوفة بعد أن علم أن معاوية نازح على عزمه . فبينما يزيد أرجحيته بولاية العهد بعد أبيه ، لاسيما
وأن أصحاب النبي من كبار قريش قد ماتوا ، فأخبر يزيد أبا براء المغيرة فليستعاض معاوية وسأله عن
الناس فقال : « لقد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان » وفي يزيد منك خلف فاعفد
له فإن حدث بك حادث كان كفيلاً للناس وحظاً منك ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة » قال ومن
لي بذلك ؟ قال : أ كفيك أهل الكوفة وبكفيك زياد أهل البصرة وليس بعد هذين الصبرين أحد
يخالفك . « بقي المغيرة على ولاية الكوفة يدعو ليزيد وجاء اقتراحه موافقاً لما في نفس معاوية ،
وأرسل إلى زياد ابن أبيه عائلته على البصرة يستشيره بالأمر فلما أشار عليه بالقبول لعدم توفر شروط
الخلافة في يزيد ، التباونه وولعه بالسيد . « إلا أن زياد أقدم على يزيد ونصحه فكف عن كثير مما كان

يصنع . وكتب معاوية مروان بن الحكم أمير المدينة يطلبه على جوهر الفكرة وهي أن يبار خليفه المسلمين من بعده وبذلك رأي أهل المدينة بذلك فاستمعوا الفكرة كثيراً ، إلا أن ثورة الغضب اشتعلت في قلوبهم عند ما علموا أنه سيستخلف ابنه يزيد . فقام عبد الرحمن بن أبي بكر وقال : ما أنبار أردتم لامة محمد . ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرطقة ككلمات هرقل قام هرقله وانكر ذلك الحسين بن علي ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير . فكتب مروان إلى معاوية يخبره بذلك .

ثم دعا معاوية ولود البلاد فأتته إلى العاصمة فجمع رعاياه القوم في قصره ودخل عليهم وجلس على عرشه وزيد عن يمينه والفضائل بن قيس القهري عن يساره . فكلهم معاوية فعظم أمر الاسلام وحرمة الخلافة وحفظها وما أمر الله به من طاعة ولاة الامر ، ثم ذكر يزيد وأفضله وعلمه بالعبادة وعمره ودينه . فقام الضحك وكان معاوية قد اتفق معه قبل الحضور إلى المجلس أن يتكلم - فذكر ضرورة وجود وفي عهد معاوية يقوم بجميع كلمة المسلمين ويحقق دعائهم ، وليس أصلح من يزيد لذلك لا ثم تكلم غيره بشئ ذلك وقلم رجل فقال : هذا أمير المؤمنين وإن هلك فهذا - يعني يزيد ومن أي فهذا ، وأشار إلى سيفه فقال له معاوية : الحمد فانت سيد الخطباء ولم يكن أجراً من الاحناف بن قيس في تلك الساعة الرهبة قد أظهر رأيه دون وجل وفل ، تخافكم أن صدقنا ونخلف الله أن كذبنا وانت يا أمير المؤمنين أعلم يزيد في ليله ونهاره وسره وعلايته ومهمله ومخرجه فن كنت تعلم الله ولا لامة رشا فلا تشاور فيه وإن كنت تعلم فيه غير ذلك فلا تزوده الحديث وانت صائر إلى الآخرة . والنساء علينا أن نقول سمعنا وأطعنا . فقام معاوية إلا وقد تمت البيعة ليزيد من أهل الشام والعراق . فكان عليه أحد البيعة لامة من أهل الحجاز فظهر الحج وسار بالف فارس إلى المدينة ثم ذهب إلى مكة وقضى مناسك الحج فيها . واجتمع بالمدارحين من أبناء الصحابة فوعدهم وأوعدهم . وذهب إلى المسجد فعرض البيعة لابنه يزيد فليأمره خوفاً على أنفسهم . وهكذا نجح معاوية بأخذ البيعة لابنه بالقوة . وأصبحت الخلافة فيما بعد ثابتة الأموي بنينا إلا بن عن أبيه .

اصلاحات معاوية

قام معاوية بالاصلاحات الآتية :

أولاً نظم ولاية العهد : فقد كانت طريقة الطلب الخليفة في زمن الخلفاء الراشدين شورى بين المسلمين ، فقام معاوية بتكليف لوتيا يوصي به الخليفة السابق لمن شاء من بعده ، على أن يبايعه المسلمون ويوافقوا على تعيينه . وإن كانت هذه الموافقة صورية فقط - ولا يمكن أن تعتبر طريقة

الذين لولاية الهند اولى من طريقة الشورى من الناحية النظرية ، الا أنه اصبح من المنذر على المسلمين من الناحية العملية ان يتفقوا على خيانة يولونه امر دينهم ودينهم نظراً لتعدد اجزائهم واختلاف شعبيهم وكثرة المرشحين لهذا المنصب والراغبين في الوصول اليه ، وتوسع بلاد المملكة الاسلامية واتساحها بالفعل ان الشقاق قد استفحل حركت خطاب الخليفة منذ ايام علي ومعاوية فكان لابد للمسلمين من تغيير طريقة الشورى واستبدالها بطريقة الملك الارثي بهليل استعراؤها في زمن الخلافة الاموية والعباسية وما بعدها .

ثانياً : اسس الاسطول العربي بوارسله لغزو وفي البحر لحاية سواحل المملكة الاسلامية وتوسيعها . وقد بلغ عدد المراكب التي غزا بها المسلمون جزيرة قبرص في زمن معاوية خمسمائة مراكب . واستمر ما وصل اليه عدد سفن الامويين ايام معاوية ١٧٠٠ سفينة . وهو عدد عظيم يدل على قوة العرب البحرية في ذلك الزمن .

ثالثاً : احدث نظام البريد . وقد اقتضت معاوية عن الروم والفرس . وهو عبارة عن جعل خيل مضمرات في عدة اماكن فلما وصل صاحب الخبر السريع الى مكان منها وقد تعب فرسه ، ركب غيره فرساً مستريحاً ، وكذلك يفعل في المكان الآخر حتى تصل اوامر الخليفة ورسائله بسرعة الى الامراء والعمال . وكانت تنص اذن خيل البريد واعمالها تتميز من غيرها من الدواب .

رابعاً : اتخذ الخرس والحجرات على ابيه . وقد اشار عليه زياد ابن ابيه بهذا الامر لكثرة اعماله واراد حطم الناس على ابيه لمراجعاتهم الخاصة والعامة ، ولتجمع بين الناس من الاتصال بالخليفة .

خامساً : اتخذ المقصورة بالجائع اوسلي بامتنع لا من بقية المسلمين وذلك بعد محاولة الخوارج لاغتياله في المؤامرة التي دبوها له ولعلي ولعمرو بن العاص .

سادساً : اتخذ ديوان الخاتم . لينظم دابر التزوير الذي كان يطرأ على بعض رسائله . فقد كتب مرة لعمرو بن الزبير بمائة الف درهم يأخذها من زياد ابن ابيه ففتح عمرو الكتاب وزود المائة مائتين . فلما دفع زياد حسابها انكرها معاوية واجدت على اثر ذلك ديوان الخاتم وحزم الكتب وكانت قبل لا تحزم . وكانت سرجون الرومي لا يكتب لمعاوية الا بالرومية لان الديوان لم يكن عربياً بعد .

هذه هي اهم اصلاحات معاوية وهي تال على حكمة ومعرفة وتدبير .

بيت معاوية

تزوج معاوية عدة نساء منهن ميسون بنت بحدل وهي ام زيد وكانت تؤثر سيلا البادية على حياة القصور وقد فالت في ذلك :

ثبت تحف الأرواح فيه أحب الي من قصر منيف
 وأبى عبادة وتقر عيني أحب الي من أبى الشفوف
 وأكل كسيرة في كسر يتي أحب الي من أكل الرغيف
 وأصوات الرياح بكل فج أحب الي من نقر الدفوف

ومع كثرة مشاغل معاوية وأعماله ما كان يهمل أمر بيته بل خصص له قسماً من وقته ينضيه فيه مع أهله وعائلته .

وفاته معاوية

مرض معاوية بدمشق وكان ابنه غالباً عنها فاحضر الضحاك بن قيس ومسلم بن عقبة المري وادى اليها وصيته المشهورة يزيد والتي قال فيها : يا بني اني قد كنتك الشدة والرجال ووصلت لك الامور وفدت لك الاعضاء وانخفضت لك رقاب العرب ... فانظر اهل الحجاز فانهم اهلك واكرم من قدم عليك منهم وتماهد من غاب . وانظر اهل العراق فان سألوك ان تنزل عنهم كل يوم عملاً فافعل فان عزى عامل اسهل من ان يشر عليك مائة ألف سيف ، وانظر اهل الشام فليكونوا بطانتك وغيثك فان رباك من عدوك نبي فانهض بهم ... واني لست أخاف ان يازعك في هذا الامر الا اربعة من قرين الحسين علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن ابي بكر ... وقد حذره من ابن الزبير والوساء بالآخرين خيراً . ومات معاوية بشهر رجب سنة ٦٨ هـ فمدل الضحاك بن قيس انبى يزيد خزن لمسا بلغه ذلك وانشد :

اودى ابن هند واودى الحمد تيمد كانا جديماً فلما قتلين معا
 اغمر الملح يتي الغلام به لو قرح الناس من احداهم قرنا
 وقبر معاوية لا يزال في دمشق بترية باب الصغير .

٢ - يزيد بن معاوية

٦٠ - ٦٣ هـ ، ٦٨٠ - ٦٨٣ م

ولد يزيد بن معاوية سنة ٦٣ هـ وابوه امير الشام الحارث بن عوف ، قترى في حجر الأندلس ، وقبل وفاة ابيه عبد الله بالخلافة من بعده ، فلما توفي معاوية جدد اهل الشام الربعة يزيد . وارسى يزيد الى الامصار بملهم بوفاة ابيه ، وبطلت منهم تجديد يمته . وكتب الى الوليد بن عتبة عامله في المدينة يقول له : اما بعد ، فخذ حسبي وعبد الله بن عمر وابن الزبير اخذك اس في رخصة حتى

يباعوا والسلام ، فلما علم ابن الزبير بنى معاوية ترك المدينة وذهب الى مكة وقال : اني عائد بالبيت
الحرام ولم يباع يزيداً ونار عليه فيها بعد ، اما ابن عمر فقال عند ما سئل عن المبايع ليزيد : « انا بايع
الناس بايعت » وهكذا فعل ، اما الحسين بن علي فبعد ما عرض الوليد عليه البيعة قال : « ان متني
لا يباع سراً فلما خرجت الى الناس ودعوتهم الى البيعة ودعوتنا معهم كانت الامر واحداً ، »
ثم نكر على يزيد .

الحمام يزيد الداخلية

فبيعة كبرياء

غادر الحسين المدينة الى مكة لحاجات الوفود لزيارته : وتوافدت الرسائل تأتي اليه من اهل
الكوفة يدعونه للعجبي اليهم لمبايعته والخروج على يزيد ، فيكتبون مثلاً : « اما بعد فالت الناس
يتظرونك ولا رأي لهم في غيرك ، فاجعلنا فاعجل ! والسلام عليك . » كما ان ابن الزبير اشار
عليه بالرجوع الى الكوفة وقال له : « اما لو كان لي بها مثل شيعتك ما عدلت بها ... » وكان يزيد
اخلاص منه لان اهل مكة لا يبايعونه ما دام الحسين فيهم ، فـ رسل الى الكوفة ابن عمه مسلم بن
عقيل ليختبر حالهم ويأمر اوضاعهم ، وكان والياً من قبل الامويين النهدي بن بشير الانصاري
وكان ضعيف الارادة ، ابن المعالي حاكماً نسكاً ، ولما بلغه عجي مسلم الى الكوفة والشأن اهلها
حواله ، ومبايعتهم للحسين قال : « اني لا اقاتل الا من يقاتلي ولا اتب على من لا يلب علي ، ولا ابيه
نأسك ، ولا احرص بكم ... » فكتبت شعبة الحسين وبايعه ١٢ ألفاً وقيل ٨ آلاف فكتب مسلم
الحسين بحره بذلك ودعوه الكوفة . الا ان احد السوان الامويين كتب ليزيد يخبره بقدهوم مسلم
ومبايعه الناس له ، وضمف عامله النهدي ، فعزله يزيد ووفى مكانه عبيد الله بن زياد أمير البصرة وجمع
له المصريين وامره بطلب مسلم بن عقيل وقتله او قتله ، فلما ان زياد الى الكوفة وخطب في اهلها
ومسأله ... « انا متبع بكم امره - اي امر يزيد - ومنفذ فيكم عهده ، فانا لخصمكم كما قال الله البر
والظلم كما كالات الشقيق ، وسيفي وسوملي على من تولد امري وخالف عهدي ، فليكن امرؤ على
نفسه . » واخذ يلاحق مسلماً وشيعته ، ففرق اكثرهم عنه فاستجار مسلم بمباني بن عمرو المرادي
فلجأه فلم يجد فيه اماناً فكان مسلم ، واستقدم هائلاً وطلب اليه ان يسلم مسلماً فاستمع وقال : « انا ارفع
جلري وضيفي وانا حي صحيح اصبح واروي شديد الساعد كثير الاعوان ، والله لو لم اكن الا واحداً
ليس لي ناصر لم ادفعه حتى اموت دونه . » فلما ان زياد يحبسه ونعم بذلك مسلم بن عقيل فخرج
ابوانه ومائة آلاف ، وهاجم قصر ابن زياد ولم يكن معه الا نفر قليل فلما رسل زياد رجالاً

يوزعون الاموال على الناس ليخجلوا مسلماً ، وبث بعض المتنفذين من اهل الكوفة بفرقون جموع مسلم ويخوفونهم شر العاقبة ويمدونهم بالامان . وهكذا لم يبق مع ابن عتيل الا ثلاثون رجلاً . فثار في امره واخفق . فعرف ابن زياد مكانه وقلة وهاتئذ معه .

اما الحسين فلما عزم على السير الى الكوفة تسجحه كثيرون ومنهم ابن عباس بان يعدل عن رأيه ويبقى في الحجاز ، او يسير الى اليمن لانها بلاد جارية حصينة ، وفيها شعبة ابيه ، ونصحه ابن عباس ايضاً ان لا يصحب معه اهله ونساءه واولاده فيها اذا صمم على السير فاق ذلك . وفي الطريق قابل الفرزدق فسأله عن خبر اهل الكوفة فقال : « قلوب الناس معك وسيفهم مع بني أمية ، والقضاء ينزل من السماء والله يفعل ما يشاء » وقبلة ايضاً عبد الله بن مطيع ولما علم بوجهته نصحه بالعودة الى مكة لان بني أمية سيقتلونهم فيها اذا حال بينهم وبين ملكهم ، وثمن قتلهم لا تبقى عندهم حرمة لاحد ... وفي الطريق بلغه مقتل مسلم بن عقيل فسأله احد اصحابه بالرجوع الا ان بني عقيل ابوا ذلك عليه والخوا بالمسير لاخذ قورم . ولما بلغ حدود العراق قابله فرسان ابن زياد وعلى راسهم الحر بن زيد التميمي الذي ارسل في طلب الحسين ليأتي به الى ابن زياد . فعند ما عرف الحسين ذلك أمر اصحابه بالرجوع الى المدينة الا ان الحر منعه واخذ يراقبه حتى لا يعود الى المدينة . ومار الحسني حتى وصل سيل كبر فلاقرب نهر الفرات ، وحين ذلك قدم عليهم جيش سيرة ابن زياد لقتال الحسين يتقدمه عمر بن سعيد بن ابي وقاص وجرت مراسلات بينها فطلب الحسين العودة الى الحجاز فكتب عمر الى ابن زياد بذلك فقال :

الآن إذ عرضت مخالفتي به يرجو النجاة ولاه حين مناص

وامره ان يعرض على الحسينبيعة يزيد وان يمنعه هو ومن معه من الماء . فلم يقبل الحسين بالمباينة فكان لا بد من القتال . وفي العاشر من شهر محرم سنة ٦١ هـ نشبت الحرب بين الطرفين : بين جيش العراق الكبير وبين فئة قليلة لا تزيد عن المائتين فكانت النتيجة محترمة بان قتل الحسين واهله الا ثغراً قليلاً ومنهم علي بن الحسين الذي ثقب فيها بعد بزين العابدين فحصلوا جميعهم مع رأس الحسين الى ابن زياد الذي بعثهم الى دمشق . وعند ما علم يزيد بخبرهم دمعت عيناه واسف لسا حدث واكرم متوهم وجيزهم بعد ذلك الى المدينة . ولما تلفت وجهة المؤرخين في هذه الحادثة فلورخو الشيعة يرون في مصرع الحسين تغير وجهة الطائفة ، اذ ان الشمس قد كسفت لمقتله ، والنجوم هوت لمصرعه والقيوم احمرت لاراقه دمه ، ويخون باللائمة على بني أمية لا سيما يزيد الذي لم يمنع ظلمه عن القيام بمثل ما فعل . ومؤرخو السنة يرون ان الحسين طلب امرأ لم يعد له عدته خليل بينه وبين ما يشتهي وقتل دونه ، وبأسفون لما جرى ، واما المنتسبون فيرون في هذه الحادثة اقسام المسلمين وتفرق كلمتهم .

وقعة الحرة

خرج أهل المدينة سنة ٢٢٤ هـ على يزيد وخلعوه ، وسبب فوزهم هذه تعود إلى أن يزيد أراد أن يسترضيهم ويستسلم إليهم فكتب إلى عامله هناك أن يرسل وفدًا من أشرفهم بجاء وفد على رأسه عبد الله بن حنظلة الأنصاري . فلما قدموا على يزيد أكرم مشواهم واحسن إليهم ، وانظمهم المال الكثير لاصحاب عبد الله بن حنظلة وابنائهم الثانية : فلما عاد هذا الوفد إلى المدينة أخذوا يستمعون يزيد وأوصيائهم عليه خلاعته ومجنونه ، واعلنوا خلعهم من الخلافة . فتابعهم أكثر أهل المدينة على ذلك وولوا أمرهم إلى عبد الله بن حنظلة . فلما علم يزيد بذلك أرسل إليهم التبعات بن بشير الأنصاري ليضمهم ويردعهم عن فعلتهم ، وإن يعودوا للطاعة يزيد ، فلم يجد نصيحته نفعًا فبهم ، بل على العكس حاصروا من في المدينة من بني أمية في دار مروان ، فكتب هؤلاء ليزيد يستغيثون به فقال :

لقد بدلوا العلم الذي في سميتي فبدلت قومي خلفة بليان

وأرسل إليهم جيشًا بقيادة مسلم بن عقبة المري وهو أحد جبابرة العرب وشيخائهم ، وزوده بالنصيحة الثانية : « أمر القوم ثلاثًا فإن أجابوك فيها والا فقاتلهم فإن ظفرت عليهم فبجها ثلاثًا فكل ما فيها من مال أو دابة أو سلاح أو طعام فهو للجند فإذا مضت الثلاث فكف عن الناس وانظر عليًا بن الحسين فكشف عنه واستوص به خيرًا فإنه لم يدخل مع الناس وأنه أمان في كتابه » ففعل مسلم ما أمره به يزيد إلا أنه أسرف في عمله فقتل زعماء المدينة وترك الجند يقتلوا الناس ويأخذون الخراج والأموال ، ثم دعاهم ليبيعة يزيد على أنهم خول له يحكم في ديارهم وأموالهم وأهلهم ، فمن امتنع عن ذلك قتله . ولا شك أن يزيدًا وقائده قد أسرفوا في عمارها هذا ، فكان عليها أن يحترق عاصمة الإسلام الأولى كرامة لسيد العرب محمد (ص) .

حصار مكة

سار مسلم بن عقبة بعد فتح المدينة متجهًا نحو مكة فالتقى ابن الزبير الذي أعلن خلافته وعصيانه ليزيد ، فما ابتعد عن المدينة إلا وادركته منبته . فاستخلف على الجند الحصين بن خبير حسب ودية يزيد . فسار بالجيش إلى مكة فوصلها في محرم سنة ٢٢٥ هـ وخرج إليه عبد الله بن الزبير في اتباعه فدارت الدائرة على جند ابن الزبير فرجع إلى مكة وحاصرها فلاحقه جند الحصين ، وأقاموا حولها ورموها بالنجس حتى أن بلغهم نهي الخليفة يزيد فوقف القتال وطلب الحصين بن خبير من ابن الزبير السير معه إلى الشام وقال له : « فإن هذا الجند الذي سي هم وجوه الشام وفرسانه فوالله لا يختلف عليك اثنتان . . . » إلا أن ابن الزبير أبى ذلك . ولو خرج معه لثمت له الخلافة لأن أهل الحجاز والعراق وخراسان كانوا قد بايعوه بالخلافة .

الحمل بزيد الخارجية

اعاد زيد عقبه بن افع الى افرقية بعد ان نجاه عنها مسلمة بن عقيل الانصاري وعين مولاه ابا المهاجر دينار بدلاً عنه ، فلما وصل عتبة الى القيروان قبض على ابي المهاجر دينار ولوثقه بالحديد ، وسار به بعد ذلك بجنده بكل فتح افرقية غارب البيزنطيين المتحصنين بالمدن الساحلية وحارب البربر في ناهرت وطنجة والسوس الأدنى والاقصى حتى بلغ المحيط الاطلسي فقال : « يارب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد بجاءداً في سبيلك . » الا ان فتحه لم يكن موثقاً ولم يحجم مؤخرته لذلك انقص عايه الروم والبربر في عودته وقطعوا عليه طريق الرجعة وقلوه وابا المهاجر دينار وعن معه من المسلمين . وكان قيس بن زهير الهجري في القيروان فلما علم بالكتابة سحب الجند وسار بهم الى برقة لانه لا قبل له باعدائه ، وضاعت شمالي افرقيا من يد الامويين .

صفات بزياد

تربى بزياد بالبادية مع امه ميسون الكلبية ، ولذلك اكتسب طبع البادية من خشونة وفروسية وكبرم وحسب للصيد والقتال والشعر حتى قيل : « يدي الشعر نكاح وحكم نكاح » يمتون امرأ قيس وبزياد . والاحكام مختلفة فيه نظراً لبعوادة الخيل التي جرت في زمنه : « من يقتل ابن بنت رسول الله ، وانتهاك حرمة مدينة رسول الله ، وتهديم بيت الله بالمذبحيق . الا ان بعض المؤرخين يبررون اعماله ويرونها ضرورة اقتضتها الظروف ولا يحملونه التبعات كلها ، بل يضعون شيئاً منها على الذين ثاروا في زمنه ولم يحبوا حساباً لبطشه .

اهتم بزياد بالزراعة وفضل الري لسقي غوصة دمشق ، وحفر نهر بزياد الذي لا يزال يسقي ارض الصالحية . حتى ان بعض الروايات تدعو : « الملك المهندس » وفيه شك . سكتة بنت الحسين : « ما رايت كافراً بالله خيراً من بزياد » .

تزوج بزياد ام هانم بنت عتبة بن ربيعة وكان له منها معاوية وخالد ، وتزوج غيرها من النساء وله منهن اولاد ، الا ان اولاده لم يتكثروا من البقاء الخلافة فيهم ، وانتقلت بعد وفاة معاوية الثاني الى فرع اموي آخر وهو الفرع الحسكي .

توفي بزياد في حوران سنة ٤٤ هـ وكان عمره ٤٥ سنة وحكم ما ينوف عن ثلاث سنوات وخمسة أشهر وانتقلت الخلافة لابنه معاوية من بعده .

٣ - معاوية الثاني

٦٣ هـ أو ٦٨٣ م

خلف يزيد ابنه معاوية وكان شاباً ضعیفاً يلثب بآبي أبي ، وكان عمره إحدى وعشرين سنة لما اختاروه لاهل الشام للخلافة ، ولم يلبث بعد شهرين ان اعتزل الخلافة دون أن يولي خلفاً له فأنزل في خطاب اعتزاله : أما بعد فاني قد ضعفت عن امركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر ثم بعده ، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم ، فاقم أولي بامركم ، فاختاروا له من أحببتم ، وطلب إليه ان يولي اخاه خالداً فقال : والله ما دقت خلاوة خلافتكم فلا اتقدموزرها ، ودخل بيته وتغيب عن الناس حتى مات بعد بضعة أيام . وبقوة التي حكم السنيانين من البيت الأموي .

٤ - مروان بن الحكم

٦٤ - ٦٥ هـ أو ٦٨٢ - ٦٨٥ م

ولد مروان في السنة الثانية من الهجرة ، أبوه الحكم من اشراف الأمويين ، وامه آمنة بنت علفمة من قبيلة كنانة ، وفي خلافة عتيان بن عفان كان مروان ساعده وكتبه ومدبر امره ، حتى ان الناس تروا على الخليفة لاستبداد مروان بالأعمال ، ولما توفي عتيان بايع مروان علياً ، واقام بالمدينة حتى افضت الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان فولاه المدينة مرتين ، وبعد وفاته قربه يزيد إليه واكرمه وبقي في الشام الى ان توفي معاوية الثاني دون ان يكون هناك مرشح للخلافة من الأمويين ، ففكر مروان في مبايعة ابن الزبير ، الا ان عبيد الله بن زياد ، والي العراق الذي حاول ان يأخذ البيعة لنفسه من اهل البصرة والكوفة وفشل وكادوا ان يقتلوه ، هرب الى الشام واثار على مروان ان يطلب الخلافة لنفسه ، لانه شيخ بني امية ، فقام بعمل لها . وكانت الشام منقسمة الى احزاب : ففي دمشق حزب الضحاح بن قيس ، وفي حمص جماعة النعمان بن بشير ، وفي قنسرين اصحاب زفر بن الحارث السكلاي ، وكانوا جميعهم يدعون لابن الزبير . اما في فلسطين : فكان حسان بن مالك السكلاي خال خالد بن يزيد يدعون الأمويين ، ويطمع في تولية خالد ابن اخته ميسون ، الا انه كان صغير السن ، ولم يقبل به اهل الاردن . فجاء مروان واجتمع بزعماء السكليين في الجابية - من ارض الجولان بين حوران والاردن - واقام الكليين بمبايعة ، فبايعه حسان وقومه على ان تكون الخلافة لخالد بن يزيد من بعده ، ثم لعمر بن سعيد بن العاص من بعد خالد . وهكذا تمت البيعة لمروان في شهر ذي القعدة سنة ٦٤ هـ . وانضم اليه الأمويون ، وعمل مروان على اخضاع الثورات في الامصار .

سياسة مروان الداخلية

معركة مرج راعط

أولاً الشام : كان لابن ياسة التي تبعها يزيد ومن بعده ابنه معاوية الثاني من تقريب الباقين وابعاد القيسيين تأثير عظيم في ادكاء نار العصبية والبغضاء بين الطرفين . فبما اضاربت حالة بلاد الشام وخلا البيت الاموي من وريث للخلافة ، قام القيسيون بزراعة الضحالك بن قيس الفزري بعبادة ابن الزبير . فلما تمت البيعة لمروان سار اليهم بقبائل غسان وكتب والسكاسك وغيرها بالثاني بالضحالك وسعة جماعة من بني بكر وسليم وهوزان وذيخان في مرج راعط - باطراف دمشق - في شهر محرم سنة ٦٥ هـ وجرت موقعة هائلة بين الفريقين استمرت عشرين يوماً كانت الغلبة فيها لمروان وقتل الضحالك وعدد كبير من جماعته ، ونزق الباقون في البلاد ، وكان لهذه الموقعة أثر كبير في ادكاء نار العصبية من جديد بين قيس وعين . وكان من جراءها خراب الدولة الاموية . كما جرت تلك المعركة الى إثارة قريحة شعراء الطرفين . ومما قاله زهير احد زعماء القيسيين وهو راكن الى الفرار من وجه مروان :

ارى الحرب لا تؤداه الا قتاديا	اريني سلاحي لا قبالتي اني
مفيد دمي او قاطع من لسانيا	اتاني عن مروان بالغيب انه
اذا نحن راعنا لمن المائيا	ففي العيش منجاة وفي الارض مهرب
ولا نرحوا ان حشك بلقائيا	فلا تحبوني ان غلبت غدا
ونبقى حزازات النفوس كاهي	فقد يبت المرء على دمن التري
وتأثر من نوان كلب لسانيا	فلا صلح حتى تحفظ الخيل بالان

ولما تمت البيعة لمروان بالشام وجه اخيه مصر .

ثانياً مصر :

كان عبد الرحمن بن حجاجم عاملاً على مصر من قبل ابن الزبير ، فجهز مروان جيشاً بقيادة ابنه عبد العزيز وارسله الى العقبة . وسار مروان بجيش آخر الى مصر ، فلما سمع ابن حجاجم بجهزها ، نشط لطارئتها وارسل الجيوش . والمراكب وجفر حندقاً لصدّها عن الدخول لبلادها ، الا ان مروان وابنه تغلبا عليه ودخلا مصر في جمادي الاول سنة ٦٥ هـ . وفي مروان الدار البيضاء في القسطنطينية ليكون مركزاً لحكمه ، وبأبيه الناس الا تقرأ قديلاً تسكوا ببيعة ابن الزبير ، فغضب باعنائهم واخذ ثورة معارضة حتى استتب له الامن وهدأت حالة البلاد ، فبين ابنه عبد العزيز والياً على مصر وعاد الى دمشق .

ثالثاً العراق :

انضم أهل العراق لابن الزبير ، وبايعوه بالخلافة ، واشتد شعور بعض الشيعة وندموا على خذلانهم الحسين في كربلاء ورأوا أنهم لا يخرجون من هذا الذنب الا اذا ثاروا للمطالبة بشأره ، وقتلوا قتله . فاجتمعوا ذات ليلة على قبر الحسين ، واقاموا الصلاة وذكروا أنهم قد تاهوا الى الله وانابوا اليه واطلقوا على أنفسهم اسم التوابين ، وعينوا رئيساً عليهم : سليمان بن صرد الخزاعي . كبير الشيعة بالكوفة . فجمعوا السلاح والعقاد ودعوا الناس للاخذ بشأ الحسين ونظموا القصائد في رثائه والتعريض على قتال اعدائه ، فانضم اليهم عدد كبير من الشيعة ذهبوا بقيادة زعيمهم ابن صرد لمحاربة جيش الشام الذي ارسله مروان بقيادة عبيد الله ابن زياد . فتلاقى الجيشان في عين الوردية في ربيع الثاني سنة ٦٥ هـ وجررت معركة عظيمة انتهت بقتل سليمان بن صرد وتفرق اصحابه . الا ان جيش الامويين لم يتمكن من فتح العراق ، لانه انشغل بملاحقة القيسيين جماعة زفر بن الحارث الثامري على بني امية . ولم يتم اخضاع العراق لسلطة الامويين الا في زمن عبد الملك بن مروان .

رابعاً الحجاز :

كان الحجاز قد بايع ابن الزبير منذ خلافة يزيد . وقد بايعته ايضاً بقية الاقطار العربية ما عدا البيت الاموي في الشام . حتى ان كثيراً من المؤرخين من يعتبرون مروان ثاراً على حكم ابن الزبير ولا يعدونه خليفة من خلفاء الامويين . الا ان تمسك ابن الزبير بالحجاز ، وعدم خروجه متاخضاع الخلافة من يده وترك البيت الاموي الوقت لينالوا صفوقهم ، يستقوا فيما بينهم ، ويستعيدوا تقوؤهم السابق . وقد ارسل ابن الزبير اخاه مصعب مع جيش الى فلسطين لاقضاء على مروان ، الا ان عمله قد جاء متأخراً وفتت الوقت . فقام عمرو بن سعيد بن العاص - المرشح للخلافة بعد خاله - وسد مصعب وارجمه على اصفاه . كما ان مروان ايضاً حاول محاربة ابن الزبير الا ان المنية قد داهمته فترك هذا العمل لابنه عبد الملك .

وفاة مروان

حاول مروان بعد ان وطد حكمه ، في الشام ومصر ، ان يتقل الخلافة لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز وامر الناس باخذ البيعة لها فبايعوها ، الا انه بعمله هذا قد نقض عهده الذي قطع في الجاية لخالفين يزيد وعمر بن سعيد . فانصرف الاول لهم والعلماء يدرس الكيمياء ويترجم الكتب اليونانية . والى الثاني ثار في زمن عبد الملك .

توفي مروان بمدينة في ٢٧ رمضان سنة ٦٥ هـ واختلف المؤرخون في سبب وفاته فمنهم من يقول

انه مات بالطاعون ، ومنهم من ينسب موته لزوجته ام خالد التي غضبت لابنها لتنجيته عن الخلافة وتأثرت له بأن خفت مروان وهو تاسم بالخذة . وانتقلت الخلافة لابنه عبد الملك من بعده .

٥ - عبد الملك بن مروان

٦٥ - ٨٦ هـ او ٦٨٥ - ٧٠٥ م

يرجع نسب عبد الملك من ناحية ابيه وامه الى ابي العاص من بطون امية . فابوه مروان وقد صرفناه وامه عائشة بنت معاوية بن الوليد بن المغيرة بن ابي العاص . وكان يضرب بها المثل بالخصال الحميدة والصفات الكريمة وفيها يقول ابن قيس الرقيات ^١ ممتدحا عبد الملك :

أنت ابن عائشة التي فضلت أروم نساءها
لم تلتفت لدهانها ومضت على غلوائها

ولد عبد الملك سنة ٢٦ هـ وتربى تربية علمية ادمية حفظ القرآن الكريم واخذ الفقه عن اصحاب رسول الله (ص) واصبح من كبار فقهاء المدينة . تولى الخلافة بعد ابيه . وكانت حالة البلاد الاسلامية على غاية الفوضى والاضطراب : ففي الحجاز عبد الله بن الزبير وقد بايعه اهله ، وفي العراق ثورة الخوارج والشيعة ، وفي الشام عمرو بن سعيد يطالب بالخلافة ، والبلاد الاسلامية مهددة من الشمال بخطر البيزنطيين ، ومن الغرب بثورة البربر فتلقى عبد الملك هذه الحوادث كلها بقلب ثابت وعزيمة صادقة حتى دان الناس واجتمعت الكلمة عليه . ويعتبر عبد الملك بحق المؤسس الثاني للدولة الاموية بعد معاوية . وفيما يلي نذكر كيف حل عبد الملك جميع هذه المصاعب .

سياسة عبد الملك الداخلية

اولاً في العراق : ثورة المختار بن عبيد الثقفي .

ذكرنا قبلاً ثورة التوابين في العراق التي اخضعها عبد الله بن زياد . وعلى اثرها ظهر في الكوفة في ربيع الاول سنة ٦٦ هـ المختار بن عبيد الثقفي - وعيد هذا شهيد معركة الجسر الذي استشهد في قتاله مع الفرس في زمن الخليفة عمر بن الخطاب - وكان المختار ذا اطماع كبيرة تغلب كثيراً في

(١) هو عبيد الله بن قيس الرقيات . والرقيات جمع رقية ، ولقب بذلك لانه شجب بثلاث نسوة كان اسم كل منهن رقية . وهو شاعر قرشي يؤثر العصبيّة القرشية ويختص منها بحزب ابن الزبير مدح مصعب وعبيد الله ابنا الزبير ودافع عنها الا انه مال اخيراً الى بني امية لما اتصروا على ابن الزبير .

حياته ، انفصل بين الزبير أملاً أن ينال حظوة عند ، فلم يبق به ابن الزبير ، فتركه المختار وعاد الى الكوفة ، وانضم الى الشيعة واستغل ثورة الثوالة لئيل اغراضه ومرايه . وجمع ثلوثهم بعد انكسارهم في معركةين ورد هوانع جميع الخيل في سبيل جمع الناس تحت امرته : انار ثورة الفرس ضد العرب ليستميل الفرس اليه كما انه اتخذ كرسيًا ووضع عليه تابوتًا كما يحفل اليهود بآبوت المهد في حريم مع عدوهم وادعى انه يهيم بامامة محمد بن الحنفية ، واتبه بالامام الماي الا ان ابن الحنفية لم يريده ولم يبق به ولا باهل الكوفة الذين خذلوا ابه واستوبه من قبل . واخذ المختار بلاحق قننة الحسين واتباع الامويين وكان من قتله عمرو بن سعيد بن العاص فهد جيش الامويين في معركة كربلاء . وادعى انه مأثور من قبل محمد بن الحنفية وبمثل له فخذع بذلك ابراهيم بن الاشتر وكان صاحب نفوذ وقوة في الكوفة - وولاه قيادة جيش سمرق خوارية ابن زياد ، وكان قد ارسله عبد الملك لفتح العراق . فالتقى الجيشان على نهر الخازر فكانت موقعة عسالة النصر فيها الاشتر وقتل عبيد الله بن زياد وحمل رأسه الى المختار وغرق كثير من جنده اشلم بالنهر . ولذلك اصبح المختار سيداً في العراق . وكان المختار قد طرد عامل ابن الزبير من الكوفة . فأرسل اليه ابن الزبير جيشاً بقيادة اخيه مصعب ، وولاه العراق . فوصل مصعب الى البصرة وخطب في أهلها . وقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه (ظم) تلك آيات الكتاب الذين نكوا عليكم من نبي موسى وفرعون بالحق تقوم يومنون ، ان فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح

(١) لولد المختار ان تكون دعوته مستندة على حق ثابت عند جمهور المسلمين . فاعتمد في دعوته على محمد بن الحنفية وهو احد ابناء الامام علي من زوجة له من بني حنيفة . ولذلك انقلب اليهم فدي . ابن الحنفية - ومن ابناءه قنات الفرقة الكيسانية ، وهي فرقة شيعية من غلاة الشيعة يعتقدون ان محمد بن الحنفية هو الامام ، وأنه قد أحاط بالعلوم كلها ، وان اخوته الحسن والحسين قد عهدا اليه بالاسرار وبعلم التأويل والباطن . وقد اتهم الحنفية الكيسانية بوجوب انفراد الامام بتأويل التعريفة الى القول بضرورة طاعته ، لأن طاعته هي خضوع لله تعالى بطل الفسك بقواعد الاسلام من صلاة وصوم وحج ... ويعتقدون بتناسخ الارواح - أي خروج الروح من الجسد وحلولها بجسد آخر . وبالرجعة - أي رجوع محمد بن الحنفية بعد موته - وأنه مقيم في جبل رضوى قرب المدينة - وأن عودته ستكون من هذا المكان . (عن الشيرستاني المال وانجل ص ١٩٦ وما بعدها) .

(٢) هو نهر بين الزاب الاعلى والموصل يسب في نهر دجلة .

ابناءهم ويستحي نساءهم انه كانت من المفسدين) وأشار نحو الشام - (وزيد ان نحن على الذين اسلمتموها في الارض ويجعلهم ائمة ويجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض) - وأشار نحو الحجاز (وتري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) وأشار نحو الكوفة - وقال «يا اهل البصرة بلغني انكم تلقبون امرائكم وقد لقبتم نفسي بالجزارة وبعد ان خضعت له البصرة سار منها الى الكوفة . وكان قد دعا بعض انصارها ليتخلصوا من المختار وصحبه . وجرت بين جيشه وجيش ارسله المختار معركة عند المذار اقتصر فيها مصعب ، وسار يتنقل المهزئين الى الكوفة . فقاتله في داخلها انصار المختار فاقصر عليهم وفرقهم وكان المختار محاصراً في القصر مع بعض اموانه . ولما رأي هزيمة اصحابه خرج ومن معه في القصر وقتل حتى قتل وبذلك تخلص منه الزبيريون والامويون على السواء . وخضع العراق لحكم ابن الزبير .

لم يكن مصعب يفرغ من قتال المختار حتى خرج اليه عبد الملك الذي اضطر ان يتوقف قليلاً ليهادن امبراطور الروم الذي حاجه حدود مملكته عند ثمر المصبة . فقبل عبد الملك ان يدفع له الف دينار في كل اسبوع ليتفرغ لقتال مصعب بن الزبير . كذلك تفر عمرو بن سعيد بن العاص الذي انتهز فرصة انشغال عبد الملك فدعا الناس لبيته - وكان يري نفسه احق بالخلافة من عبد الملك لان مروان قد وعده بها في مؤتمر الجابية . فاستعمل عبد الملك لاذينة والاذينة في اخضاعه فاستدرجه اليه ووعدته بالخلافة من بعده وامنه ، فصدقته عمرو وجداً مسلماً ، الا ان عبد الملك قتله بعد بضعة ايام ورمى برأسه الى اصحابه ففرقوا ، وبذلك اتحد عبد الملك اللقائم من حديد الى بلاد الشام وسار بهم العراق لقتال مصعب الذي كان معسكراً عند مسكن ، فبعث الاموال الى جماعة مصعب ليستبيلهم اليه ووعد قواد جيشه مصعب بالاقطاع والولاية ان خذله ، فتركه اكثرهم باعدي ابراهيم بن الاشتر الذي قتل حتى قتل . ولما بقي مع مصعب الا القليل اشار عليه ابنه عيسى بان ينهزم ويلحق بالبصرة لان اهلها على طاعته ، ولكن مصعب ابى وقال ، لا تحدث قريض الي فردت وقال لابنه ان يلحق بعمه في مكة وان يخبره بما صنع اهل الكوفة ، ولكن الولد آثر الموت بحرب ابيه ، فتقدموا معه وقتلوا حتى قتلوا .

دخل عبد الملك الكوفة ، وبايعه اهلها وأولوا له وليمة في قصر الخورنق ، واتاه المهلب خاضعاً وتمت السيادة لعبد الملك . فولى على الكوفة والبصرة ولادة وحار الى دمشق .

عبد الله بن الزبير

أباً الحجاز :

عبد الله أبوه الزبير بن العوام من كبار الصحابة ، وامه أسماء بنت أبي بكر الصديق . ولد

عبد الله في المدينة في السنة الأولى من الهجرة ، وحطرت معركة اليرموك ، وحارب تحت قيادة عمرو
 ابن العاص في فتح مصر . وأبلا بلاء حسناً في غزوات إفريقية . واشترك مع زيد بن ثابت الانصاري
 في جمع القرآن في زمن الخليفة عثمان كما أن أباه أرسله للدفاع عن عثمان في يوم الدار ، واشترك في
 موقعة الجمل مع أبيه وعمل على تقوية طائفة طائفة في نيل الخلافة . إلا أنه بعد مقتل أبيه ونزول
 حزبه انزل في الحجاز ولم يظهر طامعاً بالخلافة في زمن معاوية بل بالعكس انضم إلى الجيش
 الذي أرسله معاوية لفتح القسطنطينية . وكان معاوية يعرف كيف يتألفه فكان ينفق عليه الأموال
 ويقول له : مرحباً بأبن عمه رسول الله ، وابن جولي رسول الله وأمر له بمائة ألف ، إلا أن هذا
 لم يمنع معاوية أن يحذر يزيد منه في وديته إذ قال له : ولما الذي يحتم لك هجوم الأسد ،
 وبرأؤك مراوغة الثعلب ، فذاك ابن الزبير ، فإن هو فعلها فظفرت به فقطعه أرباً أرباً وما
 كاد يصل نبي معاوية إلى الحجاز حتى ثار الزبير على يزيد في مكة . وأخذ يحرص الناس على بني
 أمية فكان يقول لهم : . . . أقيموا الحسين فطعن إلى هؤلاء القوم - الأمويين - ونصدق قولهم
 وقيل لهم عهداً ؟ لا : ولا تراهم لذلك أهلاً وقد اتسع نفوذ ابن الزبير بعد موت يزيد فبايحه
 أهل الحجاز والعراق واليمن ومصر . وانضم إليه أكثر أهل الشام . إلا أن مروان وابنه عبد
 الملك استعدا نفوذهما على تلك الأقاليم . ما عدا الحجاز . ولم يبق على عبد الملك بعد أن استنزلت
 له الحالة إلا القطائع على ابن الزبير . لذلك أرسل له بعد فتح الكوفة جيشاً بقيادة الحجاج بن يوسف
 الثقفي . فتوجه أولاً إلى الطائف ومنها إلى المدينة وانضم إليه عاملها ومن معه من السند ، ثم سار إلى
 مكة وحاصرها ورمى بالمنجنيق واشتد الحال على أهل مكة من الحصار ففزعوا عن ابن الزبير
 وطلبوا الأمان من الحجاج فمنهم ، وكان ممن خرج إلى الحجاج حمزة وحبيب أبناء عبد الله بن
 الزبير . ولما رأى عبد الله ذلك وعرف أنه لا محالة دخل على أمه أسماء ، وقد بلغت من العمر
 مئة سنة وأصبحت عمياء وقال لها : ألياء خذائي الناس حتى ولدي وأبني ولم يبق معي إلا البهر ،
 ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة ، والقوم يطوفون ما أودت من الدنيا فما رأيك ؟ فقالت
 أنت أعلم بنفسك ، إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ولا تمكن
 من رقبته بلعب بها لعلها بني أمية . وإن كنت أنت أودت الدنيا فبئس العبد أنت ، أهلكك

(١) المنجنيق : هو آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل ورأسه ثقيل ، وذو منخفيف
 وفيها تحمل كفة المنجنيق التي يحمل فيها الحجر فيجذب حتى ترفع أساقه على أعاليه ثم يرسل فيرتفع
 ذنبه الذي فيه الكفة ، فيخرج الحجر منه . فما أصاب شيئاً إلا أهلكه (صحيح الاعشى : لقاقتندي)

ج ٢ : ص ١٣٧

لنفسك ومن قتل معك . وإن قلت كنت على حق فلما وعى أصحابي ضعفت ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين . كم خلودك في الدنيا ! القتل أحسن لك ، فقال : يا أبا عبد الله : أخاف أن تقتلني أهل الشام إن عثروا بي ويسلبوني . ، فقالت : يا بني إن الشاة لا تتألم بالسليخ بعد ذبحها فامض على بصيرتك واستعن بالله فقتل رأسها وقتل هذا رأيي ولكني أحببت أن أعلم رأيك فقد زدتني بصيرة . . . ثم خرج فقاتل حتى قتل وبعد قتله صليت جنازة ثم التفت بأمر من عبد الملك وقد دامت خلافته في الحجاز تسع سنين من سنة ٦٤ هـ إلى سنة ٧٣ هـ .

ولعل أسباب فشل ابن الزبير يعود إلى بقاءه في الحجاز وميله لإعادة عصبة الخلافة إليها ، فخصم مساعدة أهل الشام ولم يحظ بتصرة أهل الحجاز لأنهم كانوا قد انصرفوا عن الحياة السياسية ، ومالت نفوسهم إلى العزلة والسكون ومطلب الأمان والنجاة . أضف إلى ذلك عدم بداية محمد بن الحنفية له وقيام الشيعة والخوارج تأثرين في وجهه فضاغ في قمع ثورتهم معظم جهوده . زد على ذلك ما تزويه المصادر عن شدة بخله وقلة جنكته السياسية . فبذلك كان بنو أمية يبدلون الأموال بسبيل تأليف أعدائهم كان هو يفتقر على جنداء الذين يحاربون في صفوفه مما دعا الناس إلى الانخفاض من حوله وخذلانهم لياه .

الحجاج بن يوسف الثقفي

بعد مقتل ابن الزبير عادت الحياة إلى مجراها الطبيعي وخضع العالم الإسلامي إلى عبد الملك وعظم نفوذ الأمويين في الشرق والغرب . والحجاج بن يوسف الثقفي فضل عظيم في اتحاد الفتن وإخضاع الثورات وتوطيد دعائم الحكم الأمويين من الفرات إلى نهر جيحون والسند . ولد الحجاج سنة ٤٩ هـ في الطائف وهو ثقي الأسدي كان يعلم الصبيان في أول حياته ، ثم انضم إلى جيش عبد الملك لمحاربة مصعب بن الزبير ، فسلمت الحجاج نظر عبد الملك فوسله إلى مكة لمحاربة عبد الله بن الزبير فتغلب عليه فولاه الحجاز واليمن والهممة . وبقي والياً عليها حتى سنة ٧٥ هـ . ولما امتدت فتنة الخوارج انتدبه عبد الملك إلى ولاية العراق والبلاط الشرقية . فذهب أولاً إلى الكوفة في أبي سحر وأكبها ، فوصلها قبيل مطلع النجر ، فسمعت منبر المسجد وهو متلهم بعبادة خير حمراء وبقي ساكناً حتى اجتمع الناس فظنوه أحد الخوارج ولزادوا حصبه بالحصى ، فكشف الأتاع عن وجهه وقال خطبته المشهورة التي يقول فيها :

أما ابن جلا وعطاع التنايا مني اضع العمامة تعرفوني

يا أهل الكوفة اني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطعها ، واني لأظفر إلى الدماء بين العمام واللحمي . . . وإن أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ثم كذا كذا بين يديه فنجع عبيدائها فوجدوني

امرها عوداً وأصلها مكسراً ، فرماكم بي لأنكم طأنا أوسعتكم في الفتنة واضطجعتم في مراقده
الندال ... واني والله ما أقول إلا دقيقت ، ولا أتم إلا مصيبت ، وان أمير المؤمنين أمرني بإصايتكم
اعطيتكم وان أوجهكم لحاربة عدوكم (الخوارج) مع المهلب بن أبي صفرة ، واني أقدم بالله لا أبعد
رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام الا ضربت عنقه ، ثم انفتحت الى غلامه وقال : « يا غلام اقرأ
عليهم كتاب أمير المؤمنين » فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبدالله بن عبدالمطلب أمير المؤمنين
الى من بالكوفة من المسلمين سلام عليكم » ثم يقل احد شيئاً . فقال المجتاج : « اكفف يا غلام ، ثم
اقبل على الناس فقال : اسم عليكم أمير المؤمنين فلم تردوا عليه شيئاً » هذا ادب ابن نمية (١) أما
والله لا أودعكم غير هذا الادب ... اقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين فلما بلغ الى قوله سلام عليكم
لم يبق احد في المسجد الاقل على أمير المؤمنين السلام . « تلك هي الخطبة التي اتبعها المجتاج في معاملة
أهل الكوفة وهي سياسة الحزم والشدّة ثم ركب الى البصرة وخطب فيها خطبة تشابه خطبته في
الكوفة ، ثم ارسل أهل البصرة الى المهلب الذي كان يقابل الخوارج منذ زمن عبد الله بن الزبير .
المهلب بن أبي صفرة والخوارج

انضم المهلب الى عبد الملك وقدم خضوعه وخدمته اليه بعد ان كان يحارب في جيش ابن الزبير
قبله عبد الملك وارسله لقتال الخوارج الذين قويت شوكتهم في زمن انقسام المملكة بين الامويين
والزبيريين . وظهر الغلاة منهم في هذا الدرر ومنهم ام حجاب نافع بن الازرق فجارهم للراب وفالفتنة

١ - رجل كان على الطريقة بالبصرة قبل المجتاج .

٢ - نافع بن الازرق الحنفي المكي ، أبي راشد هو اول من افسد فرقة الازارقة بآية جماعة
بالخلافة وسماه أمير المؤمنين وبعد وفاته خلفه عبيد الله بن منصور التميمي وقيل في معركة بالأعواز
قاتلهم بها المهلب بن أبي صفرة . ثم تابعوا بعده قطري بن الفجاعة وسماه أمير المؤمنين وهو القائل :

أقول لها وقد طارت شعاعا	من الأبطال ويحك ابن تراسي
فانك لو سألت بقا يوم	على الأجل الذي لك لم تقاسي
فصبراً في جهن الموت صبراً	لها قبل الخلود مستطاع
ولا توب الحياة شوب عز	فيطوي عن الخلق اتراج
سبيل الموت غاية كل حي	وداعيه لأهل الارض داعي
ومن لا يبتط بسأم ومهرم	وتسلمه الموت الى انقطاع
وما لعمري غير في حياة	لذا ما عدت من سقط النساء

وبقي قطري أمير الازارقة حتى تمتثلهم على يد كثيرين من قواد العرب منهم مسلم بن -

الناس ، وبصورة خاصة عبد الملك ، حتى انه لم ير احدًا اعلا من هذا العنق غيره . فكان دائما يوصي عماله ان يمشوا برأى الملب وهو مرسومه في امر الخوارج . وقد اظهر الملب والباؤه من البطولة والصبر والحكمة والمقدرة الحربية في محاربة نافع بن الأزرق وقطري بن النجاشي من اجله لهم الشاويخ بمئات الاسباب . وحواش هذه الحروب واخبارها ملوثة لا مجال لتذكرها .

— نجس في زمن عبد الله بن الزبير . والهب بن ابي مفره الذي عينه عبد الله بن الزبير على قتالهم واقام الحاج في خلافة عبد الملك وبقى في حريمهم ١٩ سنة حتى قضى عليهم بعد ان كانوا قوة لا يستهان بها ، بين العشرين الف والثلثين الف فارس يقطنون جهات الاحواز وكرمان وفارس . ثم استولوا اخيرا على سابور والشير مداركهم التي خللت ذكرهم : معركة دولا ب في الاحواز التي بسفها الميرد بقوله : « وكانت معركة قوية بسبب لحوطها لاطفال . وقد اظهر كل من الخوارج واهل البصرة من الشجاعة والفروسية ما لا يوصف . وقتل فيها نافع بن الأزرق زعيمهم ، وابن عيسى قائد اهل البصرة . وتبرأت الراية مرات عديدة ، وتواد كثيرين لانهم كانوا يهلكون في الدفاع في سبيل مبادئهم » . (من الكامل للبريد ج ٢ ص ٦٦٧)

اما معتقدات الازارقة فهي ما يلي : ١ - ان مخالفهم من هذه الامة مشركون ٢ - ان مرتكب الذنوب منهم مشرك ٣ - كل من لم يهاجر اليهم من مواليهم مشرك ٤ - استباحوا قتل نساء مخالفهم واطفالهم ٥ - يزعمون ان اطفال المشركين خطرين بالنار ٦ - انهم كفروا عليا وصوبوا عبد الله بن ماجه . قال علي - وكفروا طلحة والزبير وشيثان وعائشة وعبد الله بن عباس ، وسائر المسلمين من مخالفهم ٧ - اشلوا من رجم من زنى من رجل وهو محصن . ادبس في القرآن الكريم شيء يدل على ذلك ٨ - اسقاط حد من قذف المحرمين من الرجال . مع وجوب حد من قذف المحصنات من النساء ٩ - يقولون ان الفتية غير جائزة في قول ولا عمل . والفتية هي الا نكح من النير معتقدا حقوقا منه ١٠ - يجب قطع يد السارق من المالك ١١ - رثوا من قتل عن الخروج لضعف او غيره ١٢ - اوجبوا على الحصان الصلاة والسيام في حبسها . وبعضهم يقول انها تحضي ما عليها ان طهرت كما تحضي الصائم ١٣ - قالوا يستعاض كل من لقوه من غير اهل عسكرهم وقوله اذا قل انه مسلم . ولكنهم لا يقتلوه ان كان يهوديا او نصرانيا او مجوسيا ١٤ - ويعتقدون انهم مشركون ما دلموا في دار الشرك فاما خرجوا اصبحوا مسلمين . ويجب ان يقتلوا المسلمين من مخالفهم حتى يدخلوا في رايهم . وكانوا يمتنعون من احدى ائمة منهم بان يقدم اليه امير من مخالفهم فان قتله مشقوه وان لم يقتله قالوا انه منافق وقتلوه .

وقد قلع الجبل ثورة شبيب بن يزيد الشيباني^١ وجماعته الذين كانوا يحاربون في شمالي العراق
ويمكن بعد ان استعان ببعض من اهل الشام مؤلف من اربعة آلاف ارسله عبد الملك بن مروان
من الشام على هذه الفرقة وتثبيتها . ومات رئيسها غرقاً في النهر . وقد اظهر الخوارج بحروبهم
هذه بطول عظمى وشجاعة فائقة وتمسكاً بآدابهم وتعاليمهم في سبيلها بما تعجب وتدهش منه .

ثورة عبد الرحمن بن الاشعث

ارسل الحجاج سنة ٧٩ هـ عبد الله بن ابي بكرة على سبستان فسير هذا جيشاً الى بلاد
الترك فوغل في بلادهم فحاط به الترك وقتلوا اكثرهم ، فارسل الحجاج مدداً بقيادة عبد الرحمن
بن الاشعث فصار حتى قدم سبستان فصعد مبرها وقال : ايها الناس ان الامير الحجاج ولائي
فتركوا وامروني بجهاد عشوكم الذي استباح بلادكم واجاد ادياركم فلياكم ان يتخلف منكم رجل فيجعل
بفسخه العقوبة . اخرجوا الى معسكركم فمد كروا به مع الناس . فخرجوا وحاربوا الترك وغنموا
غنائم عظيمة منهم . واخذوا قدام كبيراً من ادم . فتوقف ابن الاشعث عن متابعة الفتح وقال :

١ - ان شبيب بن يزيد الشيباني المكنى بأبي الصخاري استعان بمجاعة صالح بن مشروح الخارجي
بعد مقتله وامس مرقاة الشيبية . ويقول الطبري في سبب خروجه هو ان شيباً قصد الشام في ايام
عبد الملك وتزل ضيقاً على روح بن زباع . وسأله ان يذكره عند الخليفة لكي يجعل له عطفاً من
بيت المال شأن اهل الصوف من كل النبي وذوي قرابه . فاجاب ابن زباع طلبه واخبر عبد الملك
بشأنه . وكان له اتباع كثيرون . فلهيتم عبد الملك بأمره وقال : هذا رجل لا اعرفه ، واخصى ان
يكون حروبياً - اي خارجياً - فلحق ابن زباع شيباً فولى عبد الملك ، فحق عليه وغضب وقال
سيعرفني بعد هذا . ورجع الى قومه بني شوان وجمع من الخوارج الصالحية اتباع صالح بن مشروح
مقدار الف رجل تار بهم على الحليفة . وقد قد صرهب ومارات على الكوفة والبصرة واكثر مدن
العراق شغل بها الحجاج وهزم له اكثر من عشرين جيشاً في عدة سنين (ابن جرير الطبري ج ٢
ص ٢٢٥ طبعة لبنان سنة ١٩٧٩ م) . أما عقوبة هذه الفرقة فلا تختلف عن معتقدات جمهور
الخوارج الا في اجزاء امامة الراة . وقد نلخص احد شعراء هذه الفرقة عقيدتهم بيتين من الشعر
قال غيبا :

أبرأ الى الله من عمرو وشيعته ومن علي ومن اصحاب حديق
ومن معاوية الطائي وشيعته لا يارك الله في القوم الاثمين

ويعد مقتل شبيب المستخلف امة غزاة على اوجاعه وكانت تحارب هي وزوجته جريزة بنتين
من نساء الخوارج . وقد اظهرت شجاعة فائقة في حاربة حيوات عبد الملك والحجاج .

و تكفي بما اصابه العالم من بلادهم حتى نجسها و ذرعا بها و يجرى المسلمون على طرفها ، ثم تتعاطى في العام المقبل مما و راسها ، وهكذا حتى نستولي على جميع تلك البلاد ، و كتب الى الحجاج يعرفه بخطه التي سبيلها في فتوحاته . فأجاب الحجاج بشدة و غلظة و بما قاله : . . . اني لم اعدد رأيك الذي ازعجت انك رأيته رأيي مكيدة و لكني رأيت انه لم يملك عليه الاضعفك و النيات رأيك قاصص لما امرتك به . ثم أمر بمنزله ان لا يقطع امره و تولية اسحق بن محمد بدلا عنه . فما كان من عبد الرحمن الا ان تار على الحجاج ، و عاد يحشه الى العراق و شق عصا الطاعة على عبد الملك . و لما بلغ الحجاج خبره بعث يستغيث بالخليفة و يطلب منه الامونة بمحمد بن الشام . و قد حاول عبد الملك اتحاد الفتنة بالمفاوضة و السياسة و وعد لعل العراق يعزل الحجاج عن ولايتهم ان عادوا و هذبوا ، فلم يجد ذلك فيهم و صمموا على خلع عبد الملك . عندئذ اوسل عبد الملك جندا للحجاج و جرت معارك شديدة بين الطرفين في دير الجاج استمرت مائة يوم كانت المزيمة فيها على ابن الاشعث و جنوده و ذلك في ١٤ جمادى الآخرة سنة ٧٥ هـ . و دخل الحجاج الكوفة و بايها اهلها بأن شهدوا على انفسهم بالكفر بخروجهم هذا . فمن بايها على ذلك نجا و من أبى قتله . اما ابن الاشعث فقد هرب و اتى بنفسه من فوق قصر و مات مؤثرا فذلك على ان يسلم نفسه للحجاج . وهكذا عاد الهدوء من جديد الى البلاد الشرقية .

اعمال الحجاج

فهم الحجاج بحسب احوال منيا تنظيمه بلاد الشرق و توليد الامن فيها ، و ارجاع الموالي لوراثة الارض و اصلاح الاقلية و الترع المائية . الا انه انما هو لا بكثرة ما فرضه عليهم من الضرائب ، حتى انه ارغم الذين اسلموا منهم على دفع الجزية . فماتت حلة هؤلاء و تحزبت بلادهم . كان الحجاج يفضل النيسين على الباقين ، فاقطع يداك العصبية و العناء بين القبائل ، كما انه اشتهر بطلمه و قدومه . اذ كان آكار اهل العراق و اسرف في فتاويه حتى يقال انه اعدم (١٢٠) الف نفس و سجن كثيرين في سبيل تأييد سلطان بني امية .

كان الحجاج مثال الوالي الخالص للامير بل يمكنه فلم يحاول ان يفصل عنه او يشق عصا الطاعة عليه كما فعل غيره فيما بعد ، كما انه لم يرتش أو يجمع الاموال و يدخرها لنفسه ، فقد مات بعد ان خدم الدولة زهاء عشرين سنة ، و لم يخلف بعده غير القرآن و سلاحه و بضع مئات من العملة الفضية . وكانت اخلاقه مبنية النصف بالثبات و النجاعة و الصبر و كان فصيحاً حافظاً للقرآن . و هو بائي مدينة واسط ما بين الكوفة و البصرة كما ازال بها جنده ليعدم عن جو الاضطراب و الشعب الذي كان في هاتين المدينتين . و ضرب النقود و ضبط القاييس و اصلاح الكتابة و وضع الشكل للقرآن الكريم و كان له فضل عظيم في توليد الامن و توسيع ملك بني امية الى بلاد الهند و الصين . و توفي سنة ٧٥ هـ

في نهاية حكم الوليد وله من العمر ٥٤ سنة .

سياسة عبد الملك الخارجي

الجهة الشمالية :

قلنا ان عبد الملك بن مروان اضطر ان يهادن البيزنطيين ، وان يدفع لهم الف دينار في كل اسبوع ليفترغ لقتال مصعب بن الزبير ، ولكن ما لبث ان قطع هذه الاموال بعد ان عادت الحالة في بلاده واتخذ يرسل الصوائف والشواني بلاد الروم ، وفتح عدة ثغور كانت بيد البيزنطيين ، منها قيسارية ، والمصبصة وغيرها وبذلك استرد عبد الملك نفوذه في القسم الشمالي من مملكته .

الجهة الغربية :

قلنا ان العرب انسحبوا من شمالي افريقيا الى برقة في آخر خلافة يزيد ، وعندما استتب الامر لعبد الملك عين الخاف عبد العزيز والياً على مصر ، فولى زهير بن قيس على افريقية . فقام بمحاربة على البربر استرد فيها مدينة القيروان . الا ان البيزنطيين اغتصبوا فرصة بعده عن برقة وخلوها من حامية قوية ، فهاجموها وحاصروا فيها فساداً ، فماد اليهم زهير وجرت معركة شديدة بين الطرفين استشهد فيها القائد القرقي وكثير من جنده . ولا تزال قبورهم هناك تعرف بقبور الشهداء .

خلف زهير حسان بن النعمان سنة ٦٩ هـ على ولاية افريقية وكان حسن السياسة ، حارب البيزنطيين والبربر واجلاهم عن قرطاجنة . الا انهم عادوا بعد بضعة اشهر واستردوا المدينة ، وكان يساء لهم في ذلك اسطولهم من البحر ، الا ان اسطول العرب تغلب على اسطول الروم وبذلك تمكن حسان من استرجاع قرطاجنة وتغريبها . وبعد ان وطد حكمه في الساحل قامت عليه امرأة تدعى « الكاهنة » بمجموع كبيرة من البربر فادتهم بخاربة العرب وتمكنت من ارجاعهم مرة ثانية ابرقة وبسطت سيادتها على افريقية مدة خمسة اشوام . وفي سنة ٧٩ هـ عاد حسان بقوة جديدة من العرب وحارب الكاهنة وعندما شعرت بضعفها قتلت باعمال وحشية ، فهدمت المنبر وخربت القرى وقلعت الاشجار حتى نفر الناس منها ، وانضموا لجيش حسان ، فتمكن عندئذ من القضاء عليها وقتلها . الا انه احسن المعاملة لاهالي البلاد وعقد مع البربر معاهدة الاخوة . فلم يكثر منهم وساعدوه ونصروه ، وبذلك تمت السيادة للعرب في شمالي افريقية . فأخذ حسان ينظم الاقليم : « دون الدواوين ووضع الخراج » ونظم الادارة وكان عمله نواء لفتح جديد في بلاد الاندلس .

الجهة الشرقية :

بعد ان انتهى المهلب من قتال الخوارج ، ولاد الحاجة خراسان . فقام هو واولاده بفتوحات وغزوات عظيمة في تلك البلاد ، حتى وصلوا بخارمي . الا انهم لم يفتحوها . وفي سنة ٨٣ هـ توفي

المهلب في مرو فقال نهار بن توسعة التميمي برئيه :

الا ذهب الغزو المقرب للفق
وما انتدى والجود بعد المهلب
إذا قيل أي الناس أولى ببيعة
على الناس قتله ولم تريب

وأوصى بالولاية بعده إلى ابنه يزيد ، وبما قبله لأولاده عندما اجتمعوا حولهم وقد أتى يساهم وحزمها : « أرواكم كاسريها مجتمعة » قلوا لا : قل « أترواكم كاسريها متفرقة » قلوا نعم . قل : فيكذا الجماعة . واصام بالتحاد الكلمة وحلة الرحم وحسن القول والفعل والكرم وتقريب العرب ، وملازمة الحرب والمكيدة فيه وقراءة القرآن وتعلم السنة ... وهكذا مات هذا البطل العربي بعد حياة مليئة بالجهاد فكان مثال الشجاعة والافحام .

فلم ابنه يزيد بعده ببعض الفتوحات في الشرق . وفي سنة ٨٥ هـ عزله الخجاج وولى مكانه اخوه المفضل « ولم يكن المفضل بيت مال بل كان يعطي الناس كل ما جده شيء » ، وإن غنم شيئاً نفسه بينهم . ولم يلبث الخجاج أن عزله أيضاً وولى مكانه فتيبة الهادي وسياتي الكلام عنه .

إصلاحات عبد الملك وسياسة القومية

بعد أن ولى عبد الملك دعائم ملكه في الداخل والخارج انفتحت إلى الإصلاحات الإدارية . فاتبع سياسة غربية . وطبع المملكة بطابع قومي عربي في اللغة والملبس والعملية :
أولاً في اللغة :

كانت الدواوين قبل عبد الملك تكتب باللغة الرومية في الشام والفرسية في العراق وبيوتانية والقبيلية في مصر . فقد نقل الدواوين إلى اللغة العربية في الشام سنة ٨١ هـ ، وسبب نقله أن بعض كتاب الروم في الدواوين أسماء الأدب في وطنيته ، فأدبه عبد الملك وأمر سليمان بن سعد أن ينقل الدواوين إلى العربية ، وولاه الأردن . فتلقه في مدة سنة واحدة . وعندما عرض عبد الملك هذا الدواوين على كاتبه سرجون الرومي ، خرج إلى استجابه وقال لهم « اطلبوا المعاشة من غير هذه الصناعة » ، وقد قطعها الله عليكم . أما دواوين العراق فتم نقله من الفارسية إلى العربية صالح بن عبد الرحمن بمساعدة الخجاج سنة ٧٨ هـ وقد بذل الفرس الصالح مئة ألف درهم ، ليظهر عجزه عن تريب الدواوين فلم يقبل ، فقال له ابن زاذان : « قطع الله إرسالك في الدنيا كما قطعت لحدك الفارسية » أما في مصر فقد انتقلت لغة الدواوين إلى العربية في زمن الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧ هـ .

وكان لتعريب الدواوين أثر عظيم على العرب إذ انتقلت الوظائف الإدارية لموظفين عرب ، وأصبحت الكتابة باللغة العربية مما قوى نفوذ العرب في الحكم ، ووسع اللغة العربية ونفوذ العرب من غضاضة البداوة إلى روثق الحضارة ، ومن سداجة الأمية إلى حذف الكتابة ، على رأي ابن خلدون . وبما ساعد على نجاح هذا العمل الامتاع الذي عمل الخجاج على إدخاله إلى الخط العربي ،

تقد كان الخط حتى ذلك الزمن خالياً من التناط والحركات، وفي هذا مجال كبير للاضطراب والغموض واختلاف القراءة وفي هذا أيضاً خطر عظيم على مصالح الدولة والرعية بعد ان أصبحت الكتابة العربية هي الكتابة الرسمية . فجاء هذا الإصلاح الذي يعود الفضل فيه الى الحاج نجيباً لعمد عبد الملك في تعريب الدواوين . وقد اخذ من اللغة السريانية قواعد النقط والشكل في بادئ الامر ، ثم ما لبث ان استقل الخط العربي بالتدريج عن المؤثرات الخارجية .

ثانياً في الملابس :

كان الناس في زمن النبي والخلفاء الراشدين بسيطاً ، ولكن لما آلت الخلافة الى ملك في زمن الامويين اتخذوا يصنعون ثياباً خاصة في بلاد الروم للخلفاء ومن دونهم من الامراء والقواد ورجال الدولة . ويطرزون عليها صوراً وكتابات وعلامات بخيوط ذهبية او ملونة لتدل على رتبة لابسها . واتقته الخلفاء فيما بعد ان الذين الاسلامي يحرم الصور فاجتنبوها وبقيت الكتابة فقط مطرزة على الثياب ، واستمرت الحالة على ذلك حتى جاء عبد الملك ، وخطر له يوماً ان يصاب زحمة ما كتب على ثيابه فكان معانداً : باسم الآب والابن وروح القدس ، فأبطل ذلك وأمر بلقيطه بالتمهدين وأمر ببناء دور لطراز ونسج الثياب وقطع استيرادها من بلاد الروم ، فأغضب محله هذا ملك الروم وعندهه بنقش شتم النبي على المنابر ، فنهض بذلك الى القضية الثالثة وهي ضرب النقود .

ثالثاً في العملة :

لم يكن للعرب قبل الاسلام نقود خاصة بهم بل كانوا يتعاملون بالنقود الرومية والفارسية . ولما جاء الاسلام ضرب الخليفة عمر نقوداً اسلامية على شكل نقود كسرى ، وكذلك فعل معاوية ولكن يظهر ان الكتابة التي ضربت كانت قليلة بالنسبة لاتساع رقعة البلاد الاسلامية ، مما أدى الى استمرار استعمال النقود القديمة من رومية وفارسية . فلما جاء عبد الملك بن مروان وضع أساساً لتفقد ثانياً وعياراً دقيقاً وعمم استعماله في جميع الاقطار العربية وطبع مقادير وافرة منه وخطر على المسلمين ان يتعاملوا بغيره ، وهدد من يخالف ذلك بالقتل ، وعلى ذلك شاع استعمال النقود العربية بدلاً من الأجنبية . وكانت على ثلاثة انواع : الدينار من الذهب ، والدرهم من الفضة ، والباس من النحاس . ومن الاعمال العمرانية التي قام بها عبد الملك بناؤه قبة الصخرة في بيت المقدس في موقع هيكل سليمان . ولعل الدافع لبناء هذا المسجد هو ان الحجاز كان بيد ابن الزبير وهو الذي يقيم الحج ، لذلك أراد عبد الملك ان يبعد ابناءه عن زيارة مكة والمدينة لكيلا يتأثروا من التأثيرين على سلطان بني امية . فاختار لهم بيت المقدس لتكون مراكزهم . وهو بصورة مؤقتة - كما انه خشي الفتنة بالاحتكاك بحاج الشام مع غيرهم من الحجاج الثائرين من عبد الملك ، فقد روى انه في سنة ٦٨ هـ اجتمع في عرفات اربعة أكوبة وهي : لواء ابن الحنفية في اصحابه ، ولواء ابن الزبير ، ولواء لجندة الحروري ،

ولواء بني أمية . وهذه حادثة غريبة في تاريخ الحج . لذلك بالغ عبد الملك باعتناؤه ببناء هذا المسجد وتزيين قبته . فهي قبة عظيمة قائمة على دائرة مربعة وفي داخلها دأرتان من الأعمدة وجدرانها نواقد وسقفها مربعة بالفسيفساء ، وأشكال الزهور والخطوط العربية المتشابكة . وقد أراد بنو العباس أن يتسلطوا لأنفسهم بناء هذه القبة فقاموا باسم عبد الملك من أحد الجاران الداخليين المكتوب عليه بالخط الكوفي تاريخ بنائها ، فاستبدلوه باسم المأمون الخليفة العباسي . إلا أن هذا المزور لم يكن بارعاً لأنه ترك تاريخ بناء القبة وهو سنة ٧٢ هـ على حاله . مما يدل على أن هذا البناء تم في زمن عبد الملك .

وقد اصاح عبد الملك بن مروان نظام البريد الذي نظمه معاوية ، إلا أن عبد الملك أدخل عليه تحسينات حتى أصبح خير وسيلة لربط أجزاء المملكة بعضها ببعض .

وكان عبد الملك أملاً لهذه الأعمال التي تمت في زمنه فقد كان حازماً عالمياً أدبياً خطيباً حتى قال عنه الشعبي : ما جئت أحداً إلا وجدت في الفضل عليه ، إلا عبد الملك بن مروان فاني ما ذاكرته حديثاً إلا وزادني فيه ، ولا شمرأ إلا وزادني فيه . ولما قيل له يا أمير المؤمنين عجل إليك الشيب قال : « وكيف لا ! وأنا تعرض عني على الناس كل جمعة » . ومن أشهر خطبه قوله : « ايها الناس إني والله ما انا بالخليفة المستضعف - يريد عثمان بن عفان - ولا بالخليفة المداهن - يريد معاوية - ولا بالخليفة المأقون - يريد يزيد بن معاوية . فمن ذل برأسه كذا قلنا - يفتنا كذا ثم نزل » .

وفي آخر عهده أراد أن يعهد لابنته الوليد من بعده بالخلافة وكان أبوه مروان قد أوصى بها إلى عبد العزيز فاستشار قنصة بن ذؤيب فهاه ، واستشار روح بن زباب الجذامي فقال له : « لو خلعتك ما انتطخ فيه عزان » . فبينما هو في ذلك إذ جاءه الأمير بوفاة عبد العزيز فقال لروح : « كففنا الله يا أبا زرعة ما كنا فيه ، وما اجمعنا عليه » . وعهد إلى ابنته الوليد ثم ساجان من بعده وها من زوجته ولادة بنت العباس من بني عباس . وتوفي بدمشق يوم الخميس في منتصف شوال سنة ٧٦ هـ عن عمر يناهز السنين ودامت خلافته ما ينوف عن إحدى وعشرين سنة .

ومما عيب على عبد الملك بن مروان كثرة الضحايا التي ذهبت في زمنه ، وعذره بعمرو بن سعيد وقلة بعد أن آمنه . وقوله في إحدى خطبه : « من قل لي بعد مقالتي هذا اتق الله ضربت عنقه » إلا أنه إذا قارننا ذلك مع ما تم في زمنه من الأعمال نجده من أعظم خلفاء بني أمية .

٦ - التبريد بن عبد الملك

٨٦ - ٨٩٦ م أو ٧٠٥ - ٧١٥ م

ولد الوليد سنة ٥٠ هـ ، أبوه عبد الملك وأمه ولادة بنت العباس . وكان أبوه قد عهد إليه بالخلافة

قبل وفاته وبعد دفنه بمعد النهر قبل ان يدخل منزله ، فطلب بالناس وقال : ايها الناس انه لا مندم لنا سر الله ، ولا مؤخر لنا قدم الله ، وقد كان من فضائل الله وسابق نفعه وما كتب على ابيسائه وحمله عرشه - الموت - وقد دأبوا الى تناول الارز ، ولي - يعني عبد الملك - هذه الامة والذي يحيى عليه من الشدة على الربيب والابن لاهل الحق والنظر ، وقدم ما أقام الله من ناز الامام والامام من حج هذا البيت ، وغزو هذه الثغور ومن هذه الثغور على أعداء الله ، ثم يكن عاجزاً ولا مفرطاً . ايها الناس عليكم بالطاعة والورع الجماعة فان الشيطان مع الفرد ، ايها الناس من ابدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه : عيبه . ومن سكت مات يداؤه ، ثم قام اليه الناس وابعده ، وتم له الامر .

سياسة الوليد المخزومية

كانت مدة الوليد فترة في جبين الدولة الاموية ، فنهضها قام به صلاح داخلي عظيم ، واشتهر في الامة قواد عظام وهم محمد بن الناعم ، وقرفة بن سفيان ، والبايعي وموسى بن نصير ، ومسلمة بن عبد الملك . فتسحقوا الفتوحات الواسعة وأضافوا الى الممالك الاسلامية بلاداً واسعة واستردوا قبيلتها في نفوس الامم المجاورة لها . وذلك لان عبد الملك قد وسط الامور ومهداها ، وأخضع الفتن وأسكنها ، وقمع ثورة الشيعة والخوارج ، فلما ولي الوليد الخلافة وجد البلاد هائلة مطيشة ، والناس يحبون على بيعته فحفظ ابناء ابيه اباؤهم وسرها ، وذلك بعطفه على الفقراء والمعوزين واهتمامه بأحوال رعيته ومهرده على مصالحهم وعمله على تخفيف آلام مرضاهم وبذلك صفا له الجو وساد الامن والسكون وانصرف الى التفرجات الخارجية .

سياسة الوليد الخارجية

توسعت البلاد الاسلامية كثيراً في عهد الوليد ، وامتدت حدود الممالك العربية فتعد من نهر السند والصين شرقاً الى المحيط الاطلسي غرباً ، ومن البحر العربي والصحراء الافريقية الكبرى جنوباً الى جبال طوروس شمالاً . وفيما يلي تذكر اعمال الفتح التي تمت في زمنه في جهات الممالك الثلاثة : الشرقية ، والشامية ، والغربية .

اولاً الجهة الشرقية :

فلما ان الحاجج عزل ابنه المهلب بن ابي صفرة عن ولاية حران وبعث عليها سنة ٨٦ هـ قبة بن -م- الباهلي احد زعماء الخوارج . وكان قبة قائداً بطلاً عابداً بفتون الحرب . صار ما شديد الوطأة . فخرج من مرو عاصمة خراسان ومركز حركانه الغربية ، وحارب الصفه والترك . وكان أواسط آسيا ، واستولى على مدن بيكند ، وبخارى وسمرقند^١ وخوارزم وقرغانة وشاش^٢ الى ان وصل

١ - بيكند وبخارى وسمرقند مدن واقعة ما بين نهري سيحون وجيحون من اقليم يدعى بلاد خوارزم محصور بين هذين النهرين الذين يصبان في بحر خوارزم المسعى في الوقت الحاضر (بحر آرال)

٢ - قرغانة ، والشاش والصفه هي اقليم تقع فيما بين نهري سيحون .

كشفر على حدود الصين سنة ٩٩٥ هـ فتفتحها وأرسل وفد إلى ملك الصين برأسه هبيرة بن الشمرج
الكلابي فكلهم ملك الصين وقال لهم : « قولوا لفتية بتصرف فاني قد عرفت حرمه وفظة امجابه
والا بدلت اليكم من بهلككم وبهلكه » . فقال له هبيرة : « كيف يكون قليل الاحجاب من اول
خيله في بلادك وآخرها في منابت الزيتون ؟ وكيف يكون حريصاً من خلف الدنيا قدراً غالياً
وغزائلاً » . « اما تخوفك ايلاً بالقتل قلت لنا آجلاً اذا حضرت فأكرمها القتل ، فانسنا شكره ولا
نخافه » . قال : فما الذي يرضي صاحبك » . « انه حلف ان لا يتصرف حتى يملأ ارضكم ونغم ملوكم
ويعطي الجزية » . قال : فانا نخرجه من بينه نبعث اليه بخزينة يرضاهها . ثم عاد بعد حلف من ذهب
فيها تراب وبعث بحرير وذهب والربعة طعان من ابناء ملوكم ثم اجاز الوفد . فملوا حتى قدموا
على قتيبة . فقبل الجزية . وختم النعمه ورددوا وطىء التراب ثم عاد الى مرو .

وقد وجد قتيبة وجنده في محاربة الترك دعوات شديدة لان تلك القبائل كانت تديس سياذته
بحياة البدو فكانت شديدة القتال وممارسة الجروب . « لان قتيبة علم البطل الخليل في تاريخ العرب ،
عرف كيف يكسر من شوكة الترك ويخفف من حدتهم ويخضعهم لسلطانه . كما انه عرف كيف
يسوس جنده ويحسن اليهم فأجروه وأخلصوا العزيمة فقادهم الى الموت فلم يسألوا وتبع تلك البلاد
الواسعة ونشر الاسلام فيها واصبحت جزءاً من الامبراطورية العربية .

وبما كان قتيبة يفتح البلاد فيها يراه نهر جيحون كان محمد بن القاسم الذي يفتح بلاد الهند ،
عينه الخجاج وائياً على نهر السند ، وأرسل معه ستة آلاف من جند الشام . وجزءه بكل ما يحتاج
اليه من سلاح وذخيرة ، فسار حتى أتى الديبل ١ ، قاتل اهلها وحاصره حتى فتحها دفوة . وبني فيها
مسجداً وسار منها الى مهران بعد ان عبر نهر السند ٢ ، فقاتله داهر ملكها قتالاً شديداً وكان راجح
فيلا فقتله احد المسلمين وانشد قتلاً :

الحيل تنهد يوم داهر والذنا	ومحمد بن القاسم بن محمد
اني فرجت الجمع غير مفرد	حتى ملأوت عظيمهم مهند
فركته تحت الحجاج جديلاً	مشفر الخليل بن غير مومند

وفتح المسلمون بلادها يراه نهر السند حتى وصلوا الى الروم فحاصروها رجم فتحها صاحباً على
« ان لا يقتلهم ولا يعرض لبدنهم » ٣ ، فوضع محمد عليهم الخراج وسار الى اللذان ٤ فقاتل اهلها وغنم

١ - الديبل : مدينة على الساحل الغربي للهند وتعرف اليوم باسم كراتشي .

٢ - نهر السند ويدعى اليوم بالانديس نهر في غربي بلاد الهند يسب في البحر العربي

٣ - الهند : مكان العبادة عند الهنود وهو ككائنات النصارى ومعابد اليهود وبيوت زيران الفرس

٤ - اللذان : مكان في جنوب بلاد البنجاب وكان فيها يدتهدى اليه الاموال وتنازل له الثدود
ويحج اليه اهل السند فيطوفون به ويحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده .

منه غنائم غنيمة حتى تولوا على حكمه . وبلغه وهو في الملتان . وفاة الحجاج ثم تولى الوليد وعزله
وبذلك توقف الفتح في بلاد الهند وخسر المسلمون بذلك قتلاً بطلاً كان له فضل عظيم في غرس
بذر الإسلام في بلاد الهند .

وكان للحجاج بن يوسف الثقفي فضل كبير في هذه الفتوحات العظيمة التي قام بها قتيبة ومحمد
لأنه كان دائم الاتصال بها وشديد الحرص على اطلاع لاخبارها وإعادتها بالمدد والنصائح وكان
لا تفيض له عين ولا تفتقر له عزيمته ولا يهدأ لسانه من الوعد والوعيد وحثهما على الجهاد فكان بذلك
خير دافع لها في هذه الفتوحات .
نسباً : الجهة الشمالية :

اشتهر مسلمة بن عبد الملك بحروبه مع الروم وغزوه بلادهم ، ولم يتول الخلافة لأن أمه كانت
أمة ، ولكنه عرض عن ذلك بفتوحاته في بلاد الروم . فكان يغرور في كل سنة تقريباً . وكان
يرافقه في غزواته العباس بن الوليد ، فسقط عدة حصون بأيديهم منها عمورية وحرقة وطرشوس .
نسباً : الجهة الغربية :

ثم في زمن الوليد فتح اسرايا على يد عاتله في افرقية موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد
وسأد كثر خير هذا الفتح في الكلام عن الاندلس .

اعمال الوليد الاملاسية

كان الوليد ميلاً للإصلاح والتعميرات . امر بتعميد الطرق وتوسيع السبل ، وحفر الآبار في
البدان ، وقد تم في زمنه بناء المسجدين العائدين : مسجد المدينة . ومسجد دمشق المعروف بـ
« الجامع الأموي » . ففي سنة ٢٠٥ هـ طالب الوليد من عاتله عمر بن عبد العزيز توسيع المسجد النبوي
حتى يبلغ طوله اثني أرواح وعرضه مثلياً . وأن يشتري الدور الملاصقة له ، ويضم بيوت أزواج النبي
عليه ، وقال له : « فإن تعرض على ذلك أهل المدينة فإنك في ذلك سلف بمدق عمر وعثمان » فقد
قبض بعض الاملاسات في هذا المسجد . وأرسل اليه بالفعلة والبنائين من الشام . وبعث الوليد
إلى ملك الروم يطلب منه المعرفة في بناء مسجد الرسول . فبعث اليه ثمة ألف مثقال ذهب وبنية
عامل ، وأربعين رجلاً يحملين من القديس ، فابتدأ عمر بن عبد العزيز بالعمل وقام به خير قيام (١)

١ - ولي عمر بن عبد العزيز ابن عم الخليفة الحجاز سنة ٨٨ هـ وقام بتأسيس مجلس شورى
في المدينة مؤلف من فقهاء وعلما أهلها . واستعان برأيهم في تصريف شؤون الولاية واعمالها . وكان
لا يأت في أمر من الأمور إلا بعد استشارتهم وأخذ رأيهم . واحسن معاملة الحجازيين حتى
ذكرهم بأعمال جده لأمه عمر بن الخطاب . فأعاد بعض أهل العراق حرباً من ظلم الحجاج وجوره .
وكان ذلك سبب عزله وولاية عثمان بن حيان الذي بالحجاز مكانه . وكان ذلك برأي الحجاج .

لما البناء الذي اكسب الوليد شهرة عظيمة فهو المسجد الاموي الذي كان سابقاً معبداً وثيقاً .
ثم حول الى كنيسة مسيحية ، وعندما فتح العرب دمشق بقي قسم منه كنيسة والقسم الآخر
حول الى مسجد يقيم به المسلمون ديوانهم الى جانب المسيحيين . وفي زمن الوليد انتقلت المملكة
الاسلامية وزداد عدد المصايين من الولدين على عاصمة الامويين لذلك عهد الوليد لشراء القسم الآخر
الذي كان بيد المسيحيين ، وضمه الى المسجد ، وعرض عليهم ارض واموال ليبنوا لهم كنيسة في
مكان آخر . ويقال ان الوليد اتفق على عمارة هذا المسجد بخراج المملكة سبع سنين . وحملت
المساكن التي صرفت على نفقته (١٨) جملاً فاحرقها الوليد دون ان ينقل فيها . وقال ياقوت الحموي
في ذكر هذا الجامع : « ومن عجائبه انه لو عاش الادماني مئة سنة وتوالمه كل يوم لرمي فيه كل يوم
شيء جديد . » ولا يزال المسجد قائماً حتى الآن بالرغم من بعض التغيرات التي طرأت على بناءه بعد
زمن الوليد وهو مزار محبب كل من يدخله من الزوار والمصايين .

وقد قام الوليد باعمال عمرانية اخرى حتى شغف الناس في زمنه بالعمارة . حتى كانت مساجدهم
عنها اذا تقابلوا . وقد أمر الوليد ببناء احواض الماء في الشام لسريل استقاء الاهلين منها . كما امر
بفتح مدارس ومكتبرات وحجبر على المولودين وخصص للفقراء صدقات تنفق عليهم ، وج في لهم
عطاء من بيت المال يقوم بسد حاجتهم .

ولاية العهد

كان عبد الملك قد اوعى بالخلافة لابنه الوليد ولاخيه سليمان من بعده . وفي اواخر ايام
الوليد حاول الوليد نقل الخلافة لابنه عبد العزيز ، وعزل اخيه سليمان . وسط الناس الى ذلك امر
بحربه الا لججاج وقيوه بن مسلم وبعض خواصه . واشار عليه بعض الخوفاة ان يستقدم سليمان اليه
ورغمه على خلع نفسه وبسطة عبد العزيز . فكتب الى اخيه يدعووه اليه فانتل وتامكاً عن الهوى ،
فأراد الوليد ان يسير اليه بنفسه الا ان منته حلت دون ذلك . فمات في منتصف جمادى الآخرة
سنة ٩٦ هـ بدم هران . بعد ان بقي في الخلافة تسع سنين وثمانية اشهر ، الا انه اثار حقيقة اسبه
الى موته وبذر بذور الحقد في نفس سليمان على الذين ساعدوا الوليد بأخذ البيعة لابنه بدلا عنه .

٧ - سليمان بن عبد الملك

٩٦ - ٩٩ هـ / ٧١٥ - ٧١٧ م

ولد سليمان سنة ٩٥ هـ . أبوه عبد الملك وأمه ولادة بنت الربيع بوقع بالخلافة بعد موت اخيه
الوليد بقتضى دعوية ابيه وكان كبراً محمداً والزينة ، اكراماً ومناقباً في ايامه . قرب اليه
المسيحيين ولكن بخصوصه الذين ذكر المصيرية العربية بين الطرفين . اخرج المسيحيين الذين كانوا

في سجن الحجاج ، ففرح الناس بذلك واعتبروا أيام حكمه أيام خير وبركة وفي ذلك يقول ابن جرير الطبري على لسان العامة : « كان سليمان مفتاح الخير ، اذهب الحجاج ، واطلق الاسارى وخلي السجون واحسن الى الناس واستخلف عمر بن عبد العزيز . »

سياسة سليمان الداخلية

كان سليمان يفيض الحجاج واعله وولاته ، وزيل الى يزيد بن المطلب . وكان الحجاج عارفاً لقدرات حتى انه دعى الله ان يثبته في زمن الوليد فاستجاب الله دعوته . ثمالت قبل ان يني سليمان الخلافة . وان لجأ الحجاج من سليمان . الا ان عماله وقواد اخيه الوليد ومحمد بن القاسم ، وقبيلة بن مسم ، وموسى بن اسير ومناذق بن زايد وقموا في غضبه . فكان الول عماله ان عزل محمد بن القاسم وولى مكانه نبي السند يزيد بن ابي كبشة السككي ففيض على محمد (ابن اخن الحجاج) وقيده وحمله الى العراق . فذل محمد متذلاً :

اضاعوني واني نني اضاعوا
ليوم كريمة وسداد ثغر
ويقول البلاذري : ان الخوذة بكروا محمداً لجهته وشدة بكرم خلقه ، وقد رماه حمزة بن يرضي الحنفي بقوله :

ان المروءة والساحة والندي
محمد بن القاسم بن محمد
ساس الميوش سبع عشرة حجة
يا قرب ذلك مؤدماً في مولده
وحبس محمد بواسطة في السجن وما فله في سجنه :

فلئن ثوبت بواسطة وبأرضها
رهن الحديد مكبلاً منخلولا
قرب قينة فارس قدر عتبا
وارب قرن قد تركت قتيلا

الما قتيبة بن مسر : فقد بذل الفأعة له ايمان اولاً وكذب اليه كتاباً يثبت به بالخلافة ويعزبه عن الوليد ويملعه بلاه وجاهده . الا ان سليمان كان حفيظاً عليه لموافقة الوليد على عزله وتولية ابنه عبد العزيز مكانه . وكانت قبيلة عارفاً بذلك . ولذلك اتوا على سليمان وخلفه ، ودعا الساس الى مثل ذلك فاجلوا عليه وولوا ابرهم وكينا سيد بني تميم فقتل هذا قبيلة واخوته واكثر بنيهم . واول ذلك راحع لكرهم الحجاج وعماله . فقام اليهم رجل من العجم وقال لهم : « يا معشر العرب قائم قبيلة ، والله لو كان منا ثقات فينا ، جعلناه في نابوت ، فكنا لنستفتح به اذا غزونا ، وكانوا يسعون به بخرسان « ملك العرب » فقام سيد الرحمن بن حسان الزاهلي برثيه فقال :

كان انا حفص قبيلة لم يسر
بحس الى حبس ولم يعد منبرا
ولم تخلف الزايات والقوم مولد
وقوداً ولم يشبه له الناس عسكرا

دعته المناسبا فاستجاب لربه

وراح الى الجحش عفا مطهر

فما رزىء الاسلام بعد محمد

بمثل ابي حفص فيسكنه عيبر

اما موسى بن نصير : فقد تعجل بالتقدم الى الوليد عندما استدعاه من الاندلس فجاء حذلا معه الاموال والهدايا الخالصة للوليد وكان مريضاً على فراش الموت . فطالب اليه سليمان ان يترث حتى يموت الوليد وتؤول هذه الاموال اليه في شغل . وكان هذا سبب غضب سليمان عليه . فعزله عن جميع الاعمال وحجسه وغمره مالا عالياً لم يقدر على وقته . حتى انسأ يسأل العرب المساعدة ومات على طريق الحج وهو في هذه الحالة المزرقة كما ان سليمان عزل سار بن زناد و لم يستخذه فذهبته جهود هذا الطفل دون تقرير من الخليفة .

وهكذا نكب سليمان قوة الدولة ورجلها ولا بد لهم برجل اليمنيين ومنهم يزيد بن المهلب الذي ولي العراق ثم خراسان فاحذف بلائى التبيين وقضائهم ، وبذلك من خدمته اعوان السجاسع اشد انتقام وبذلك توت العصية القديمة فلما بين قسبي وعن الاسم الرب قسعين وكان ذلك من اسباب سقوط الدولة الاموية .

سياسة سليمان الخارجية

كانت بلاد الاندلس قد خضعت للامويين وتم لهم فتحها منذ زمن الوليد . وكان المسلمون في زمن سليمان يوسعون ملكهم فيما وراء جبال البرانس (الپيرنه) وسأترك الكلام عن هذه الحجة لبحث الامويين في الاندلس . وانكمم عما حدث في الجيوش الانية والشرقية .

الحجة النهائية :

تابع سليمان عمل مسعدة بن عبد الملك في جهاده في بلاد الروم فبحر حوثاً سنة ٩٦ هـ سار به الى دابق (١) وفي سنة ٩٨ هـ وجه سليمان اخاه مسعدة بهذا الجيش من ناحية البر واورسل معه كريات وفرة من الطعام والذخيرة لحصار القسطنطينية . وارسل الى الامصار الذي يساعد من ناحية البحر . وقد وفد على سليمان ليون الملقب به ايد ارنايه الذي كان نائبا على امير اطور الروم وحرضه على فتح القسطنطينية . ووعده بأن يطلق المسلمين على خلفاء قومه ومواطن الضعف فيهم . فديره سليمان بصحبة الجيش العربي . وعل المسلمون اسوار القسطنطينية وحاصروها من ناحية البر والبحر . فضايق الروم من الحصار . وعرضوا على مسعدة مائة ألف دينار من المال على ان يرفع الحصار عنهم . فاقبى مسعدة ذلك . واستمر في حصاره . ففاوضوا اليون الحسان بأن يتصرفه لبحر اطوراً

١ - دابق مكان قريه حلب .

عليهم نقول بذلك ونقول بعض الروايات ان ليون اسدال على تسلمة واحرق مؤونة جيش المسلمين
وذخيرة وهرب الى قومه . وكان يعرف مواطن الضعف عند المسلمين فجارهم حتى انهزم عن
الفسطاطية ونزلت الحجة .

الولاية السرفية :

ولي سليمان بن يزيد بن المهلب على سراسن . فقام بعدة حملات الى الشرق فتح بها بلاد دمشق
وطبرستان . وجرجان وغنم غنائم كثيرة . فكتب الى الخليفة بطلبه بذلك ومما قلده . لما بعد من
الله قد فتح لامير المؤمنين فتحاً عظيماً ومنع المسلمين الحسن الصنع فزينا الحمد على نعمه والحصانة
في الخلافة امير المؤمنين على جرجان وطبرستان وقد صار عندي من خمس ما افاء الله على
المسلمين بعد ان صار الى كل ذي حق حقه من الف والغنيمة ستة آلاف الف وانا حملت ذلك
لامير المؤمنين ان شاء الله وفي عمر بن عبد العزيز الخلافة طاربه بهذه الاموال واما لم
يجدها عنده سبحانه في قامة حاب . ولكنه هرب من السجن في آخر عهد عمر .

ولاية العهد

كان سليمان بن عبد الملك قد عود لابنه ايوب بالخلافة . فمات ايوب في حروا ابيه . فلما اشتد
عليه المرض في دابق . اراد ان يولي بعض ابنائه الصغار . ولكن رجاء بن سيوفية نصحه ان
يستخلف رجلاً صالحاً يذكره الناس بالخير فولي ابن عمه عمر بن عبد العزيز ومن بعده يزيد بن
عبد الملك ارضاء لآخوته . وكتب في ذلك عهداً وشيعة . وجمع اهل دابة من الامويين . فلما
اجتمعوا قال لرجاء اذهب بكتابي هذا اليهم فاخبرهم ان هذا كتابي وامرهم ان يابيعوا من وليت
فبايعوا كلهم من غير ان يعلموا من شاء وتوفي بدائي يوم الجمعة في ١٠ صفر سنة ٩٩ هـ بعد حركه
دام سنتين وثمانية اشهر . وكانت سنة اذ توفي ٥٥ سنة . فخرج رجاء بن سيوفية الى مدينه دابق
وطلب الى الناس ان يبايعوا من ولاد سليمان في كتابه يبايعوا كلهم من غير ان يعلموا من هو فقرأ
عليهم الكتاب . واداه به عمر بن عبد العزيز فحمل اولاد عبد الملك من ذلك لا انتقال الخلافة لامن
عمرهم ولم يبايعوه اولادهم فلو ابد بعد ذلك .

$$A = \text{عمر بن عبد العزيز}$$

$$99 - 106 \text{ هـ أو } 717 - 720 \text{ م}$$

ولد عمر سنة ٦٢ هـ . ابوه عبد العزيز بن مروان الذي كان ابوه قد عهد اليه بولاية العهد إلا
ان اخاه عبد الملك ولاد معمر ونزع ولاية العهد منه . وام عمر ندى ام خالد بن عمر بن الخطاب .
فبو اذا حفيد عمر بن الخطاب . ولذلك بآبويه . بالولاية الصالحه . ويعتبره بعض أهل السنة خالص

الخلفاء الراشدين ، كان متواضعاً ناسكاً محباً للعدل والاستقامة وكان فوق ذلك متشغفاً في ما به
غير متصرف في معيشته بصرف كل يوم درهمين - توفي الخلافة وهو يشق : « انا لله وانا اليه راجعون »
وأراد رجال الحكومة ان يحتفلوا بتعيينه خليفة ، فرفض الميركان وابية الملك وقال : « إنما أنا رجل
من الناس » ومضى بين الناس ونهب الى المسجد فاجتمع القوم لسماع خطبة العرش فقال : « كنت
بقاض ولكني منفذ » وكنت مبتدع ولكني مشيع ، وكنت بخير من احدكم ولكني اقلكم حملاً » . ولما
تمت له البيعة انى بمراكب الخلافة فقال : « داني أوفى لي » وركب دابته فصرفت تلك الدواب ثم
يومت فيها بعد ، ورد عنها ثوبت المسال . ثم اقبل سائراً فبذل له : « نزل الخلافة » فقال : « فبذل أبي
ايوب ، وفي فسطاطي كفاية حتى تحولوا فأقم في منزله حتى فرغوه فيما بعد » .

وكان حريص على مصلحة المسلمين ، ومنفعة رعاياه حتى عظمت غايه مسؤولية الخلافة . فيقال
ان زوجته فاطمة بنت عبد الملك رآته ذات مرة بعد الصلاة يسكي ، فسأله عما يسكيه ؟ فقال : « لقد
وايت امور المسلمين وغير المسلمين فتذكرت الفقراء الذين يتضورون جوعاً ، والارضى المحرومين ،
والمموزين المضطهدين ، والمسجونين البائسين ، والتميوخ الميضي الجناح ، ففكرت ان يحليني الله من
اجلهم حساباً عسيراً » ولهذا يسكى .

قرب عمر الفقهاء والعلماء والصالحين اليه وأبعد عنه الشعراء ، ولم يعط احد منهم من اموال
الامة طمعا في قريبتهم واستمالتهم . فخطب مرة في الناس فقال : « من صحبنا فليصحبنا بخمس ولا فلا
يقربنا : برفع الينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، وببينا على الخير نحمده ، وببينا من الخير على ما نهدي

١- وما بدنا على حب عمر بن عبد العزيز للعدل والوفاء بان اهل سمرقند قالوا لعالمهم ساجان بن
ابي السرح ان قتيبة غدر بنا وظلمنا واحب بلادنا وقد أظهر الله العدل والانصاف فاذن لنا فليغدر منا
وفد الى امير المؤمنين يشكون ظلامتنا فان كان لنا حق اعداياه ، فان بنا الى ذات حاجة . فأذن لهم
فوجهوا منهم قوماً الى عمر فلما علم عمر ظلامهم كتب الى ساجان يقول له : « ان اهل سمرقند قد
شكروا ظلمنا اسيابهم وتجاوزوا عن قتيبة عليهم حتى اخرجهم من ارضهم هذا الا ان كتابي فاجلس لهم
القاضي فليظفر في امرهم فان قضى لهم فخرجهم الى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل ان ظهر ظلمهم
قتيبة » . فاجلس لهم ساجان (جميع بن حنضر) القاضي فقضى ان يخرج عرب سمرقند الى معسكرهم
وينابذوهم على سواء فيكون دليلاً جديداً او ظفراً تنوء . فقال اهل الصفه : بل نرضى بما كان ولا
نجدد حرباً . لان ذوي رأيهم قبلوا قد خلعنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم ، وامنونا وأمنناهم فان عدنا
الى الحرب لا ندرى ان يكون الظفر وان لم يكن لنا ، كنا قد اجعلنا عداوة في المنازعة فتركوا
الامر على ما كان ورضوا ولم ينازعوا .

اليه ، ولا يفتان احدًا ، ولا يعترض فيما لا يعنيه ، فانتزع الشعراء والخطباء وثبت عنده الفقهاء والزهاد ، وقلوبنا ما يسمن ان نفارق هذا الرجل حتى يخالف قوله فعليه .

سلسلة حجر الدخانية

حدثت حالة البلاد في زمن عمر بن عبد العزيز . ولم يبق عليه الا الخوارج ، فأراد ان يقتلهم بالحجة ويردهم الى السلم ، فكتب الى عماله في العراق ، ان لا يجارهم الا اذا حلوه ، وكتب الى زعيم الخوارج الثاوري وهو يسطلم من بني يشكر يدعوه للمناظرة ويسأله عن سبب خروجه ، فوصل بسطام ورجلين من الخوارج . لينظرا الخليفة ، وجرت بين الطرفين مناظرة ٢ تمكن فيها الخليفة من

١ - وهذا هو ككتاب الخليفة ، بلغني انك خرجت غضباً لله وانبية ولست بأولى بذلك مني . قبل انظرك فان كان الحق بأيدينا دخلت بما دخل فيه الناس ، وان كان في يدك فخرنا في امرنا .

٢ - وهذا بعض ما ورد في هذه المناظرة : قال لها عمر : « ما اخرجكما هذا الفرج وما الذي تشتم ؟ » فقال المشكك : ما سمعنا سيرتك انك تتجري العدل والاحسان . فاجرتنا عن قوامك بهذا الامر ، أمن رضا من الناس ومشورة ، ثم ايقزتم امرهم ؟ فقال عمر : ما سألتمنا ان نؤاخذهم ولا غلبتهم عليها وعهد الي رجل كان قبلي ، اتممت ولم يشكره على احد . ولم يشكره غيركم ، وانتم ترون الرضا بكل من عدل وانصف من كان من الناس . فاركبوني ذلك الرجل وان خالفت الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم . فقال : بئنا وبينكم أمر واحد ، وانك خالفت اعمال اهل بيتك وسببها مظالم ، فان كنت على عدي وهم على ضلالة فاعلمهم وارأ منهم . فقال عمر : قد علمت انكم لم تخرجوا طلباً للدنيا ، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم طريقها ان الله عز وجل لم يبعث رسوله (ص) الا ما قال ابراهيم : فمن تبعني فانه مني ومن عداوتي فانه غفور رحيم . وقال الله عز وجل : اولئك الذين هداهم الله فبهم اقمتم . وقد سميت انفسهم مظالم ، وكفى بذلك دعماً وقصداً ، وليس لمن اهل التوبة فريضة لا بد منها ... قال الخارجي : لما هم كفار بظلمهم ؟ قال لا : لان رسول الله (ص) دعا الناس الى توحيد الله والاقرار بما نزل من عنده . قال عمر : فليس احد منهم يقول لا اهل بيعة رسول الله ولكن القوم اسرفوا على انفسهم على علم منهم انه محرم عليهم ولكن غلب عليهم النشأ ... فقال الخارجي ارايت رجلاً ولي قوماً واعمالهم فعداوتهم فيها ثم « جرحها بيده الى رجل غير مأمون اراء اولى الحق الذي يلزمه الله عز وجل ؟ لو نراه قد سمع ؟ قال عمر : لا : قال انفسهم هذا الامر الى يزيح من بعدك وانت تعرفه انه لا يقوم فيه بالحق ، قل : : انما ولاء غيري ، والمسلمون اولى بنا بكون منهم فيه بعددي . قال فتجري ذلك من صنع من ولاء حقاً ؟ وكان هذا السؤال الاخير محرراً لغيره . فطاب النظرة لاجابة عنه .

أقناع أعدائهم ، وازداد الآخر لأوليائه من بيعة يزيد بالعهد ، التي كان سليمان قد عهد إليها ، وأراد أن يبرئ على الجوارح ما جرى بيننا من المداخلة لينظروا في أمرهم ويختاروا ما يريدون .
ومن الحوادث الداخلية التي جرت في زمن عمر ما كتبت قد ذكرته سابقاً ، وهو أن النخيلة كان قد قبض على يزيد بن المهلب وطالبه بالأموال التي كان قد كتب يعيها سليمان بن عبد الملك وسجنه في قلعة حلب ولم يخرج منه حتى حرب إلى البصرة في آخر عهد عمر خوفاً من ولي العهد يزيد الذي كان لها عليه . وكتب إلى عمر وكان على فراش الموت يبين له سبب حربه قائل : « إني لله لو وثقت بحياتي لم أخرج من محبسك ولكني خفت أن يلي يزيد فينتلني شر قلعة » .

سياسة عمر الخارجية

لم يشجع عمر بن عبد العزيز ولاه على التوسع في الفتوحات الخارجية ، بل أراد أن يثبت دعائم الدولة بأمر مسلمة بن عبد الملك التي يتقوى عن بعض المراكز الامامية في بلاد الروم خوفاً على المسلمين من العدو فتبلي عن طرفة بعد أن خربها ، وعاد قذلاً إلى ماطية التي تبعدها عنها ثلاثة مراحل . كما أنه كتب إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام ، وقد كانت سيرته قد بلغتهم ، فأسلم بعضهم وتسبوا بأسماء عربية .

أما في ناحية المغرب فقد وصل المسلمون بقيادة الساج بن عبد الملك الطولاني إلى مدينة طولوز وقتل في أثناء حصارها .

إصلاحات عمر بن عبد العزيز

قام عمر بن عبد العزيز بإصلاحات عظيمة : فأرجع أولاً الحقوق المقتضية قبل زمنه إلى أهلها . ثانياً : منع سب عني وأهله على المنابر . ثالثاً : قام ببعض الإصلاح الخيرية . أما لإرجاعه المظالم إلى أهلها فيتبلي ذلك بأنه لما ولي الخلافة استخضر قريشاً ووجوه الناس وقال لهم : « إن فذلك (١) كانت بيد رسول الله » و« فكان يصنعها حيث أراد الله » ثم وليها أبو بكر وعمر كذلك ثم أقطعا مروان ، ثم سارت إلى ، لم تكن من مالي ، واني اتهدكم اني قد رددتها على ما كانت عليه في عهد رسول الله » و« ثم ردها إلى آل النبي » .

كما أنه أبقى مغازم كثيرة كانت قد استحدثت في عهد الحجاج بن يوسف . فقد كتب إلى أمير العراق يقول له : « لما بعد فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة ، وجور في أحكام الله وسنة خبيثة سبها نليم حول السوء » وإن قولهم الدين العدل والاحسان ، فلا يكون شيء أهم اليك من نفسك ، تحمليها قليلاً من الأنهم ، ولا تحملي خراباً على عامر ، وخذ منه (من أما كين الخراب) ما طلق ،

١ — فذلك مكان بجانب المدينة يسكنه اليهود فتبعه النبي » و« جعله لأهله وذويه .

وأصلحه حتى يهرء ، ولا يؤخذ من العالم إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض ،
ولا تأخذ أجور الضرائن ، ولا هدية الثوروز ، والبرجان ، ولا ثمن المسحف ، ولا أجور
الفتوح ، ولا أجور البيوت ولا دهم الفكاح ، ولا خراج على من أسلم من أهل التمة ، فأنع في
ذلك امرئ غني فم وليت من ذلك ما ولاي الله .

ودخل كثير من أقباط مصر في الإسلام في زمن عمر ، قتلت مائة مصر ثمة دافعي الجزية ،
فطلب والي مصر من الخليفة أن يأخذ الجزية من الأقباط بعد إسلامهم فنهى عمر وقال له : « إن الله
بمث محمداً عادياً ، لا جلياً » .

ثانياً : أمر الناس بترك سب علي بن أبي طالب على المنابر : وكان بنوا أمية يفعلونه ، فتركه .
وكتب إلى الأمصار بتركه ، وبإبدال ذلك بقوله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء
ذي القربى ويضي عن الفضل والمنكر) والذي يعظكم لعالمكم بذكرون) فقال كبير عزمه يمدح
الخليفة على فعلته :

وليت لم نستم عالياً ولم نخف	برأ ولم تنع مضافة محرم
تكلمت بالحق المبين وأما	أين آيات الهدى بالكلم
وضدقت معروف الذي قلت بالذي	فعلت فأضحى راضياً كل مسلم

فكان عمله هذا تقوية للحزب العلوي وتنشيط له ، مما ساعد هذا الحزب على العمل من جديد
لأخذ الخلافة بطريقه .

ثالثاً : قام عمر ببعض الاحمال الخيرية : فأمر بإنشاء مسجد في مدينة سرقوسة بجنوبي فرنسا .
وأمر بعمل الخانات في البلدان القاصية ، وكتب إلى أحد عماله يقول له : « إن عمل خانات فمن مر
بك من المسلمين فأقروه يوماً وليلة ، ونهضوا دوابهم ، ومن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين ،
وإن كان منقطعاً فأبانه بلده » .

وجعل للقضاة منزلة كبيرة عنده ، ورفع سلطة الولاة عليهم ، فكان الخليفة مرجعهم الأعلى
وسئ عن تنفيذ أي حكم بقتل أو قطع ، إلا بعد أن يراجع هو فيه ، فجمعت هذه الاعمال الإيجابية
سياسة الدولة ديانة ووجهتها لخلاف عن سياسة الأمويين السابقة : وهي السياسة العربية المستندة
على مصلحة الدولة ، وهذا التغير قد أضر بالأمويين كثيراً لأنه قوى عليهم الأحزاب المارحة فيما
بعد من شيعة وخوارج وموالي قاموا جميعهم يعملون على قلب الدولة الأموية والدعوة إلى دولة علوية
جديدة . كذلك فإن سياسة التسامح لتأني في المراجع والجزية اضطرت بمصلحة الجزية وانضمت
مواردها ، ووضعت ديانة الدولة في حقل والاس ، مما حدا بخلافة الأمويين من بعده أن يعيدوا

عنها ويعودوا الى سياستهم الاولى ، وكان ذلك من اسباب سقوط العامة عليهم فيما بعد .
بيت عمر ووقته :

تزوج عمر بن عبد العزيز بفاطمة بنت عبد الملك بن مروان فقط ، ولما ولي الخلافة سألها ان تميد ما وجبها ابوها من ثياب موشاة ، وجواهر نفيسة الى خزينة المسلمين فقبلت معبوضة مسرورة . ويقال ان يزيد عرض عليها بعد وفاته زوجها ان يرد اليها مجوهراتها وملابسها ، فرفضت ذلك . وقالت : انها لم تنهم بها في حياته ، فحري بها ان لا تنهم بها بعد مماته .

وكان من اولاده عبد الملك ، سألته ابوه مرة : « ما تقول لربك اذا اتيتك » . وقد تركت حقاً لم تحببه ، او باطلاً لم تحته ، فقال : « يا بني ان اجسادك قد دعوا الناس عن الحق فانتهت الامور الي وقد اقبل شرها ، واعبر خبرها ، ولكن ليس حسناً وحيلاً الا تطلع الشمس علي في يوم الاحد في فيه حقاً ولست باطلاً ، حتى ياتي الموت واناعلى ذلك . »

طالب اليه الطوارج ان يعزل يزيد عن ولاية العهد فقال لهم : « انما ولاء غيري والمسلمون الي ما يكون منهم فيه يعني . » وقد نظم بنوا امية عليه سياسته القوية . فقبل انهم دعوا اليهم فتنوا في يد عثمان من اعمال حمص في ٢٥ رجب سنة ١٠١ هـ . وكانت مدة خلافته سنتين وخمسة اشهر ، ولم يذبح العباسيون قبره كما فعلوا بقبور بني امية — بل بقي منزلاً يزوره الناس حتى القرن الرابع هجري .

٩ = يزيد الثاني

١٠١ - ١٠٥ هـ او ٧٢٠ - ٧٢٤ م

وقد يزيد سنة ٦٥ هـ ، ابوه عبد الملك بن مروان ، وامه عائكة بنت يزيد بن معاوية بن ابي سفيان . ولي الخلافة حسب وصية اخيه سليمان ، وقام بتدعيم كل ما املحه سلفه عمر بن عبد العزيز وقامت في زمنه الفتن الداخلية بما اشتر به من خلاعة ولهو . ونزول الغدر ومحالسة لقيان .

سياسة يزيد الثاني الداخلية

قامت في زمن يزيد بن عبد الملك فتنان : الاولى فتنة يزيد بن المهلب في العراق ، والثانية فتنة يزيد بن مسلم في افريقية .

اما الفتنة الاولى فان سببها ان يزيد بن المهلب اشتد في معاملة القيسيين من اقارب الحجاج عندما ولي العراق في زمن سليمان بن عبد الملك . وكان ممن عذبه واضطهده اخي الحجاج زوج يزيد ابن عبد الملك . قالهم هذا انه سيزيق ابن المهلب عندما تقضي اليه الخلافة ، فتحدث له ابن المهلب بقوله : « انك ان فعلت قابلك بمائة الف مقاتل . » ولما ولي يزيد بن عبد الملك خرج ابن المهلب

من سجنه في حلب ، وأعلن عصيانه في البصرة ، وأخذ ينفق الأموال على الناس حتى تجمعوا حوليه ، وخضعت بلاد فارس وكرمان والأهواز لسلطته ، وعندما سمع يزيد بن عبد الملك بخبره أرسل له أماناً على أن يعود لطاعته . فرفض ذلك ابن الملب ، فأرسل يزيد بن عبد الملك جيشاً من الشام بقيادة أخيه مسلمة وابن أخيه العباس بن الوليد ، فخرج ابن الملب من البصرة إلى واسط ، والتقى بالجنيس الأموي في ميدان الكفر على شاطئ الفرات الأيمن بالقرب من الكوفة ، وجرت بين الطرفين معركة هائلة ، قتل فيها يزيد بن الملب ، وأخوه حبيب ، وهرب مسافر الجند . أما آل الملب فقد هربوا من وجه مسلمة وجنوده إلى كرمان ، ومنها إلى الهند ، إلا أن الجند الأموي تبعهم وقضى عليهم . وهكذا كانت خاتمة هذه الأسرة الكوفية التي أبنت بلاد حسناً في محاربة الخوارج . وأما مسلمة بن عبد الملك فانه بعد أن أخرج الفتن ولاء أخوه يزيد العراق وخراسان ، ولم يلبث أن عزله لأنه أبطأ في إرسال الخراج إليه ، وعين مكانه عمر بن حريре . فبين هذا سمعنا الخوارجي على خرمسان وسنرى أمته فيما بعد .

أما الفتنة الثانية : فقد قام فيها يزيد بن مسلم . ولاء يزيد بن عبد الملك وولاية أفرضية مماثل لهاها البربر بالشدة والقسوة ، ولما أن يجر من اعتنق الإسلام منهم على دفع الجزية ، كما أنه حاول أن يرغمهم على البقاء في قرارهم وعدم الزواج إلى المدن ، فأردوا عليه وخلعوه ودولوا مكانه محمد بن يزيد ، وكتبوا بذلك إلى الخليفة فوافقهم على ذلك .

سياسة يزيد الثاني الخارجية

لم يرقم العرب في زمن يزيد بفتوحات خارجية عظيمة ، وذلك بسبب الاضطرابات الداخلية ، وظلم العيال والولاء ، والشمال الخليفة بلبوه عن مصالح المسلمين ، وما حدث في زمنه من الفتوحات الخارجية هو : أن سميد الحرثي والي خراسان اشترك بحروب مع الصفه من أهل سمرقند حتى كاد يستأمنهم فيها . وكذلك قام الخراج بن عبد الله الحاكم بوقائع مع أهل الخزر وأرمينية كانت الحروب فيها سجالاً بين الطرفين .

وفاته يزيد الثاني :

توفي يزيد بن عبد الملك في أربد من أرض البقاء في ٥ شعبان سنة ٩٠٥ هـ ويقال انه مات لحزنه على حبابه التي كان يحبها هي وجارية أخرى تدعى سلامة ، وقد لقام مع حبابه عدة أيام بعد موتها ، ومنع دفنها حتى جيفت ، فتسبعت أهله أن يلقى حزنه عليها حرصاً على مقام الخلافة ولأن يدفنها . وما لبث بعد دفنها بضعة أيام حتى لحق بها ، وأوصى بالخلافة إلى أخيه هشام ومن بعده إلى ابنه الوليد الذي كان صغير السن ، ودامت خلافته نحو أربع سنين ومات وعمره ٣٨ سنة .

١٠ - هشام بن عبد الملك

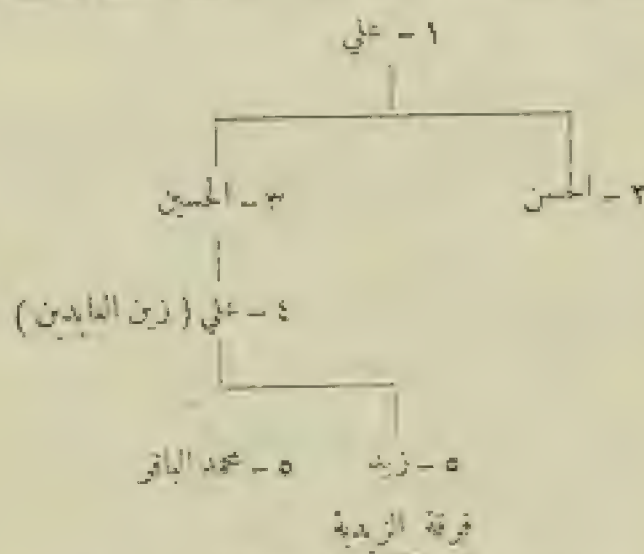
١٠٥ - ١٢٥ هـ أو ٧٢٤ - ٧٤٣ م

ولد هشام سنة ٩٣ هـ ، أبوه عبد الملك ، ولله نائشة بنت هشام المخزومية . تسلم الخلافة بعد موت أخيه يزيد وكانت حالة البلاد الداخلية والخارجية سيئة للغاية ، فالعصبية القبلية كانت مستعرة بين قبس وبنين ، والطواغيت ينفقون على يزيد الثاني لخلافة وتهمكته ، ودعاة العلويين يكدون للامويين في الخفاء ، بينما كانت قبائل الترك والخزر تشتت من جهة الشمال والسرز وتراجم البلاد الإسلامية فكانت البلاد في حالة أزمة شديدة ناشئة عن سوء إدارة يزيد الثاني . وتحتاج إلى حليفة قوي يدير أمورها بحكمة وعزيمة ، ليوقف هذا التدهور الذي كانت جارية فيه الدولة . فجاء هشام وأصلح الحالة بعض الشيء ، وأخر انهيار الخلافة إلى وقت أبعد . فنظف البلاط الأموي مما كان فيه من أهل البو والجرن ، وأخذ العصبية القبلية بتفريه لرجال التميميين واليمانيين . وقع ثورة العلويين ، وحارب أعداء الدولة الداخليين والخارجيين . فبدأت البلاد قليلاً عما كانت عليه فاعتبر هشام بذلك أحد سواس بني أمية الثلاثة وهم : معاوية ، وعبد الملك ، وهشام .

سياسة هشام الداخلية

كان ولاية العراق يشرفون على سائر البلاد الشرقية ، ويراقبون أعمالها ، وذلك لأنهم أقرب لتلك الأقطار من الخلفاء الأمويين الذين كانوا يتخذون مرا كزهم في بلاد الشام . ولذلك كان ولاية العراق يتمتعون بسلطان وأسمع عند من العرب إلى حدود الصين . فهم الذين يرسلون على الأغلب عمالاً إلى البلاد الشرقية ، كما أن معظم مراسلات أولئك العرب كانت مع والي العراق . فانتخاب ولاية قديرين لعراق يتوقف عليه هدوء تلك الأقطار وتوسع الفتوحات فيها . ولما ولي هشام الخلافة عزل عمر بن هيرة والي العراق في زمن يزيد وعين مكانه خالد بن عبد الله القسري . الذي في خمسة عشر سنة والياً للعراق قام في خلالها بأعمال حمراء كثيرة : حفر الترع ، وأصلح الأنهار ، وبني الابنية الكثيرة . إلا أنه قرب إليه أهله وعشيرته اليمانيين ، وعينهم على الولايات الشرقية ، فأثار بذلك حفيظة التميميين . فثاروا وشون به إلى الخليفة حتى عزله وولى مكانه رجلاً من القيسيين وهو يوسف بن عمر الثقفي . فكان أول عمل قام به أن قبض على خالد وجلسه هو وعياله ، فأثار بذلك قهمة اليمانيين . وكان يوسف من ذوي الأخلاق المتناقضة ، كان طويلاً الصلاة ملازماً للمسجد . بين الكلام متواضعاً . كثير التصريح والدعاء ، إلا أنه شديد العقوبة سريعاً في ضرب خصومه وإبادة معاكسيه .

في زمنه قامت ثورة زيد بن علي^١ خرج بالكوفة . يقال أن سبب خروجه يعود الى انه طلب من هشام بعض المساعدة ، فاعرض هشام عنه واعمل شأنه ، فخرج سائطاً الى الكوفة ، موطناً النفس على القيام في وجه الخليفة ، فنصحه أهله الا يركن الى اهل العراق ، لانهم خذلوا جدّه الحسين من قبله . فأتى وأصر على الثورة ، والتف حوله في الكوفة (١٥) ألفاً وقيل اربعون ألفاً وبلغت اخبار يوسف بن عمر وكان بالخيرة ونهياً له ، فلما علم بذلك اهل الكوفة جاؤوا زيداً وقالوا له : ما قولك في ابي بكر وعمر ؟ قال : رحمهما الله وغفر لهما ، ما سمعت احداً من اهل بيتي يقول فيها الا خيراً ... قد دلوا فعدلوا في الناس وعملوا بالكتاب والسنة ، قلوا : وفهم يظلمك هؤلاء ، ايا كان اولئك لم يظلموك فلم تدعوا الى قتلهم ، فقال : ان هؤلاء ايسوا كما واثق ، هؤلاء ظالمون لي واسمكم ولا تظلمهم ، وانما ادعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه (س) والى الدين ان تحيا ، والى البدع ان تفلأ ، فان احببتمونا سعدتم وان ايبتم فليس عليكم جرم كبير ، فتلحقوه وشكروا



١ - هو زيد بن علي بن الحسين ، والى زيد تنسب الفرقة الزيدية . او الزيدية ، المنتسبون في اليمن وزيد يعتبر الامام الخامس عندهم الا ان بعض الشيعة تعتبر محمد الباقر هو الامام الخامس . وفرقة الزيدية تعتبر زيداً امامياً لانه خرج شاهراً سيفه في سبيل الدين ، محارباً الظلم والجور ، وهذه هي أهم صفات الامام عندهم فأتى رجل من اهل البصرة يخلى بها يصح ان يكون اماماً عليهم . ولا يزال اتباع هذه الفرقة قائمون في بلاد اليمن وامامهم في الوقت الحاضر الامام يحيى حميد الدين .

بيته ، وقتلوا سيق الامام بمنون مجدداً بالقر ، وكان قد مات . فقام زيد ، الراضة ، وفي الليلة التي اتفق معهم على الخروج فيها لم يأتهم اكثر من مثلي نفس ولم يكن القتال الذي قاموا به مما يورثهم دولة ثقيلة عندهم ، وانتهى الامر بقتل زيد ، ودفنه اصحابه خلسة في ساقية واهجروا الماء على قبره خوفاً ان يُقتل به . فدل بعض العبيد والي العراق على قبره فنبش القبر وأخرج جثة زيد واصلبها . ثم احرقها وذر رمادها في الفرات بعد ان ارسل رأس زيد الى هشام ، فصاحب على باب دمشق . فكان عمل يوسف بن عمر هذا خالياً من العاطفة الانسانية .

لما في خربسان وما وراء النهر فقد ولي في زمن هشام ولاية عبدون قاموا بمطاردة الترك بمواقع عنيفة جداً ، اظهروا فيها بطولية والفدائ . وآخر هؤلاء الولاة : نصر بن سيار ، ولده هشام خربسان فكان له غزوات الى ما وراء النهر كانت كلها ناجحة ، واحسن ادارة البلاد ، ووضع الجزية عن اسلم من العجم . الا انه كان شديد العصية المضربين ، فضله لذلك اليمينيين وقصوا عليه وسفروا فيها بعد اثر هذه السياسة في قيلم الدعوة العباسية

سياسة هشام الخارجية

وصل العرب في زمن هشام الى تور على متربة من بارز في الجهة الغربية ، ولكنهم ارتدوا على اعقابهم بعد انكسارهم في معركة جرت لهم مع شارل مارنل قتل فيها قائدهم عبد الرحمن الفافقي . أما في بقية الجبهات فكان فيها ما يلي :

الجهة الشرقية : كان امير ارمينية والديرجان : الجراح بن عبد الله الحكيم قام بغزوات جريئة في بلاد الخزر وغنم منافع كثيرة الا ان جموعاً عظيمة من الخزر والترك تجمعت عليه فخرج اردبيل قتالته ومن كان معه ، وتقدمت حتى بلغت الموصل فأرسل هشام جيشاً بقيادة سعيد الحرشي رد هذه الجموع على اعقابها وغنم منها غنائم كثيرة ، واتقم القلبي اردبيل ، وادل الخزر ، وخلص اسارى المسلمين واستنقذ منهم كل ما كانوا قد استولوا عليه . الا ان هشاماً عزله وولى مكانه اخوه مسعدة بن عبد الملك فاضرب الترك وفتح مدنهم وحصونهم ونشر الامن في تلك البلاد ، الا انه هزم امام جموع الخزر ، فعزله هشام وولى مكانه مروان بن محمد آخر الخلفاء الامويين وامده بمائة وعشرون الف مقاتل فتح بهم بلاد شواطئ بحر الخزر وبفضله ثبت قدم الاسلام في تلك الجهات .

الجهة الشمالية : كانت الحرب لا تنقطع بين المسلمين والروم من جهة الشمال فكان الخلفاء الامويون يحجزون الصوائف والشوائب بسور متمصلة ، ويغيرون على بلاد الروم من جهة النهر والبحر

ويؤتون قيادة هذه الحملات كبار قوادهم ، واشتهر من هؤلاء القواد في البر : مروان بن محمد ، ومسلمة ابن عبد الملك ، ومعاوية وسليمان وسعيد اولاد الخليفة هشام . ومن أبطال هذه الجبهة الذين اختلفوا الروم : عبد الوهاب بن ثعلب ، وعبد الله البطال الذي كانت نساء الروم تخوف أبناءها باسمه . وقد فتحوا أنفورا كثيرة في غزواتهم التي شنوها على الروم ، أهمها : قونية ، وقيسارية وغيرها من الحصون . وكان أمير البحر في عهد هشام ، عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ، ومن أشهر القواد عبد الله بن عتبة ، وإبي عبد الله بن مرجم ، وكانت جبهة العرب في هذا الممر قوية ، لأن الاحوال الداخلية كانت منتظمة ، ولذلك كانت كفة العرب راجحة على كفة البيزنطيين .

صفات هشام

كان هشام خشياً نظماً ، صارماً حليماً ، عفيفاً طاهر الذليل ، بعيداً عن الاسراف والتبذير ، الا انه متعصب في رأيه ، ضيق افق التفكير ، حريصاً على معتقدات السنة متمسكاً بها وحامياً لها عن أي خروج أو تطرف . ومتمسكاً بطبيعته كثير عزل الولاة وتبديلهم ، ولم يأمن لأحد منهم . وكان يتمد على الجواسيس والمؤامرات للتفرقة بين خصومه وأعدائه . واشتهر هشام بحسن ادارة المالية الى درجة اقصاف معها بالبحر والتفتير قال عبد الله بن علي : « جمعت دواوين بني أمية فلم أر ديواناً أصح ، ولا أصالح للعامة والسلطان من دواوين هشام » وقد رويت قصص كثيرة عن بخله منها : انه دخل بستان له ومعه تدمائه فطافوا به . فجعلوا يأكلون من تماره ويقولون يارك الله لا يمر المؤمنين . فقال هشام : وكيف يبارك في قبه واتم تأكلونه . ثم نادى حارسه فقال له : اقطع شجرة واقرس فيه زيتوناً حتى لا يأكل منه أحد شيئاً .

قام هشام بحملة اصلاحات عمرانية . فقد اهتم بتعمير القرى والضيع ، وحفر القنوات والبرك في طريق مكة ، وقوى النفور كما نشط صناعة الخز والفطيفة ، وكان كافياً بالخيل وهو اول من أقام لها الخيالات من الخلفاء . كما عني بعد الحرب والصلاح .

ولاية العهد

كان يزيد الثاني قد جعل ولاية العهد لابنه الوليد من بعد أخيه هشام . فحاول هشام ان يعزل الوليد ويولي مكانه ابنه مسلمة ودعا بعض القواد الى ذلك ، فساعدوه الا انه لم ينجح أخيراً في مساعده وضيت الولاية لوليد ، وكانت نتيجة ذلك ان غضب الوليد على انصار هشام وانتم منهم فيما بعد ، توفي هشام في السادس من ربيع الثاني سنة ١٢٥ هـ بعد حكم دام تسع عشرة سنة وستة اشهر .

١٦ = الوليد الثاني

١٢٥ - ١٢٦ هـ أو ٧٢٣ - ٧٢٤ م

الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ، ولمه تدعى أم الحجاج مات محمد بن يوسف الثقفي .
تولى الخلافة بعد هشام وكان حذوا عليه ، وعلى مساعديه الذين حاولوا قتل بيته ، وتولية مساهمة
ابن هشام بدلا منه . حج ان هشام قد استأجر مساهمة الوليد ، وانزل به انواع العذاب ، وحاول اغتياله
على الثمار من الخلافة ووعده وأوعده حتى اضطره لترك دمشق والانتجاع الى البادية ، حيث قضى
فترته وشبابه بالصيد والبهو والشراب يترقب وفاة هشام بلهفة وحرقه لينتقم من اهله واصرائه ، وكان
انزلا بالذروق من بلاد الارمن عندما جاءه الثاني يخبر بموت هشام . فسكن اول ما فعله ان كتب
الى عباس بن عبد الملك ان يأتي الرضاقة - مقر بيت هشام - وان يحجز ما فيها من اموال هشام
ورثته وابياله وحشمه الا مساهمة بن هشام الذي طلبه كظم ابوه في ارقى بالوليد . ففعل العباس ما امر
به الخليفة . وقد روى عن الوليد شعر كثير في الشهادة بهشام من ذلك قوله :

ليت هشاما كان حية فبرى	عليه الاوفر قد ابرعى
ليت هشاما طاش حتى رى	مكياله الاوفر قد طبعما
كفاه بالضاع الذي كاله	وما ظلمناه به اصبعما

عوامل انهيار الخلافة الاموية في زمن الوليد الثاني

اولا : سوء معاملة الوليد لاقربائه من البيت الاموي : كان ممن اسباب هشام الى خلع
الوليد محمد وابراهيم ابنا هشام بن اسماعيل الخزرمياني ، فوجه الوليد الى المدينة يوسف بن محمد الثقفي
واليها عليها ودفع اليه محمد وابراهيم سوكتين في مائة دينار ، فقدم بهما المدينة واقامها للناس ، ثم حمله
الى الشام فحضر عند الوليد ، وأمر بجلدها . فقال محمد : سأنت بالقراية ، قال : وأي قرابة بيننا ؟
قال : فقد نهى رسول الله (ص) عن ضرب يسوط الا في حد ، قال في حد اضربك وقود .
انت نول من قبل المرعي ! وهو ابن عمي وابن امير المؤمنين سبط . لم امر به الوليد فجلده هو
واخوه ابراهيم ثم اوقفها سديدا . امر ان يبعث بها الى يوسف بن عمر وهو على العراق ، فلما قدم
بها عندها حتى مات . وكذلك فعل الوليد الثاني مع كثير من اقربائه من العائلة الاموية حتى ضاعت
هبة الامويين عند الناس ، وزال احترامهم لهم فقد امر الوليد بضرب سليمان بن هشام بن عبد الملك

١- كان محمد قد اخذ المرعي وقوده واقامه للناس وطلده وسجنه الى ان مات بعد تسع سنين
طبعه ابوه .

مائة سوط وحق رأسه وحيته ، وشقوه الى عمان من ارض الشام . وحس يزيد بن هشام وغيره
من ذلك الوليد وكلهم من افراد البيت الاموي .

ثانياً : اضطهاد آل البيت والشيعه : عندما تار يحيى بن زبدي بن علي احد أئمة الشيعة في خرمسان
وكان والدها نصر بن سيار ، أرسل نصر جيشاً من مائة رجل من بني يحيى وقتلوه وحمل رأسه الى الوليد ،
وصلب جسده في خرمسان وقيل انه بقي معلوماً حتى جاءه ابو مسافر القرمساني احد قادة العباسيين
فأنزله ودفنه ودفن قتله ، فمن كان حياً منهم قتله ، ومن كان ميتاً اطلق بأهله السوا ، وكان مثل
يحيى ومن قتل زيد من اهل البيت في قصرة اهل خرمسان لآل البيت حتى قيل انه لم يبق في تلك
السنة التي قتل فيها يحيى مولوداً الا يحيى او زبدي ، فمات اهل خرمسان من الطراد عليها .

ثالثاً : سوء معاملة الشيعة وتقريب الوليد القيسري : كان خالد بن يزيد الله القيسري سيدها من
سادات اليمن ، وكان والياً لحشام بن عبد الملك في العراق ، فطلب اليه الوليد ان يبيع لاجنه الحكم
وعثمان بولاية العهد من بعده ، فبقي ، فغضب عليه الوليد وعزله عن ولاية العراق ، وولى مكانه
يوسف بن عمر الثقفي احد زعماء الضريين ، وسلم الوليد خالد بن عبد الله القيسري الى يوسف
مقابل خمسون الف درهم ، فعذبه عذاباً شديداً حتى مات ، فغضب اليافعوت على الوليد
وانفضوا من حوله وكانوا هم اكثر حنقه فغضب بذلك قوة لا يستهان بها .

رابعاً : خلاعة الوليد وتهتكه : كان بنوا امية يشتمون عن الوليد الثاني بين الناس القبايح
والكفر حتى لقبوه - بخلع ذي مردك - وكان صاحب شرب وله اشتهار جوده في رصف
البحر ، وجمع مره فحصل معه كلاباً في دنانير ، وروى انه استفتح غالا في المصنوع فخرج
(واستفتحوا وحلب كل جبار عبيد) فالتفد وضربه بقرسه وقتل :

تهددني بجيسار عبيد

فمات الله ذلك جبار عبيد

اذا لاقيت ويك يوم حشر

فقل لا ارب مرقى الوليد

وممن تذكر هذه الروايات عن اطلاق الوليد بن زبدي من الشام والاحتفاظ لانه تخرج بني امية
قد دون في زمن العباسيين الثاقين على الامويين ولأن بعض الروايات تصف الوليد بن زبدي هذه الصفات
وتقول : انه كان من اصبح الناس ، واشهر الناس ، واصبح الناس ، وعلى كل حال لم يكن الوليد
من اصبح الناس فلا بد ان الروايات التي ذكرت عن كثرته وخلاعته فيها بعض المبالغة .

خامساً : مقتل الوليد الثاني : كان يزيد بن الوليد بن عبد الملك يزيد الطائفة النورية ، فصار
النك والره ، واليوسع ، فاتفق حوله اليافعون ، وانجروه على الياسة ، ابشعوا من القيسريين
اعداهم ، فاستشار بذلك احمد الواس ، فنهاه ، ثم بانه ، وباربه الناس سرراً ، وأرسل دلاله يمدون

الناس اليه ، فبلغ الخبير مروان بن محمد وهو بآرمينية فكتب الى سعيد بن عبد الملك بأمره ان ينهي الناس ويكفهم ويحذرهم الفتنة ، ويخوفهم خروج الامر عنهم ، فأعظم سعيد ذلك ، وبعث بكتاب مروان بن محمد الى العباس بن الوليد فاستدعى أخاه يزيد ونهده ، فحكم يزيد الخبير فصدقه ، ونسب اجتماع يزيد امره أقبل الى دمشق ، وقد بايع له أكثر أهلها سرّاً فاستولى عليها ، وسير جيشاً لمقاتلة الوليد وكان في قصر له في عمان ، فخرج العباس أخو يزيد للدفاع عن الخليفة ولكنه لم ينجح وعندما احس الخليفة بالغلبة دخل قصره واغلاق عليه بابه ، وجلس وأخذ مصحفاً فتدبره بقراً فيه . وقال يوم كيوم عمان ، فدخلوا عليه وقتلوه ، وأرسلوا رأسه الى يزيد فنصبه على رصع وأمر ان يطاف به في دمشق . وكان قتله في آخر جمادي الآخرة سنة ١٢٦ هـ وكانت مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر وكان في مقتله انقسام البيت الأموي على نفسه وانهار الخلافة الأموية .

١٢ = يزيد الثالث

١٢٦ هـ او ٧٤٤ م

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وأمه أم ولد أبي نيساب عريية ، بل فارسية ترجع بنسبها الى كسرى وفي ذلك يقول يزيد :

انا ابن كسرى وأبي مروان وقصر جدى وجدى خلفان

كان يزيد تقياً ورعاً متمسكاً بأصول الدين اثار في الخطبة التي القاها عقب مبايعته الى أسباب خروجه على ابن عمه ووعده بان اول ما سيعني به هو تحصين الحدود واقامة الخياميات في المدن ، ورفع الظلم عن العباد ، وعزل الحكام الظالمين . الا انه لم يعش ليطبق مشروعه الذي صرح به ، ولم تسمح له الظروف بانجاز ما وعد به من الاعلاحات وقد لقب - بالناقص - لانه انقص اعطيات الجند الى ما كانت عليه في زمن هشام بعد ان زادها الوليد الثاني .

سياسة يزيد الثالث الداخلية

قامت الاضطرابات في زمن يزيد الثالث في حمص وفلسطين ، والاردن والعراق ، وخراسان . فكانت مدة حكمه كلها فلولاً قام بها أهل بيته من الأمويين وعمل الوليد الثاني المضربين ، لان الخليفة يزيد حاول ان يعزلهم عن مناصبهم ليوليها الى انصاره اليعنيين ، الذين ساعدوه على الوصول الى الخلافة . فكانت قيام بعض افراد البيت الأموي وقيامتهم الثورة في وجه ابن عمهم الخليفة واشتعال نار العصية القبلية بين قيس وبنو الاثر التي ، على الخلافة الأموية .

وفاة يزيد الثالث

لم تطل مدة يزيد في الخلافة فقد توفي في العشرين من ذي الحجة سنة ١٢٦ هـ بعد حكم دام

نحو سنة اشهر وعهد بولاية العهد لأخيه ابراهيم بن الوليد ثم لعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك .
ابراهيم بن الوليد

عندما توفي يزيد قام بالأمر من بعده اخوه ابراهيم ، ولم تم له البيعة . فكان ناره يسلم عليه بالخلافة وناره بالامارة ، وناره لا يسلم عليه بواحدة منهما . ولم يباينه الا قسم من اهل الشام ، أما بقية الاقطار الاسلامية فلم تعترف بخلافته ، وبقيت تابعة لولائها . وقام مروان بن محمد . ولي الجزيرة وأرمينية بجيش قوي حارب به جيش ابراهيم وهزمه ودخل دمشق واستولى عليها ، فربى ابراهيم الى تدمر بعد ان قتل ابي الوليد الثاني . فقام مروان بعد ذلك . ولم يستمر بعض انوار بن خلفه ابراهيم بن الوليد . ودام حكمه شهرين وعشرة أيام .

١٣ - مروان الثاني

١٢٧ - ١٣٢ هـ او ٧٤٤ - ٧٤٩ م

ولد مروان بن محمد سنة ٧٠ هـ . وهو حفيد مروان بن الحكم ، وامه لم ولد كردية . كان ابو محمد عاملاً على ارمينية والجزيرة ، ثم خلفه ابنه مروان من بعده على تلك الولاية وبقي ١٢ سنة في ولايته يحارب الروم والجزير ، فأكد به حياته الشاقة التي كان يزاولها في ميادين القتال قوة الاحتمل على شتات العيش ، حتى لقب بالحر . لانه كان لا يحف له اليد في عمارية الخارجين عليه . فكان يوصل السير بالسير ، يصبر على مكاره الحرب . ولقب - الجعدي - نسبة الى مؤدبه : الجعد بن درهم . وكان يكنى أبا عبد الملك ، وقد اشتهر بالشجاعة والعداء والمكر والتخلف . وكان يعيش مع جنوده ، فلا يؤثر نفسه بشئ سواه . كان ذلك في وقت السلم او في ميادين القتال . واستمر على تلك الحياة حتى بعد ان بايعه اهل دمشق بالخلافة . فقام يقاتل الذين يعزيم شايده ، وانس قوياً ، ولكن سبل الاضطرابات كان جارفاً ، فلم يستطع مروان ان يوقفه ، فالتجرف معه .

رئاسة مروان الثاني الداخلية

حكم مروان والثورة مندعة في جميع الاقطار . فقام يطفئها بعزيمة صادقة . ثم غلبه اهل الشام لانه نقل العاصمة من دمشق الى حران لذلك نزل اهل حمص وتدمر والموافاة والمسلمين . فاجابهم مروان وتطلب عليهم . ثم قام بفسيرين احد اقربى من الامويين وهو سليمان بن هشام بن عبد الملك يطلب بالخلافة . فأخضعه مروان وقتل عدداً عظيماً من جنده . ثم اشتعلت نار الثورة في العراق فقام الشيعة بالكوفة بقيادة عبد الله : اخذ اولاد جعفر بن ابي طالب فقمعت ثورته . ثم قام الخوارج بقيادة الضحاک بن قيس السبائي واستولوا على الموصل فاجابهم عبد الله بن الخليفة مروان ، ثم جاء مروان بنفسه فقاتلهم وكادوا يهزمونه ولكنه تمكن بعد قتال عنيف ان يقتصر عليهم ويقتل الضحاک بن قيس .

فولوا بدلاً عنه شيبان بن عبد العزيز اليشكري الذي قاتل جيوش الخليفة وانهزم من وجهه الى
 مسجستان ، وهاك فيها سنة ١٣٠ هـ . كذلك خرج عليه المختار بن عوف الأزدي الشيرازي بأبي حمزة
 وانضم الى عبد الله بن يحيى وكان في الحلي وهو من اهل حنابلة موت فبايعه ابو حمزة بالخلافة ، ودعا
 الناس الى قتال مروان . وكادت الحرب تقع بين ام حجاب أبي حمزة وبين والي مكة والمدينة عبد الواحد
 ابن سليمان بن عبد الملك في اثناء الحلي . إلا أنهم تمادوا الى ما بعد الحلي وجرت معركة بين الطرفين
 كسر فيها جيش عبد الواحد وقتل منهم عدد عظيم واستولى ابو حمزة على المدينة وخشب بأهلها ،
 ودنا قلة بعد ان حمد الله وأثنى عليه ، يا أهل المدينة ، إنما نخرج من دارنا وأموالنا أسراً ولا بطراً
 ولا عبثاً ولا للدولة ملك نريد ان نخوض فيه ، ولا نأثر قديم نيل منا ، ولكننا لما رأينا مصابيح الحق
 قد عميت ، وعنف الظالم بالحق ، وقتل القائم بالقسط ، ضاقت علينا الأرض بما رحبت ، وسمعنا
 داعياً يدعو الى طاعة الرحمن ، وسك القرآن فأجبنا داعي الله واتم يا أهل المدينة ان تنصروا
 مروان وآل مروان يسعكم الله عز وجل بعداب من عند

ثم ان أبا حمزة ودعاه أهل المدينة وسار نحو الشام فأرسل اليه مروان جيشاً مؤلفاً من أربعة
 آلاف فارس ، عليه عبد الملك بن محمد بن عتبة السعدي فالتقى بأبي حمزة في وادي القري ، فقتله
 حتى قتله وهزم أصحابه وسار الى المدينة . فلقم بها شهراً ثم سار الى اليمن . وحارب عبد الله بن يحيى
 فقتله وحمل رأسه الى الشام .

كل هذه المشاغل والفتن التي كانت تجري بالشام والعراق والحجاز واليمن شغلت مروان عن
 خراسان وما كان يجري فيها . فكان ذلك ادخال مائة الف من الغساسنة ، ودعوتهم الذين تمكنوا
 من تأليف قوات تولت على خراسان والكوفة ، ونصبت السفاح خليفة ، فجهز السفاح جيشاً أرسله مع
 محمد عبد الله بن علي لقتال مروان بن محمد ، غرت معركة على الزاب إحدى فروع نهر الدجلة .
 انكسر بها مروان وجيشه ، فانهزم الى حران ثم الى دمشق ثم الى مصر فبعده عبد الله بن علي ، قتله
 في يومير بالقيوم في شهر ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ . وبقتله انتهى حكم الخلفاء الامويين وابتدأ عصر
 جديد بقيام — الخلافة العباسية . —

أسباب سقوط الدولة الأموية

كثرت عرصات أسباب سقوط الدولة الأموية في خلال عشرين عاماً من الامويين وسأذكر الآن
 النقاط الرئيسية فقط واترك لطالب ان يجري الأمل عنها بقية مما عرفه من الأبحاث السابقة .
 يعود سقوط الخلافة الأموية الى الأسباب التالية :

١ - ولاية العهد ، وتوليها لأكثر من شخص واحد .

- ٢ - مقاومة آل البيت بالخلافة ، وأسرة الشيعة لهم .
- ٣ - الحركات الدينية والسياسية التي قام بها الخوارج والشيعة .
- ٤ - العصبية الجاهلية بين قيس وقنن ، ولذكاة الخلفاء والشعراء لها .
- ٥ - تغيير الولاء والقوادح حسب تغيير القزعة .
- ٦ - سياسة الدولة العربية واستنقاذ الموالي ، ورد الفعل من هؤلاء .
- ٧ - تغيير هذه السياسة في زمن عمر بن عبد العزيز وقلها إلى سياسة دينية ، وإعفاء من أسلم من أهل الذمة من الجزية . وإعادة هذه الضريبة بعد وفاته .
- ٨ - سوء اخلاق بعض المتأخرين من الخلفاء الأمويين ، واستبدادهم بالدين وانفاسهم في اللهو والجهل ، وشدة إسرارهم وترغيبهم . (١)
- ٩ - انقسام البيت الأموي على نفسه . (٢)
- ١٠ - نقل مروان العاصم من دمشق إلى حران ، وتخلي أهل الشام عن نصرته له .
- ١١ - اتساع بلاد الخلافة الأموية .

إن احكامنا على العصر الاموي في ذكر مميزاته تنطبق على العصر بكامله لا على اجزائه فهو عصر انتقال من حياة البداوة البسيطة المتأثرة بالهضبة الدينية الاسلامية في زمن الخلفاء الراشدين

- ٢ - وقد حذر عباس بن الوليد اهل الامويين من هذا الانقسام فقال :
- | | |
|----------------------------|--------------------------------|
| إني أعيذكُم بالله من فتن | مثل الجبال تدامى ثم تدفع |
| أن البرية قد ملكت سياستكم | فلم تمكروا بعمود الدين وارتدوا |
| لا تلحقن دباب الناس انفسكم | إن الدباب إذا ما ألححت رتعا |
| لا تبقون بأيديكم بطونكم | فم لا حيرة نفسي ولا جزع |

الى حياة منظمة معقدة بعض الشيء بلغت أوجها في العصر العباسي .

فهو أولاً انزال من خلافة ديمقراطية دنيوية الى ملك مركزي دنيوي . او بكلمة اخرى انتقال من حكم انتخابي الى حكم إرثي . وهنا كان الخلفاء الراشدون يتصلون بالناس ويلبسون البسط اللباس ولا يتميزون انفسهم عن غيرهم بحرس او بلاط . نرى ان الخلفاء الامويين قد اعدوا بلاطاً فصلاً أحاطوه بالحرس والحجاب وأنشأوا المقامير في المساجد وأبسوا الحضرة اللباس . وقلدوا ملوك الروم وأكادمية الفرس ... وبظهر هذا التحول ايضاً في سياسة الدين والورع عند الخلفاء الراشدين وسياسة الشدة والحزم وسفك الدماء عند الخلفاء الامويين .

ثانياً كان العصر الاموي عصر ترف وبذل للاموال اتقيا الخلفاء الامويون على اشراف العرب في سبيل استئثارهم اليهم وإسكات المطالبين منهم بالخلافة وتقريبهم اليهم وكتب السنة الثمراء ليعادوهم وينصروهم في دعم ملكهم ولذلك عاش كثير من العرب في عجوة ونعم ولا سيما في ايام الهدوء والسكينة وبصورة خاصة في الحجاز .

ثالثاً : اتبع الامويون سياسة عربية متأثرة بالعصبية القبلية . لما الخلفاء الراشدون فقد كانت سياستهم دينية مستندة على تسوية عناصر الامة الاسلامية بعضها ببعض . واختفاء العصبية الجاهلية القديمة .

رابعاً : يمثل العصر الاموي انقضاء العرب بغيرهم من الاقوام ومزج ثقافة تلك الاقوام باللغة العربية وصهرها بقالب عربي جديد له صفاته ومزاياه وطايعه النحاس وبذلك اختلفت الحضارة العربية عن حضارة الاقوام التي امتزجت فيهم .

خامساً : كان العصر الاموي عصر نزاع بين القديم والجديد . تمثل ذلك في قيام اصحاب النبي وتابعيهم في وجه شباب ذلك العصر وتقدم اياهم وردمهم الى الحياة الدينية الاولى . وقيام الثورات في وجه بعض الخلفاء لإصلاح خلطهم وظهور بعض الفرق الدينية النافذة على الحياة الجديدة كالملوارج مثلاً . سادساً : يمثل العصر الاموي عصر الاندثار والتهرب لعصر حضارة ازهى وأوسع في المستقبل سواء من الناحية الادارية او العلمية او الاجتماعية او الفنية لما قام به الامويون من الجهود في هذا السبيل ولما عملوه في سبيل توسيع حدود بلادهم في الشرق والغرب . فأعدوا الهيكل الرئيسي للعمل فجاء العباسيون من بعدهم ونسجوا عليه حضارتهم وتمثل ذلك بما قام به الخلفاء وعملهم من الاملاجات في تعريب الدواوين وتنظيم الجيش والاسطول واتشاء البريد وضرب النقود وإصلاح الخطر العربي وبناء المساجد والقصور وغير ذلك وسخرى ذلك في بحث الحضارة .

الباب الثاني

الخصارة العربية في عهد الخليفة الاموية نظام الحكم

الخلافة

كان الخليفة في أيام الخلفاء الراشدين ينتخب من المسلمين بأجماع الرأي، ولم يشترك جميع العرب في انتخاب الخلفاء بل كان الأمر بيد زعماء الأنصار والمهاجرين . ولم يرشح أي فرد من المسلمين للخلافة بل كانت محصورة في قريش . وإن كان من الممكن نظرياً أن ينتخب أي فرد من المسلمين توفرت فيه شروط الخلافة . ولم تتبع طريقة الانتخاب دائماً بل شذ عنها أبو بكر فولى عمر من بعده وحصر عمر الخلافة برجال الشورى الستة المرشحين للخلافة . ولما انتقل الحكم الامويين لبست الخلافة في زمنهم مظهر الملك الأرضي ، واستأثر الخلفاء بالخلافة وحسبوا أن تسمية من يأتي بعدهم إن هو إلا حق من حقوقهم المشروعة فقد عيّد معاوية بالخلافة إلى ابنه يزيد من بعده ، وسار الأمويون على غرارهم ولبت الأمر اقتصر على تسمية واحد فقط للخلافة لكانوا احسنوا لهذه الامة ووفرأ عليها كثير من الخصومات والمنازعات ، ولكن الأمر تجاوز ذلك إلى تولية اثنين لولاية العهد ، مما جبر الخراب والخراب على الاسرة الاموية وعلى الامة العربية . وانتقل الحكم من نظام جمهوري إلى نظام ملكي . ومن نظام الشورى بين المسلمين إلى نظام التوريث والخصر في خليفة معين واسرة معينة .

البيعة

كانت مراسم البيعة تقام في المسجد الجامع حيث كان المسلمون يجتمعون في حشد حافل بمدفوفة الخليفة ليأبوا الخليفة الجديد ويأبوا على الطاعة والولاء . أما في زمن الأمويين فكانت الخلفاء يأخذون البيعة في حياتهم لولاية عيودهم ، وأحياناً يجبرون الناس عليها ، وكان الخليفة يأخذ البيعة لولي عهده في دمشق نفسه وفي الأمصار الإسلامية بأخذها بواسطة عماله وولائه . وبعد موت الخليفة تجدد البيعة مرة ثانية تأكيداً للعهد واليثاق . وأول من كان يبايع أمراء البيت الأموي ثم بلهم القواد ثم أمراء الأمصار ثم بقية المسلمين . ويقول السيد أمير علي : أن هذا النظام : نظام البيعة بولاية العهد يجمع بين مساوي الديمقراطية والافتقراطية دون أن يستفيد من مزايا إحداها . أما موافقة الشعب فكانت تقتصب اغتصاباً ، سواء بطريق القوة أو الخلق أو الرشوة ولكنها كانت بعد اجراء المراسم المتأداة تصبغ الانتخاب بالصيغة الشرعية .

عمل الخليفة :

الخليفة هي رئاسة المسلمين علمه في امور دينهم وديارهم . فالخليفة هو الحاكم الديني والديني معاً له حق اتيان بلود المسلمين الدينية بتطبيق احكام الدين وتنفيذ شرائع المسلمين حسب ما جاء في القرآن الكريم وسنة النبي (ص) ، وله حق النظر في شؤون ديارهم ، فبجده زمام الامة السياسية وهو الذي يولي الولايات ويعين القواد ، ويبدد مالية الدولة . وهو الحاكم الزمني والروحي معاً .

الولاية :

كانت البلاد الاسلامية تدار بمعرفة أمراء او ولاية يخازن الخلفاء من امرهم او من غيرها ، وهم نواب عنهم في الولايات التي يتكفلونها . وكان هؤلاء الافراد يختارون عمالاً على الكور والاقليم التي هي في حدود امارتهم . أما محل هؤلاء الامراء والعمل فهو النيابة عن الخليفة في الامور الآتية :

اولاً : إقامة الصلاة ، وإلقاء الخطب في المساجد يوم الجمعة .

ثانياً : قيادة الجيوش او نيابة احد عنهم .

ثالثاً : جباية الخراج والصدقات وفتح ذلك في مواضع وإرسال ما يبقى منها للخليفة .

رابعاً : القضاء بين الناس في منازعاتهم ، وكان الخلفاء احياناً يولون بجباية الخراج والقضاء بين

الناس رجالاً من عندهم يتكفلون بهم مباشرة دون تدخل الامراء او الولاة في شؤونهم وذلك لانهمية حالين الموظفين بنظر الخليفة .

وكان الخلفاء الامويون يولون البلاد احياناً الى بعض الامراء ولاية علمه أي تكون اولاية كلها بيد الأمير والوالي ويكون مستقلاً عنها استقلالاً ادارياً يتصرف فيها كما يشاء ولا يشاور الخليفة إلا في الامور الهامة . وأظهر ما كان هذا الاستقلال في العراق ومصر . أما في العراق فقد استقل بالولاية زياد بن ابيه وابنه عبيد الله . والحجاج بن يوسف ومحمد بن هيرة وخالد بن عبد الله القسري أما في مصر فقد استقل بالولاية عمرو بن العاص وبعض الولاة الذين جاؤا من بعده .

ولعل الذي دعا الخلفاء ان يولوا بعض الامراء ولاية عامة هو صعوبة المواصلات وبعد المسافات بين عاصمة الخلافة وبين بقية الولايات . إلا أن الخلفاء كانوا يقبلون كل مراجعة او عقلمة او شكوى على محالهم ، فيردون الحق الى الله ، وما كانوا يتأخرون احياناً عن عزل محالهم ومصادرة اموالهم وسجنهم اذا اقتضى الامر . إلا أن هذه السياسة وجدت فقط في زمن الخلفاء الخالزميين ، الخريصين على حقوق الرعية لاسبابهم بن عبد العزيز . أما في زمن يزيد الثاني والوليد الثاني فقد أخذت المحسوبيات تدخل في جسم الدولة في تولية الامراء ، وفي تجميع شكوى الناس ، حتى ان بعض الامراء كانوا يتركون مراكزهم وينزحون الى العاصمة ليشتموا بمساحج المدنية ومراستها ، تاركين

رُفِعَ الحكم رتبةً بزيادة الأمور إلى وكلائهم الذين اتخذوا تلك الفرصة سبيلاً لابتزاز أموال الدولة والجورج إلى الرشوة والاختلاس .

الإمارات :

كانت البلاد الإسلامية في العصر الأموي مقسمة إلى خمس إمارات كبرى وهي :

١ - الحجاز : ويشتمل المدينة ومكة والطائف . ويقع الأمير بالمدينة . وكان يضاف أحياناً إلى ذلك بلاد اليمن وأحياناً تكون مستقلة بأمير .

٢ - العراق : ويشتمل الكوفة والبصرة وخراسان وحمّان والبحرين وكرمان وسائر بلاد ما وراء النهر والسند وبعض أقبام البنجاب . وكانت جميعها تؤلف إمارة واحدة يحكمها أمير العراق الذي يقيم في الكوفة بعض السنة وفي البصرة بعضها . وكانت خراسان تستقل أحياناً بأمير يخاطب الخليفة رأساً باسمه في مرو .

٣ - الجزيرة وأرمينية : وتشمل بلاد الموصل وأذربيجان وولايات أرمينية . ويقع أميرها في حرّان .

٤ - أجناس الشام : وهي خمسة : نهم فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين . وكانت قنسرين تابعة لحمص ثم فصلت عنها في زمن يزيد بن معاوية .

٥ - مصر وأفريقية : وتشمل مصر العليا والسفلى وشمال أفريقيا والأندلس وجنوبي فرنسا وجزائر صقلية وسردينيا والبارباريك .

وكانت أفريقية تستقل عن مصر أحياناً ويولي عليها أمير يخاطب الخليفة مباشرة باسمه في القيروان . وكانت الأندلس تابعة له يولي عليها أميراً من قبله باسمه قرطبة .
الدواوين :

كان النظام الإداري في زمن الخلفاء الراشدين ابتدائياً يتناسب مع الحياة العربية فكان الخلفاء يحضرون الكتاب بكتوب لهم ما يتعلق بإدارة الدولة من مراسلات مع الملوك في خارج المملكة الإسلامية أو يكتبون لهم كتباً إلى الأمراء والقواد في داخل البلاد . إلا أن عمر بن الخطاب نظم نظاماً جديداً اقتبس عن القروس وهو نظام الدواوين . فأنشأ ديوان الجند لكتابة أسماء الأمراء والجنود وما يخص كل منهم من العطاء . وأنشأ ديوان الخراج والحياة لتدوين ما يرد إلى بيت المال . وما يفرض لكل مسلم من العطاء . واستمرت الحالة على ذلك إلى أن قامت الدولة الأموية فتوسعت الإدارة قليلاً نظراً لما حدث في زمنهم من الفتوحات . وتعددت الدواوين والكثرة طالت أولية بالدرجة إلى وصلت إليه في العصر العباسي وهذه هي أسماء الدواوين التي حدثت في زمن الخلافة الأموية وأهم أعمالها :

١ - ديوان الرسائل : وكان لصاحبه حق الاشراف على الولايات وتصدر عنه الرسائل الى

الامراء والعمال .

٢ - ديوان الخاتم : وقد نشأ في زمن معاوية بن ابي سفيان وكان فيه ثواب مهمتهم نسخ أوامر

الخليفة وإيداعها هذا الديوان بعد ان تحزم بخيط وتختم بالشمع ثم تختتم بعد ذلك بخاتم صاحب هذا الديوان . وكان هذا الديوان اكبر دواوين الدولة الاموية ، وظلت له أهمية كبرى حتى أواسط الدولة العباسية إذ انفي نظراً لتحويل الاعمال من الخليفة الى الوزراء والامراء والسلاطين .

٣ - ديوان المستغلات : او الإيرادات المتنوعة .

٤ - ديوان الخراج : ويشبه وزارة المالية في العصر الحاضر . وقد نقل هذا الديوان الى اللغة

العربية في زمن عبد الملك بن مروان .

مالية الدولة :

كان بيت المال في زمن الخلفاء الراشدين ملكاً للمسلمين ، وكان لكل فرد من افراد الامة نصيباً معيناً يأخذه حسب قرابته للنبي او اسبقيته في الاسلام او بلائه في الجهاد ، ولما قامت الدولة الاموية اصبح بيت المال تحت تصرف الخلفاء الامويين يعطون او يحرمون من أرادوا حسب احوالهم . وكانت واردات الدولة تجني من نفس المصادر التي كانت تجني منها في زمن الخلفاء الراشدين وهي :
الغنمية والركاة والخراج والجزية والمكوس .

أما نفقات بيت المال فهي :

اولاً : رواتب القضاة والعمال والولاة والقائمين على بيت المال وسواهم من الموظفين .

ثانياً : اعطيات الجنود ، وتمنن المعدات الحربية .

ثالثاً : إنشاء الطرق ونجح القروى وحفر الآبار واعمال العمران .

رابعاً : نفقات الخليفة واعطياته للاشراف والشعراء وغيرهم .

خامساً : النفقة على المسجونين والسرى المشركين .

وكانت كل ولاية تصرف إيراداتها على مراقبتها الخاصة ثم ترسل ما تبقى بعد ذلك الى الخزينة

العامة ، وكانت حالة البلاد تختلف من ضيق الى رخاء حسب سياسة الخلفاء واهتمامهم بشؤون دولتهم ورعييتهم ومراقبة الولاء واصحاب الخراج . او حسب قيام الثورات والاضطرابات في الدولة . وقوة الدولة او ضعفها ، او حسب تقدم الفتوحات وتأخرها . كل هذه العوامل وكثير غيرها كانت تؤثر على سياسة الدولة المالية .

الجيش

لم يكن للعرب في جاهليتهم جيش منظم بل كانوا متفرقين الى قبائل تدبر كل قبيلة تحت راية زعيمها ، وقد وجد بعض التنظيم في جيوش المفازة ، والقداسة نظراً لاحتكاكهم بالفرس والروم . فكان للمفازة مثلاً كتيبتان من الجند أحدهما تدعى الدواسر والثانية الثرياء . ولما جاء الاسلام تغير وضع الجند فأصبح الجيش مؤلفاً من جميع المسلمين القادرين على حمل السلاح من مهاجرين وانصار ، وكانت قائدهم النبي (ص) في اكثر غزواتهم . واستمر الحال على ذلك في زمن الخلفاء الراشدين . إلا أن قيادة الجيوش قد انتقلت من الخلفاء الى قواد ببعضهم الخليفة من كبار المسلمين نظراً لانشغال الخلفاء في ادارة شؤون الدولة . وكان جميع المسلمين يتدربون في الجيش من تلقاء انفسهم دون اجبار او كره . أما التجنيد الاجباري فقد ظهر على الاكثر في زمن الدولة الاموية لان الفتن الداخلية اضعفت الدافع الديني للجهاد في نفوس المسلمين فانصرف كثير منهم الى مزاوله الزراعة والتجارة . واترى الكثير من المسلمين وانصرفوا عن الجهاد لما اصطلح بهد الملك بن مروان الى اجبار الناس على حمل السلاح وإلزامهم بالخدمة العسكرية . واستعان على ذلك بعامله على العراق لحجاج بن يوسف الثقفي . وأصبح الجيش في زمن الامويين مؤلفاً من عنصرين : المرتقة : وهو الجيش الدائم الذي يتناول الراد والرواتب في أيام الحرب والسلام . والمتطوعة : وهو الجيش الاحتياطي الذي كان يشكل عند الحاجة من المسلمين .

التمهيد :

كان نظام القتال عند العرب في الجاهلية هو الكر والفر : وهو ان يكر المهاجرون على خصومهم اذا مساوا منهم صففاً ثم يفرون اذا مساوا منهم قوة . فلما ظهر الاسلام وتزلت الآية الكريمة : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صففاً كأنهم بنيان مرصوص » اتبع المسلمون نظام الصفوف وهي ان ينصفوا صففاً واحداً أو اكثر كأنهم في الصلاة متراصين بعضهم الى جانب بعض ، ويطلقوا عدوهم كأنهم بنيان مرصوص . واستمر الحال على ذلك في زمن الخلفاء الراشدين فكانوا يقاتلون جيوشهم على ثلاثة صفوف متراصة تتقدمها حاملوا السيوف وخلفهم حاملوا الرماح ، ثم يليهم حاملوا السهام . والفرسان يفتون على هيئة الجيش ويسرعه ، والمعارك تبدأ بالمناجزة او المبارزة بين الافراد ، ثم يلتحم الجيشان بعد ذلك . ومن اقدم الأزمان كان الجيش يقسم الى خمسة اقسام وللكل اسمي بالجيش . وهذه الاقسام هي : البيعة ، والميسرة ، والقلب ، والمقدمة ، والساقة (المؤخرة) وكانوا يسمون الجيوش الى فرق يضعون على كل عشرة جنود عريف ، وعلى رأس كل مئة جندي نقيب ، وعلى رأس كل الف جندي قائد ، وعلى رأس كل عشرة آلاف جندي أمير ، يخضع هؤلاء بعضهم الى

بعض حسب التسلسل في الرتبة . وإذا اجتمع عدة امراء في معركة واحدة فأمر القوم من يسلمه
التأدية الراية وأمر بمقامة الصلاة بالجنود . وقد أدخل مروان الثاني آخر الخلفاء الامويين نظام الكراديس
في تعبئة الجيش .

وكان العرب يحملون معهم نساءهم للساحات القتال ويحملونهم في مؤخرة الجيش ينكروا
عليهم بالكر والفر . وكان النساء يشجعن المحاربين على القتال والاقدام ويعرضن الجرحى . ويظهر
الطعام ويجمعن السهام واحياناً كثيرة يحاربن في صفوف الرجال .
وكان المسلمون يقرأون سورة الانفال قبل بدء القتال ويرتلون الآيات القرآنية والقصائد والاشعار
أثناء المعركة وكثيراً ما كانت تدن الطبول وتقرع الصنوج في سبيل إثارة الحماسة في قلوب المحاربين .
وكان نفوذ الجيوش وامرائها فضل عظيم في إذكاء الشجاعة والاقدام في نفوس المحاربين
واليهم يعود الفضل في تنظيم الجيوش وتعبئتها وانتصارها في اكثر الاحيان . ومن امثال هؤلاء القواد
في زمن الامويين المهلب بن ابي صفرة وعقبة بن مسفر الباهلي وعبد بن القاسم الثقفي ومسلمة بن عبد
المالك وعقبة بن نافع وطارق بن زياد وسوسى بن نصير وغيرهم من القواد الذين ابلوا بلاءاً حسناً في
الجهاد ورضوا راية الامويين عالية في البلاد . (١)

أسلحة الجيش

كان الجيش يتألف من فرسان ومشاة ورماة ويحمل كل من هؤلاء سلاحاً خاصاً به . فالفرسان
يركبون الخيل والمجنون ويتسلحون بالدروع والسيوف والرماح . أما المشاة فسداحهم الدروع والسيوف
والحراب والقي والسهام مما يدل على ان الرماة كانوا فرقة من المشاة ولها أهمية عظيمة في الجيش
وذلك لان العرب مهروا في الرمي فكانت احداهم رمي إحدى فرقتي الفزان دون الاخرى . وهؤلاء
يسمون « رماة الحدق » . وكان الخلفاء والقواد يحثون رجالهم على إتقان الرماية كما يحضونهم على
العناية بخيولهم مثل عنايتهم بنسائهم . وكان للعرب اسلحة ثقيلة تستخدم في الحصار اخذوها عن

١ - اوجبوا على امير الجيش في سياسته عشرة اشياء وهي :

- (١) حراستهم من غزاة وظفر بها العلوس منهم . (٢) ان يخبر لهم موضع نزولهم لخربة عدوهم .
- (٣) إمداد ما يحتاج الجيش اليه من زاد وعطوفة وتفرق عليهم في وقت الحاجة . (٤) ان يعرف
اخبار عدوهم . (٥) ترتيب الجيش في مصاف الحرب . (٦) ان يقوى نفوسهم بما يشعرون من الظفر .
- (٧) ان يقدم ثواب الدنيا والآخرة . (٨) ان يشاور ذوي الرأي فيما أصل . (٩) ان يأخذ حيلته
بما أوجبه الله تعالى من حقوقه حتى لا يكون بينهم تجوز في دين . (١٠) ان لا يمكن احداً من
جيشه ان يشغل بخجارة او زراعة ...

الفرس والروم وأهمها المتجنيق والذبابية (١) والكبش (٢) والشارب اليوتانية . وكانت معدات الجيش
وذاخيرته تحمل على الأبل وتوضع في مؤخرة الجيش أثناء المعركة . وقد ساعد الجمل العرب في نقل
مؤنهم وذاخيرتهم إلى مسافات طويلة بصيره على الجوع والعطش والحمة لشارب الاسفار وقطع البوادي .
وكان عاملاً من عوامل نجاح المسلمين على غيرهم من الأمم التي حاربوها .
رواتب الجنند :

لم يكن للجنند في زمن النبي (ص) رواتب معينة بل كانوا يأخذون أربعة أخماس التي والغنمية .
إلى أن قام عمرو بن الخطاب وتوسع المسلمون في الفتوحات وكثرت الأموال بأيديهم ومالت نفوس
بعض المسلمين إلى الراحة والعمل بالصناعة والزراعة ، فبعت الخليفة عمر مناديه بنسائي في المسلمين
« إن عظامهم قائم وإن رزقهم سيالهم سائر فلا يزعمون » . وأسس ديوان الجنند وسجل فيه أسماء
المسلمين وجعل لكل منهم عطفاً خاصاً من بيت المال ، أضف إلى ذلك ما كان يدفعه إلى الجنند
وأولادهم من العطايا والحبوب . وظل الأمر كذلك إلى أوائل العصر الأموي . فقام معاوية بفرق
الأموال على جنده وزاد في رواتبهم ليجلب إليه قلوبهم لينضموا إلى حزبه ، وبلغ راتب الجنندي
في زمانه ألف درهم في السنة أي نحو ضعف راتب الجندي في أيام عمر بن الخطاب . هذا عدا ما كان
يعطيه معاوية لرؤساء الجنند والأمراء من المنح والهدايا ، وما كانت تقدمه الدولة للجنود من الإلاح
والخبرة . وقد تاهت رواتب الجنند بعد معاوية لأن حكم الأمويين قد توطئ وثبت أو كانه .
ومع ذلك فقد ظل راتب الجندي العربي أكثر من زميله الجندي الأيراني .
معاملة الخلفاء الأمويين للجنند :

كان الأمويون من أشد الدول على جنودهم وهم في أحسن جنداء لأن المشايخين عرفوا بطاعة
السلطان من بين جميع أهل البلدان ، وبهم يضرب المثل في الطاعة والمشايعه . قتلوا وإتوا وريت زناد
معاوية بأهل الشام لأنه كان في أفروع جند منهم ، والطاعة أول خلة يسلكها جندي وبفضل هذه
الصفة المستحقة رفعت أعلام الأمويين في الصين من بلاد الشرق ، وفي الأندلس من بلاد الغرب
وما بينهما . وكان الأمويون إذا عرض لجيوشهم شي من الضعف يرمونها برجل قوي الشكيمة ،

١ — الذبابية هي آلة سائرة تتخذ من الخشب المصنوع المتكسر وتختلف بالبود أو الجلود المنقعة في الخل
لذوق النار ، وتركب على عجل مستدير وتحرك .

٢ — الكبش : هو كالدبابية ولكن رأسه في مقدمه مثل رأس الكبش متصل في داخل الذبابية
بعمود غليظ معاني بحال تجري على بكر معلقة بسقف الذبابية لسهولة جرها يستخدم هذا العمود
لثقب الاسوار وتهديمها ويحمي الرجال الذين يدفعون العمود تحت سقف الذبابية .

فيرد هاجها ، ويجمع على الطاعة قلوبها كما فعل زياد والحجاج والعراق ، ولولا شدتها لخرج ذلك القطر عن طاعة بني أمية .

وكان النعمانيون أكثرية الجيش الشامي ، وعليهم جبل اعتماد رأس بني أمية في الشام . وكان بعض الخلفاء يقرّبون القيسيين ويدخلونهم في عداد جندهم . وكان الأمويون في الأيام العصية يجنّدون الشباب واشتد الحجاج حتى جند المختلطين ومن انت من الصبيان .

وقد استخدم الأمويون أهالي البلاد المفتوحة في جيوشهم من البربر والفرس والترك وغيرهم من الأقوام إلا أن العنصر العربي كان المميز على جميع هذه الأقوام وكانت القيادة بيد العرب . وهذا ما يميز العصر الأموي على غيره من العصور .

الأسطول

الأسطول هو مجموع المراكب البحرية التي تعد للقتال في البحر . والمراكب الحربية عند العرب على أنواع مختلفة حسب الغرض الذي أعدت له فبعضها يستخدم للقتال ، وبعضها لحل الأقال ، والبعض الآخر للملاحة البحرية . وجميعها كان العرب يستخدمونها في أساطيلهم . ولكل نوع من أنواع هذه المراكب أسماء خاصة . وقد تطورت هذه الأنواع بحسب العصور العربية واكتفي يوسف مراكب القتال التي كانت في العصر الأموي فقط . إلا أن شكل المراكب بصورة عامة كان كما وصفه لنا ابن خلدون « المراكب أجرام هندسية صنعت على قالب الخوت ، واعتبار سبحة في الماء ، بقوامه وكلكله ، ليكون ذلك الشكل أعون لها في مصادمة الماء ، وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التي للسماك تحريك الرياح وربما أضيف بحركة المفاديف كما في الأساطيل » .

ومن مراكب الأسطول أذكر :

أولاً الشونة :

الشونة مركب معد للجهاد في البحر ، يحمل فيه المفاتلة والرمات والجذافون ، ويكون مع المفاتلة أسلحتهم وعددهم الحربية . وفي الشونة أبراج (١) وقلاع (٢) ، ومنابر ونوايت (٣) ومنجنيقات

١ - الأبراج : هي الأبنية الخشبية التي تبنى على ظهر المراكب ليضرب عليها الحاربون ويقاتلون منها الأعداء ، وكثيراً ما كانت هذه الأبراج محاطة بالجلود المسقاة بالنخل أو المطاية بالطين والأدوية التي تمنع النار من احراقها . ٢ - القلاع : هي امكنة خشبية تكون في المراكب تحصن بها المقاتلون من سهام الأعداء ويرمون منها القليل والنفط . ٣ - النوايت : هي صناديق كبيرة مفتوحة من أعلاها يصعد اليها الرجلة قبل استقبالهم العدو فيقيحون فيها للاستكشاف ومعهم حجارة صغيرة في غللة معلقة بجانب الصندوق فيرمون العدو بالحجارة وهم مخبئون بالصناديق .

ومرامي فقط (١) وتقاين بأيديهم مثاقب يسبحون تحت الماء ليثقبوا سفن الأعداء عند اشتباك القتال
 وبين الشون بالاعلام قبل ذهابها للحرب. ويتنكبوا كرمها جماعة من الجند الأقوياء مرودين بأحسن
 الأسلحة يقفون سهواً على إراجيحها المؤلفة من طبقات وأيديهم قسيهم وسرايهم. وفي الطبقة السفلى
 من الشونة يكون البحري والجذافون يعملون على تسيير الشونة. وفي بعض الشون أكثر من مئة
 جذراف يعمل على الجذراف الواحد رجلان والشونة سريعة الجري. سهله الحركة قوية البناء، بنيت
 خصيصاً للقتال وغزو السواحل. وتقطع الطرق على سفن العدو وأخذها وسلب ما فيها. وقد وصفها
 أحد الشعراء بقوله:

أُنشأت شواني طائفة	وبنيت على مائة مسدنا
ببروج قتال تحسبها	في ثم شواغيبها قننا
ترمي ببروج أن ظهرت	لعدو، عورقة بطننا
وتنقط بعض تحسبها	ماء وبه نذكي السكتنا
ضمن التوفيق لها طفرأ	من هناك عدائنا ما ضعننا.

وكان في مقدمة الشونة حديدة رفيعة تدعى اللجام (٢) تثب بها جوانب سفن الأعداء إذا
 صدمتها بعتف.

ثانياً: البارجة:

إن كلمة بارجة عورقة من الهندية - بيرة - وهي سفينة كبيرة من سفن الحرب تستخدم في بحر
 الهند كالشونة في البحر المتوسط، كان الهنود يقطعون على المسلمين طريقهم بهذه البوارج، ثم
 اتخذها العرب في هذا البحر في فتوحاتهم البحرية في خليج فارس والهند.

ثالثاً: الخرافة:

الخرافة هي سفن فيها مرامي فقط يرمى بها العدو في البحر وهي مراكب حربية كبيرة فيها العرادات ٣

١ - كان النفط يرمى بآلة تدعى - الخرافة - وهي الأنبوبة من نحاس تجعل في السفن وتثبت
 منها نار النفط بأرصاد ودخان شديد يحرق سفن العدو.

٢ - اللجام: حديدة طويلة عمودية الرأس وأسفلها يحرف كسنان الرمح، تدخل من أسطفا
 في خشبة كالقناة بارزة في مقدم السفينة، يقال لها - الأسطفا - فيصير اللجام كأنه سنان الرمح يبرز
 في مقدمة المركب يطعنون به مراكب العدو فلا يلبث حتى يخرق فينصب فيه الماء.

٣ - العرادة: آلة أصغر من المنجنيق، يرمى بالخرافة أو السهم مرامي بعيدة وتسمى أيضاً
 بقذور النفط أو المقارب وما إليها.

والمتجنيقات والزرقاء التي يرمي بها النفط المشتعل على الأعداء . فهي اذن مراكب مسخرة بالمواد المحرقة . وأول من استعملها اليونان وكانوا يقدفون بالنار اليونانية منها . ثم أخذها عنهم العرب وكانت تسمى بالمجاديف ، وركب النافطون فيها لابسين ثياباً تقيهم النيران ١ وقد أطلق اسم الحرافقة فيها بعد على مراكب النزع التي يركبها الخلفاء في المسجلة والنبل ، وقد صنع للخليفة الأمين حرافات بشكل النيت والعقاب والمدفين مزينة أحسن زينة بالكسوة الجليلة والستور الفاخرة ٢

رابعاً : الطريقة :

مراكب النقل كانت تستعمل في الأسطول لحمل الخيول والفرسان . وأكثر ما يجعل فيها أربعون فارساً . وكانت على الأكثر مفتوحة من خلفها يركب الفارس فرسه في جوفها وتترع ثم يخرج للبر . وكانت تسمى بالمجاديف على الأكثر .

هذه هي أم سفن القتال في زمن الأمويين وكانت ترافق هذه السفن زوارق وقوارب وسنابل صغيرة وكبيرة تستخدم لانزال الرجال الى السفن وحملهم الى البر ونقل المعدات والمؤن . وأهم المعدات التي كانوا يحملونها هي السلاح على أنواعه والجلال واللاسسل والكلاليب التي تستخدم عند التحام الطرفين في وقت المعركة . فإذا دنا من سفن عدوهم انقوا الكلاليب عليه فيوققونه ثم يشدونهم اليهم ويرمون عليه الألواح كالخسر ويدخلون اليه ويقالون في داسل مركبه وإذا كان العدو قوياً أبطل عمل الكلاليب بنأس ثقيل من فولاذ ، يضربون به تلك الكلاليب فتقطع وتنجو السفينة .

١ - ثياب النفاطين : هي ثياب تعلّى من الداخل والخارج بمواد متخذة من الشادر والشب المصري ، والناني ومواد أخرى ... فإذا التهمت النار في الثوب لانزال مشعلة فيه وانت تنضح على الثوب من النفط ساعة بعد ساعة يومك أجمع ولا يصل الى داخل الثوب شيء ، ولباسها الرجال اتقاء النار في القتال .

٢ - وصف أبو نواس هذه الحرافات بقوله :

سخر الله للاميين مطايا	لم تسخر لصاحب الخراب
فإذا ما ركابه مرت برأ	سار في الماء راكب ليل غاب
عجب الناس إذ رأوه على صو	رة ليل يمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوه مرت عليه	كيف لو أبصروك فوق العقاب
ذات زور ومنير وجناح	من تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير في السماء إذا ما اس	تملوا بحيشة وذهاب
بارك الله للاميين وابقا	وأبقى له رداء الشباب

دار الصناعة

دار الصناعة^١ هي مكان قاعد لانشاء المراكب البحرية ، وفيه عمال ومستخدمون يقومون بالأعمال الضرورية من بناء وانشاء للسفن وصنع أدوات ومعدات لها ويتناول هؤلاء العمال الجورح من خزينة الدولة . والخشب هو الأساس في صنع المراكب إلا أن وصل الألواح بعضها ببعض يحتاج لربطها بمسامير من حديد أو ألياف بعض الاشجار الخاصة . ولذلك تعتبر هذه الصناعة من نوع « التجارة » كما يقول ابن خلدون . وبعد صنع المراكب تطلق بالقار^٢ او بغيره من المواد حتى لا تنفسد ولا يدخل لجوفها الماء ، أو لسد خرزها ولتطرية أعوادها .

كيفية صنع السفن

لم يكن المسلمين في بدء عهدهم خبرة في صنع السفن وركوب البحر وسبب ذلك في رأي ابن خلدون يعود الى « ان العرب لبداءتهم لم يكونوا اول الامر مهرة في ثقافته (البحر) وركوبه ، والروم والافرنجة لم يرستهم أحواله ومرباهم في التغلب على اعواده مرتوا عليه ، فأحكوا الدراية بثقافته . فلما استقر الملك للعرب وشيخ سلطانهم وصارت أتم البحر خولاً لهم ونحت أيديهم وتقرب كل ذي صنعة اليهم ببلع صناعته ، واستخدموا من الثواني في حاجتهم البحرية أمماً وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته ، استحدثوا بصراء بها ، فتأقت نفوسهم الى الجهاد فيه ، وأنشأوا السفن فيه والشواني وشحنوا الاساطيل بالرجال وامطوها المساكير والمقاتلة لمن وراء البحر من اهل الكفر ، واختصوا بذلك من محالكم وتغورهم ما كانت اقرب الى هذا البحر وعلى حلقته ، مثل الشام وافريقية والمغرب والاندلس » .

وصناعة السفن تحتاج الى خبرة في الهندسة وإلى معرفة التناسب في المذاير لاجراج التي ، على وجه الاحكام لذلك لا يستغنى فيها من الرجوع الى المهندسين ولذلك استخدم العرب الفنيين سكان الساحل السوري في صنع مراكبهم ، حتى اتقوا الصنعة بأنفسهم وصنعوا مراكبهم . والسفن التي صنعها العرب على قسمين منها سفن مجهزة ، أدخل في بنائها المهار وهي سفن

١ — ان كلمة Arsenal الاوربية مأخوذة من لفظ دار الصناعة العربية . وقد اخذ الاراك هذا اللفظ عن الاوربيين فقالوا : ترسانه او ترسانه . ثم استعمل العرب اللفظ التركي ظانين أنه كلمة آتية عن الاوربية . والحال ان مصدرها عربي :

٢ — القار مادة سوداء يطل بها سفن البحر المتوسط ويؤتى به من جهة العراق وفي البحر الهندي والاحمر وخليج فارس حيث لا يصلح القار لدهن المراكب كان أهلها يدهنون سفنهم بدهن الخروع ودهن القرش وهو شحم بعض الحيوانات . لأن صنع سفنهم يقتضي ذلك .

البحر المتوسط . ومنها سفن الخيطة بحمال الخيف كسفن بحر القلزم (الأحمر) والمحيط الهندي والخليج الفارسي .

أما السفن المسارية : فيبدأ بإنشائها أولاً بقرب البحر على قاعدة أو مسطبة ويبدأ أولاً ببناء قوس المركب أو أساسه ثم يكمل الانشاء داخل البحر إلى أن يتم . وتجرى حفلة رسمية عند انتهائه يحضرها الخليفة والأمراء والقواد والجند وجماعة الناس ويكون يوم مشهود لما تقوم به البحرية من الألعاب والناورات ويخلع الخليفة على رجله الخلع والهدايا والأعطيات .

أما السفن الخيطة : فكانت تصنع بأن ينقب الألواح بمنايا من نهايتها بواسطة بخريز من حديد ثم تحاط بأمراس من القناري « وهو قشر جوز النارجيل يفتلون منه أمراساً يخيطون بها الأمراكس » وبعد ذلك يخلون بها بدمر من عيدان النخيل ثم يسقونها بماء يسمون الطروج أو القرش ثم يرمونها إلى البحر .

مراكز دور الصناعة

كانت دور الصناعة تبنى في السواحل قرب مصاب الأنهار ، لا سيما في الأماكن التي تتوفر فيها الأخشاب كالصنوبر والسديان والأرز وغيرها من أنواع الأخشاب . وكانت تتوافر في المتوسط أحسن المناطق لبناء مراكز الصناعة . لذلك تبنى الأمويون دور الصناعة فيها . وكانت هذه المراكز أيضاً ملجأ للأسطول في غزواته يخرج منها للقزو ويعود إليها . وأولى دار صناعة بنيت في ساحل الشام كانت في تقرعكا وذلك في زمن معاوية بن أبي سفيان سنة (٤٩) هـ لأنها بعيدة عن تأثير الأسطول البيزنطي الذي كان لا يتوانى عن غزو ساحل سورية وإيقاع الضرر بمراكز المسلمين . وما زالت عكا مركز الصناعة حتى زمن بني مروان فنقل هشام بن عبد الملك الصناعة إلى صور . وكانت مدينتي طرابلس وحيفا تشارك عكا وصور في صنع الأمراكس في زمن الأمويين . وكذلك كانت بيروت مركز صناعة الأمراكس في زمن معاوية ومنها جبر الأسطول الذي غزا بدمشقة فيرمس . أما في مصر : فكانت الإسكندرية مركز الصناعة في زمن الخليفة عثمان ومنها خرجت أمراكس عبد الله بن سعد بن أبي سرح للاشتراك في معركة ذات الصواري .

أما في شمال إفريقيا : فكانت تونس مركز الصناعة في زمن عبد الملك بن مروان وهو الذي أوثر لعامله حسان بن النعمان أن يتخذ دار الصناعة فيها لإنشاء الأمراكس والآلات البحرية ليحافظ على مراسم الجهاد .

أما في الأندلس : فكانت الربدة دار صناعة الأمراكس وهي مدينة مسورة على شاطئ بحر الزقاق وأسوارها عالية وقلاعها متينة شامخة وحولها الجبال المرتفعة . وكذلك دانية : كانت مركز إنشاء

واقعة بشرق الاندلس على البحر وعليها سور حصين ، وسورها من ناحية المشرق في داخل البحر ،
وقد بني هندسة وحكمة والسفن وارادة عليها سادرة ومنها كان يخرج الاسطول لغزو . وكذلك
طرطوشة : الواقعة على نهر الابرة وبها انتاء لسرا كتب الكبار من خشب جبلها . وبها لها خشب
الصنوبر الذي لا يوجد له نظير في الطول والقسط ومنه تتخذ الصواري وهو خشب احمر صافي
البنرة بعيد عن التغيير لا يغسل في الماء ما يفسده في غيره من الخشب . وعلى المدينة سور مخفر
من بناء بني امية وهي باب من ابواب البحر ...

ولاحظ ان مراکز الصناعة كانت محصنة بنى الخلفاء والولاة حولها الاسوار المرفعة والمنفذ
الحقيقية والاراج القوية ليضافوا اليها من غارات الاعداء .

وكان عمر بن الخطاب اول من شدد على عماله في تحصين السواحل فكتب الى معاوية بن ابي
سفيان بأمره : في مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها واقامة الحرس على منظرها واتخاذ المواقيد لها
ولم يأذن له في غزو البحر فلما قام عثمان كتب الى معاوية : بأمره بتمحصين السواحل وشحنها
واقطاع من ينزل ابها القطائع فذل . . . ثم ان الناس بعد ذلك انقلوا الى السواحل من كل ناحية
واستمر معاوية في تحصين السواحل وبناء الحصون عليها في ايام خلافته فحصد جبهة وانظرطوس
ومرقية والنياس وبني حصن سفيان قرب طرابلس وبني جدة وكانت مرسأ الروم جلبوا عنه . واصلح
مدني شكا وصور قبل شعابه لغزو قبرس . وقام عبد الملك باقسام ما يدأ به معاوية واصلح ما خرب
من الحصون والمدن الساحلية ولا سيما سكا وصور وحصن طرابلس . وكذلك فعل عمر بن عبد
العزيز الذي بنى وحصن مدينة القاذية الا ان العمل لم يتم في زمنه بل في زمن يزيد بن عبد الملك
وعما قلله الإدري عن احوال الامويين الاملاحية ما بقي . فل كانت بنو أمية تغزو الروم بأهل
الشام والجزيرة . وتقيم المراكب لغزو وترتب الحفظة في السواحل .

قيادة الاسطول

ان قيادة الاسطول لا تنفصل عن قيادة الجند فكلاهما مكمل للآخر وادارتها تقع على الاكثر
فصل واحد وجماعة واحدة يقول ابن حلدون : قيادة الاساطيل وهي من مراتب الدولة وخطتها في
ملك المغرب والفرقية ومرويسة لصاحب السيف ولحق حكمة في كتاب من الاسوال . ويقول
ابن خردادبة : « والمرو للجميع امور المراكب الشامية والمصرية صاحب الثغور الشامية » وكان
جند الاسطول يتبعون من فرق الحرس البري . فمعاوية بن ابي سفيان « دار يقضي البحر باليمية
والير بالقيسية » فذل ذلك على اليمية لان القيسية من حضر . فعاينوه طبع بين القبيلتين
واغرام معا .

والقيادة في الاسطول على نوعين : نوع يختص بإدارة الجند والمسكر الحارب وهذه تبقى كما هي في الجيوش البرية . والنوع الآخر يتعلق بإدارة سفن الاسطول وهذه لها رتب خاصة أعلاها رتبة أمير البحر^١ : وهو أمير كبير من اعيان الامراء والقوام جأشاً يكون على رأس الاسطول ، يقول ابن خلدون : « فإذا اجتمعت الاساطيل لغزو محفل أو غرض سلطاني مهم تسكرت بمرافئها المعلوم وشحنها السلطان برجاله والمجاد عساكره ومواليه وجعلها لنظر أمير واحد من أعلى طبقات أهل مملكته يرجعون كلهم اليه ثم يسرحهم لوجههم ، وينتظر إياهم بالفتح والغنيمة . »
وتحت إمرة أمير البحر رئيس البحرية ويقال له الرئيس أو الريان ، أو المعلم ويكون له ميزة تسيير المراكب وإجرائها بالريح أو بالمجاديف . وقيل : يدبر أمر الجند والقوات في البحر .

ومن مشاهير رجال الاسطول العربي في العصر الأموي عبد الله بن قيس الجاسي الذي فتح قبرص سنة ٦٤٨ هـ وغزا خمسين غزوة بين شامية وصائفة في البحر والبر وكان لقتله حادثة غريبة « خرج في قارب طليعة فأنهى إلى المرفأ من أرض الروم وغايته مساكين يسألون فتصدق عليهم فرجعت امرأة منهم إلى قريبها فقالت للرجال هذا عبد الله بن قيس في المرفأ ! فثاروا اليه فجمعوا عليه فقتلوه بعد أن قاتلهم وقيل لملك المرأة بعد . بأي شيء ترفنيه ؟ قالت كان كائنجر ، فلما سأته أعطاني كالمك فعرفته بهذا » وكان عبد الله يصحب زوجته معه في غزواته في البحر كما كان يفعل غيره من العرب .

وهناك عدد كبير من أبطال العرب نبغوا في البحرية لا حاجة لعدداهم وقد رفضوا علم الاسلام غالباً فوق لجة البحر حتى خافهم الروم وغيرهم من أمم البحر المتوسط .

فن العمارة

أخذ العرب فن العمارة في بدء تكون حضارتهم عن الفرس والبيزنطيين ، وكيفونه حسب حاجتهم ومعتقداتهم ، واستخدموا البنائين والصناع من سكان البلاد المغلوبة في بادي الامر ، الا أنهم وجبهم في عملهم حسب الذوق العربي والطريقة العربية فثأ من ذلك فن له ميزاته وخصائصه التي تختلف عن المصادر الأولى التي صدر عنها .
فن العمارة في الاسلام :

كان عند العرب قبل الاسلام بعض الفنون لاسيما فن البناء ، فأهل اليمن بنوا السدود والقصور والهيكل والقلاع والاسوار ، ومنها سد مأرب وقصر غمدان . وكذلك عرف الانباط والتدمريين

١ - أخذ الاوربيون هذا اللفظ عن العرب واستعملوه في لغتهم فقالوا : Amiral .

رقياً عمرانياً عظيماً ولا تزال آثار مدينتهم في البصرة وتدمر جامعة حتى الآن . وكذلك آثار
الساسنة من قصور واقواس نصر ، وكنائس وحمامات ومسارح باقية حتى الآن في أرض حوران
والاردن . أما الفنيقيين في الحيرة فقد عرفوا بقصرى الثورونق والسدير . أما بقية القبائل العربية
فكانت نكره المعيشة في القصور وتحتقر الصناعات ولذلك آثروا حياة الصحراء تحت الخيام وعاشوا
على تربية انعامهم ومنتجاتها .

ولما جاء الاسلام لم يهتم المسلمون في بدء امرهم بفن البناء لانهم كانوا مشغولين بشعر الاسلام
وأول المباني التي قام بها النبي (ص) هي المساجد وتابعه على ذلك الخلفاء الراشدون من بعده .
فكانت ابينتهم بسيطة بعيدة عن الزخارف والاشكال المصورة . مبنية من الطين الجوف والخشب
سوى ما بني في زمن عثمان بن عفان وقد تابع الولاة الخلفاء في ذلك فابنوا المسكرات التي بنوها
لجندهم في العراق والشام ومصر وشمال افريقية : كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان وغيرها
كانت مبنية في اول الامر بالطين الجوف والطين والقصب والخشب ومنذ ان قامت الدولة الاموية
حدث تغيير في فن البناء فقلد الخلفاء الامويون الفرس والروم في عمران ابينتهم واستخدموا مهرة
الصناع والبنائين من سكان البلاد المفتوحة . وبذلوا الاموال الكثيرة في الغنى ببناء المساجد والقصور
والحصون والاسوار ونشأ فن جديد عند الامويين يختلف عما تقدمه من الفنون العربية والبيزنطية
والفارسية وهو يمثل في مبانيهم العامة والخاصة .

أما مبانيهم العامة : فكانت خالية من الفنون التصويرية كالرسم والنحت وخصوصاً رسم الاشكال
الآدمية والحيوانية واستعاضوا عنها بالكتابات لامية والآيات القرآنية ، واشكال النباتات من زهر
وورق وغصن وشجر إلى رسم الخطوط الهندسية التي تمثل مختلف الاشكال والرسوم وكان القوس
الذي استخدموه في بنائهم على شكل نعل فرس والمواويز مستديرة ...

أما في قصورهم الخاصة : فقد تسامحوا برسم الاشكال الحية التي تمثل حيوانات الصيد واشكال
الآدميين المتنوعة . وسيتجلى لنا أثر ذلك بوضوح بعض الابنية التي خلفها الامويون .

المساجد : كانت المساجد التي بنيت في العصر الاموي تتبع النمط الذي بنى به محمد (ص)
مسجده في المدينة سنة ٦٢٢ م والذي بقي نموذجاً لسائر المساجد في جميع العصور . وكان هذا
المسجد مساحة من الارض مربعة الشكل يحيط بها جدران من الآجر والحجر وقد كان هناك سقف
على جزء من اجزاء هذا الجامع حيث كان النبي يوم المصاين . ولعل الاسقف كانت مصنوعة
من جريد النخيل . وكان اتجاه القبلة يحدده المسلمون بطريقة ما . ثم اخذت المساجد تتطور مع
الزمن ويزاد في بنائها أشياء جديدة ففي سنة ٩٣٩ م كان سقف المسجد الذي بني في الكوفة

مرفوعاً على عمد من الرخام قد أُنشئ بها من قصر أحمد طوك القوس في الحجرة ، وفي سنة ٦٤٢ م كان في المسجد الذي بناه عمرو بن العاص في القسطنطينية منبر مرتفع ، وفي زمن معاوية بن أبي سفيان أدخلت المقصورة لتتصحب الخليفة من سائر المسلمين . وفي أواخر القرن السابع ظهرت المآذن ثم أدخل الخراب في جبهة القبلة وأخيراً هجئت زبانات ثانوية في بناء المساجد وهي الأيوانات والأروقة التي تحيط بالسحن ، أرضها وقبة المصلين من الطير وحرارة الشمس . فكان شكل الجامع الأخير هو كما يلي : باحة وسطى مكشوفة تعرف بصحن الجامع ، يتوسطها حوض ماء للوضوء . وحولها أروقة قائمة على عمد مرتفعة . وفي داخل رواق القبلة قاعة الصلاة الرئيسية التي تحتوي على المنبر والمقصورة والخراب الذي يرشد الناس إلى اتجاه الكعبة . ثم مائدة عالية في إحدى جوانب المسجد لإعلام المسلمين بوقت الصلاة . وأهم المساجد التي بنيت في العصر الأموي هي :



شكل (١) قبة الصخرة

قبة الصخرة :

شهدت قبة الصخرة قرب المسجد الصغير الذي بناه الخليفة عمر بن الخطاب في القدس بعد فتحها سنة ٦٣٩ م . ولذلك يسمى هذا المسجد أيضاً بجامع عمر . وهذا المسجد بناء على شكل مشعر مبني من الحجر شيدته عبد الملك بن مروان سنة (٦٩٠) م فوق الصخرة التي يروي أن النبي (ص) وضع قدمه عليها لما صعد إلى السماء ولحوق البناء فيه طاية تطهرها قديسها فيها موضوعات زخرفية بالونين الأخضر والذهبي ، والقبة محمولة على دائرة من أعمدة ضخمة من الرخام الأخضر والذهبي ذات تيجان مذهبة . وقد اتفق عبد الملك في بناء هذا المسجد خراج مصر سبع سنين .



شكل (٢) الجامع الأموي

الجامع الأموي :

كان الجامع الأموي مبعداً قبل الإسلام ، ثم صار في زمن البيزنطيين كنيسة القديس يوحنا إلى زمن الفتح العربي ، فاختار المسلمون نصفه الشرقي وفي القسم الغربي بيد النصارى . وكانوا يدخلون من باب واحد وهو باب العيد الأموي في القبة ، فينصرف النصارى إلى جهة الغرب والمسلمون إلى الشرق . ولما جاء الخليفة الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ - ٧١٥) م عوضهم عن قسمهم وجعل كامل البناء مسجداً عظيماً وكان مبنياً على أعمدة الرخام البيزنطيين : الطبقة السفلى مؤلفة من أعمدة كبار وفوقها في الطبقة الثانية أعمدة منار وفي خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بأنفسها الذهب والأخضر والأسفر . وفي قبابه القبة المعروفة بقبة النسر ، ليس في دمشق أعلى ولا أبهى منظراً ، وفيه ثلاث منائر (مآذن) أحداها وهي الكبرى كانت برجاً للروم وأقوت على ما كانت عليه وسيرت منارة . وتم بناء المسجد في سنة وفاة الوليد ، وقد جدد بنائه ثلاث مرات على أثر ثلاث حرائق نشبت فيه .

وأجمل ما وصف به هذا الجامع قول ابن مقفة الكفائي :

وكان جامعاً البديع بناؤه ملك يحرم من المساجد جميعها

دو قبة رفعت فضاعت قلعة	ومناير بنيت فحسكت معالاً
تبدو الأهلة في أعاليها كي	يبدو الضلال نسياناً وتهلاً
ويرى سقفاً بالرحاض منثوراً	يعلمو جداراً بالرخام مزملأ
وكأنها محرابه من سندس	أو أولو وزمرد قد فصلأ
وتخال طافات الزجاج إذا مدت	منه لا تحفظت عبقرياً مسدلاً
تبدو القباب بصحنه لك منلها	يبدو العرائس بالحلي تتجلى
وعلى به فؤارة من فضة	سالت أظنوها معيناً مسدلاً
ويسابه حركات ساعيات اذا	فتحت لها باب تراجع مقفلاً

وقد بنى الأمويون غير هذين المبدعين مساجد كثيرة منها مثلاً جامع القيروان الذي بُني في زمن هشام وتعتبر مآدنته الباقية حتى الآن من أقدم المآذن وهي عبارة عن برج مربع ضخيم يضيق كلما ارتفع . وبني أيضاً في زمن هشام جامع الزيتونة في تونس .

القصور :

بني الخلفاء الأمويون القصور في المدن والبادية أو ما يقرب منها . لأنهم كانوا يحبون حياة البادية ولحامون نزول العاصمة دمشق لوطوبتها التي تضر بصحتهم ولما نجد خليفة أموياً إلا وابنى له قصراً في إحدى مناطق الشام . ولا تزال آثار بعضها باقية حتى الآن .

وأقدم قصور الأمويين في دمشق قصر معاوية المعروف بالخضراء الذي استمد اسمه من لون زخرفته وتقوشه ، بُني بقرب المسجد الأموي وبني حوله قصور الأمراء الأمويين . « وكان قصر الخلافة في دمشق مزخرفاً بالذهب والوحاج والمرمر الناعم تكتنفه الحدائق الوارفة الظلال . وكانت أرض القصر مزخرفة بالسيفساء ، كما كانت الغرف مغطاة بباء الذهب ومرصعة بالجواهر الثمينة . وكانت الحفلات الخاصة في عهد هشام تعام في البهو الفسيح المباط بالمرمر المشدود بالاسلاك الذهبية ، والمفروشة بالطنافس الحمراء الموشاة بالذهب . وكان الخليفة يحضر بنفسه تلك المساءات الخائفة متشجاً بالملابس الحريرية الحمراء ومتضمخاً بالمسك والعنبر . وكان الخدم والوديعات يتشجون بثياب مفر وحلي الذهب ، أو ثياب خضر وحلي الزمرد .

أما قصورهم التي في أطراف الشام فهي كثيرة جداً بعضها جعل للصيد والقنص يسكنها الخلفاء في رحلاتهم للصيد ، وبعضها الآخر جعل للسكن كصيف أو مشى . وهذه القصور على شكل قلعة لها مدخل واحد وأسوار وخنادق حولها ، وأبراج مستديرة في زواياها وعلى جوانبها ولكنها ليست

كلها ذات صفة - سكرية ، بل بعضها له طابع مدني لا سيما في فرشته وأثاثه ، وأشهر هذه القصور :

قصر محمرا :

وهو قصر أموي يجمع بين مزايا القصور الملكية والحصون ، اكتشفه (موسيل) سنة ١٨٩٨م في شرقي الاردن . وهو بيت للصيد يُطلق ان الخليفة الوليد بن عبد الملك هو الذي شيده . وفيه مشاهد رياضية مرسومة على الجدران كالجريده وسيد الطيور والسمك ، وفيه صور تمثل الصناعات وصور رمزية تمثل أدوار الحياة في البادية والتسارع والفلسفة والشعر وخليفة جالس على العرش وحوله رجال ونساء وامرأة مريانة محلاة بالؤلؤ ، وفيه صور اشجار الكرمة والتخيل والحيوانات والطيور . . . ونحني في بنائه هندسة الروم والشميين والفرس .

قصر الحجر :

وهو من أجمل القصور التي شيدها الامويون في البادية قرب تدمر . وقد كان مكانا سكنت والصيد بين بحانه جامع وحمام في وسط ارض زراعية خصبة . وزخارفه متنوعة ، جمعت عناصر الفنون القديمة . ففي الأرومين نافذة التي فيه ينار ان توجد نافذتان متشابهتان في زخارفهما . وبين الاممودة الصغيرة التي في واجهة القصر توجد سبعة انواع مختلفة بعضها ذات اضلاع مستقيمة وبعضها مستديرة وبعضها اضلاعاً معوجة أو شبه جذوع التخيل . . . وقد نقل هذا القصر الى دار الآثار بدمشق .

وعند هذين القصرين يوجد قصر الرقط في مكانة معاوية بن أبي سفيان ، وجعل له بستانين قرياً من العراق فكانوا يبنونه بالحصى والآجر . وارتفع ثمن البناء في الحجاز حتى ردوا ان معاوية اشترى داراً بالمدينة يستين ألف دينار ، كان صاحبها قد اشترها فلما يذكرون بزي خمر . ويردون مع ذلك انه قيل لصاحبها : « قد غبنك معاوية » . ويوجد أيضاً قصر النازلة وقصر الطوبا ، وقصر المشي في شرقي الاردن ، وقصر هشام بن عبد الملك في الرصافة (جنوبي الرقة) وغيرها من القصور الكثيرة .

هذه هي أهم قصور الخلفاء . أما مباني عامة الناس فكانت في الشام تعمر على الطراز البيزنطي وفي العراق تشاد على النمط الفارسي . أما في الحجاز فكانت تبنى على الفطرين معاً . فكانوا يزينون البناء ويحسونه من الظاهر والباطن ويستخدمون الحجارة المختلفة الالوان حتى تنبئ الشعراء بهذه القصور لا سيما التي كانت بالعقيق في وادي المدينة . . . وقد اتسع البناء في العروق حتى كاد يفسد جمال عرسته الشهيرة ، فمع بسوامة البناء فيها ضناً بها وحفاظة على جمالها .

الحياة الاجتماعية

كانت طبيعة عرب الجاهلية وأخلاقهم نتيجة لأساليب معيشتهم وأقاييمهم ، وكان أهم ما انتصفا به من الطباع هو العصبية القبلية ، والشجاعة والكرم والوفاء ، والنجدة والمروءة وحب الاستقلال واحترام الشيخوخة والاختصاص بالثأر . وقد اشتهر من بينهم أفراد اختصوا ببعض هذه الصفات حتى ضرب المثل فيهم ...

ولما جاء الإسلام بقي كثير من هذه الصفات عند العرب ، وتمثل بعضها حسب مقتضى الدين الحنيف ، لا سيما العصبية القبلية التي استبدت بجامعة الدين ووحدة المسلمين على اختلاف طبقاتهم وأجناسهم وديارهم بعضهم مع بعض .

ولما جاء العصر الأموي طاشت العصبية القبلية من جديد ، وشجع الخلفاء بعض القبائل على الأخرى بتقريب رؤسائهم وأعطائهم الأموال . وظهرت حياة جديدة في قصور بعض الخلفاء ، فوامها القدر واستمال الدم ، وتقرب الجواري الأجنبية وتقاليد الأعاجم في حياتهم الاجتماعية ، فقد قال ابن خلدون : « وأهل الدول أبدأ بقلوبهم في طويع الحضارة وأحوالها الأدولة السابقة قبلهم ، ومثل هذا وقع لأرب ما كان الفتح ، وملكوا فارس وأروم . واستخدموا بناتهم وأبنائهم ، ولم يكونوا لذلك العرب في شيء من الحضارة . فقد حكى أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقعة ، وعثروا على الكافور في خزائن كسرى فاستعملوه في تزيينهم ملحا ، فلما استعملوا أهل الدول قبلهم ، واستعملهم في مهمهم وحاجات منازلهم ، وأخذوا منهم الميرة في أمثال ذلك أفادهم عسلج ذلك ، وأقبلوا على محله ، والتفنن فيه ، مع ما حصل لهم من النسيج العباسي ، والتفنن في أحواله ، قبلوا الفاية في ذلك ، وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال ، واستجداد المطاعم والمشارب والملابس والمباني ، والأسلحة والفرش والافتية ، وسائر الناموس والخرشي . وكذلك أحوالهم في أيام المباشرة ، والولائم والمباني الأعراس . فأنوا من ذلك وراء الفاية . ولما أخذوه عن حضارة الأمم المغلوبة : بناء الحاميات والقصور . واستخدموا الوصيفات في البيوت ، وتطير الحمام ولعب الشطرنج والتمرد في النوادي ، وسببجي أثر هذا التطور عند العرب في وصف نظام معيشتهم .

أولا . البباس :

كان الخلفاء الراشدون يكتفون بالبباس البسيطة وهي عبارة عن وشاح أبيض وعمامة بيضاء . إلا أن ولاتهم تأثروا ببباس أهل البلاد المفتوحة . يروى أن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي موسى الأشعري بوجعه فقال : « وقد بلغ أمير المؤمنين أنه طشت أن ولاه أهل بئلك هيئة في لباسك ومطعمك

ومركبك ليس للمسلمين مثلاً ، ولما أتى عمر بن الخطاب معاوية عند مجيئه الى الشام ، ورأى ربه من
السيّد والعدة وما فيه من ابهة الملك استنكر ذلك وقال : « اكسروية يا معاوية » فقال : « يا أمير
المؤمنين ، انما في ثغر تجاه العدو ، وبنا الى مبايعاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة » وروى بن الخليفة
عمر انه قال : « انزروا وانزلوا واتعلوا واحنفوا ... ودعوا التزم وزني العجم » .

ولما آل الامر الى الخلفاء الامويين اتخذوا دور الطراز لصنع ملابسهم وزينتها . وكانوا يحرقون
على أن يظهروا بأحسن هندام وأجمل زينة فكانوا يخرجون الى المساجد لابسين ملابس وعملات
بضاء منضدة بالجواهر الثمينة ويرسم خاتم النبي (ص) والفضيب اشارة للخلافة . واذا ذهبوا الى الحج
تجسروا معهم نساءهم وجوارسهم عليهن الجلابيب والسياب المعصورة التي هي فتحة للناس . وكان بعض
الخلفاء لا يلبسون القميص الا لبسة واحدة . الا ان يكون القميص نادراً معجباً . وكان عملهم
يرسلون لهم هذه الانوار والحلل من ولايتهم من اليمن والشرق والغرب . وروى ان هشام بن
عبد الملك كان مغرمًا بالزينة والهندام حتى زعموا انه لم يكن في بني مروان اعطر ولا البس منه .
وانه خرج حاجاً فحصل ثياب ظبره على سنية جل .

وكان الامويون لا يظهرون في الحفلات امام الناس الا بأحسن الثياب . قيل ان الوليد الثاني كان
يقشع بالانوار الحورية المشجرة والموشاة بالقصب والبراويل المصنوعة من الحرير والدمقس . وتقلد
الاثرائ بالخلفاء — لان الناس على دين ملوكهم — فكانوا يلبسون القلائد ورفيق الثياب
ومصيفاتها ، وتينها وحفيلها حتى قيل ان مروان بن ابان بن عثمان كان يلبس سبعة قمص كأنها درج
بعضها أقصر من بعض وفوقها رداء عذلي بالني درهم .

ولم يكن النساء أقل حظاً من الرجال . فقد انفتحت بعض النساء الى الزين في الثياب المونة
الشفافة ، واعتنيت بهن عاهلن وهياتهن ، وورعين في اقتناء الحلي الكريمة ، واللاقي ، وانواع الملبس
وكن يزين بها .

وكان بعض النساء يلفن بقصيف شعورهن على شكل خالص . وكانت بعضهن يضعن على
وجوههن الحجب او الحجر الرقيقة بقصد الزينة .

ثانياً الطعام :

كان طعام العرب في بدء عهدهم بسيطاً وهو عبارة عن الالبان والتمر والخبوز واللحوم . وكانوا
يسعون منها اطعمة مركبة كالتريد من اللحم والبن والخبز ، والعصيدة : من البن والدقيق ،
والوضيمة : من الدقيق والعسل والسمن . وعندما قدمت الفتنوعات تعلموا انواعاً جديدة من المأكلي
وتفننوا بمعالجة اللحوم بالالبان والقطار والكمائل على اساليب شتى . وقد حاول الخليفة عمر صد

الناس عن طعام الاعاجم والاكتفاء بما كل العرب الا انه لم يفلح لان الناس تطوروا مع الزمن .
وعندما قامت الدولة الاموية زادت رغبة الناس في تنوع الطعام حتى قيل : ان العرب لا تعرف
كثرة الاوان في اطعمتهم ، إنما كان طعامهم الاحم يطبخ بالساء والملح ، حتى كان زمن معاوية
فاتحة الاوان ، وجرى بقية الخلفاء الامويين على نهجه وزادوا عليه فسكان سليمان بن عبد الملك
يصحب معه طبائخه في رحلته . نزل مرة ضيفاً في الضائف ، تقدم له جدي ودجاج هندي وحريرة
فاكل ثم نادى برئيس طعامه فقال : افرغت من غذائي ؟ قل نعم قل وما هو ؟ قل تسالون قدراً ، قل
اثنين بها فزادوا ، قال فاكثروا ما اكل من كل مرة ثلاث ايام ، واقل ما اكل لقمة .

ويمكن الخلفاء وخدمهم يتعمون بطعامهم بل كان ولايتهم اذ اسيرت على غرارهم ، حتى قل امية بن
عبد الله بن خالد وكان والياً على خراسان في زمن عبد الملك ، ان خراج خراسان لا يفي بطبخي :
وكذلك كان بقية الاشراف يستمتون بتلك هذه الحياة المترفة ، وهناك روايات عديدة في الاغاني تدل
على ذلك . الا اننا يجب ان ننتفض ساعة عامة الناس ونرى كيف كانت حياتهم ومعيشتهم . وخير
صورة تمثل بها ذلك هو ما رواه اعرابي عن نفسه قل : اذ اني دخلت قرية بكر بن اعين
الهمالي ، واذا انا بدور منبابة ، واذا خصاص بيض بعضها الى بعض ، واذا بها ناس كثير مقبلون
ومدبرون ، وعليهم ثياب حكيما بها انواع ازهر ، فقلت انفسى : هذا احد الابدان الفطرا او الانسى ،
ثم رجعت الى ما غرب من عقلي فقلت خرجت من أهلي في عتب صفر ، وقد مضى العيدان قبل ذلك .
فبينما انا واقف اتعجب ، اذ اتاني رجل فأخفني بيدي ، فأدخلني بيتاً قد نجد ، وفي وجهه فرس مبدع ،
وعليها شاب ينال فرج شعرة كنفه ، والناس حوله ساجدين ، فقلت في نفسي ، هذا الامير ! الذي
يحكى لنا جلوسه وجلوس الناس حوله ، فقلت وأنا مائل بين يديه : السلام عليك ايها الامير ورحمة
الله ، قل فخذ رجل يدي ، وقال ليس بالامير ، اجلس . قلت : فمن هو ؟ قل عروس . قلت :
واكل اماء ، ارب عروس بالبادية قد رأيتها أهون على اصحابه من ... فم البث انت ادخلت الرجال
عليها آفات مشدورات من خشب ، اما ماخف منها فتشعل حملاً . واما ما تلى فيد حرج ، فوضعت
امامنا وحلق القوم عليها حلقاً ، ثم اتينا بخرق بيض ، فالتفت عليها ، فبعت والله ان اسأل القوم
خرفة منها ارفع بها قبضي ، وذلك اني رايت لها ندياً متلاحماً ، لا يقين له سدى ولا خفة ، فلما
بسط القوم ايديهم ، اذا هو يشترق سريعاً ، واذا دنف من الخبز لا اعرفه : ثم اتينا بطعام كثير
من حلو وحامض ، وحار وبارد فأكثر منه .

هكذا كانت حالة الاعراب في زمن بني امية .

ثانياً الغناء :

كان فن الغناء معروفاً عند العرب ، سما في الجاهلية والاسلام ، وقد عرف باليمن والشام والحيرة حتى ان ابن عبد ربه قال : « وانما كان اصل الغناء ودرته في امهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشياً ، وهي المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة جندل واليمامة ، وهذه القرى بجماع اسواق العرب » ، وكانوا يعزفون على المزاهر والبرابط (١) والمردان (جمع عود) وكانت تغنيهم قيان ومغنيات روميات . الا ان فن الغناء ارتدى وزدهر في العصر الاموي لاسباب بعد ان اختلط العرب بالفرس والروم وغيرهم من الشعوب . وجاءتهم المغنيات من جميع البلاد تحمل كل واحدة فن قومها حتى اجتمع لديهم غناء الامم القديمة ، فعربود وشذبوابة مالا يتلام مع ذوقهم ، والبسود حيلة جديدة ، وصار فناً منفلاً يقصد اليه له انظمته ، وحارود ورجله ومعلومة . ودخل المجتمع العربي في مجالس الخلفاء وفي قصور الاغنياء والاشراف ودور العامة والفقراء . فآثر في نفوس قتيان العرب من الامويين فقير من خلفهم ، ولطف من مزاجهم ، ورفق من طباعهم فعمدوا الى الالوه ، واخذوا بأسبابه حتى قالوا : « لقد فهم قدر الدنيا من فهم قدر الغناء » .

وكان المغنون والمغنيات على جانب من الثقافة عظيم في فن الشعر والادب والتسير وال اخبار ، يصحبون الشعراء لينظمو لهم الاشعار فياجنوها ويغنوها . وكان اهتام الناس بالمغنين عظيم واحترامهم لهم كبيراً لاسباب في الحجاز وبصورة خاصة في المدينة ، وكان هناك ادية خاصة فيها مغنون اخصاء ، يغنون فيها مختلف الغناء .

من أشهر المغنين والمغنيات في العصر الاموي : سعيد بن مسجع ، وطويس ، والقريظ ، وجميلة ، وحبابة ، وسلامة وغيرهم . أما آلات الموسيقى فزائدة عما ذكرناه سابقاً فقد استعملوا المزمار والمعارف والطاير .

المرأة

حرصت المرأة العربية على بساطتها البدوية ، وعلى الحرية التي درجت عليها ايام الجاهلية رغم انتشار الابو والتعرف في عهد الامويين . فكان نساء العرب يتألفن الرجال ويخدمن البيوت ويعقدن المجالس للشعراء والادباء . ويضافن بينهم . ومن اشهر من النساء عائشة ام المؤمنين التي ضربت

(١) وصف اعرابي البربط فقال : « هي خشبة ميناها في صدرها فيراخيوط أربعة يدعى الاسفل منها الزبر والذي يليه الثني ، والذي يليه الثلث والا على اليم » وقال عن المعارف عليه : « فاستخرج من خلالها عوداً فوضعه خلف اذنة وعرك آداتها وحركها بخشبة في يده فتطلقت ... »

بهم وافر في الفقه ورواية الحديث ، والفن ، والفن ، والفن ، وكذلك أسماء بنت أبي بكر وقد عرفت برواية الحديث والشجاعة والكرم . وسكينة بنت الحسين وكانت مولعة بالادب ومحبة للشعر وتمتد لشعراء مجالس يمدون اليها ، ويتشددون في حضرتها فسمع اليهم ، وتقدر ما ينظمون وتروي بعض اشعارهم ، وتشرح لهم فنونهم الشعرية وتفاضل بينهم . وكانت معاصرة لعائشة بنت طلحة اديبة عصرها يجتمع اليها الشعراء ويقارون امامها وكانت متغلبة على زوجها مصعب بن الزبير وكانت هي وسكينة تسميان « عتيقي قريش » حفظنا مكانة المرأة العربية في ذلك العصر ورفعتها منامها وشأنها الى اسمي ما يصوره الغزل . وكذلك اشتهرت أم البهيون زوجة الواثق بن عبد الملك وكان لها نفوذ عظيم عليه ولها حديث طريف مع الخجاج الذي اشار على الخليفة ان يخلص من نفوذها فاجتمعت به ، فعاتبه واثته ، حتى خرج من عندها وكان بطن الارض احب اليه من ظهرها . وكذلك أم الخير رابعة العدوية التي عرفت بصلاحها وعبادتها . وهناك كثير من شجيرات النساء في هذا العصر لا يمكننا ذكرهن جميعا .

وقد اتخذ الامويون الارفة والحصيان في قصورهم ، وقد اقتبسوا هذه العادة من البيزنطيين وكان هذا مظهرًا من مظاهر الفساد في البلاط الاموي وكان لكثرة السبايا والاماء تأثير على البيت العربي لان الرجل يتزوج بمن شاء من السبايا سواء كان قد غنمهن في الحرب او اشتراهن بالمال فتمتزج الدم العربي بدم اجناس الامة المتنوعة فخرج من ذلك التزاوج جيل جديد يختلف بظواهره ونزيبته ، واخلاقه عن الجيل الاول . وكان لبعض السبايا تأثير غريب على رجال ذلك العصر حتى انهن كن ذالنس الجديد فقيرن من خلقه وطبعه فشغف بالهنو والعبث ، وماكن عليه عقله فعلق بهن وخضع لسلطانهن . حتى لم يخلص من ذلك بعض الخلفاء كيزيد بن عبد الملك وغيره وكان دخول الاماء الاجانب في البيت العربي عاملا من عوامل تدهور العرب .

الحياة الفكرية

لم يهتم العرب في صدر الاسلام بالعلوم والاداب ، لاشتغالهم بالحروب ، وفتوح البلدان وتنظيم ادارة الدولة ، وكانت معارفهم في هذا الدور ابتدائية تشبه معلومات العصر الجاهلي ، مع ما تعلموه من الاسلام من القرآن الكريم والسنة . فكانوا عارفين بالشعر والنسب ، وقيافة الامر وعلم الانواء والنجوم ، وبعض المعلومات الطبية العملية . وقد شجع النبي (ص) المسلمين على طلب العلم فقال : « اطلب العلم من المهد الى اللحد » . وقال ايضا : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » . وغيرها من الاحاديث التي تحض المسلمين رجالا ونساء على التعلم . وقد فرض النبي (ص) على فقراء امري

يذكر أنه بدأ يركب من بحرين الكتابة منهم عشرة من أبناء المسلمين ، مقابل فك أسرىهم . كجاء الى بغداد
ابن سارة الى نهج الرسول فلما فتح العراق جعلوا كثيراً ممن يحسن اللغة العربية من أهل
الحيرة يعلموا المسلمين الكتابة والقراءة . وعند ما نقل الى العصر الاموي نجد ان معارف العرب
قد اتسعت وازدادت ، إلا انها ظلت اولية ، وبقيت متفرجة بعضها بعض ، ولم تستل العلوم الا في
العصر العباسي .

وسأذكر اهم علوم العرب في صدر الاسلام وفي العصر الاموي .

القرآن :

القرآن كلام الله ، أنزل على نبيه في نحو عشرين سنة ، بلغة قرأ بها العربية . ترك تدويناً حسب
متنضيات الاحوال في مكة والمدينة ، لذلك آتاه على قسمين مكة ومدينة . وقد أنزل على النبي (ص)
بطريق الوحي ، بواسطة جبريل . وقد حفظه الله سبحانه وتعالى من كل تحريف او تبدل . وقد
اهتم المسلمون كثيراً بجمعه بعد وفاة النبي ، وكانت مفرقة في الصحف التي كتبها كتاب الوحي
والصحابة ومحفوظاً في صدر الحفاظ من المسلمين . وقد جمعت الصحف في زمن أبي بكر بتسوية
عمر بن الخطاب . وقام بجمعه زيد بن ثابت كاتب الوحي في زمن الرسول . فجمع ما كان مكتوب
منه ودون ما لم يكن مدوناً . وسلم هذه الصحف الى أبي بكر ، فبقيت عنده حتى وفاته سنة ١١ هـ
ولما توفي عمر بن الخطاب اتخاذه خلفه هذه الصحف عند ابنه حفصه زوج النبي (ص) . وفي
زمن عثمان جمع القرآن بصورة نهائية وأدخ منه ستة مصاحف . مئت الثانية بلزمة منها الى مكة ،
والبصرة ، والكوفة ، والشام ، واتي واحداً لأهل المدينة ، واحتفظ بالآخر لديه . وكانت يسمى
« الامم » وأمر الخليفة عثمان بحرق جميع المصاحف والصحف الاخرى التي كانت قبل ذلك . بقي
القرآن الكتاب الممول عليه فيما بعد من ناحية التشريع ، واستنتاج القوانين والامكام الفقهية .
ولذلك فقد اهتم المسلمون بتفسير آياته وتفهيمها ، وسريفة اسكانها ، ليعلموها في حياتهم واحوالهم .
وكانوا يتناقلون التفسير شفاهاً الى أواخر القرن الاول وروى ان عبد الله بن عباس المولى سنة ٦٨ هـ
وضع تفسيراً للقرآن . وأنت محمد الباقر كان له تفسير آخر . ولم يظهر التفسير المفصلة الا في

العصر العباسي .

الفقه :

الفقه هو العلم الباحث عن الاحكام الشرعية الفردية العملية من حيث استنباطها من ادلتها
التي هي القرآن ، والسنة ، والاجماع ، والقياس .

فانقرض : هو الأساس الذي استند اليه التشريع الاسلامي . ثم تأتي السنة بعدة (مرى لفظي على ما قلناه في (ص) أو فله أو حدث احده واستعمله . أما الاجماع : فهو اتفاق المجتهدين من ائمة المسلمين في عصر من العصور على حكم من الاحكام . لغة القياس : فهو الخلق امر يأخذه في الحكم الشرعي لا اتحاد بينهما في اللغة . وقد ظهر من الفقهاء في هذا الدور عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ، واخوه موي الاشعري وابو حنيفة النعمان وغيرهم من الفقهاء .

اللغة :
ان العلوم اللغوية في صدر الاسلام لم تكن الا منذ ايام مهديا للعصر الجاهلي . لان المسلمين كانوا مشتغلين في الفتوحات . وتوسيع الاسلام في البلاد التي فتحوها . فلم تحدث علوم جديدة في اللغة وكل ما طرأ على اللغة في هذا الدور مقتصر على ما احسنه القرآن الكريم والحديث الشريف من توحيد الالهيات ، وتهذيب اللغة . وزيادة مادتها بالفاظ تشاؤم لم يكن العرب يعرفونها ، واخرى عرفت بزمان ، فحدث بها معاني جديدة : كالزوم ، والكافر ، والمنافق ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة وغيرها . . .

ولما انتقلت الخلافة إلى الامويين تابعوا عمل الخلفاء الراشدين في توسيع الفتوحات الا انهم جعلوا من الخلافة ملكا ، فعربوا الدواوين واحسنوا ديوان الرسائل ، واستعملوا بالانجم ، فكان من ذلك تجديد في الحياة لاي لغة من ان تتسع معه وتقدم فتتبع مقتضيات هذا التجديد وتستحدثه ولذلك ظهر في اللغة كلمات جديدة والفاظ جديدة ، في جميع نواحي الحياة : في أنواع الأسلحة ، والملابس ، والمآكل ، ومصطلحات الدواوين . كما كان لاختلاط العجم مع العرب في المشاهدة والتجارة والتسرى ، ان طرق الخلل إلى لسان العرب وأخذ الفساد يصب في سائقيهم اللغوية وظهر الفصح ، وفتا في الامصار ، وتعدى الانجم وابنائهم إلى العرب الخالص ، لكثرة ما كانوا يسمعون من الخطأ ففسدت ملكاتهم . فقام العلماء بضبطون هذه اللغة فمشتت العلوم اللغوية التي ظهرت منها في صدر الاسلام والعصر الاموي عم النحو .

النحو :
النحو هو أول العلوم اللغوية التي ظهرت في الاسلام ، ويقال إن أول من فكر فيه علي بن ابي طالب وثقته لا ابي الاسود المدائني المتوفي سنة ٦٧ هـ . ثم اخذ عنه ابي الاسود جماعة الفخرا حوله ونسجوا على منواله ، وزادوا على ما جاء به ، واكثرهم بصريون لان مدرسة البصرة سبقت مدرسة الكوفة بمائة سنة تقريبا في دوس هذا العلم ، ونشأ بين هاتين المدرستين مناظرات واختلافات في

وظهر شعر أبي اسود الدقيلي من ذلك، والى هذه المرحلة الحظيلى ابن ابي اسود وهو اول من وضع مصححاً عربياً
 في كتاب العيون، واليه ينسب اصحاب التراجم استنباط حركات الشعر واهول التهور، كما ينسبون الى
 الحسين بن سعيد "سببهم" وصح اهل مصنفين من سبهم في نحوهم باسم الكتاب
 الاعراب والملاحة. ولعل سبب ظهور الشعر في العراق قبل بقية الاقطار لامتزاج المعجم بالعرب في
 هذا القطر واختلاطهم بهم قبل أن يحصل مثل هذا التامع في بقية الاقطار ولذلك كانت ضرورة
 ضبط اللفظة حاجة ماسة لابد منها. واستنبط العلماء قواعد الشعر على ما يظهر من لغات الاجنبية
 كالبرانية والبرانية. فشبط المفتوح من الحركات بسبعة واحدة فوقه، والمكسور بنقطة واحدة
 تحته، والمضمويم بنقطة بين يدي الحرف، وترت الساكين بدون نقط. وكانت هذه النقط عوضاً
 عن الحركات من فتح وكسر وضمة وسكون، التي حلت محل النقط فيما بعد. ثم اخذت بقية
 الحركات تطور بالتدرج في العصر الاموي والمصور التي تلت.

الحياة الادبية

كانت الحياة الادبية في صدر الاسلام مثمرة بالقرآن الكريم، والحديث الشريف، وذلك لان
 العرب التفتوا للدرس القرآن وفيه وعظفه، كما فعلوا ذلك بالحديث ايضا. وكانوا يرسمون خطبهم
 ورسالهم بالآيات القرآن ويلون فيها الى الابداجاز، كما كانت اشعارهم فيها بعض الانقاط والانسالي
 الاسلامية التي تحت في الجنة والنار والحساب والعذاب والبعث والشور وما لا يجد في الشعر الجاهلي
 الا ان هذا التطور الذي حصل في الحياة الادبية ليس معناه انقضاء على الاساليب والانواع القديمة
 التي كانت متبعة في العصر الجاهلي. وانما هو تطور اقتضاه الاسلام ومعالجه الجديدة.

ولما جاء العصر الاموي: تغيرت الحالة تغيراً ظاهراً في الحياة الادبية تطوراً لتحتل عوامل جديدة
 في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية. فظهرت في الحياة السياسية احزاب مختلفة تطالب
 بالثلافة ونشأ عنها ثورات داخلية. فكان شعراء كل حزب يدعون حزبهم بقصائد واشعار كثيرة
 كانت تقوم مقام الصحف في زماننا هذا. والسياسات الخلفاء الشعراء بالمال ليدعوا اصحابهم ويشيدوا
 بمنزلة ملكهم وينكروا بخصومهم ومخالفينهم. كما تغيرت المأزاة الاجتماعية: بما افقه الله على العرب من
 اموال ونروات وثرف، وشرطي، فترقت بذلك الحياة العربية من حياة البداوة الى مستوى الحضارة
 فنشأت في ظل هذه البيئة الجديدة فنون من الشعر والادب لم تكن موجودة من قبل. وكذلك
 تطورت الحياة العقائدية بما اخذه العرب من حضارة الاقوام التي ظلموها، فترك ذلك في عقائدهم ونظير
 ادارتهم وموسم ما يتعلق بها في شعرهم وشعرهم.

الثر:

جاء القرآن الكريم ثراً لا شعراً وهذا ما نفى الشعر في العصور الاسلامية وجعل الله يفت

يهتمون به أكثر من قبل وكانت هناك عوامل شتى ساعدت على رقي الثروة حاجته الخلفاء والأمراء إلى الخطابة في المسلمين في كل جمعة وفي كل مناسبة يفتضحها منصبهم الديني والسياسي . فكانت الخليفة يلقي خطاب العرش عند تسلمه سدة الخلافة ، وبأبي خطبة في كل جمعة في المسجد . وكان الأمراء يقومون بنقل هذا العمل في ولايتهم ، وكان القواد يخطبون بالجند قبل بدء القتال ، فنشأ من ذلك نوع الخطابة والزهارة . وكان الانتشاء في أكثر هذه الخطب متين العسكرة ، حسن السبك ، شديد الأسر ، موجزاً مع شيء من الإطناب في المناسبات التي تقتضي الإطناب . ومع أن أجزاء الخطب لم تكن مرتبة منطقياً . فقد كان وقعها في ألب الأحيان عظيماً .

ومما ساعد على رقي الثروة أيضاً حاجة الخلافة الأموية إلى إنشاء ديوان الرسائل ، الذي أوجد نوعاً من الثروة يعرفه العرب ، ولم يكن لهم به عهد ، وهو ما يسمى بالثروة التي ، ويقصدون به تلك الرسائل التي كانت تحرر باسم الخليفة وتصدر إلى ولاة ومعلميه في الأقاليم في شؤون الدولة . وشهد آخر العصر الأموي تفرغ من الكتاب الذين خدموا في هذا الديوان وبرزوا فيه ، وأعظمهم عبد الحميد الكاتب ، زعيم الكتاب ووضع أصول الكتابة وقواعدها . كتب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، قد حفظت عنه رسائل كثيرة ، ويخرج في هذه الرسائل شيء من تفنن الثروة في ذلك العصر ، ولعل أنظر ما في هذا التفنن امرأت : أولها طول الرسائل ، وثانيها طول الجمل ، وكثرة الترادف ، والمعطف فيها .

ولعل أنظر خصائص فن الرسائل في هذا العصر مثالة التركيب ، وشدة الأسر وحدد الداطقة ، وتكئين المعاني بأسراده سهل فكاه تكون مثقوبة في مدلولها ، ومترادفة في معانيها ، وإتقان التنبال وعدم تكلف الجمع .

الشعر :

تشجع الخلفاء الأمويون الشعراء ، وقربهم إليهم والبطون العظيمة الوافرة ، ولا يوجد خليفة أموي سوى من خرج عن هذا الميز من لم يكن له شأن أو أكثر مقرب إليه ويدفع عنه . حتى أن خلفاء بني أمية كانوا الشعراء يحيدون قول الشعر ولحم رثي في بيده وقبضه ، وقد كان لرغبة هؤلاء الخلفاء في قرض الشعر وتلاوته وقدرتهم على فهمه وقده ، وتقديرهم إياه قوة وتشجيعهم الشعراء ورعايتهم لهم وإسنانهم إليهم بأجزل المعاش ، كان لهذا كله أثر كبير في تقسيم الشعر ورواجه وانتشاره وإقبال عامة الناس عليه .

وقد الأمراء والفقراء والأمراء الخلفاء في تشجيع الشعراء وإسراع النظم عليهم ورعاية الأدب .

حتى وإن يكون منهم أدباء وشعراء ، وانتقل الشعر إلى صفوف العامة من مختلف الطبقات رجالاً ونساءً ، وعقدوا له الحلقات والمجالس في مختلف المواضع التي كانوا يجتمعون فيها ، وفي شتى المناسبات فتناشدوا في المساجد ، ولجوا بسجته في رحلاتهم وأسفارهم ، ومواسم حجهم ومبتهلاتهم ، حتى كانت تعقد حلقات خاصة للشعر في العتيق (١) والمريد (٢) وفي غيرها من الأمكنة وما أسرع ما كان يجر هذا الشعر على الأقدام ، وما أسرع ما كان ينتشر وينبع في الأقاليم ولا يكاد يفرغ من نظمته الشاعر حتى تقالقه الركبان وتسهر به إلى أقصى البقاع التي استولى عليها العرب .

وكانت الخصوصية الأدبية تقوم بين الشعراء ، ويقومها انقسام العرب إلى قيسيين وبنو أمية ، وخصومات بين الأنصار والأهالي وبنو أمية ، وخصومات بين الأحزاب المختلفة من شيعة علي بن أبي طالب ، وحزب الأمويين والخوارج والزييريين وغيرهم من الأحزاب الدينية والسياسية . وألف حول كل حزب شعراء يدورون عن حياته ، ويردون على خصومهم . فكان الأخطا مثلاً يدافع عن بني أمية ، وعبد الله بن قيس الرقيات يهاجم عن الزييريين ، وقطرب بن الفجاءة يمثل حزب الخوارج ، والكثير ابن زيد الأسدي من شعراء الشيعة . وهكذا فكل حزب شاعر أو شعراء يدافعون عنه ويشرعون آرائه ، ويدعمون سياسته . فكانت هذه الأشعار ثورة الفتن وتزيد في حدتها وشدها . إلا أنها من ناحية ثانية تصور لنا ذلك العصر أحسن تصوير فهي مدبر قباض الشكل من نوازل الحياه الأدبية والسياسية والاجتماعية في العصر الأموي .

(١) العتيق : وادي قرب المدينة يبعد عنها نحو ميلين أو ثلاثة من الجهة الجنوبية الغربية . وتحدو إليه السيول الحابطة من الجبال حوله ، فتجد فيه نهراً . فعند ما يسيل العتيق يخرج أهل المدينة فيجتمعون بمنظرة البهج وينفرد بعضهم يستحم بمائه ، ويعقد البعض الآخر حول ضفافه وعلى بساط رياض حلقات الأناض والحارب . فيستشدون الشعراء فيشددونهم من شعرهم ، ويلتصمون المغيين فيقتلونهم من غيب أنعامهم . ويؤوي بعضهم تحت غليله لأرو ...

(٢) المريد : محلة في البصرة ، والأغلب أنها كانت موضع سوق الأبل ثم عادت سوق أدب أهل العراق . فكان الشعراء يجتمعون في ساحته ويتنافرون وينهاجون ويتفاخرون ، وكان يحضر مجالسهم هذه جماعير من الناس تستمع إلى أقوالهم ، وكان المستمعون ينقسمون فيما بينهم فيميل فريق مع شاعر ويميل الفريق الآخر مع شاعر آخر وقد يجوز أن يكون بينهم شعراء فيمنون السعد المتبارين والمتهاجرين على خصومه .

العلوم الشريعة والمطالعة

التاريخ :

كانت العرب منذ جاهليتهم يحفظون الحوادث الخطيرة التي تقع عليهم وينساقونها بالرواية الشفهية جيلا بعد جيل ، كانهندهم سد مأرب ، وهجرة البائل القحطانية والام العرب ، وكانوا يحفظون انسابهم ، فمجموع هذه الاخبار كان يشكل التاريخ .

ولما جاء النبي (ص) ورغب المسلمون في تقصي اقواله وافعاله ليقتدوا بها ، فيكان من ذلك عيلم خاص هو علم الحديث . وبقي هذا العلم سائدا في زمن الخلفاء الراشدين لظلاله اشده فيهم بالافتداء باقوال النبي وافعاله . ولكن بقي المسلمون في هذا الممر يحفظون الاحاديث والاخبار بطريق الرواية الشفهية . ولم يدون المسلمون احاديث النبي (ص) واخبار الفتحوات الاسلامية الا في زمن الدولة الاموية ، لانهم كانوا قبل ذلك بصدان التاريخ ، فربما كان لهم مجال تدوين اعمالهم ، وكان التدوين في زمن الامويين في خطه الاولى ، حين ان الذي تدون في العصر الاموي لم يساندوا كما دون لرغبة عباسيين في طمس التاريخ الاموي ، ولذلك ضاع معظم ما كتب في ذلك العصر ، ولم يبق منه إلا البقية الباقية الموجودة في الكتب التي وضعت في العصر العباسي .

أما اسباب وضع التاريخ فثلاثة منها :

- ١ - رغبة الافراد في حفظ تاريخهم ومعرفة الحوادث المهمة التي تمر بهم .
- ٢ - رغبة المسلمين في حفظ اعمال النبي (ص) وافعاله .

٣ - رغبة العرب في حفظ انسابهم العربية والاسلامية . لا سيما بعد ما من الخليفة محمدين المصطفي نظام العطاء من بيت مال المسلمين للأفراد بحسب قرابته النبي واسبقيتهم في الاسلام وبلاتهم في الجهاد .

٤ - رغبة بعض الخلفاء الامويين من سماع اخبار الامم المماثلة ، لا سيما معاوية الذي كانت شغفوا بسماع اخبار ملوك الامم القديمة .

٥ - العاطفة القومية عند العرب التي نشأت بعد قيام الفرس بحركتهم الشعوبية وانقضائهم عنكم الماضي .

أما انواع كتب التاريخ العربي فهي :

اولا : كتب السير والتراجم والتعليقات : وأحد السير التي كتبت في هذا اللون هي سيرة النبي (ص) كالسير التي كتبها شروبة بن الزبير المتوفى سنة ٤٤ هـ وهو أقدم من تلك في السيرة النبوية . وكتب سيرة ابن بن عثان بن عفاان المتوفى سنة ١٠٥ هـ التي جمعها له تلميذه عبد الرحمن بن الحارث . وكانت

أخبار هذه السيرة لثقل بطون الحقد والنداء ، حتى توسع إلى زمن النبي (ص) وكانت المساهمة لمعرفة صحة السيرة عظيمة ، فنشأ من ذلك علم خاص وهو علم التصريح والتعديل ، ومن ذلك نشأت كتب خاصة عن طبقات المحدثين لمعرفة صحة كل رجل من العلم ومكانته في هذا العلم ومقدار إمكان الأخذ عنه .

ثانياً : كتب الفتوح والمغازي : وهي الكتب التي تبحث عن الحروب التي تمت في عهد الرسول بصورة خاصة ، وتفيد في معرفة معاملة أهل البلاد المفتوحة ، لأن طريقة معاملتهم تختلف بحسب قبحهم للبلد بالحرب أو بالمفاوضة والسلم . ككتاب ابن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ في المغازي وكتاب موسى بن عبيدة المتوفى سنة ١٤١ هـ في المغازي أيضاً . وكتاب ابن اسحق المتوفى سنة ١٥١ هـ وغيره ...

ثالثاً : الرسائل والمؤلفات الخاصة : وهي رسائل تبحث في موضوع خاص له أهميته في تاريخ المسلمين ، وله أثره في حياتهم كبيعة أبي بكر الصديق وقل عثمان بن عفان ، وواقعة الجمل وصفين وغيرها . وقد كتب في هذه المواضيع أبو مخنف وهشام الكوفي . وقد ضاعت هذه الرسائل ولم يبق منها إلا تنق بسيرة في الكتب العامة . لا سيما في كتاب ابن جرير التاريخي . وقد حدث أنواع أخرى لتأليف التاريخي في العصر العباسي .

الطب والكيمياء :

كان الطب عند العرب في صدر الإسلام عملياً ، أي أنهم بنتيجة تجاربهم عرفوا بعض أنواع الأمراض وعلاجاتها ، ولما قامت الفتوحات الإسلامية واختلط العرب بغيرهم من الأمم المجاورة ، أخذوا عنهم بعض المعلومات الطبية ، واشتهر من الأطباء في زمن النبي (ص) الخارث بن كندة الثقافي وأبوه نصر من بعده . ويروي عن الخليفة خالد بن يزيد الأموي أنه عمل على نقل بعض الكتب الطبية اليونانية إلى العربية ، وكان عمله فريداً من نوعه لأن بشية الخلفاء الأمويين لم يهتموا بهذه الناحية ، ولم يهتموا بعمل خالد .

كذلك انصرف خالد إلى علم الكيمياء والنجوم . ويقول ابن النديم في كتابه الفهرست : « إن الذي عني في إخراج كتب القدماء في الصنعة هو خالد بن يزيد بن معاوية ، وهو أول من ترجم لهم كتب الطب ، والنجوم والكيمياء . وله عدة كتب ورسائل فيها . وينسب إلى خالد ديوان شعر في الكيمياء ، يصف فيه عملية التفتير والتكليس يوسف جميل . ولم تزد هذه العلوم وتدرس بصورة واسعة إلا في العصر العباسي .

الخلاصة : ان العرب في صدر الاسلام والعصر الأموي قد تطوروا قليلا في سبيل الحضارة ، فكان اهتمامهم اولا بالعلوم القرآنية واللغوية . ثم بدأوا يميلون بالعلوم التقليدية والعقلية . وكانت تعليماتهم في الاكثر مستمدة من القرآن والحديث . ولم يكن للاستقباط العقلي عندهم إلا الحظ القليل . إذ كان نشاط العرب العلمي في هذا الدور منحرفا الى الناحية الشرعية واللغوية ، قد رسوا لغتهم ، وفهموا دينهم وقاموا بنشره في البلاد التي فتحوها . ولم تكن العلوم قد استقامت بعضها عن بعض ، فكان الشخص الواحد قارئاً ومفسراً ومحدثاً وفقهياً وروياً للأخبار والشعر والأدب . ولم تستقل هذه العلوم بعضها عن بعض ، وتتشكل اجزاءاً اختصاصية وتهدون إلا في العصر العباسي .

تمت

الباب الثالث

حالة أوروبا في زمن الحضرة الرومية

الامبراطورية الرومانية :

لا يستطيع احد ان يقدّر القرون الوسطى ، إلا أن يعرف شيئاً من حالة الامبراطورية الرومانية التي ظهر في ضمن حدودها البرابرة الجرمن ، ونشأت بعد تطور طويل دول أوروبا الحالية .

لم يكن حكومات مستقلة في أوروبا كما نشاهد اليوم على المصورات الجغرافية في مطلع القرون الخامس ميلادي . فجميع البلاد التي تشكل اليوم انكلترا ، فرنسا ، إسبانيا ، وإيطاليا ، كانت تملك واسعة النطاق خاضعة لامبراطور الروماني وولائه . وكانت بلاد الجرمن ، مقاطعة ملوكة بالمنازل يسكنها أقوام ثوحوشون . حاون الرومان — دون جندوي — الاسيلاء على بلادهم ، وأخيراً اكتفوا بتسج هجرات الجرمن بتحصين الحدود وبناء القلاع ، ووضع الحصانيات على امتداد نهر الرين والدانوب .

وكانت حدود الامبراطورية الرومانية تمتد على جنوبي وغربي أوروبا ، وغربي آسيا والقسم الشمالي من أفريقية ، وتضم مختلف الشعوب والاجناس من مصريين وحرب ويهود ويونان وجرمن وغاليين وريطانيين وإيريين ، وكلهم خاضعون لسلطة رومة . وقد ورثت هذه الامبراطورية الكبيرة حضارة أثينا والاسكندرية وإيطاليا وقرطاج ، وسواء عاش الانسان في انكلترا او في بيت المقدس او في قرطاج او فينا ، كان عليه ان يذبح ضريبة خراج رومة ، وان يخضع للقوانين الرومانية ، ويخضع من قبل الجيش الروماني .

وللعلمة الاولى لا يصدق المرء ان مثل هذه الامبراطورية العظيمة التي تضم على بعض شعوب إفريقية ، وآسيا وعظم شعوب أوروبا على اختلاف درجته حضارتهم ان تبقى متمسكة مدة خمسة قرون قبل ان تقضي عليها هجرات البرابرة . وتؤسس في ضمنها ممالك متعددة ، وبمكنا ان نعالق واحدة هذه الامبراطورية الى الامور التالية :

- ١ — نظام الحكم المطلق ، الذي ينفذ الى جميع اجزاء الامبراطورية دون ان يفوته جزء منها .
- ٢ — عبادة شخص الامبراطور الذي تتمثل في الدولة .
- ٣ — تطبيق القانون الروماني في جميع اجزاء المملكة .

- د - الطرق المعبدة الممتدة في جميع أنحاء الامبراطورية ، ونظام النقد الموحد الذي يشجع على المبادلات الاقتصادية . ووحدة الاوزان والقياسات في جميع البلاد الرومانية .
- هـ - المعلمين الذين ترسلهم الحكومة لتوحيد الثقافة ونشرها بين صفوف الشعب الروماني .
- وكان يظن ان هذه الامبراطورية الرومانية ستبقى الى الابد .

سقوط الامبراطورية الرومانية

- لماذا سقطت هذه الامبراطورية القوية امام ظرات البرابرة المتفرقة ؟
- إن الجواب على مثل هذا السؤال صعب جداً . ولكنك تعلم ذلك ، يعود الى ان سكان هذه الامبراطورية اضاعوا بالتدريج قوتهم ووحدةهم ، وأصبحوا اقل نجاحاً مما كانوا عليه ، ولعله يمكننا تحليل اسباب هذا السقوط بالامور التالية :
- ١ - نظام الضرائب الجائر الذي أثقل كاهل جميع الطبقات حتي الغنية منها ، وذلك لسد نفقات البلاط .
- ٢ - نظام الرق الذي انزل اجور اليد العاملة ، وانقص العمل في وجه العمال الاحرار لخص اجور الأرقاء وكثرة عددهم ، فسكان الفقير في رومة من لا يملك عدة بيده ، اما الغني فيملك عدة الالوف منهم .
- ٣ - سوء انتاج الارض ، والمحطاط محصولها بسبب قلة خصبها .
- ٤ - تسرب البرابرة الى البلاد الرومانية الذين سهلوا الطريق لاختوانهم فيما بعد لاكتساح القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية . وقد استعان الابطرة الرومان بهؤلاء البرابرة في جيوشهم ليفتقوا على حدود الامبراطورية ، ويتعمقوا اخوانهم الجرماني من الدخول الى بلاد الرومان . وكانت يوليوس قيصر اول من استخدمهم في جيشه ، وحذا حذوه من جاء بعده من الابطرة ، حتي صار استخدام الجرماني في الجيش الروماني امرأ عادياً . وكنت ترى جيوشاً رومانية بكاملها مؤلفة منهم ، حتي ان بعض القبائل الجرمانية كانت تنضم بكاملها الى الجيش الروماني وتبقى تحت قيادة رؤسائها . وتبع من هؤلاء الجرماني بعض القواد ، وتلك بعضهم وظائف كبيرة في الجيش وفي الحكومة . وبهذه الصورة صار عدد عظيم من سكان الامبراطورية الرومانية من الجرماني قبل غارتهم الكبرى على البلاد . فتزوجوا من نساء الرومان وعرفوا مواطني الضعف في الامبراطورية وسهلوا الطريق لاختوانهم فيما بعد لاجتياح الامبراطورية الرومانية .

قبائل الجرمن

الجرمن : هم الاقوام الذين كانوا يسكنون الاراضي الواقعة بين نهري الرين والفيلستول وما بين

بحر البلطيك ونهر الدانوب . ومع قبائل كثيرة العدد يقسمون الى ثلاثة اقسام :

اولاً : الجرمن الغربيون . - ومنهم الفرك والامسان والسكسون ...

ثانياً : الجرمن الشماليون . - ومنهم الفانجساركيون وسكان اسكانديناوية ...

ثالثاً : الجرمن الشرقيون . - ومنهم القوط والاندال .

وجميع هؤلاء الجرمن من اخلاق متفاربة ، ومن اشكال متشابهة . فهم طوال القامة ، بيض البشرة ، حمر الوجوه ، شقر الشعور ، زرق العيون ، يكتسبون مجلود الحيوانات او يلبسون نسيجاً من الصوف ، وأغنيائهم يلبسون قصائناً ومراويل ضيقة . ولباس نسائهم كلباس الرجال الا أنه أوسع منه . وأما الاولاد فهم عراة تقريباً .

وكان الجرمن يعيشون قبائل مستقلة لهم رؤساء يدبرون امورهم ويتكفون بأنفسهم . وكانوا مولعين بالحرب والخر والبيسر . وكانوا يملكت طبقات : الانحراف والعملة والعبيد . وكانت غرام مؤلفة من أكوام غلوية من الاساس والفرش ، عملهم تربية المواشي : من غنم وبقر وخنازير . وكانوا مولعين بصيد الحيوانات المفترسة . وكانوا يزعمون الشيم والشوق ، ولسانهم يغزلون وينسجون اللباس . وكان سلاحهم السيف والرمح والقوس والنبال . واداء ذهبوا الى الحرب كانوا يأخذون نسائهم وأطفالهم معهم ويضعونهم في عجلات كبيرة . وكانوا يبعدون قوى الطبيعة من اشجار واحجار ونجوم . وكانو يعتقدون انها تسكن السهول وقمم الجبال والصحاري . ولم يكن عندهم كسنة ولا رجال دين . واخذوا يعتقدون المسيحية في القرن الرابع ميلادي عندما ترجم احد القوطيين الكتاب المقدس ونشر المسيحية بينهم .

هجمات البرابرة والانداسم الامبراطورية الرومانية

كانت محاولات الجرمن German قبل سنة ٣٧٥ م للدخول في بلاد الامبراطورية الرومانية تعود لهم لغفامرة . وامليهم في كسب حضارة الرومان ، والافتاس في تيميد ، او كسب اراضي جديدة لتزايد عددهم في بلادهم . وكان الرومان يمنعون هؤلاء البرابرة من الدخول لبلادهم بواسطة جيوشهم وحصونهم وحاجياتهم . وقد حدث ان جاءت قوة جديدة من قبائل الهون Huns (وهي قبائل مغولية من اواسط آسيا) دفعت القوط نحو الامبراطورية الرومانية . (وهؤلاء القوط Gothus من القبائل الجرمانية التي كانت تسكن الضفة العليا لنهر الدانوب) . فاجتاز بعضهم نهر الدانوب والتجأ الى الامبراطورية الرومانية . فصددهم الجيش الروماني وجرت معركة عظيمة عند أدرة Adrianople سنة ٣٧٨ م تغلب فيها القوط وقتلوا الامبراطور الروماني فالز Valnes .

دخل الجرمن لرض الامبراطورية ، وعرفوا انهم يطمعون الثناى على الجيش الرومانية . وكانت معركة « أدنة » ، مبدأ اكتساح القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية من قبل الجرمن . واستمرت الغارات بعد ذلك فبعد عدة سنوات من هذه المعركة جاءت جموع من قوط الغرب Visigoths وقبلت شروط المعاهدة التي قدمها رجال الامبراطور ، وانضم بعضهم الى الجيش الروماني .

أما الاريك Alaric احد قواد الجرمن ، فلم يقبل تلك المعاهدة ، فجمع جيشاً عظيماً كانت قواته من قوط الغرب (الفيزقوط) وهاجم إيطاليا ، واستولى على رومة سنة ٤١٠ م ونهبها ورجاله . وكان يجب الاريك من الحضارة الرومانية عقاباً ، لذلك امر جنده ألا يخربوا المدينة ، ولا يحدقوا فيها أضراساً ولا يتعدوا على الكنائس او بيوتها . وبذلك نجت رومة من الخراب . ومات الاريك قبل ان يوطد لحذره في إيطاليا أرضاً يسكنها لذلك انتقل قوط الغرب الى غاليا - أي فرنسا - Gaul ثم الى اسبانيا ، وكان يسكنها من قبل بعض القبائل البربرية . ومنهم الفاندال Vandals والسويف Swei الذين اجتازوا نهر الرين وسكنوا غاليا قبل فتح الاريك لروما بأربع سنوات . وقد عاشوا في البلاد فساداً وخربوها . ثم اجتازوا جبال البيرة ودخلوا الى اسبانيا . وعندما وصل قوط الغرب الى اسبانيا ، عقدوا صلحاً مع الرومان ليتفرغوا لمطاردة الفاندال . فعاربوه وكسروهم مما جعل امبراطور الرومان ان يمنحهم سنة ٤١٩ م أرضاً واسعة في غاليا ، حيث أسسوا مملكة قوط الغرب فيها . وانتقل الفاندال بعد عشر سنوات الى افريقية ، وهناك أسسوا مملكة سادت غرب البحر المتوسط جميعه ، وحل محالهم في اسبانيا قوط الغرب الذين تقلبوا بقيادة ملكهم أوريك Euric (٤٦٦-٤٨٤ م) على معظم شبه جزيرة ايبيرية . وأصبح ملكهم عند من نهر الالوار حتى مضيق جبل طارق . وقد حارب العرب عند فتح بلاد الاندلس الفاندال ، وقتلوا عليهم واستولوا على شبه الجزيرة منهم . وقد أطلق اسم « اندلوسيا » على القسم الجنوبي من شبه جزيرة ايبيريا . ثم تحول هذا الاسم شبه الجزيرة بكاملها .

ولا فائدة من تتبع حركات البرابرة وانتقالاتهم التي حصلت في القرن الخامس ميلادي . لانه لم تنج قطعة ارض من اوروبا من خطرهم حتى بريطانيا التي اجتاحتها قبائل من الجرمن وهم الانسكل Angles والسكسون Saxons . الذين اندمجوا مع بعضهم فيما بعد وشكلوا العرق (الانسكلوسا كسون) . ولطابق اسم السكسون على الارض التي سكنها قبائل الانسكل ، وكانت هذه القبائل متوحشة وكية في بادئ امرها كبقية القبائل الجرمانية التي تقدم ذكرها . إلا أنهم اعتنقوا الديانة المسيحية عندما أرسل لهم البابا مشررون يدعوهم فدين المسيحي .

وانضيف الى الاضطراب الذي عم اوروبا بسبب طغيان البرابرة الجرمن هجرة الهون

مرة ثانية إلى غربي أوروبا بقيادة أثيل Attila الذي اجتاحت غاليا ، وملاً غرب أوروبا وجداً .
إلا أن الرومان والجرمن اتفقا عليه وغلّبوا في معركة شالون Châlons سنة ٤٥١ م ، فصار أثيل
بعد انهزامه إلى إيطاليا ، وحلق الرعب فوق سماه رومة ، إلا أن البابا ليو الكبير Leo the great
أخذ الموقف بأن أرسله إليه ، ومات أثيل بعد سنة وبعثته زال خطر الهون عن أوروبا بصورة نهائية .

تاريخ القرون الوسطى

انتهت سنة ٤٧٦ م بصورة طامة ، تاريخ سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية ، والبدء
القرون الوسطى . وقد حدث بعد موت يوديسيوس الكبير Theodosius The Great في
سنة ٣٩٥ م أن أوصى بأن تقسم امارة الامبراطورية الرومانية بين ولديه . وبعد انقسامها توالى على عرش
القسم الغربي من الامبراطورية حكم ضعاف ، وكان الجوارح في هذا الزمن تجرّثون هنا وهناك كما
يريدون ، وكانت فرق الجيش المؤلفة من الجرمن ، والتي كانت بخدمة الامبراطورية الرومانية الغربية
تسبى بزل وتعين الطيرة كالقعب بالقبض . وفي سنة ٤٧٦ م طاب جنود الجرمن المرتزقة الذين كانوا
في الجيش الروماني بأن يعطوا ثلث اراضي إيطاليا . وعندما راض طابهم عاقب قائدهم أوداكر
Odoacer العنقل الصغير المنصوب امبراطوراً على القسم الغربي من الامبراطورية (وكان اسمه الغرابية
القادر رومولوس الصغير ، كاسم مؤسس روما الاول) بنفيه إلى قصر بقرب مدينة نابولي . وأرسل
(أوداكر) إلى امبراطور بيزنس (وهو اسم الامبراطورية الرومانية الشرقية) وحيث بذلك نسبة
لعاصمتها بيزنس) يسأله أن يحكم إيطاليا باسمه ، بالنيابة عنه فوافق على ذلك . وتم بذلك انقراض
امبراطورية رومة الغربية سنة ٤٧٦ م بعد ان عاشت نحو الف سنة ، وظل قبصرة بيزنطة يتكون
في القسم الشرقية نحو الف سنة اخرى ، إلى ان سقطت امبراطوريتهم على يد المماليك محمد الثاني
العثماني سنة ١٤٥٣ م . وفي هذه السنة يعتبر المؤرخون نهاية القرون الوسطى ، وبداية عصر
جديد وهو القرون الحديثة .

قوط الشرق Ostrogoths أصبحت إيطاليا منذ سنة ٤٧٦ م بيد أوداكر كره خذ بتظيم شؤونها
ونقض بالبلاد من كيونها ، وعاد الرخاء إلى إيطاليا . إلا أن أوداكر لم يتمكن من الشاء ملكا جرمانية
في ارض إيطاليا ، وذلك لان عدواً جديداً هاجمه وهو ثيودوريك Theoderic ملك قوط الشرق
(استروقوط) وكان هؤلاء يسكنون واسط حوض الدانوب ، وقد خضعوا لقبائل الهون وانشروا كوا في
اتصالات الولا وهزائمه ، ولما عادوا من الغرب ، سكنوا شمالي البلقان وشرقي بحر الادرياتيك
وكانوا يسيرون الامبراطورية الشرقية ويهددون عاصمتها من وقت لآخر ، ونقض ثيودوريك عشرة

سنوات من متعين صباه في القسطنطينية. ومنحه امبراطور القسطنطينية القاب شرف متعددة ليستعمله اليه
 ومنحه شعبه اراضي واموالاً كثيرة ، وشجده على غزو ايطاليا ليخلص منه ومن شعبه فقبل ان
 يذهب وان يفي تابعاً له ان انقصر على اوداكر الذي كان يحكم ايطاليا فذهب وجرت بين الطرفين
 معارك حامية امتدت عدت سنوات . تمكن ثيودوريك اخيراً من التغلب على عدوه وقتله بيده سنة ٤٩٣ م .
 وأخذ ينظم شؤون ايطاليا ، واستفاد من حضارة الرومان النابرة وتعاون مع اهل ايطاليا في اصلاح
 بلادهم وتحسين حالتهم فبعد الطوفان ، وجفف المستنقعات ، وقهر العدل والامن بتطبيق القانون
 الروماني في البلاد ، وشجع الزراعة والصناعة والتجارة ، وسك عملة جديدة وضع عليها اسم
 الامبراطور البيزنطي وكان ثيودوريك حراً للتفكير ومناخاً في شؤون الدين ، حتى قال « لا نستطيع
 ان نحكم في قضايا الدين ، لانه لا يمكن ان يعبر الانسان على ان يعتقد خلاف ارادته » وبهذه
 الطريقة ارضى البابا وسكان ايطاليا بالرغم من انه وقبيلته واكثر الشعوب الجرمانية كانت تتبع في مذهبها
 تعاليم اريوس Arians (١) وكان له نفوذ كبير في غربي اوروبا ، وذلك لانه تربطه ثلاث المصاهرة
 والتحالف مع اكثر القبائل الجرمانية . ولكن ملكه تدد بعد موته سنة ٥٢٦ م وذلك لعدم وجود
 وارث له . والخلاف الديني الذي نشأ بين قومه وبقيّة سكان ايطاليا . فانضمت ايطاليا لحكم جوستينيان
 (٥٢٧ - ٥٦٥) م امبراطور بيزنطة وظلت طيلة حياته تابعة له ، وبعد موته عاجتها قبائل المبارديون
 قبائل المبارد : كان اغراض مملكة قوطا الشرق من ايطاليا وبلا على البلاد لان قبائل جرمانية
 متوحشة وهم المبارديون عاجوا المقاطعات الواقعة في شمالي نهر (البو) والتي سميت منذ ذلك الزمن
 حتى وقتنا هذا باسمهم . ثم توسعوا في فتوحاتهم نحو الجنوب وغثوا في شبه الجزيرة فساداً فخرّبوها ،
 ونهبوها وقتلوا كثيراً من سكانها ، الا انهم لم يتمكنوا من الاسيلا ، على جميع اقسامها ، فقد ظلت
 رومة وجنوبي ايطاليا والجزر التابعة لها بعيدة عن خطر هؤلاء وتابعة للامبراطورية البيزنطية
 ولم يلبث ان تخضر المبارديون ، وهذا توحشهم نتيجة احتكاكهم بالسكان الاساليين واعتنقوا النصرانية
 وبقيت مملكتهم في ايطاليا نحو مئتين سنة ، الى ان قضى عليها شارلمان .

(١) اريوس كان بطريق الاسكندرية سنة ٣٠٠ م ، خلف الكيسة الرومانية في نظره الى
 طبيعة المسيح وعلمته بالثالوث المقدس ، وحكم عليه بالموت في اجتماع نيقيا ، وكان له اتباع كثيرون
 اقتسموا في الشرق والغرب ، كانوا يشيرون بتعاليمه بين البرابرة الجرمن وقد اعتنق قوطا الشرق
 تعاليمه ايضاً . وكانوا ينظرون كنيسة روما هراطفة مارقين من الدين .

المملكة الفرنكية

الأسرة الميروفانجية : (١) لم تكن قبيلة من القبائل الجرمانية التي تكلمنا عنها حتى الآن ان تؤسس مملكة دائمة إلا قبيلة الفرنك Franks أما بشبه القبائل فقد اندثرت بسبب منازعاتها بعضها مع بعض ، أو من قبل الامبراطورية البيزنطية ، أو من قبل العرب كما هي حالة القبائل التي كانت في بلاد الاندلس . أما الفرنك الذين سنتكلم عنهم فقد اخضعوا معظم القبائل الجرمانية لسلطانهم ، حتى امتد نفوذهم الى البلاد التي يسكنها السلاف Slavs وأول ما نعرف التاريخ هؤلاء الفرنك عندما كانوا يقيمون في الجزء الاسفل من نهر الرين أي ما بين مدينة كولون وبحر الشمال . وكانت طريقة استيلائهم على البلاد الخاضعة للامبراطورية الرومانية تختلف عن الطرق التي اتبعها القوط والفيستيون والفاندال وغيرهم من الشعوب الجرمانية ، فبدلاً أن يقطعوا صلتهم بقبائل الجرمن ويصبحوا بكثرة في بحر الامبراطورية الرومانية ، كانوا يحتلون بالتدريج الاراضي التي حولهم ، ويقتلوا على انفسال مع القبائل البربرية . وهذه الصورة ظلتوا محافظين على حماسهم الحربي الذي كان يفقده غيرهم من القبائل التي انسلت بالامبراطورية الرومانية واكتسبت الحضارة الرومانية .

وفي مطلع القرن الخامس ميلادي احتل الفرنك المقاطعات التي تؤلف اليوم مملكة بايبيكا والاراضي التي في شرقها . وفي سنة ٤٨٦ م تقدموا بقيادة ملكهم الكبير (كلوفيس Klovvis) (٢) واحتلوا بلاد الغال Gali أي فرنسا بعد ان تغلبوا على قائد الرمان هناك . وبلغت حدود بلادهم الجنوبية نهر الوار . ثم وسع كلوفيس حدود مملكته من ناحية الشرق ، فتغلب على قبائل (الالمان Alemanni) وهي قبائل من الشعب الجرمني كانت تسكن مقاطعة الغاية السوداء وجرت بين الطرفين معركة مهمة سنة ٤٩٦ م تأخرت صفوف جنود كلوفيس في بدنها وكان وثيقاً وزوجته نصرانية ، فتذر أن يقتصر ان يقتصر في المعركة وفي ندره بعد ظفره بأن تقصر هو وثلاثة آلاف من جنوده وما لبث كلوفيس بعد ذلك ان وفق مصالحه مع مصلحة الكنيسة الكاثوليكية . وكان لاتحاده مع البابا اثر عظيم في تاريخ اوروبا الغربية .

وكانت تقوم في جنوب مملكته مملكة قوط الغرب . وفي الجنوب الشرقي مملكة بورغندي Burgundy وسكانها من الجرمن . فحارب كلوفيس القوط وطردهم الى ماوراء البحيرة . واخضع

(١) الأسرة الميروفانجية : نتسب الى ميرونة ومنه اخذت اسمها ، وميرونة هذا جد كلوفيس الذي وجد قبائل الفرنك والى الملكة الفرنكية

(٢) من كلوفيس آي امم لويس وهو الاسم الذي كان يطلق على اكثر ملوك فرنسا .

البرغنديين لحكمه ، فكانوا يدفعون ضريبة له ، ثم ضمهم الى مملكته . وبعد محاولات قتل عديدة قام بها كلوفيس ضم اليه اقسام بلاد الغال جميعا ووجد الاقسام التي كانت مستقلة ومنفصلة عنه .



مملكة الفرنك تحت سلطة الاسرة الميرفنجية

يظهر هذا المصور نمو مملكة الفرنك . ففي سنة ٤٨٦ م عندما كان كلوفيس شاب هزم القائد الروماني (سباكروبيوس Spaurius) بقرب سواسون ، وانشأ المقاطعة التي حول باريس لمملكته ثم اضاف سنة ٤٩٦ م مقاطعة ألمانيا الواقعة في شرقي مملكته ، وفي سنة ٥٠٧ م اخضع باريس عاصمة مملكته . واحتل اكينانيا التي كانت قبلا بيد قوط الغرب وبدأ يضم برغنديا . وتابع اولاده محله من بعده فاكثروا ضم برغنديا ، واستولوا على بروغنديا ، وبافريا ، وغاسقوتيا ، بعدة نصف قرن .

بعد موت كلوفيس سنة ٥١١ م في باريس التي كانت عاصمة مملكته ، تقسم اولاده الاربعة البلاد فيما بينهم ، ووقعت المنازعات بين الاخوة جمات مملكة الفرنك في اضطراب دموى مدته مئة سنة تقريبا ومع ذلك فقد استمر تشكيل مملكة الفرنك بالرغم من هذه الاضطرابات . وذلك لانه لا يوجد دولة قوية تنافسها .

وقد احتفظت هذه المملكة بشيء من الوحدة بالرغم من المنازعات القائمة بين أفراد الأسرة المالكة على الأراضي ، وقد امتد نفوذ ملوك الفرنك على جميع البلاد التي تضم فرنسا في الوقت الحاضر ، بضاف إليها بلجيكا ، وقسم كبير من غرب ألمانيا .
وآخر ملوك الأسرة الميروفانجية هو داغوبرت Dagobert حكم سنة ٦٣٨ م. ووجد بمملكة الفرنك مرة ثانية وجعلها في سلالته .

وكان هناك خطر جديد يهدد هذه المملكة وهو ظهور نبلاء الجرمن الذين سألون رتباً كبيرة في الجيش ، وكان ملوك الفرنك يكافئونهم على ذلك بأقطاعهم أراضي واسعة في مملكتهم ولم يلبث هؤلاء النبلاء ان استقلوا في مقاماتهم وشكوا ممالك مستقلة . وكان من اكبر وظائف الشرف التي كان نبلاء المملكة يتراحمون عليها هي وظيفة « حجاب القصر » Mayor of the Palace التي تشبه وظيفة رئيس الوزارة في وقتنا هذا ، او وظيفة امير الامراء في العصر العباسي . وكان حجاب القصر بعد موت داغوبرت يحكمون باسم الملوك الميروفانجيين الذين كانوا ملوكاً بالاسم فقط ، وليس لهم من السلطة شيء . وكان حاكم القصر في (أوسترازيا Austrasia) وهي إحدى الاقسام التي تتألف منها مملكة الفرنك يدعى (پيپين Pippin) تمكن أن يضم اليه قسمين آخرين من مملكة الفرنك وهما :

نوستريا Neustria وبرانديبا Burgundy وأن يجعل السلطة في أسرته وهي الأسرة الكارولنجية التي سيأتي الكلام عنها .

انحطاط البرابرة الجرمن بالرومان

لم يكن عدد الجرمن على اختلاف قبائلهم الذين هاجموا الامبراطورية الرومانية عظيماً جداً ، لذلك لم يلبثوا ان اندمجوا بالرومان واخذوا حضارتهم ، واقتبسوا عاداتهم ، وتكلموا لغتهم اللاتينية التي كانت منتشرة في كل مكان ومكانة قسم الرومان . اما البلاد التي لم يستول عليها الرومان فظلت تتكلم لغاتها المحلية كالسكانديناوية ، والآنكلوساكسونية ، والديناركية ، والسويدية وغيرها . وبقيت بعيدة عن تأثير اللاتينية فيها . كذلك نرى ان الشعوب الاوروبية التي انحطت بالرومان لم تلبث لغاتها ان انفصلت بالتدريج عن اللغة اللاتينية ، وشكلت لغات محلية هي اللغات الافرنسية ، والاسبانية ، والاطالية والبرتغالية . التي تمت بصلة النسب الى اللغة اللاتينية . الا ان ظهور هذه اللغات المحلية لم يكن من عمل البرابرة أنفسهم بل سبق مجيئهم . وكل ما عمله البرابرة هو أن أكلوا هذا السلي واضافوا بعض الكلمات البربرية الى اللغات المحلية .

ولم يكن الجرمن يكرهون الرومان . حتى ولا الرومان يهضون الجرمن عند ما تكون سفائهم
موحدة ، وينسبون الى فرقة دينية واحدة ، وكانوا يتزوجون من بعضهم البعض ، حتى ويستخدمون
موظفين في الحكومة وجنداً في الجيش من كلا الشعبين . ولا يترقب الرومان عن الجرمن الا في
قضية واحدة ، وهي اتباع كل منها قانونه الخاص . فكان الجرمن يحتكون الى قانونهم البربري ، كما
ان الرومان يتقاضون بحسب القانون الروماني . وبقيت الحالة كذلك في جنوبي اوربا طوال القرون
الوسطى ، لان الجرمن كانوا قلائل اما في قبة الجهات فقال القانون البربري سائداً حتى القرن
الثالث عشر والرابع عشر .

وكانت المحاكمات لبربري بحسب القانون البربري بطريقة خاصة تختلف منها في القانون الروماني .
فكان يعرف البري من المذهب مثلاً باحدى صور ثلاثة .

(١) إما ان يحلف بأنه بري ، ويحلف معه من قريته عدد من الاشخاص تعينهم المحكمة بأنه بري .
(٢) أو يبارز خصمه ، وينصر الله البري . ويحذف الخافي . (٣) أو ينفس المذهب بدماء الماء الحار ،
أو يقبض على حديدية حامية مسافة معينة ، أو يسير على الجرف فاق اجتاز هذه الصعوبات ولم يتأثر منها
لمدة ثلاثة ايام يكون عندها برياً !!

انتشار الجرب

ان هذه المحاكمات هي مثال لما كانت عليه حالة الجرمن القاسية وحضارتهم المتأخرة التي قللت
مقام المدنية الرومانية والقانون الروماني ، وقد انتجت العلوم والآداب والفنون في هذه العصور
المضطربة . ومات معها العلماء والادباء ورجال الفن منذ سنة ٥٢٥ م . وما وجد في ذلك العصر من
المعارف انما هو الا رسالة كتبها كاسيودورس Cassiodorus سنة ٥٧٥ م وهي بحث في القواعد
واللغات ، والنطق ، والهندسة ، والموسيقى ، والبلاغة والفلك ، كتبت بقصد تعليم رجال الدين
بعض معلومات اولية حكيم من فهم الكتاب المقدس وتعاليم الكنيسة ، وهذه الرسالة التي كتبت
مؤلفها عدة صفحات عن كل علم من العلوم السبعة المتقدمة ، والتي هي مضحكة بالنسبة لاثناء هذا
العصر ، تبين الخطايط التعليم في ايطاليا في القرن السادس . ومع ذلك فقد طلت هذه الرسالة نموذجاً
عالياً يقتدي به كل من كتب في هذه المواضيع زمن القرون الوسطى . وكانت هذه الرسالة وامثالها
عماد العلم والمعرفة في اوربا ، وتدل الى اي درجة انحطت اللغة اللاتينية في القرون الوسطى .
وفي مدة ثلاثمائة سنة حتى مجيء شارلمان ، يبدو أن نجد في اوربا كتاباً واحداً يستطيع ان
يصف حوادث زمنه ، حتى ولو بأسلوب كتابة لاتينية . وقد تضاعفت جميع العوامل على احوال التعليم

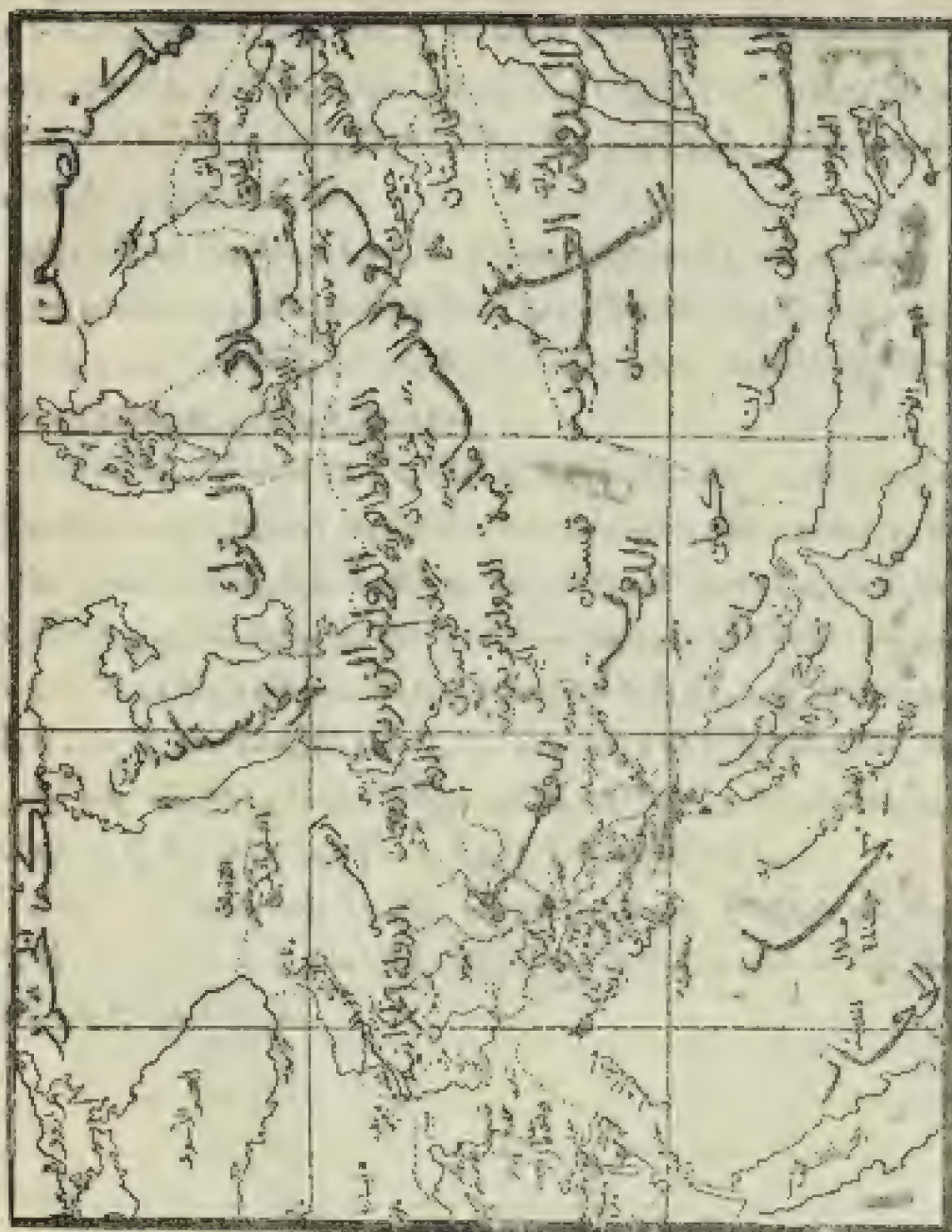
فواصم الثقافة : كقرطاج ورومة والاسكندرية وميلان ، قد خربت من قبل البرابرة ، حتى ان دور الكتب التي حفظت في المعابد والمياكل قد اندثرت وانلفت بسبب التعصب المسيحي لان المسيحيين وجدوا في هذه الكتب الوثنية ما يتنافى مع ديانتهم . حتى ان لياشيرة البيزنطيين بعد موت (تيودوراك) قد اوقفوا مساعدتهم المالية الى المعلمين الذين يعملون على نشر الثقافة وتوسيعها . كما انهم اخلفوا مدارس الفلسفة في اثينا .

والخروج الوحيد الذي يجدر ذكره في القرن السادس ميلادي ، والذي كان علمياً تحريماً هو (غريغوري Gregory) أسقف مدينة تور في سنة ٥٩٥ م الذي كان يتأسف في كتابه ، على الحالة الخراب التي وصلت اليها الثقافة في زمنه وهو يقدر غاماً جهله ، ويعبر عن ذلك باللغة اللاتينية الخاطلة : « فقد من بيننا من يدرس الادب في زماننا » .

ان القبائل الجرمانية المختلفة التي ذكرنا شيئاً عن تاريخها ، كانت تختلف في عاداتها وطوائرها الا انها كانت تتحد في شيء واحد ، وهو انها كانت تجهل تماماً الفنون ، والآداب والعلم التي نشأت في بلاد اليونان واخذها عنهم الرومان . فالجرمن كانوا جاهلين بسلطان اقوياء ، لا يعرفون الا الحرب وتقوية اجسامهم . وكانت لغرائهم على البلاد الرومانية سبباً لفوضى ودعائياً لاجتلاء المدنية الرومانية فخربت المساكن والمباني ، والممرسات الفنون ولم يصالحوا شيئاً مما حاربوه . ووقع عالم الغرب بحالة يرثى لها . ومع كل هذه الاسطعرايات والحداثر التي احداثها البرابرة فقد تركوا شيئاً من الفاض المدنية الرومانية ، بنوا عليه بنعمهم الجدد . كما أنهم تعلموا الطرقي الزراعية الرومانية عندما وادوا بالدرجة احتاجوا معها الى الزراعة ، واتبعوا الاسلوب الروماني في البناء ابيهم وطرقهم .

والخلاصة : ان الميراث العظيم الذي تشكل ببطء منذ زمن المصريين والفيثاغورسيين والقرطاجيين واليونان . والذي يؤلف عناصر الحضارة الرومانية ، لم يضع كله !! بل بقيت منه خبة حفظها العرب وكانت نواة للاحياء الحاضرة .





انقسام الخلية القاعدية

تظهر هذه الخريطة بعض الدول المستقلة التي انفصلت عن الخلافة العباسية في بغداد مع المناطق التي كانت فيها تلك الدولات .

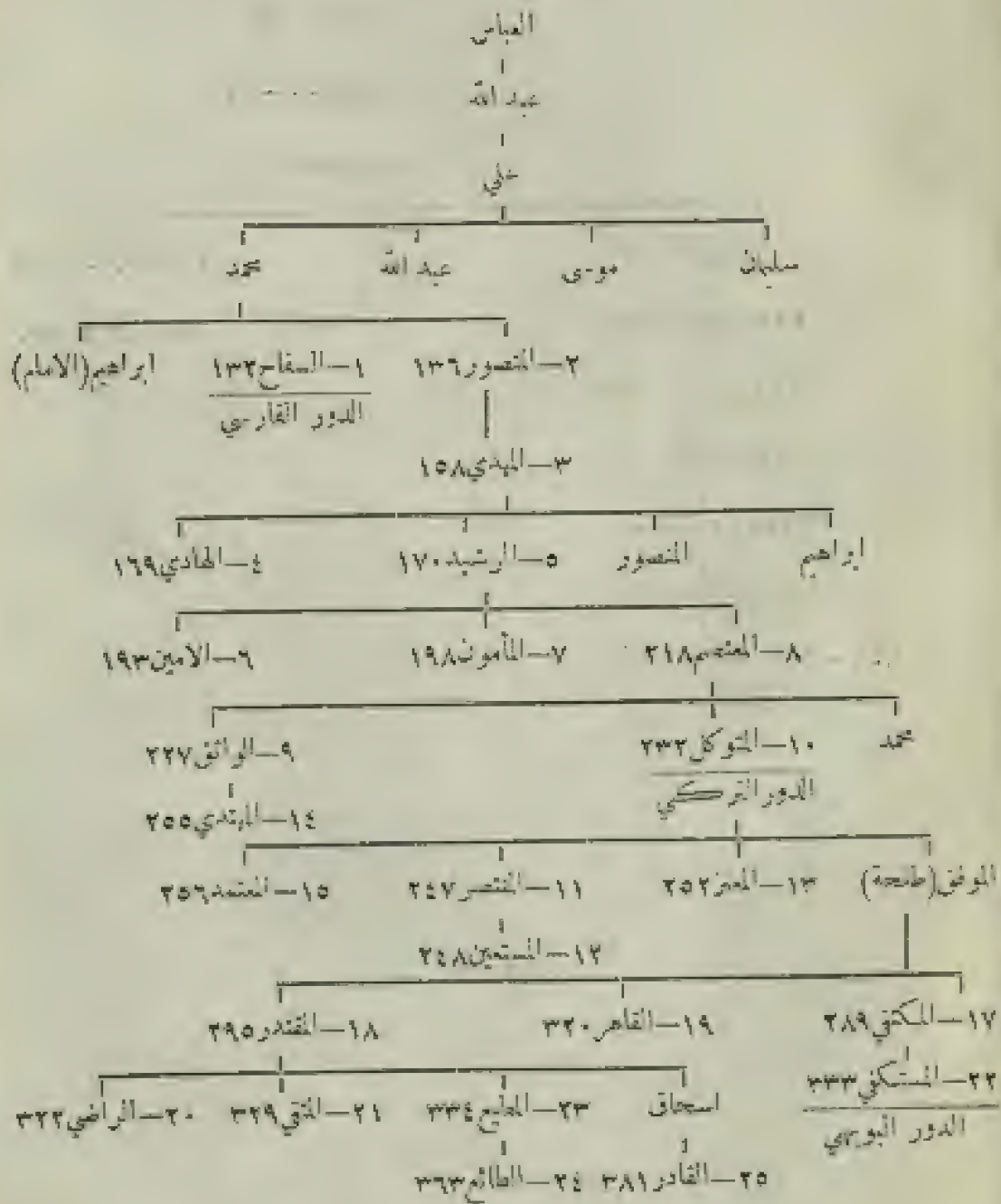
القسم الثاني

الخطوة العباسية

ربكنا وسقا

نيلعنا نفعنا

السلسلة العباسية



٣٥- القادر ٣٨١

٣٦- القائم ٤٢٢

الدور السلجوقي

محمد الذخيرة

٣٧- المفتدي ٤٦٧

٣٨- المستظهر ٤٨٧

٣٩- المفتي ٥٣٠

٣٢- المستجد ٥٥٥

٣٣- المستضي ٥٦٦

٣٤- الناصر ٥٧٥

٣٥- الظاهر ٦٢٢

٣٦- المستنصر ٦٢٣

٣٧- المستعصم ٦٤٠- ٦٥٦

نابة الخلافة العباسية

٣٩- المرشد ٥١٢

٣٠- الراشد ٥٢٩



الباب الرابع

الأمم العباسية :

ينسب العباسيون إلى العباس عم النبي (ص) وهو من سادات بني هاشم وسقلائهم ، تولى سدانة الكعبة لما تولى عنها أبو طالب لفقره . وكان صديقاً وثيقاً لابي سفيان ، ولما جاء الاسلام بقي على دين قومه اولا إلا أنه ساعد النبي (ص) وحماه ، وخرج معه في بيعة العقبة الثانية ، وخطب في أهل يثرب ومخا فله لهم : « يا معشر الخزرج ، انكم قد دعوتهم محمداً الى ما دعوتوه اليه ، وتعهد من اعز الناس في عشرينه بتمعه والله من كان منا على قوله . ومن لم يكن منا على قوله ، منعه للحسب والشرف وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم ، فان كنتم اهل قوة وبصر بالحرب والاستقلال بعداوة العرب فادعونا فانها ستربكم عن قوس واحد ، فلو نؤا رأيكم واتمروا امركم ولا تفرقوا الا عن ملائمتكم واجتماعكم . فان احسن الحديث صدقه . . . » وخرج العباس مع قريش الى بدر مكرهاً وأسر في تلك المعركة فظن نفسه ورجع الى مكة ، وكان يكتب للنبي (ص) باخبار قريش وأسلم قبيل فتح مكة ، وكان سبباً في نجاة ابي سفيان يوم فتحها ، وخرج الى المدينة واقام بها وكان النبي (ص) يحبه ويكرمه وبعد وفاة الرسول (ص) لم يطلع بالخلافة مع أنه كان اكبر بني هاشم سناً ، وطلب ابو سفيان ان يبايعه فابى . وتوفي في خلافة عثمان بن عفان سنة ٣٣ هـ وله عدة اولاد بهمنا منهم .

عبد الله بن العباس :

كان عبد الله اعلم الناس بآيات القرآن الكريم وشؤونها . وأصول الفقه والمدين ، اشتهر برجاسة عفته وذلافة لسانه . وكان مقرباً الى النبي (ص) والى الصحابة من بعده ، استشاروه الخليفة عمر ، وولاه عثمان موسم الحج ، ولما بويع الامام علي بالخلافة كان له حصة وفد في حروبه كلها وولاه البصرة واعمالها ثم اختلف مع علي بن ابي طالب واعتزل السياسة ، ورجل الى الطائف واقام بها حتى سنة وفاته ٦٨ هـ . ومن نسله نسا البيت العباسي واشهر اولاده :

علي بن عبد الله : ولد ليلة مقتل علي بن ابي طالب في سنة ٤٠ هـ فسمي باسمه وكفى بكنيته ابي الحسن ، وكان سيداً شريفاً بايعاً ، وقد اقطعه الوليد بن عبد الملك ارضاً في الحنيفة (١) ليكون

(١) — الحنيفة : ارض في شرقي الاردن ، بين الشام والحجاز .

بعيداً عن الحجاز ، واخذ يحرك الدسائس لتزع الخلافة من الامويين وجعلها في عقبه فادعى ان ابا هاشم محمد بن الحنفية بن الامام علي قد تنازل له عن حقه بالخلافة ، والتف حوله جماعة الكيسانية من الشيعة (١) كانوا نواة الحركة العباسية . اوتوفي سنة ١١٤ هـ واعقب اثنين وعشرين ولداً ذكراً واحدى عشرة انثى واشهر اولاده محمد بن علي .

الدعوة العباسية

محمد بن علي مؤسس الجمعية السرية ومنظم الدعوة العباسية ، التي كتب لها النجاح في قلب الدولة الاموية ، وجعل الخلافة في اولاده وهم : ابراهيم الامام : وابو العباس السفاح ، وابو جعفر المنصور اتخذ مركزه في الحيرة ، واتخذ الدعوة يدعون الناس الى ولاية « اهل البيت » بدون ان يسعوا احداً ، خوفاً من بني امية ان يقضوا على المدعو اذا عرف ولكن لا يقضب العلويين وبطانيون متفردون بالخلافة ومنفصلين عن العباسيين ، ورأى ان احسن منطقة بيت فيها الدعوة هي : الكوفة ويلاذ خراسان . وذلك لان الكوفة مهد التشيع لاهل البيت من قديم فيمكثهم ان يأووا اليها ويحملوها نقطة مواعدهم ، ولما خراسان فسهولة الدعوة فيها مبنية على ثلاثة امور (١) ان اهل خراسان كانوا خاضعين الى ملوك الفرس ، ويعتبرون ان حق الملك يجب ان يبقى في الاسرة المالكة ولذلك كانوا يرون ان اهل بيت النبي (س) هم احق بالخلافة ، وان الامويين قد اختلسوا الحكم منهم (٢) ان الامويين قد اضطهدوا الفرس ، وعاملوهم معاملة سيئة ، لذلك كانوا ينضمون لكل ثائر على الامويين ، لعله ينقذهم من الحالة الذليلة التي كانوا فيها (٣) ان الفرس كانوا يطمعون باعادة ملكهم المندثر وارجاع سلطانهم الغابر ، فكانوا يشعرون على العرب وسندسون في صفوف ابناء الو في سبيل تقريق كلهم وإذكاء نار العداوة بينهم . واتبع محمد بن علي نظام التسلسل والمراتب في تنظيم الدعوة فكان يقبل بمسرة مولى علي بن عبدالله الذي كان دعياً في الكوفة وخلفه بمدمونه بكير بن ماهان . وهو

١ - راجع عن الكيسانية هاشم صفحة ١٢ من هذا الكتاب . و ابو هاشم محمد بن الحنفية جادته ٩٨ هـ الى سليمان بن عبد الملك الاموي فاكرم وقادته واظهر التوقد له ، ولكنه دير امر قلته خشية ان يدعوا الى نفسه . فدرس له من سمه وهو في طريقه الى الحيرة ، حيث كان يقم علي بن عبدالله ، وقد قيل ان ابا هاشم لما شعر بدنو اجله ، انقضى بأسرار الدعوة الحاشية الى علي وزال له عن حقه بالامامة ، وامده باسم داعي دعائه في الكوفة ، ومن يابه من الدعوة كاستلمه وسدائل بقية بها اليهم . وبند ذلك الحين انتهت الدعوة الحاشية من العلويين الى العباسيين .

شيخ سليم وموسى كبير، ساعد الدعوة بحاله وجاهه وكان يهذب بضاعة خراسان، وكان فيها محمد بن حنيس وأبو عنكرمة المبراج، وكان يفتخ بها اثني عشر نفياً أشهرهم سليمان بن كبير الخولاني، وقصبة بن شبيب الثاني... وتحت إمرة هؤلاء سبعة مناجية، مناجون في الاقاليم وينشرون الدعوة. وقد كتب لهم محمد بن علي كتاباً ليكون مثلاً وتنبهاً ببعونه ويسرون بموجبه. وفي هذا الكتاب يقول: «... وأما الكوفة وسوادها، فتبعة علي وولده. وأما البصرة وسوادها فتبعية، وأما الجزيرة فبصرة مارية مارقية، وأما أهل الشام فليس يعرفون إلا آل السفين، طاعة بني مروان، ومعاوية واسنفة وجرلاً متراكية، وأما مكة والمدينة، فقد غاب عليهما أبو بكر وعمر. ولكن طائفة بخراسان، فمن هناك العدد الكبير. والجلد الظاهر. وهناك صدور سابعة وقلوب فارغة، لم تقسمها الاغواء، ولم ينورها الذلل، وهم جند لهم ابدان وأجسام، ومناكب وكواهل وعساكرات ولساني وشوارب، وأصوات هائلة، ولغات غثة، تخرج من اجواف منكبة... وبعد فاني اتصال الى الشرق، والى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق.»

وكان الدعوة ينتقلون في مختلف الانصار، وكانوا في ظاهر الامر طلاب رزق يزاولون التجارة وكافوا في الواقع رجال سياسة ودعاة، يثرون الدعوة بالحسكة والموعظة الحسنة. ويدعون الناس الى مناصرتهم بشق الأساليب. وكانوا يبلغون امرهم والخبرهم الى القائم بالكوفة، وهذا يوصلها الى الخيمة او الى مكة في مواسم الحج. وكان الحج اعظم سائر طوالة الدعوة، وخير فرصة لهم لتنتقل من مكان لآخر وتبلغ الاوامر وإعطاء المعلومات. وقد ساق هؤلاء الثقباء، والدعاة أدنى كبير من ولاية بن أمية، ولكنهم صبروا وتكتموا وساعدوا على نشر دعوتهم انشقاق البيت الاموي على نفسه، وبعد حركتهم عن مركز الخلافة في دمشق، وانقسام العرب في خراسان الى فسيين، وبغانيين. وكان رئيس الفسيين وكبيرهم نصر بن سيار والى خراسان الامويين. وزعيم الجانية جديع بن شبيب الملقب «بالكرماني» لانه ولد بكرمان. وجرث جنود شديدة بين الفارسيين اضعفت قوى العرب وقوات هيبته في نفوس الفرس الذين انضم كثير منهم الى الدعوة العباسية.

وفي انزال وقوع هذه الحوادث توفي محمد بن علي وخلفه في الدعوة ابنه ابراهيم الامام، ودار الدعوة يدعون له، وأقام في الكوفة ثلثاً عنه ابو سلمة الخلال. بعد موت بكير بن ماهان، وأقام في خراسان أبو مسلم الخراساني. ولد أبو مسلم بأصفهان ونشأ في الكوفة، واختلط في نسبه ببعضهم يجعله عربياً من اليمن وآخرون يجعلونه مولى لشتر بكير بن ماهان، وعنه تولى امدول القشيع. ثم اتصل بمحمد بن علي سنة ١٢٥ هـ ثم بولاه ابراهيم الامام، الذي لقبه بأبي مسلم وصيره لخراسان انشر الدعوة. وكان أبو مسلم من أبطال الحرب والسياسة، شديد الاخلاص للعباسيين، مرفقاً في

خدمتهم ، كثير الذهب ، واسع الخيلة ، خبيراً بما يقتضى عمله من الخزم والقنوة ، ولا تعرف الرحمة
لقلبه سبيلاً ، سئل مرة بأي شيء أدركت هذا الامر ؟ فقال : « أدركت بالكتمان ، وانزوت بالخزم ،
وحالفت الصبر ، ومساندت المقادير ، فأدركت ظني وحزرت حدي بنيتي » ، وأنشد :

أدركت بالخزم والكتمان ما عجزت	عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا
ما رأت أسعى عليهم في ديارهم	والقوم في غفلة بالشام قد رقدوا
حتى ضربتهم بالسيف فالتفوا	من غومة لم يغيبا قبلهم احسد
ومن دعى من في ارض مبيعة	ونام عليها تولى رعيها الاسد

وتما يوصاه به ابراهيم الامام قبل نهاله الى خراسان قوله : « يا عبد الرحمن املك رجل من
أهل البيت فاحفظه وصني . وانظر هذا الخي من اليمن فأكرمهم وحل بين أظهرهم فان الله لا يتم
هذا الامر الا بهم . وانظر هذا الخي من ربيعة فاهمهم في امرهم . وانظر هذا الخي من مضر فاهمهم
العدو القريب القتل من شككت فيه ومن كان في امره شبهة ، ومن وقع في نفسك منه شيء ،
وان استطعت ألا تدع بخراسان لساناً عربياً فافعل . فأبى غلام بالغ خمسة أشهر تنبه فأذله » .

وقد حرص أبو مسلم على تنفيذ هذه الودية ، فكان يفرق بين العرب ، ويسرع الى قتل كل من
تهمه منهم حتى بلغت ضحاياه مائة ألف نفس .

ذهب أبو مسلم الى خراسان سنة ١٢٨ هـ ، فأسسها بخزم ودهاء وقوة ، وأقام بقرية من قرى
مرو تدعى سفيد رنج ، وقد كثر انتصاره وآتاه الناس من كل حذب وحوب ، وفي رمضان سنة ١٢٩ هـ
عقد القواء الذي بعث به ابراهيم الامام ، وكان يدعى الفل على ربح ، وأعلن بأمره إبس الدواد ،
واخذ شعاراً للعباسيين . وكان نصر بن سيار الوالي الأموي يقول له : أما بعد فان الله تبارك
أسمائه وتعالى ذكره غير القوال في القرآن فقال : (وافسروا بالله جهل ايمانهم لئن جاءهم نذر ليكونن
أهدى من احدى الامم ، ولما جاءهم نذر ما زادهم إلا نفوراً واستكباراً في الارض وكر الذي
ولا يحين المكر الذي إلا بأهله . فلو ينظرون إلا سنة الاولين قلن تحيد لسنة الله تبدلاً ولن تحيد
لسنة الله تحويلاً) . فأرسل نصر له مولاة بخيل عظيمة إلا أنها هزمت فأرسل يستنجد بالخليفة
مروان الثاني بقوله :

أرى بين الزناد وميض نار	ويوشك ان يكون لها ضرام
فان النار بالمودين تدسكن	وابت النار اولها كلام
فقلت من التعجب ليت شعري	ألفاظ أمية أم نيام
فان بك قومنا اضحوا نياماً	قلل قوموا فقد حانت القيام
فقرى عن رحلكم نم قولي	على الاسلام والعرب السلام

إلا أن مروان كان مشغولاً بإطفاء الفتن والثورات في الشام فلم يستطع أن يجده ، وكتب له :
 « إن الحاضر يرى ما لا يرى الغائب ، فأخبرم أنت هذا الداء الذي قد ظهر عندك » () إلا أن الخطب تقام
 لزيادة انصار العباسيين وكثرت الوفود على أبي مسلم حتى ضاقت سفينة فرحل إلى المازون ، وهي
 قرية كبيرة من قرى مرو . وكانت عدة من كان معه سبعة آلاف رجلاً وإسراك أبو مسلم في الفرقة
 بين نصر ورجاله حتى تخلى عنه انصاره واحداً بعد واحد ، فقام من المازون في جمادى الأولى
 سنة ١٣٠ هـ فاصداً مرو . وفتحها وحرب نصر فأرسل خلفه قحطبة بن شبيب من أهل الحجاز مع
 فرقة من أتباعه لاحقت نصرًا حتى مرض ببلاد الري ومات في (ساوة) وعمره (٨٥) سنة وتقدم
 قحطبة ومعه ابنه الحسن يفتحان البلاد الشرقية . ثم توغلا في بلاد العراق ، والتجها في معركة مع
 يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق من قبل الأمويين ، فنجرت معركة بقرب الكوفة قتل فيها قحطبة
 فخلفه ابنه الحسن في أسرة الجيش ، فهزم ابن هبيرة إلى واسط وسار بجيشه إلى الكوفة ، واستولى
 عليها في المحرم سنة ١٣٢ هـ وسلم الأمر لأبي سفيان الخليل حسب وصية أبيه .

في هذا الوقت وقع في يد مروان بن محمد كتاب لإبراهيم الإمام مرسلة إلى أبي مسلم الخراساني
 فعرف عندها مروان مصدر الفتنة ورئيس الحركة ، فأرسل إلى والي دمشق بأمره بالتفويض على إبراهيم
 وأن يوجهه إليه ، ففعل العامل ما أمر به . ولما أحس إبراهيم بأنه مقتول لا محالة ، نفي نفسه إلى
 أهل بيته ، وأوصى إلى أخيه أبي العباس بالأمر ، وأمر أهله بالتسير إلى الكوفة ، وحضهم على السمع
 والطاعة لأبي العباس . وقد أحبس إبراهيم في سجن حران مع جماعة من خصوم مروان من بني أمية
 وظل في سجنه حتى مات ، وقد اختلف المؤرخون في كيفية موته ، فمنهم من قال : أنه سقى سمًا ،
 ومنهم من قال : هدم عليه بيت فمات ، وما قيل في وفاته :

قد كذت أحسن جلدًا فضمضني	فبر بحرات فيه عصمة الدين
فيه الإمام وخير الناس كلام	بين الصفائح والاحجار والطين
فيه الامام الذي عمت مصيئته	وعيثك كل ذي مال ومسكين
فلا عفا الله عن مروان مظلمة	لكن عفا الله عن كل أمين

أما أهل بيته فتجهزوا يربدون الكوفة حتى قدموها في صفر سنة ١٣٢ هـ ورئيس القوم وقتلهم
 أبو سفيان الخليل المعروف بـ « بوزر آل محمد » الذي خانهم في آخر الأمر ، وكتب ثلاثة من أتباع
 العلويين يعرض عليهم الخلافة وهم : جعفر الصادق بن محمد الباقر ، وعبد الله المحسن بن حسن . وعمر
 الأشرف بن زين العابدين . ولكنه فشل في مؤامره لعدم قبول هؤلاء الثلاثة . وكانت خاتمة
 حياته القتل .

مميزات ادوار الخليفة العباسية

اعتاد المؤرخون ان يقسموا الخلافة العباسية الى اربعة ادوار يتعين بعضها عن بعض حسب العناصر الاجنبية التي كانت تؤثر في الحكم . واذا اتينا هذا التقسيم فذلك للمبرر بحث ودرس هذه الخلافة مع الاعتراف بأنه تقسيم عملي ، وان هذه الادوار الاربعة متصلة ومرتبطة بعضها ببعض ، وتشكل وحدة تامة وهي : النفوذ الفارسي

اولاً : دور النفوذ الفارسي - او دور القوة : وهو : مدة سنة من ١٣٢ - ٥٢٣٢ هـ او ٧٥٩ - ٨٤٧ م وكانت الخلافة في هذا الدور قوية ، والخلفاء هم القابضون على زمام الحكم ، وكانت سلطة الخلافة تمتد على القسم الاكبر من الامبراطورية ما عدا الاندلس وقسم من شمالي افريقية ، وكانت أحوال الدولة الداخلية والخارجية مستقرة على العموم ، إلا من بعض فتن قام بها العلويون والعباسيون من اجل المطالبة بالخلافة ، وبعض حركات من قبل الفرس . ويمكن الخلفاء من بسط رعايتهم على العلماء والادباء ورجال الدين ، وبذلك ازدهرت الحياة العلمية والاجتماعية والعمرانية . وإتسم هذا الدور - بالفارسي - لان اكثر رجال الدولة لا - كما نوزراء - كانوا من العنصر الفارسي .

ثانياً : دور النفوذ التركي - او دور بدء الانحطاط : وهو يمتد مدة وستين من ٤٣٢ - ٥٣٤ هـ او ٨٤٧ - ٩٥٥ م . وبدأت الخلافة تحط في هذا الدور ، وأصبح الخلفاء العرب يد قواد الاتراك المتطابقين على الحكم . وكان هؤلاء الاتراك يخلعون وينصبون الخلفاء كما يشاؤون ، وقد يخلعونهم ويخلعونهم أيضاً . وقد انفصل عن الخلافة المركزية في بغداد مناطق واسعة ، وشكل بعضها دويلات مستقلة . وأهم هذه الدويلات في الشرق هي : الدولة الطاهرية في خراسان ، والقشقرية في سجستان والبلخانية في بلاد ما وراء نهر سيحون ، والبوسنية في بلاد الديلم . والزيدية في طبرستان ، والزارية في جرجان ، والساجية في أذربيجان وأرمينية . أما في المغرب فتأسست الدولة الحمدانية في حلب ، والصفورية في اليمن ، والظفرية والاحمدية في مصر والشام . والقاطمية في شمالي افريقية ومصر والشام ، والأغالبة في المغرب الأوسط ، والأدارسة في المغرب الأقصى . وكانت المنازعات الداخلية شديدة ، ويرجع سببها الى منازعات الاسرة العباسية على الحكم . ومنازعة الخلفاء مع القواد ومنازعة القواد فيما بينهم ، وقيام الحركات الدينية لاسيما حركة العلويين ، وظهور القرامطة والموارج والزيج وغيرها من الحركات . وكانت اكثر العلاقات الخارجية في هذا الدور مع الزنطيين ، وكان الحرب سجالات بين الطرفين . أما الحياة العقلية فكانت قد قطعت شوطاً لا بأس به في مضمار التقدم

والاختصاص لاسيما في العلوم الشرعية والفقهية . الا ان الحياة الاجتماعية كانت مضطربة ، ماضية نظراً لتفوذ العناصر الاجنبية في الخلافة . وانما سمي هذا الدور - بالتركي - لأن العناصر التركية كان لها اكبر تأثير فيه لاسيما في قيادة الجيوش .

ثالثاً: دور النفوذ البويعي - أو دور امير الامراء : وهو يمتد مئة وثلاثة عشرة سنة من ٤٤٧ هـ أو ٩٥٥ - ١٠٥٥ م في الخلفاء في هذا الدور التركيز الديني في الدولة فقط ، يتكفون برواتب معينة ويتزكون السلطة بيد امير الامراء . وكان يتعاقب على هذا المنصب امراء البويهيين من الذين . وقد ظهرت الخلافة الفاطمية في شمالي افريقية ومصر في هذا الدور وكذلك دولة آل مرداس التي حلت محل الحمدانيين في حلب ، وسلالة بني عقيل في الموصل ، والدولة الزيدية في قلب العراق في الحلة الواقعة بقرب الكوفة ، وظهر البريدي في البصرة ، والفرامطية في البحرين وبقي كثير من الدولات المستقلة التي مر ذكرها في الدور التركي تحكم في هذا الدور منفصلة عن سلطة العباسيين اما الحالة الداخلية فلم تكن حسنة بسبب منازعة البويهيين فيها بينهم على الحكم ، ومنازعاتهم مع قواد الأتراك لطلب السلطة منهم ، وتأجيج نار الفتنة بين السنة والشيعة . اما من الناحية الخارجية فقد تأخرت جبهة العرب في جهة بلاد الروم ، وانتقل الدفاع عن البلاد الاسلامية من العباسيين الى الحمدانيين وغيرهم من الدولات المستقلة . وكانت كفة البيزنطيين رابحة على العموم على كفة العرب بسبب الفوضى الداخلية ، وانقسام العرب على انفسهم . وهذا الدور هو العصر الذهبي للحياة العقلية في العلوم والفلسفة والفقه والآداب . وتعددت مراكز العلم في جميع نواحي المملكة الاسلامية في بغداد وبخارى وجرجان وغزنة وحلب والقاهرة وقرطبة . ولم تكن الحياة الاجتماعية موحدة في هذا الدور بل كانت تختلف من منطقة الى اخرى حسب قوة الدولة المستقلة وضعفها . وحسب المؤثرات الخارجية التي تطرأ عليها . وانما سمي هذا الدور - بالبويهي - لتغلب البويهيين فيه ، واسيلاهم على أعلى منصب في الدولة وهو منصب امير الامراء .

رابعاً: دور النفوذ السلجوقي والمغولي - أو دور الانقراض : وهو يمتد على مايتوفى على مئتي سنة من ٤٤٧ - ٦٥٦ هـ أو ١٠٥٥ - ١٢٥٨ م ، وكان النفوذ في المئة والحدين سنة الاولى منه للسلاجقة ، والحدسين سنة الباقية كان التأثير الفعال فيه بيد المغول . والسلاجقة والمغول من العرق الاصفر . وكان الخلفاء أقوياء في هذا الدور . حاولوا اخذ السلطة الفعلية لانفسهم ، ولكنهم فشلوا لتغلب السلاجقة عليهم . وقد نشر السلاجقة سلطانهم على أكثر المناطق فكان لهم دولة في بغداد والعراق والشام وكرمان وبلاد الروم . كما ظهرت دولة شاعات خوارزم في جنوبي بحر خوارزم (بحر آرال) أما الحالة الداخلية

فكانت سبب المنازعات التي حصلت بين الخلفاء والسلاجقة ، وبين السلاجقة أنفسهم ، ولضعف
أعدائ السلاجقة ، واستبداد أتباعهم واستئلالهم في الحكم ، ومنافسة بعض الدويلات المستقلة
للخلفاء العباسيين . ونشاط الحركة الإسماعيلية في فارس والشام ، وكانت الحالة الخارجية مضطربة
للغاية في هذا الدور لحيي الصليبيين لبلاد الشام ومصر من ناحية الغرب وبحري قبائل القز ، والغور
والتر (وهي قبائل تركية) من ناحية الشرق وقضائها على الخلافة العباسية ، وفي هذا الدور حدثت
العقبة العربية من الناحية الماعية ، والنحطت عما كان عليه في الأدوار السابقة ، فلم يعد هناك
ابتكار ، وإنتاج في العلوم والآداب ، وكل ما في الأمر هو تقليد وجمع ما أنتجه المتقدمون .
أما الحياة الاجتماعية : فكانت متدهورة في هذا الدور لاختلاط المسلمين بالصليبيين والتر ، وما
أحدثته هؤلاء من اضطراب في الحياة ، وتخريب للبلاد ، وما سببوه من فقر وأمراض ، كل ذلك
كان له أسره الأثر في المجتمع العباسي . وإنما سمي هذا الدور - بالسليجوي المغولي - لتقلب السليجويين
على السلطة الحقيقية في الدولة ، ولإجتياع المغول للخلافة العباسية .



الفصل الاول

١ - دور النفوذ الفارسي

١٣٢ - ٢٢٢ هـ أو ٧٤٩ - ٨٤٧ م

حكاه في هذا الدور تسعة خلفاء هم : أبو العباس السفاح ، وأبو جعفر المنصور ، والمهدي ، والهادي وعارون الرشيد ، والأمين ، والمأمون ، والمعتصم ، والرائق . ولا تحية هؤلاء الخلفاء تذكر على خليفة منهم على حدة .

أبو العباس السفاح

١٣٢ - ١٣٦ هـ أو ٧٥٠ - ٧٥٤ م

ولد السفاح سنة ١٠٤ هـ في الخيمة ، أبوه محمد بن علي بن عبد الله بن العباس . وثمة ربيعة عربية النسب لذلك تقدم على أخيه أبي جعفر المنصور بالخلافة مع أن المنصور أكبر منه سنًا . وكان أبوه قد عهد بأمر الدعوة لأخيه إبراهيم الإمام ، ولما استس إبراهيم اقتراب أجله عهد لأخيه أبي العباس بأمر الدعوة ، وأمره أن يسير بأهل بيته إلى الكوفة فذهب إليها ، وكان الخطأ قد هبوا له الخلافة في الكوفة ، وفي يوم الجمعة في ١٣ ربيع الثاني سنة ١٣٢ هـ بويع السفاح بالخلافة في مسجد الكوفة ، فخطب بالناس وعفا قالة في خطابه ، الحمد لله الذي استبقى الإسلام لنفسه تكريمه ، وشرفه وعظمه واستأذنه لنا ، وأبدى بنا ، وجعلنا أهله وكهفه وحسنه ، والقوم به والذين عنه والناصرين له وأئمة كل القوى وجعلنا الحق بها وأهلها ، وخصنا برحم رسول الله وقرآنه وانزل بذي قن على أهل الإسلام كتاباً ينشئ عليهم ، فقال عز من قائل فما أنزل من عنكم القرآن : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ، ويظهر لكم طهارتكم) وقال : (إنكم عشرينكم الأقرين) وقال : (ما آفاه الله على رسوله من أهل القرى لله ورسوله وأهل القرى والرياس) ، فأنفهم جل تناؤه فضلنا . وواجب عليهم حقنا ومودتنا وزعمت السبئية الضلال أن غيرنا الحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا ، نشاعت وسوءهم وأني لأرجو أن لا يأبىكم الجور من حيث أنكم أنفروا ولا الفساد من حيث جأكم الصلاح وأهل الكوفة ، أتم محل عبقنا ، ونزل مودتنا ، أتم الدين لم تنفروا عن ذلك ولم يتكم عن ذلك تعامل أهل الجور عليكم . حتى أدر كنتم زماننا ، وأما كنتم الله بدولتنا فأنتم اسمنا الناس

بنا واكرمهم علينا ، وقد ردتكم في اقطابكم مائة درهم فستعدوا هذا السفاح المصحح والناصح .
وهذه الجمله الاخيره لقب بالسفاح ، وقال ايضاً الكثر ما قتل من الامويين . وكان السفاح موعوداً
فاشتمد به الوضك جالس على المنبر ، وسعد داود بن علي عمه وكان من الفصح بني العباس ، فخطب
خطبة قال فيها الحمد لله شكراً شكرياً الذي اهدانا هذا ، واسار اليها ميراثنا من بيتنا محمد
(ص) . ايها الناس والله ما حرجنا في طلب هذا الامر لتكفر طغياناً ولا عتياً ولا تخفوا نهراً ، ولا
نبي قصراً ، والتم الخرجنا الائمة من التراز حقناً ، والغضب لبني محمدنا وافقد كانت اموركم
تومضنا ونحن على هرسنا ، ويشتم علينا سوء سيره بني امية بكم وحرقهم بكم . واستدلالهم لكم
واستشارهم بديكم ، وسدقكم ومناكم ، لكم دمة الله تبارك وتعالى ان تحكم فيكم بما
انزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله . ونسير في العامة والخاصة منكم بسيرة رسول الله (ص) . بنا
نبأ لبني حرب بن امية وبني مروان ، آثروا في مشتمهم وعصروهم العاجلة على الآجلة والدار القانية على
الدار الباقية ، فركبوا الآكام وطفوا الآكام . واتهكوا المحارم يا أهل الكوفة انا والله ما زلنا
مظلومين متبورين على حقتنا حتى اطلع الله لنا شيعتنا اهل خراسان ، فأسيا بهم حقتنا ، وافلج بهم
حجبتنا واظهر بهم دولتنا واراكم الله ما كنتم تظنون ، واليد تشوكون فاطير فيكم المايفة من حاتم
ويض وجرحكم ، وتلكم على اهل الشام وعلى اليكم السلطان وعز الاسلام ومن عايكم بسلام منحه
العدالة واعطاه حسن الايلة ، فخذوا ما اناكم الله بشكر والزموا طاعتنا ، ولا تفسدوا عن أنفسكم
فان الامر امركم فذللكم اهل بيت مصر او انكم مصرنا وبه الذمت الخطبتان والصلاة مخرج
السفاح الى القصر ، واجلس اخاه ابو حنيفة لياخذ البيعة على الناس في المسجد ، ففرقوا بأخذها عليهم
حتى صلى بهم العصر ثم صلى بهم المغرب وجهم الليل فدخل . وهكذا تمت البيعة للسفاح .

سباسة السفاح الراجية

معركة الزاب

١ - مرماة جند الحمر

٢ - سيرة جند الحمر

بعد ان جوع السفاح بالخلافة بدأ بتجارية مروان بن محمد الاموي الذي كان لا يزال خليفته معه
جيش كبير ، فاختار السفاح محمد بن علي ان يكون قائداً لجنوده التي ذهبت لحارب مروان
وكانوا مشجعين باسم النبي صلى الله عليه وآله . وكانت سيرتهم وجاههم مائة عيالاً بمواد ايضاً
وكانت الملابس فاخرة بين ابي العون أحد قواد قسطنطين الذي ارسله لفتح الجزيرة الفراتية ، وبين
عبد الله بن الحليفة مروان الاموي لجاه عبد الله بن علي مدداً لابي العون وتولى القيادة العامة وجاه

المدينة مروان نفسه بجيش كبير مؤلف من مختلف القبائل لمساعدته واجتمع الجيشان على نهر
الرباط الأعلى (١). وكان الجيش الأموي على الضفة اليمنى من الرباط، والجيش العباسي على الضفة
اليسرى. فرسل عبد الله بن علي خمسة آلاف من جنده ليمروا النهر، وليناصروا جيش مروان
فقتلوا ذلك واستحبوا قبل حلول الظلام وفي اليوم الثاني فقد مروان جسرًا وخدم ابنه لقتال فبزم
جند العباسيين في ليل الأمر فقام عبد الله بن علي يشجع رجاله ويدعوهم إلى محاربة الأويين ويقول:
«يا رب احشني متى قتلتك يا أهل خراسان! يا ثارات أبراهيم! يا عظماء منصور!»، واشتد القتال
واستضع جيش مروان فذهب إلى قضاة وقال لهم: «أزولوا قتالوا! قل لابي سالم قاينزلوا». وكان
مروان كلما طلب من قبيلة أن تحارب قالت له أن يطلب من غيرها. وطارت الزعفة القبلية بين
البنائي وتفرق جيش مروان فزاد أن يشجعهم فوعدهم بذلك وأخرجهم لهم وقال: «استبوا وقتلوا
في هذه الأموال لكم». فلما رأوه لم يجد تمهولوا عن القتال الياء فرسل ابنه ليردهم. فلما ذهب لمحافظة
على أنسك ظن القوم أنه انهزم، فانهزموا معه فزاد مروان الحيلة دون أنهم اسلم قلم بقطع الجسر
فقتل كثير من منهم وغرق كثير من ونجا مروان إلا أنه قتل في مصر كما مر معنا. في عزم من موهم
الثبت السطاح بعد أن تخلف من مروان لقتل يزيد بن عمر بن هبيرة وإلى العراق الذي تحصن
وبواسطه بعد أن هزمه الحسن بن قسطنطين. فرسل ذلك فباع أخاه أبا جعفر بجيش لحاربه فاستندم القتال
بين الطرفين أحد عشر شهراً، ولما بلغ ابن هبيرة مقتل مروان طلب السطاح وجرت المناوشات
بينه وبين المنصور فقتله وقتل بذلك كتابي ابن هبيرة بشاور العلماء فيه لوسين ليلة حتى رضيه
ثم أرسله إلى أبي جعفر فأنفذ هذا بدوره إلى السطاح فمر بأرضه، وبذلك تم الإلحاح لابن هبيرة
إلا أن السطاح استشار أبا مسلم بالامر فأجاب: «إن الطريق السهل إذا أقيمت فيه الحفارة نهد، ولا والله
لا يسلح طريق فيه ابن هبيرة». فقدر السطاح به وأمر بقتله!!

شباب الصوبية والنفار

بعد ان غادر السفاح يزيد بن عمر بن هبيرة قام هو واعلمه العباسيون بمجنون ورجية في الامويين
واعوانهم ، وكانت عائلة سفاح مملوكة لبحر بن عبد الله بن خالد بن الدج ، قيل ان ابنه العباس
كان جالساً في بعض ايامه في مجلس الخلافة ، وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ونهله اكرامه وتوسط
بعضه فحدثني نعمة خاتمه عديت فالتفت له :

(١) نهر النيل : الحادي وداق نهر الدجلة : بعصب عليه من جهة الشرق .

لا يفر منك ما ترى من رجال
ان تحت الظلوع دابة دوبا
فضع السيف وارفع السوط حتى
لا ترى فوق ظهرها اموي

قامر السفاح بسليمان فقتل . وما قاله سيف هذا يهيج السفاح على الامويين قوله :

كيف بالغوا عنهم وقديما
ابن زيد وابن يحيى بن زيد
بالها من مصيبة وراث
والامام الذي أصيب بحرا
قتلوا آل احمد لا عفا الذر
ب لمروان نافر السيفات

وما فعله السفاح اصبح سنة عباسية يقتدى بها اهل دولته لاسيما اذا واجه من يروج النعمانيين
وذكرهم بقتلهم فقد فعل عبد الله بن علي واخوته بالامويين ما ينبغي له الجليلين ، قول ابن شبل بن
عبد الله مولى بني هاشم دخل على عبد الله بن علي وسمعه من بني امية نحو تسعين رجلا على الطعام
فقتله :

اصبح الملك ثابت الاساس
عليوا وزر عظيم فتغواها
لا تقبلن عبد نفس يشارا
خدمهم اظفر التودد منهم
وانت ساءني وساء قبيلي
انزلوها ببيت الزلها الا
واذكروا مصرع الحسين وزيد
والثبيل الذي بمرات امي

قام بهم عبد الله ففرضوا بالعمه حتى قتلوا ، وبدط الظلوع عليهم فاكل الطعام عليها وهو يسمع
الذين بعضهم حتى ماتوا جميعا .

لم ينه عبد الله بهذه الواقعة التي اقمها على بيت الامويين ، بل تعداها الى نبش قبور بني امية
ومحو اثرهم فنبش قبر معاوية بن ابي سفيان فوجد فيه عظاما كانتا الزمان . ونبش قبر عبد الملك بن
مروان فوجدت فيه جميعته ، وكان لا يوجد في القبر الا العضو بعد العضو ، غير هشام بن عبد
الملك ، فقد وجد متوجعا فضربه بالسياط وسلبه وسرقه وذراه في الريح ثم تعذب اولاد الملكة من
بني امية فلم يفلت منهم الا من كان في اليد وادرك بعض الهاربين الى الاندلس فقتلهم بنو ابي

فطرس (١) وأخذ أموالهم ولما انتهى من عمله انشد :

في امية قد اذنت حكمو فكيف لي منكوا بالاول الماضي
يطيب النفس ان النار تحبكم وجوضتموا من امانها شر معاضي
منيتموا - لا اقل الله نثركم - بليت غاب الى الامعاء نهاض
ان كان غيظي لقوت منكوا فلقد ماتت منكم عسا ربي به وراضي

واكمل عمل السفاح وعبد الله بن علي اخوته سليمان بن علي ودارد بن علي فقتل الاول بالبصرة جماعة منهم احضرهم وعلمهم الثياب الموشاة وقتل الثاني بمكة والمدينة مدداً والفرأ منهم ، ولم يكن من الحرب والنجاة من هذه الجزيرة التي اقامها العباسيون في كل مكان الا عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام الاموي الذي هرب الى الاندلس وأسس دولة اموية فيها كما سيأتي معنا .

لما أمن العباسيون شر الامويين ، وهادئ خرومهم وتوطد ملكهم ، تهبوا الى ما فعلوه في ابناءهم من تشريق وتشيع وعرضوا ان هذا امر اقتضته السياسة فحاول بعضهم ان ينقذ من تبقى من الامويين فكتب سليمان بن علي يطلب الامان من السفاح في بعضهم قاتلاً له ، وبالذبح المؤمنين بالهدنة وفاد من بني امية علينا ، (والا إنما قتلناهم على عقوبتهم لا على ارحمتهم فلتنا جميعاً وايام عبد مناف ، والرحم تبل ولا تملع ، وترفع ولا توضع فان رأى أمير المؤمنين ان يرمي لي فليفعل ، وان فعل فليجحد كتباً ينادي الى البهتان ان تشكر الله على نعمه عندما وإحسانه اليك - فاجابه السفاح الى ما سأل فكان هذا اول امان اعطى لبني امية .

بعد ان قضى السفاح وأهله العباسيون على أكثر بني امية التفتوا الى انصارهم ودعاهم ، الذين قامت دولتهم على ايديهم يسعون ان يخلصوا من يشكون في امرهم ويستعملون كل وسيلة في الوصول الى غايتهم ، فسلطوا اباهم الخراساني على ابي سلمة الحلال فقتله ، وقتل عماله واصارده الذين كانوا ببلاد فارس بحجة انه حاول نقل الخلافة منهم الى العلويين ، وكذلك فعل ابو مسلم بساجان بن كثير شيخ الدعوة العباسية فقتله لانه شك بامرهم .

إلا ان السفاح شك بامر ابي مسلم الخراساني و اراد قتله ، فخرىض من اخيه المنصور الا انه خاف من شيعته الخراسانيين ان يشردوا عليه . وعندما كتب اليه ابو مسلم يستأذنه في الحج ارسل الى اخيه ابي جعفر المنصور بامر به الحج ويؤمره على موسم الحج في تلك السنة حتى لا يؤمر ابي مسلم

(١) نهر ابي فطرس : يضم الماء وسكون الماء وضيم الزاء وسين مبهمة . موضع قرب الرملة من ارض فلسطين .

فغضب هذا وقال : أما وجد أبو جعفر علماً يحج فيه غير هذا ، وكان زاحم المصور في الطريق
ويظهر قوته وكبره ، كما ملأ قلب أبي جعفر المصور حقداً عليه وانتقم منه أيام الخلافة كما سرى .
وكان السفاح يراقب الملوك مراقبة شديدة خوفاً منهم أن يخرجوا عليه فكان يأمر عبوته
وبعض ثقاته بما يلي : أقم بأزلكم ولا تآلفي إناهم ، وكلما خلوت معهم فاطمروا نيل الهم والتعالم
علينا وعلى تاجينا ، وانهم احق بالأمر منا ، واحصي لي ما يقولون وما يكتوم منهم في مسيرهم
ومقدمهم .

بهذه السياسة الشديدة تمكن السفاح من نهضة الحالة في زمنه ، وذلك بدهم حكمه ، وجعل
الخلافة في أسرته والتخلص من أعدائه ومن كل من شك في أمره فنجح خير نجاح ، وإن كانت
بعض الطرق التي سلكها ملتوية لا تتلائم والاصلاح العربية إلا أنها تتلائم ومصالحته هو ومصالحه
أسرته .

سياسة السفاح الخارجية

انشغل السفاح بتهذيب الحالة الداخلية ، فلم يثنه القيام بأي عمل خارجي بل كانت بلاده معرضة
لغزو الروم الذين اكتسبوا قسمة الشمال المسلمين ببعضهم فهاجروا حدود البرقة النهائية ، فغزوا
المدن والقرى ونهبوها وقتلوا من وجدوا من سكانها ، وأتولوا على ملطية بعد حصار طويل ولم
يتمكن المسلمون من إيقاف الروم وردم على أعقابهم إلا في خلافة المصور .

تنظيم الدولة

قام السفاح بعد تهذيب الحالة الداخلية بتنظيم الدولة ، فعين أقربه على الولايات لأنه يركن اليهم
ويطعن لهم ، كما أنه يرضيهم بذلك ويسكنهم على مناصرتهم له ومساعدتهم إياه في قيام الدعوة
والخلافة العباسية . فعين أبا جعفر المصور على الجزيرة الفراتية وأرمينية ، وعبد الله بن علي على
الشام ، وصالح بن علي على فلسطين ، وأبا العوز على مصر وداود بن علي على الحجاز واليمن والحماة
وسليمان بن علي على البصرة والبحرين والاحساء والأهواز ، وأبا مسلم الخراساني على ولاية المشرق
وخراسان .

كما أنه قام بحملة أعمال عمرانية ، فبنى الأبراج وجعل المنارات على طريق الحاج من الكوفة إلى
مكة ، حتى يأمن الحجاج من الضلال والضياع ، كما أنه رقم هذا الطريق فقال رقماً عند نهاية كل ميل
ليعلم الساري ما بقي عليه من الطريق وأسس مدينة المدنية لكنه توفي قبل أن يتم بنائها ، وكانت

صحته أولاً في الكوفة . ثم انتقل منها إلى الحيرة ، ثم إلى الأنبار ونقل إليها دواوينه وجعل مائة
البرقة بيد خالد بن برمك .

صفات السفاح وأخوه ورواية الضرر ووفاته

كان السفاح مسلماً جيداً يحمد الشعر كثيراً أيضاً أفي الألف ، حسن الطبيعة . وكان سليماً
وقوراً عاقلاً كاملاً ، واشتهر بالكرم حتى قيل عنه كان السفاح يسخر الناس ما وعد عدة فأخرها
عن وقتها ولا قام من مجلسه حتى يقصيرا ، ومما يؤزر عنه قوله : إني من أدبياء الناس ووعظائهم
من عدل الخيل حزم وألحم ذلاً ، وقد قرب إليه الأدباء والشعراء والمثنيين ، وكان يطرب من وراء
الستور وكان يحب مسامرة الرجال وأهل العلم ، ولا يرغب في محاسبة النساء . تزوج قبل ولايته الخلافة
من — أم سلمة — ولم يتزوج غيرها بعد خلافته ، وكان له ولد منها اسمه أحمد ، ولدت اسمها رطلقة
عبد السفاح لأخيه أبي جعفر بالخلافة ، وبعثها من بعده ليعي بن موسى بن محمد . وكتب عهداً
بذلك ، وصيره في ثوب وختم عليه بقلعه وخواتيم أهل بيته ، ووفعه إلى عيسى بن موسى ومات
بالخدي في الأنبار في ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٣ هـ بعد حكم دام أربع سنين وتسعة أشهر ودفن في قصره
وكان يعاسره في تلكه الزمخاريين قسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥) م وفي فرنسا كان يحكم في
عنده — بين القصير — من العائلة الكارولنجية .

أبو جعفر المنصور

١٣٦ - ١٥٨ هـ أو ٧٤٤ - ٧٧٥ م

ولد أبو جعفر سنة ١٠١ هـ بخيمه . أبوه محمد بن أبي العباس ، وأمه سلامة البربرية ، وكان عنده
أخيه السفاح في الأمر على الثأرين والقضاء عليهم ، وكان أمير الحج سنة وفاة أخيه فأخذ له البيعة
بالأنبار عيسى بن موسى وكتب إليه بعهده بوفاء السفاح وولايته لأبيه ، فلقبه الرسول فكان يقال له
زكية . فدنا الناس فبايعوه وأبى أبو مسلم الخراساني وقال أبو جعفر : إني موضعتنا هذا ، قالوا
زكية . فقال : أمرتكم لنا إن شاء الله تعالى ، وقت له البيعة .

سباسة المنصور الراشدة

قامت في زمن المنصور ثلاثة أحداث خطيرة ، تمكن من القضاء عليها بدعائه وسزومه وهي : (١)
ثورة عمه عبد الله بن علي (٢) مقتل أبي مسلم الخراساني (٣) ثورة العلويين برأسة محمد النفس الزكية

١- لودا زعيم هذه الجماعة الدينية المتطرفة محل صمود الكيخاخك والفرع على مطالب قد تجد مركزا في
تحقيقه من قبل الشرطة.

٢- استغرقه في عهده الميناء المكسيكي حول مشكلة ولاية كيريتاريو
ثم ثورة الفلاحين في المكسيك. ثم تأهل انتظام في الحقيقة على شكل عدد الدول المكسيكية ليتم اعد
وأخيه ابراهيم. وماذا في هذه الأحداث الثلاثة بالتفصيل. سخطهم من هذه السلطة الجديدة.

اولا ثور و جملہ اہل بنی نضیر : ص ۸۷ ح ۱۶

ادعى عبد الله انه احق بالخلافة من المنصور وان الشاه وعده بها لما اتفه بطارية مروان .
وشجعه العرب من اهل الشام على القيام ضد المنصور ، فجمع عبد الله جيشا كبيرا من اهل الشام
والجزيرة واهل خراسان . وسار بهم الى قنالي الجزيرة وعسكر عند مدينة نيسابور . ولما علم
بذلك ابو جعفر المنصور سار اليه ابو مسلم الخراساني بمجن من الفرس . ولما كتب عبد الله اخاه
عبدية اخبرته بالمعركة منها : (١) انه كان في جيشه نحو سبعة عشر الف فارسي . امر صاحب درمته
بقتلهم خوفا من ان يستعملهم ابو مسلم اليه (٢) خلف من حميد بن قحطبة احد كبار القواد في جيشه
فازاد ان يخلص منه ، فكتب له كتابا ووجهه الى والي حلب . وكتب اليه في الكتاب : اننا قدم
عليك حميد فاضرب عنقه . ولكن حميد شك بامر الكتاب وفتح في الطريق وعرف ما فيه ، ودعا
اصحابه لحرب عبد الله (٣) تمكن ابو مسلم بدعائه الفارسي ان يحتل مكان عبد الله الحصين ، وذلك بان
كتب اليه انه ذاهب لتولي الشام وانه لا يريد حربه ، ولم تكن هذه الخيلة لتؤدي على عبد الله لانه
كان يعرف بكيد خصمه ، لكنها اثرت في جند الشام الذين خافوا على عيالتهم واموالهم من ايدي مسلم والخوا
على عبد الله ان يسير بهم الى ديارهم . ولما خرجوا من مكانهم اسرع ابو مسلم واحتله وحصن به
واصبح في مكان منيع . ثم اقتتل الفريقان وفي الحرب ستة اشهر ، واتى يظفر بن مسلم في جمادي
الآخرة سنة ١٣٧ هـ وهزيمة عبد الله بن علي الذي اشار عليه احد قواده ان يصبر ويقاوم حتى
يموت لان الفرار قبيح مثله ، وقبل باب على مروان قراره وقال : قد قبح الله مروان جزع من الموت
ففر ، ثم يصفى عبد الله الى هذا الرأي ، وفر هاربا الى اخيه سليمان بن علي امير البصرة فاركبوا له
وجيشه لابي مسلم فآواه اخوه وحماه وتوسط الى المنصور به فسطاه الامان ، ويقال انه سجنه في
دار اساسها من ملح ، فلما هطلت المطر سقطت الدار فاصير على من فيه فقتلوا ، وتخلص المنصور
منه سنة ١٤٧ هـ .

شعباً بقلل ابو مسلم الخراساني :

خفي المصور ان شور أبو مسلم الخراساني وان يشكل حكومة فارسية منفصلة عن الخلافة
 الفباسية ، وقد قام أبو مسلم بأعمال كثيرة أوقعت الرعية في قلب المصور منها (١) عدم تعزيتة بحوث
 السفاح وتهيشته بالخلافة (٢) سخره برسائل أبي جعفر وحضه على مرأى من الناس عليها عند قراعتها
 (٣) غطبه على رسول أبي جعفر الذي جاء ليحصى الغنائم التي تركها عبد الله بعد هزيمته ، ومحاولة
 قتل الرسول لولا ان قيل له ، ما ذنبه ؟ إنما هو رسول . فحفي سبيله ، ولم يحككه من احصاء

الناس، وقد : لا أكون أميناً على السماء ، غير أمين على الأموال (٥) كذب إليه المصور كتاباً يقول فيه : إلى دار وليتذكر مصر والشام في خبرك من خراسان ، فوجهه إلى مصر من حيث وأقم شمس حتى تكون غروب أمير المؤمنين فلما أحب أن يأتى إليه من قريب ، وكانت غاية المصور أن يبعث إليه مسلم عن خراسان لأن حربه فيها ، فكتب أبو مسلم وقال : هو يئس الشام ومصر وخراسان لي ، وصحهم على الخبيث إلى خراسان وسار حتى وداه سلوان . وهنا جاءه كتاب الخليفة بأمره بالثبوت إليه إلى المدائن . فمضى فأرسل إليه كتاباً مع عيسى بن موسى وإلى شهادته . ومعه أبو حمزة المروزي وأمره أن يكله إلى مسلم بالإن ما يكله به أسد والله عليه ، قال أبو حمزة فكتب الخليفة بالخروج من نفسه على قتله حتى لو خاض البحر لحاضه سلقته ، ولو اقتحم النار لاختصها ورأى حتى يقتله . فعلى الرسول ما أمره به الخليفة وبلغ أبو مسلم ذلك فكانت غلات أولاً ثم ضيع لا سجا منه ما لم أن المصور عين على خراسان وهيمن الجند هناك طيلة حياته . وكذب هذا إلى أبي مسلم بقوله : : (إن لم يخرج نصية سقاء الله وأهل بيته فيه) (س) فلا تخافن إيمانك ولا ترجعن إلا بأذنه . فاستدل عندهما أبو مسلم وقطع لامل من خراسان وقبل دعوة الخليفة .

كان المصور مصعباً على قتل أبي مسلم ولكنه اجتهد أن يكون الرجل آمناً لا يحس بهي من الخفاء ، فلما قارب أبو مسلم المدائن أمر المصور بني هاشم أن يرحبوا به ويلقوه أحسن لقاء وهكذا فعلوا حتى دخل على المصور فسلم عليه المصور . إلا أنه يشبه بشي الخليفة ، وأمره أن يفتقر فموزيل وعطاء السقر ويستخرج ليلته ، ولما جاء المدائن أمر ما سمع من طعنه أن يجعل خيمة ورجال أقوياء خلفه لروان . فلما سمعوا الأصوات خرجوا إلى أبي مسلم وقلوبهم ثم دعا أبو مسلم فدخل عليه وجرب يمينه

المناورة الثانية :

المصور : أخبرني عن نصيبين أربابها في متاع عبد الله بن علي ؟

أبو مسلم : هذا أحد هما الذي على .

المصور : أرونيه !

أبو مسلم : انتضاء وأوله إليه (فخذاه أبو حمزة وهزه) ثم وضعه تحت فراشه . وأما فضل

ذلك ليأمن على نفسه حتى لا يغتلبه أبو مسلم إذا أحس بالشر وأقبل عليه بمأربه :

المصور : أخبرني عن تذكرك أبي في طريق الحج ؟

أبو مسلم : كرهت اجتماعاً على الماء فيضرب ذلك بالناس .

المصور : فما أوتيتك وخروجك إلى خراسان ؟

أبو مسلم : خفت أن يكون قد دخلت مدني فمضى .

١- اجتماع بين الزوجين - طلاق - طلاق
 ٢- طلاق بين الزوجين - طلاق - طلاق

المقصود: الست الكاتب الى "تبدأ بنفسك" ، والكاتب الى لخطاب أمينة بنت علي (مذاهب) الى
قتل سليمان بن كعب السلمي مع الزهري في ذنوبنا وهو أحد نقابنا قبل زهدنا في
 شيء من هذا الأمر . . . إننا نعلم في ذنوبنا ورجعنا ، ولو كان ذلك اليك ما قطعت
 قتيلا . لقد اوسيت — لا اله الا الله — مررتي صبرا

فخلف أبو مسلم بيد الخليفة فيها ويعتذر ، وصدق المنصور بغير حجة رجل من وراء المنبر
وقالوا يا مسلم ، فقال قبل وقله : استعفي المنصور : فأجاب المنصور : وأي عدو أندى في ملكك ؟
مات أبو مسلم ، وبعثه قاضي آمل الفرس الذين كانوا يطلبون إلى إعادة ملكهم المنابر ،
وإرجاع جودهم الخليفة ، وتخلص أبو جعفر من عدو شديد المرء ، فمضى بخيأس . ومقتل أبو مسلم
بدلنا في قوة خلفاء هذا الدين : وعكسهم من القضاء على أعدائهم بشئ الأساليب والخرق . وبدلنا
على حيوية الخلافة وإن الخلفاء في الفايصون على ناحية الحكم ، وإن الأمر لا يزال بيدهم ولم يخرج
منهم . ومن جهة أخرى نجد أن مقتل أبي مسلم قد أثار حماس كثير من الأرسانيين الذين يعتبرون أن
أبوسلم بطلم القومي . فقال بعضهم : لم يمت ، وإنه - يعود ويملأ الأرض عدلا بعد أن تكون
قد امتلأت جورا . وقال آخرون بأمامة ابنته فاطمة وه المملكية أو الفاطمية وقام الفرس بعد ذلك
بمركات ثورية عنيفة . حدث بعضها في زمن المنصور : كثورة سينا الفارسي الذي قام في خراسان
مطالبا بدم أبي مسلم ، وكحركة الراوندية : التي حدثت بعد عودة المنصور من الحج سنة ١٤٠ هـ
فقد التفت حوله جماعة من الفرس في مدينة المدحمية يقولون بتأسيس الأرواح ، وإن أبو جعفر وبهم
الذي يطعمهم ويستقيم فتوا إلى قصره ، وظافوا حوله ، فامر المنصور بحبس اثنين منهم ، فقتلوا
ودخلوا السجن وأخرجوا أصحابهم منه . وتوجهوا إلى قصر المنصور ، يرمون قتله ولولا دفاع معن
بن رائدة (١) عنه لقتل على الطايفة في ذلك اليوم . وقد قام الفرس على هذه الحركات ثم بعد
سنة كرها في حنبها .

(١) - معن بن زائدة النيباني : هو قائد شجاع كان في الهم بنو أمية منتزعا في الولايات ومنقطعا إلى يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراقيين . فلما جاءت الدولة العباسية وحوجس يزيد بن عمر بواسط أبي معه يومئذ بلاد حسنة . فلما سمى يزيد وقتل خاف معن على نفسه من المنصور ، فاستتر مدة طويلة حصلت له فيها غرائب من أضرها : أنه تذكر وركب جملا قاصداً البادية . فبينما هو خارج من باب المدينة تبعه عبد اسود مثقل سيفاً ، وقبض على خطام جملة فأخذه ، وقبض على يدي معن ، وقال : انت طلبة أمير المؤمنين ، انت معن بن زائدة . فلما رأى الجند منه أخرج عقد جوهر ثمة الضفاف -

أما شعب الله من الشعب فتابع عبد الله محمد الله المرحوم في الدنيا بشهادة

اضطهد العباسيون أبناء عمهم الموليين بالرحم ان الدعوة كانت لهم في ابدى الامر . وتقبل لما ذاك
في قول محمد بن عبد الله الملقب بالنفس الزكية ، الى عمه الحسن بن الحسين بن علي قال : والله
يعلم ! لقد كنا نعلمنا على بني أمية ما نعلمنا ، فما بنو العباس إلا اقل خوفه منهم ، وإن الحاجة على
بني العباس لاوجب منها عليهم ، ولقد كانت لفنوم اسلاف ومكارم ابست لابي جعفر ، وكان المنصور
قابع محمد النفس الزكية بالأمانة في آخر العهد الاموي . كما باهه أهل بيته بذلك ، لكفائته ومقدرته
المجبية ، حتى أنه سمي بالنفس الزكية - لسوء فكره وزهده ونسكه - ولما صارت الخلافة
للاباسيين لم يبايع محمد النفس الزكية السفاح ، ولا المنصور بالخلافة : كما انه لم يحضر هو ولا اخوه الى
المدينة مع بني هاشم عند ما حج المنصور في زمن اخيه مما وقع الرقة في نفس ابي جعفر ، فصار
يحتال ليعرف اخباره واخبار اخيه ، وولى عدة ولاء في المدينة بغية الحصول عليها ، والنق كثيرا
من المال في هذا السبيل واخيراً ولى المدينة احمد ممالك العرب وهو رافع بن عثمان بن سنان المزي
فأتى المدينة سنة ١١٠ هـ واضطهد الاصحاب الذين يستحقون محمد عندهم ، كما انه اوهق بني الحسن
سائرة محمد النفس الزكية - وجعلهم في المدينة ، ولما سم بذلك محمد جاء الى امه عند وقال لها
واني قد حملت ابي وصحرتي ما لا مائة لهم به . ولقد سمعت ان اضع يدي في ايديهم فمسي ان يخلني
عنهم . فتسكرت عند وابست اطواراً ثم جاءت السجدة كريمة الرسول فأتى لها ، فلما رآها عبد الله
ابو محمد النفس الزكية نهض اليها فآخبره بما قال عمه - فقال : كلا ! بل نصبر فوالله اني لارجوا

— ما جعله المنصور لم يأتني به ، فقال الأسود حنقه ، ولا تكن سباً لسفك دمي ، فقال له الأسود وقال :
لست أقوله حتى أسألك عن شيء ، قال صدقتي اطلاقك ، ان الناس وصفوك بالجلود ، قبل وبعثت هناك
كله ؟ قال : لا ! قال ففصله ؟ قال : لا ! ولم يزل حتى بلغ المدر . فقال لمن : نعم . فقال له الأسود
انما رزقي من المنصور كل شهر عسرون درهما وهذا الجوهر قيمته الف دينار ، وقد وهبته لك ،
ووهبت لنفسك ولبودك المأثور بين الناس ، ولتعلم ان في الدنيا من هو احوذ منك فلا تعجبك
نفسك . ولتخبر بعد هذا كل جود فاعنه ولا تترقب من الحكومة ، ثم رمى القدر في حجره وترك
خضام الجمل وولى منصوره . فقال له من : والله قد فضحتي ولستك دمي احزون علي عما فعلت ،
فخذ ما دفعته لك فاني في غنى عنه ، فضحك وقال : أردت ان تكذبني في مالي والله لا اخذته ولا
اخذت لمعروفي فانا ومضى لسيده . . . وبعد حادثته الثانية سبأ المنصور : أسد الرجال واعتاد
الامان وولاه الخراج ثم سجنه . وقد قتله الخوارج سنة ١٥١ هـ

ان يفتح الله به خيراً ، قولي له فليدع الى امره وليجد فيه فان فرجنا بيد الله ، فانصرفت وبقي محمد
على اعتناؤه . ولما حج المصور سأل عبد الله عن أبيه ، فأنكر ان يكون عنده عرساً ، فنهض
المصور كذبه ، وأمر بذلك مع المصورين من بني الحسن الى العراق فحلبوا متتابعين بالانزال على
أسود حال الى قصر بن عبيدة (١) ومنهم من قال أكثرهم ولم يصح محمد النفس الزكية على عذاب
أهله فخرج في المدينة سنة ١٤٥ هـ وملكها عامها وخطب في الناس وبها فاته : يا أيها الناس ، إنه كان
من أمرنا وأمر الطائفة عدو الله ، أبي جعفر مالم يخف عليك من مثله القبة المظاهرة التي بناها
معاذ الله في ملكه ، وتصغيراً للكمية الحرام ، وإنا أخذ الله فرعون حين قال : يا ربكم الأعلى ...
أيها الناس ، والله ما خرجت بين أظهركم وأنتم عندي أهل قوة ولا شدة ، ولكني اخترتكم نفسي ،
والله ما جئت هذه ، وفي الأرض مصر بعد الله فيه ، إلا وقد أخذت في يه البيعة ، ومن هذا الخطاب
يشين أن محمداً كان يعتمد على أهل الأمصار الإسلامية في قيام حركته ، والذي أوقعه في هذا الخطأ
وجعله فيهم ان دعوته قد انتشرت في جميع البلاد ، هو ان المصور كانت يكتب ل محمد علي الدين
قواده بدعونه الى العصيان وانهم معه ، فكان محمد يقول : لم اتبعكم مالاً الى القواد كلهم ، وما
سب فشل حركته تأخر خروج أسود ابراهيم الذي كان يدعو الله في البصرة ، وكان متقدماً به
على يوم بلوران معاوية ، ولكن سادته ان ابراهيم كان مرابطاً بالحدري فتأخر في بلورته ، وقد احتل
محمد النفس الزكية بالتمسك على المدينة في حركته إذ انها ليست بمرکز جري ولا تصالح الدفاه
لان حياتها من خارجها فلا تعتمد الخطر الا قليلاً ، كما ان أهلها ضعفاء لا يقرون على مقاومة - بن
العباسيين . وقد سأل بعضهم الامام مالك في خروجهم مع محمد ، وفي ردهم بيعة للمصور فأنهم
بالخروج ، لأنهم اسوا منكم حينئذ وأمر على مسكره دين .

كان المصور حين بلورته تصبان محمد ، مستغلاً بين بغداد وقد حمل اليه الخبر اوس الدامري
الذي قنع الساسة من المدينة الى المشيخة في تسعة أيام فعداه الطائفة تسعة آلاف درهم . وأسرع
المصور الى الكوفة وحمل ابراهيم حتى لا يخرج منها احد ، ولا يدعها احد لانهم شبيبة آل أبي
واحد المصور ان يراى محمداً قبل عاصيته فكذب اليه كتاباً يقول فيه : يا سيدي الله الرحمن
الرحيم من عبد الله عبد الله ابراهيم الزماني ، ان محمد بن عبد الله ، لما بعد فاما جزاء الذين يمارون
الله ورسوله ، واسعون في الأرض فساداً ان يقتلوا او يصلبوا او تقطع ايديهم ولجلهم من - آلاف
او يلقوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا وهم في الآخرة عذاب عظيم إلا الذين تابوا من قبل
أن تصروا عليهم ، فأتوا الله ان الله يقبل توبتهم ويمنحهم ما يريدون (س) (١)

(١) قصر بن عبيدة ، بلدة في شرقي الكوفة على نهر الفرات غربي بغداد .

من قبل ان اقدر عليك ان اؤمنك على نفسك ووليك واخوتك ومن بابك وتعلمك وجميع شيمتك ،
وان اعطيتك القى الف عزم وان ازالك من البلاد حيث شئت ، واقضي لك ما شئت من الحاجات ،
وان اطلق من في سجنى من اهل بيتك وشيمتك ، وانصارك ، ثم لا اتبع احدا منك بشكروه ، فان
شئت ان تتوثق لنفسك فوجه الى من ياخذ لك من الدنانير والدين والامن ما احببت والى الامم .

ففي قبل النفس الزكية كما عرض عليه المنصور واجابه بكتاب جاء فيه : علمت انك آوت
الكتاب المبين تلو انبيائك من نبي موسى وفرعون بلقي لقوم يؤمنون ، ان فرعون خلا في الارض
وجعل اهلها شيعة يستصفت طائفة منهم بذهب الباطل ويمنعني ناسهم انه كان من المفسدين ، وزيد
ان نمن على الذين استصفتوا في الارض ولجملهم آفة ولجملهم المورثين ونكس لهم في الارض ،
وزيد فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون . وانا امرش عليك من الامم مثل الذي
اعطيتني . وقد علم ان الحق حقا ، وانكم انما طلبتموه بنا . ونهضتم به بشيئنا وخطبتهموه ففعلنا
وان ابانا عاليا عليه السلام كان الوصي والامام ، فكيف ورثتموه دوننا ونحن احياء وقد
عليه المنصور بكتاب آخر بين فيه فضيلة نبيه وقرباته وجزيل جيشا مؤلفا من اربعة آلاف فارس
وخمسة آلاف راجل بقيادة ولي العهد عيسى بن موسى وكان المنصور لا يهمل ايها لال الآخر . فلما
قتل عيسى بن موسى تخلف من خلفه كان يريد نقل الخلافة لابنه الهادي بن بعده . وارسل المنصور
جيشا آخر بقيادة محمد بن قحطبة اتبعه بمش عيسى ، وقطع المنصور الاسمار عن اهل شراسان
خوفا من ان يبلغهم خبر عصيان محمد ففسد قلوبهم ، وكان يخوف منهم كثيرا . لما بلغ محمد النفس
الزكية مجي جيش عيسى بن موسى امر بحفر خندق حول المدينة ، تشبها بحد النبي (ص) يوم
الاحزاب ، وتلدب سيف النبي ذو الفقار ، الا ان اكثر اهل المدينة هربوا كما ان بعضهم انضم الى
جيش عيسى بن موسى ، الذي ارسل فصيلة من جنوده تجرس دارق مكة ، حتى تقبض على محمد
النفس الزكية اذا ساءل الحرب اليها ، وطالب اليه قبل بدء الحرب المنصور والامام فاني ، فتحاصر
عيسى المدينة وقطع اشجار الخيل التي حولها ، ونصبها عشرة في رمضان سنة ١٤٥ هـ وقتل محمد
النفس الزكية ، وارسل رأسه الى ابي جعفر . وأمن اهل المدينة ، واخذ أسرا ل بن الحسن كلها
وسار متجها نحو مكة .

خسر اهل المدينة من جراء تورطهم هذه ، لأن الظليفة المنصور حرمهم من الامتيازات التي
كانو يتمتعون بها ، فمنع عنهم الجيوب التي كانت تأتيهم من مصر منذ أيام الظليفة عمير ، كما حرم
الامام ابنة وولد الامام مالك ، ووقعت المادية بعد ذلك في فقر وخفق .

١٢٥٠
عن بشار البغدادى ، زاد في مكيمة دهره في حصار امير عبد الله بنو الصليبي بالمدينة
زاد في مكيمة دهره في حصار امير عبد الله بنو الصليبي بالمدينة
وذكر في مكيمة دهره في حصار امير عبد الله بنو الصليبي بالمدينة
وممن هربوا من حصاره قتل في اليوم ١٢ عن مكيمة دهره .

ثورة ابراهيم

ابراهيم اخو محمد النفس الزكية ، جاء البصرة ودعا اهلها الى مبايعة اخيه ، فبايعه كثيرون من اهلها ، وأجابته قبائل العرب ، ثم أعلن عصيانه واستولى على البصرة ، والاهواز ، وواسط ، وكان لشغل اخيه تأثير عظيم في شغل حركته ، فلم في ثورته متأخراً فتمكن المنصور من القضاء على كل واحد منها على حدة ، ولما سمع المنصور بثورة ابراهيم أرسل يستحث عيسى بن موسى في القدوم لمخاربه ، كما انه انظر قدوم ابنه الذي مع جيشه من خراسان ، وظل المنصور سبعة أسابيع في الكوفة على سوء حال يتم على بساط ولا يبدل ثيابه السوداء ، خائفاً من قيام اهل الكوفة عليه ، وأبس عنده عند محبيه ، حتى وصل ابنه وعاد جيش الحاجز وتحارب مع جيش ابراهيم عند باخري - بجزار الكوفة - والتقى عليه وقتله ، وبذلك تخاض المنصور من حركة العلويين هذه التي كانت خطراً على دولته ، وعلى أثر ذلك خطب المنصور في وفد من اهل خراسان خطبة رائعة ولا عجبها تذكرها قال : يا اهل خراسان أقم شيعتنا والصارنا واهل دولتنا ، ولو بايعتم غيرنا لم تبأيعوا من هو خير منا ، وإن اهل بني هذيل من وفد علي بن أبي طالب تركناهم والذي لا اله الا هو والخلافة لم تعرض لهم فيها بغيل ولا كثير ، فقام علي بن أبي طالب فتطلى وحكم عليه الحكيم فافترقت عنه الامة واختلفت عليه الكلمة ، ثم وثب عليه شيعته وأصداره وانجابه وبهاتفه وثقاته فقتلوه ، ثم قام من بعده ابنه الحسن ، فوافقه ما كان فيها برجل قد عرضت عليه الاموال قبلها ، فذهب اليه معاوية أني اجعلك ولي عهدي من بعدي فخذته ، فسلم له مما كان فيه وسلمه اليه ، فأقبل على النساء يتزوج في كل يوم واحدة فيطلبها عدا ، ثم بزل على ذلك حتى مات على فراشه ، ثم قام من بعده الحسين بن علي فخذته اهل العراق واهل الكوفة واهل الشقاق والتفائق والاعتراف والفتن ، اهل هذه المدة السوداء (وأشار الى الكوفة بيده) فوافقه ما بهي بحرب فاحرقها ، ولا سلم سالم افرق الله بيني وبينها ، فخذلوه واسلموه ثم قام من بعده زيد بن علي فخذته اهل الكوفة وغروه فلما اخرجوه اظهروه واسلموه وقد كان ابي محمد بن علي قد نشد في الخروج ، وسأله ان لا يقبل أقويل اهل الكوفة وقال : أنا نجد في بعض علماء ان بعض اهل بيتي يصلب بالكوفة ، وأنا أخاف ان تكون ذلك المصلوب ، ونشدته عمي داود بن علي وحذرة غار اهل الكوفة في قبيل ، واتهم على خروجه ، فقتل وصلب ، بالكوفة ، ثم وثب علينا بنوا ابي طالب شرفنا وانهبوا عزنا والله ما كان لهم عندنا ثرة يطلبونها ، وما كان ذلك كله الا قيم ، وبسبب خروجهم عليهم فبقوا من البلاد بالله مرة بالثلاث ومرة بالشام ، ومرة بالخراسان حتى بعثكم الله لنا شيعة وانصاراً ، فاحيا شرفنا بكتم اهل خراسان ، ودفع بكم اهل الباطل ، واظهر حقا واصار اليتامى ميراثنا عن نبينا)

فقر الحق مقوده ... فلما استقرت الامور فيها على قرارها من فضل الله علينا وحكمه العادل لنا وثبوا
علينا ظمأ وحسداً منهم لنا وبنياً لنا فضلنا الله به عليهم ، واكرمنا به من سخاوته وميراث
فيه (ص)

جهلاء على وجبت من عدوهم ليأمنن المثلثان الجبل والبلين
وشرود المنصور بن الحسن ، وحبس وقتل كثيرين منهم ، ومن اشرف البصرة الذين ساعدوا
الدعوة العلوية وعدم يوتيم وحرب بساتينهم ، وارسل رأس ابراهيم الى ابيه عيد الله في السجن ،
فراذ الله وحزنه وقتل الرسول ، وقتل نصابك . قد مضى من يومنا ايام والماتى الزمان . فالتبر
المنصور من هذا القول وانظر .
حالة شمالي الفريضة ،

لم تكن شمالي الفريضة هادئة في زمن المنصور ، نظراً لبعدها عن مركز الخلافة ، واتهام الخوارج
بثورات متعددة فيها ، فطلب المال الذي يرسله الخليفة اليها وقد وثق الخليفة الى والي قيس وهو
زيد المهدي الذي تمكن من تهدئة الحالة في شمالي الفريضة ، وقمع ثورات الخوارج وتعذب لوطهم ،
واسترد منهم مدينة القيروان ، وشر الأمن في ربيع البلاد وبقي والياً فيها مدة خمسة عشر سنة الى
ان توفي سنة ١٧٠ هـ

سياسة المنصور الخارجية

اولاً بلاد الاندلس :

عرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الأموي الى بلاد الاندلس ، في زمن أبي جعفر المنصور
وأسس بها دولة أموية منفصلة عن الخلافة العباسية في بغداد ، وكانت هي أول دولة انفصلت عن
ملك العباسيين ، وتسمى عبد الرحمن بالأمير فقط . وتصل صلته مع الخليفة في المشرق ، وكان المنصور
محب من عبد الرحمن لقدرته وكفائته . تمكنه من الحرب من وجه العباسيين ، وتأسيسه دولة
في الغرب ضاهت ملك العباسيين في المشرق ، ولقبه المنصور بـ " حَقَر قَرِيش " ولم تكن العلاقة حسنة
بين الدولتين ، فان المنصور أرسل عامه على الفريضة ابن مغيث البجلي ليقزو بلاد الاندلس ، ففشلت
محنته فشلاً مرئياً ، وأرسل بها عبد الرحمن هزيمة منكبة ، ربت برأس قائد هذه الحملة الى مكة ، وألقي
سر أيام المنصور ، الذي كان ساجداً في ثلاث السنة ، فارتاح ، وحمد الله الذي جعل بينه وبين صفر
قر بخرأ .

ثانياً بلاد الروم :

غزت جيوش قسطنطين الخامس امبراطور الروم حدود المملكة الإسلامية الثانية سنة ١٢٨ هـ واستولت على ثغر (١) ملطية وهدمت سورها ، فأرسل المنصور حاكم صالحي علي ، ومعه ألفا منصور العباس بن محمد بن علي في غزو المالتة ، فغزوا الروم ، وأعادوا بناء ما تهدم الروم من ملطية ، وفي السنة الثامنة سنة ١٣٩ هـ قاما بغزو أرض الروم من درب الحداث ، ومعها احتا صالح : لم عيسى ، وإبابة ابنتا علي ، وكانتا يذوران أن ذلك ملك بني أمية أن يجاهدا في سبيل الله . وهم في هذه السنة فداء (٢) بين المنصور وملك الروم ، اتفقا به المنصور أسراء المسلمين . وكانت الصوالتستولي في غزو بلاد الروم الى سنة ١٥٥ هـ ، وفيها طلب امبراطور الروم الصلح من المسلمين على أن يؤدي لهم : الخزينة ، وقبل بذلك المنصور ، وعقد بينهما صلح لمدة سبع سنين . وكانت هذه الحروب التي تجري بين المسلمين والبيزنطيين عبارة عن غزوات يقوم بها أحد الطرفين على الآخر إذا انس منه ضعفاً ، فغير على البلاد ، وينهب ما تقبل يده اليه ، ويخرب الحصون والقصور ، التي يصادفها في طريقه ويعود الى بلاده ، ولم يكن يقصد من هذه الغزوات (ثمنها) واستيلاء دائماً وانما هي عبارة عن مناورات جوية يقوم بها من يشعر بقوته وكفائته ، وهي تدل على حيوية الدولة ونباهتها . وكانت الأراضي الواقعة على حدود المملكتين تتراوح بين الطرفين ، فمن كانت أحوال دولته الداخلية مستقرة والنظام والامن سائدين في بلاده ، توغلت جيوشه في تلك الأراضي واستولت عليها ، فذا ما اختلت الحالة الداخلية ، بقيام ثورات وفتن ، وضعف الجيش المرباط على الحدود ، لاقطاع الارزاق عنه ، تراجع الى الوراء ، واحتل الطرف الثاني مراكزه . وكانت الجيوش المرباطة على الحدود نوعين ، المرتزة وهم الحند المفروض لهم عطاء في الديوان ، والمخلوعة : وهم القاتلون الذين يتطوعون من أنفسهم لاجهاد في سبيل الله ، ولا يأخذون أجراً على ذلك ، ويكتفي الخليفة بتعيين قائد لهم .

ثالثاً بلاد طبرستان والخرز :

كان أهل طبرستان الفاطنيين في الجنوب الغربي من بحر قزوين ، لا يزالون على دينهم القديم ، ويتحكم رؤساء من بينهم ، بالرغم من أنهم خاضعون لحكم المسلمين ، وعندما عرفوا انقلاب الخلافة

(١) أطلق كلمة ثغر على المدن والحصون الواقعة على حدود المملكة الإسلامية ، زبانه على معناها الأصلي ، وهو ميناء على البحر .

(٢) كان الخلفاء يقدون أسراء المسلمين من وقت الى آخر ، فيبادلون مع الروم كل أسير مثله ، وإذا بقي من المسلمين من هو في الأسر ، دفعوا دينه وفكوه من الامر .

الأموية ، وانتفاها لبي العباس ، كادوا على العرب المتوطنين في ديارهم ، وفشكو بعدد غير قليل منهم فأرسل الخليفة جيشاً كبيراً هزمهم ونكّل برؤسائهم ، وألحق طبرستان نهائياً بالدولة العباسية . وقم أهل اليمن بشوكة على الخليفة ، فأرسل لهم المنصور جيشاً أخضعهم ، وبني الحصون والمعاقل على حدود بلادهم . وكذلك شق أهل الخزر في كورجيا عصا الطاعة على الخليفة فقمع المنصور حرّكتهم وأدب زعماءهم . وحاول الأكراد في الجزيرة الفراتية الثورة على الخليفة العباسي فأرسل لهم المنصور وزيره خلف بن برمك غلاماً على بلادهم ، فاستطاع بصلابته وحزمه أن يقمع حرّكتهم ، ويثبّر الأمن والسلام في تلك البلاد .

كان سبب هذه المصادات التي وقعت في أطراف المملكة أن الخلافة الإسلامية مرت في دور انتفال من بني أمية إلى بني العباس . فكان من الطبيعي أن يشور أهل تلك البلاد عندما وجدوا أن العرب يتنازعون فيما بينهم على الخلافة ، وأن أحوالهم الداخلية في بلادهم غير مستتبّة ، ولعلّكن المنصور سياسته الحازمة عرفت كيف يخضع هذه الشعوب ، ويوطد نفوذه في بلادها .

أعمال المنصور العمرانية

بناء بغداد

أراد المنصور بناء عاصمة للملكة ، وكانت المدينة في زمن النبي (ص) عاصمة المسلمين والخلفاء الراشدين الثلاثة الأولين ، أما الإمام علي فقد اتخذ الكوفة مقر حكمه لأن بها شيعته . ولما قامت الدولة الأموية جعل معاوية دمشق عاصمة الخلافة الإسلامية ، إلا أن دمشق لا تصلح عاصمة للخلفاء العباسيين ، لأن أهلها من حزب الأمويين ، ولأنها بعيدة عن بلاد الحجاز ، التي نصر أهلها العباسيين وقاموا بقتلهم . فبنى السفاح قصرًا بجوار الأنبار على الضفة الشرقية من الفرات ، عند مخرج نهر عيسى دعام الهاشمية . ثم بنى المنصور واتخذ له قصرًا آخر بين الكوفة والحيرة دعام الهاشمية أيضًا ، ولكن هذا المكان لا يصلح أن يكون عاصمة الخلافة ، لذلك فكر المنصور في البحث عن مكان آخر يكون موافقاً لغرضه ، فبحث ووجد برنادون له مكاناً مناسباً ، فاختاروا له مكاناً بتداد . فاستسار أهل ذلك الموضع من الرهبان ، فحسّوه له وما قالوه : « تنزل في بتداد ، فذلك تصير بين أربعة طاسيج (نواحي) ... فإن تأخر عمارة طسوج منها كان الآخر عامراً . وابت بالير المزمين على الصراة ودجلة ، تحيطك باليرة من الغرب ، وفي الفرات من الشام ومصر ، وتلك البلدان . وتحمل اليك طرايف الهند والسند والصين والبحيرة وواسط في دجلة ، وتحيطك ميرة أرمينية وأذربيجان

والموصل وديار بكر واربعة . واثنت بين انهار لا يصل اليك عدوك الا على جسر لم يبق له المداخلة
 الجسر لم يصل اليك عدوك ، واثنت قريب من النهر والبحر والجبل . فوافق الخليفة على هذا الموقع
 وكان يسمى بغداد بالنسبة الى قرية قديمة كانت قائمة فيه . وأمر بإنشاء مدينة السلام في سنة ١٤٥ هـ
 وأمر بجميع الصنائع والعمال من جميع الجهات والنواحي فأحضروا وكان عددهم نحو مئة الف عامل ،
 وأمر باختيار قوم من ذوي الفضل والعدالة والفقه والأمانة . والمعرفة بالهندسة . ليثولوا مراقبة
 العمال ، وعدد الذين ، ثم رسمت خطوط المدينة وتقسمت عمارتها . فأمر المنصور ان ينظر اليها ، فأمر
 ان يذر الرماح على خطوطها واقسامها كي تقابل ، ثم قيل واخذ يدخل من كل باب ويمر في فاصلاتها
 ويطبقها ورعاها ، وهي خطوطها بالرماد . ثم أمر ان يجعل على تلك الخطوط حطب القطن ، ويصب
 عليه النفط ، فنظر اليها وأثار تشتمل ، ففرعها وعرف رسمها وأمر ان يحفر أساس ذلك الرسم . ثم
 ابتدئ في عملها . ووضع المنصور اول لبنة بيده وقال : بسم الله والحمد لله والأرض لله يورثها من
 يشاء من عباده والعاقبة للمتقين . ثم قال : ابتوا على بركة الله . واحتاج الخليفة الى أجر فقال لما
 البرمكي : ما ترى في تقضى ايوان كسرى بالمداخلة وحمل نقضه الى مدينتي هذه ؟ قال خالد :
 لا أرى ذلك يا أمير المؤمنين ! قال : ولم ؟ قال : لأنه علم من أعلام الاسلام ، يستدل
 به الناظر اليه على أنه لم يكن ليزال مثل أصحابه عنه بأمر الدنيا ، وإنما هو على أمر دين ، ومع هذا
 يا أمير المؤمنين فإن فيه مصلى على بن أبي طالب صلوات الله عليه . فأجاب المنصور : هيبت
 بأخالد ! أبيت الا الميل الى أصحابك المعجم . ثم أمر المنصور ان ينقض القصر الأبيض ، فنقضت
 ناحية منه ، وحمل نقضه ، ولكن الخليفة وجد أن هدمه يكلف أكثر من نفقات عمل أجر
 جديد فتركه .

كانت بغداد في اول امرها مدينة مدورة ، يحيطها سوران عظيمان ، وخارجها خندق عظيم فيه
 ماء . وفي داخلها سور صغير يحيط بالساحة الوسطى وفي الاسوار اربعة ابواب متساوية الابدان وهي
 باب الكوفة . وباب البصرة . وباب خراسان . وباب الشام . ويحيطها عشرون الف دراع ، وفي وسطها
 ساحة مستديرة فيها قصور وجامع وفي مركز هذه الساحة قصر الذهب . وهو قصر الخليفة
 المنصور ، وكان فوق ايوان هذا القصر قبة خضراء على رأسها مثال قوسي في يده راسخ . وكان
 مقراً للخلفاء العباسيين ، وكان يحوار هذا القصر جامع المنصور . وكان في المدينة المدورة ايضاً
 قصور اولاد الخليفة وبيوت الخدم ، وتكنة لحرس الخليفة ، ودور لدواوينه المتعددة وقبض الاسواق
 والمحلات خارج المدينة المدورة ، وتم بناء بغداد سنة ١٥٠ هـ .

وفي سنة ١٥١ هـ بنى المنصور الرصافة لابنه المهدي وهي عبارة عن قصر وجامع في الجانب الشرقي

من بغداد ، وتوسعت بغداد بعد ذلك كثيراً .

اتفق المنصور على مدينة بغداد ثمانية عشر ألف دينار ، وحشر إليها العلماء من كل بلد وأقليم ، فأما الناس أفواجا ولم تزل تتماظم ويزداد عمرانها حتى صارت أم الدنيا وسيدة البلاد وميد الحضارة الإسلامية في عهد الدولة العباسية ، وأرسل سكانها على مليونين .

سقطت هذه المدينة العظيمة سنة ٦٥٦ هـ بعد حصار هو لا كثر في لها ، ولم يبق من آثارها القديمة اليوم إلا بعض الأطلال البالية ، ويعود سبب اندثارها وعدم بقاء آثار ظاهرة فيها إلى أن مادة البناء فيها كانت على الأغلب من اللبن والآجر ، اللذان لا يقويان على البقاء مدة طويلة .

وقام المنصور أيضاً بحملة أعمال عمرانية منها أنه بنى سنة ٦٥٥ هـ مدينة الرفقة ، كما شيد الأسوار وحفر الخنادق حول مدينتي الكوفة والبصرة ، ولما أراد بناء سور الكوفة وحفر خندقها ، أمر بإعطائه خمسة دراهم لكل رجل من أهل الكوفة حتى يعلم عددهم ، أمر بعد ذلك بجمع أربعين من كل واحد منهم ، فيجمعوا هذه المبالغ وأنفقوها في بناء السور وحفر الخندق ، فقال أحد الشعراء يذكر هذه الحادثة :

يا تخومي ما لنا
من أمير المؤمنين
قم الحجة فينا
وجيئنا الأربعين

وبنى المنصور كذلك قصراً عظيماً في المدينة بالحجاز اتفق عليه أموالاً كثيرة ، وأمر بتزيين الحصون ، وإقامة المدن على حدود الدولة العباسية ، لا سيما الواقعة بينه وبين البغداديين ، وكان يزور تلك المواقع بنفسه ، ويرمم ما تخرب منها ، ويضع الخفريات فيها ، ويبنى حصوناً جديدة غيرها .

إدارة المنصور وصفاته

كان المنصور من أعظم الخلفاء العباسيين شدة وبأساً ، ويحفظه وحزماً وملاحاً ، واهتماماً بمصالح الرعية وجداً في بلاطه ، وهو موطن الحكم العباسي ، ويعتبر بحق المؤسس الثاني للدولة العباسية ، كما كان عبد الملك بن مروان بالنسبة إلى الدولة الأموية . وكان يربط لا بطلبه إلى النظام ، يتسم تبارزه كما يلي : ينظر في صدر النهار في أمور الدولة ، وما يعود على الرعية من خير ، فإذا صلى العصر جلس مع أهل بيته ، فإذا صلى العشاء نظر فيما يرد عليه من كتب الولايات والشؤون ، وشاور وزيره ومن حضر من رجالات دولته فيما أراد من ذلك ، فإذا مضى ثلث الليل انصرف سمعاً به ، فوهم إلى فراشه فنام الثلث الثاني ، ثم يقوم من فراشه فينوخاً ويجلس في محرابه حتى مطلع الفجر ، ثم يخرج فيصلي بالناس ، ثم يدخل فيجلس في أيوانه ، وبدأ عمله كمعادته في كل يوم .

والمنصور هو الذي وضع أساس العقيدة القائلة بوجود تقديس مقام الخلافة وإعلاء شأنها ،
 وكان يعتبر نفسه ممثل الله على الأرض ، فيجب على المسلمين الخضوع له وعدم مخالفته ، فهو الذي جعل
 الخلافة هيئة دينية ، وصار الخلفاء من بعده يستمدون على هذه الفكرة ويحافظون عليها ، حتى
 انهم عندما خسروا سلطانهم في اواخر حكمهم بقيت لهم السلطة الدينية . وقد عبر المنصور عن هذه
 الفكرة بقوله : « ايها الناس ، انا انا سلطان الله في ارضه ، اسوكم بتوفيقه وتسيده ، وانا خالقه
 على قبته ، اعمل بشيئته ، واقسمه بوائده ، واعطيه يديه . قد جعلني الله حامية قنلا ، ان شاء الله
 ينقضي لا عطياتكم وقدم فيكم وارزاقكم تنحني ، وانا شاء ان يعطاني اقلاني . » وجعل للمنصور الخلافة
 تتخذ لنفسها مظهر اراما وكيانا ثابتا . وجعل حوله طبقة من العلماء يشدون ازره ويدعمون سلطانه ،
 ضياء بأهل العلم والادب من كل جهة الى مدينته بغداد ، وترجمت كتب الفلك والتنجيم والعلوم
 والفلسفة من اليونانية والمغربية والفارسية الى اللغة العربية ، وبدأ العرب يعرفون العلوم الدينية
 ويؤمنون اصول الفقه ، وعمل المنصور على اثناء شعبة تشجيع التجارة ، ووطد الأمن في البلاد ،
 فكان يطلب من صاحب شرفته « ان ينصف الضعيف من القوي » ومن القاضي « ان لا تأخذ في
 الله لومة لائم » ومن صاحب الخراج « ان يستعفي ولا ينال » ومن صاحب البريد « ان يكتب بخبر
 هؤلاء على الصحة » فكان ولادة البريد يكتبون الى المنصور كل يوم يسمر القبح والخبير والأدم ،
 وبكل حدث ، وكانوا يكتبون حوادث النهار اذا ملوا المغرب ، ويكتبون اليه عما كان في كل ليلة
 اذا صلو الغداة ، فلما وردت كتبهم نظر فيها فلما رعى الاسرار على حالها امسك ، وان تغير شيء من
 حاله كتب الى والي العامل هناك وسأله عن العلة التي تفتت ذلك عن سمعه ، فلما ورد الجواب بالعلة
 تعلقف لذلك برقة حتى يعود سمعه ذلك الى حاله ، وإن اذكر شيئا كتب اليه يوبخه ويؤمره ، وكتب
 والي البريد يوما الى المنصور يخبره ان واليه في حضرموت يكتم الخروج في طلب الصيد يزداد وكلاهما ،
 قد اعداها فمكتب اليه : « شككتك امك ، وعدمتك عشيرتك ، ما هذه العدة التي اشدتها لشكائك في
 الوحش ؟ انا انا استكفيناك امور المسلمين . ولم نستمكنك امور الوحش . سقم ما كنت تلي من
 عملنا الى فلان بن فلان ، والحق بأهلك يوما مذحورا . »

واشهر المنصور بشاره باندائه ، وفكره بتخفيفه دون رحمة ولا شفقة . دون ان يتقيد بوعود
 وعدها او عهود قطما ، بل كان مذهبه « الغاية تبرر الوسيلة » مهما كان فوج تلك الوسيلة !!
 وعرف المنصور بالنيات ضد التمدد ، ولا شك ان هذه الصفة كانت من أبرز الصفات التي

كففت له الشجاع فقد تغلب على من خرج عليه من أهل بيته من العباسيين والموليين ، وقضى على
أبي مسلم النخاساني وقبض ثورة الفرس ، ووطد دعائم ملكه بعد أن أصبح قاب قوسين أو أدنى من
الوهن والانهلال .

وعرف المنصور بالتمساح في القول ، والآلية من مقصده ، وفي خفيه درسا له أتى أفاضلا
وكتبها في مختلف الميادين أكبر دليل على ذلك .

واشتهر المنصور بأجلد في بلاطه ، فلم يعرف عنه ميل إلى الهو ، ولا شرب الخمر ، وروى عنه حماد
البركي ما يلي : سمع المنصور يوماً في داره جلبة فقال : ما هذا يا حماد ؟ انظر ، فذهبت ، فإذا خادم
له قد جلس بين الجوارى وهو يضرب لمن بالطنبور وعن يضحكن ، اجثت فأخبرته فقال : وأي
شيء الطنبور ؟ فوصفه له ، ثم قام حتى أشرف عليهم ، فلما بصروا به تفرقوا ، فأخذ الخادم الضارب
وكسر الطنبور على رأسه وأخرجته من قصره .

وكان المنصور حريصاً على جمع المال ، كما كان أحرص منه على إنفاقه ، وكان يغلب عليه الشح
حتى ضرب المثل بشحه وحرصه ، فسمي «أب الدوايق» لشده في محاسبة المال والصناع على الحجة
والدائق - وهو مقدار لا يزيد على سدس درهم - فنه لما بين مدينة بغداد كان ينظر في العروة بنفسه ،
فيحاسب الصناع والاجر فيقول لهذا : أنت تمت القائلة ، ولهذا : أنت لم تتركز إلى محلك ، ولغيره
أنت أنصرفت ولم تكمل اليوم ، فيعطي كل واحد منهم بحسب ما عمل في يومه ، فلا يكاد يعطي اجرة
يوم واحد ، ولم يكن يعطي الشعراء تلك العطايا البالغة حد الأجراف ، وإنما كانت إعطائه إلى القلة
أميل ، وكان يراقب أولاده حتى لا يدعهم يميلون إلى البذخ والترف .

وبالحجة كان المنصور حليماً سديداً الرأي ، حسن السياسة ، من عظماء الملوك وعقلاءهم . شديد
الوفاء ، وكانت القوة الإسلامية في يده وطوع لمرده ، إلا أنها لم تكن عربية خائصة ، حتى أن العرب
في العراق تقلدوا بالفرس ، وأخذوا منهم العادات والآداب والأزياء ، فأسوا الفارسية برأي الخليفة
فقال الشاعر أبيه دلامة في ذلك :

وكنّا نرجي من إمام زيادة	فزاد الإمام المصطفى في التلاص
نراها على هام الرجال كأنها	دنلت يهود جللت بالجرانس

ولاية العراق ووفاء المنصور

بعد أن هدأت أحوال الدولة الداخلية واستقر الأمر للمنصور ، فكر في نقل الخلافة لابنه
المهدي ، فعمل ابن أخيه موسى بن موسى على التنازل عن ولاية العهد ، واستعمل ضروب الحيلة في

الوصول الى غايته وتقديم محمد المهدي عليه ، وأخيراً تمكن من ذلك وأوصى ابنه وصية قيمة جاء فيها
 ٥ ... وأرغب الى الله عز وجل في الجهاد والحاماة عن دينه ، وإصلاحه ودوره بما يفتح الله على المسلمين ،
 ويُمكن لهم في الدين ، وابدل في ذلك مدينتك ومجدهك ومالك ، ونفقد جيوشك ليلك ونهارك ،
 واعرف مرا كثر خيلك ومواطن رحلك . والله فليكن عصمتك وحولك وقولك ...

وفي سنة ١٥٨ هـ حج المنصور ، وفي أثناء الطريق عرض له وجعه واشتدت عليه ، وكان يسأل
 عن دخول الحرم ويوصي صاحبه الربيع بن يونس بما يريد ، وتوفي عند طلوع الفجر في بئر ميمون
 — وهي بئر على ستة أميال من مكة — ليلة السبت في ٦ ذي الحجة سنة ١٥٨ هـ ، ولم يحضر عند
 وفاته إلا حاشية الربيع فكتم موته ، ومنع الدماء وغيره من الإكراه عليه ، ولما أصبح الصباح ، وحضر
 اهل بئر ، وجلسوا مجالسهم خرج الربيع اليهم ، وقرأ عليهم عهد المنصور الى ابنه ، ووصيته لهم
 بطاعته والقيام بدولته ، والوفاء له . وأخذ البيعة منهم ومن القوادفياهم . ثم أرسل من أخذ البيعة
 للمهدي من اهل مكة والمدينة . ودفن المنصور مكشوف الرأس لأنه مات محرماً ، ودامت خلافته
 ٢٢ سنة . وكان يناصره في الاندلس : (عبد الرحمن الداخل) وفي فرنسا : (بيبن القصير ، ثم
 شارلمان) وفي القسطنطينية : (قسطنطين الخامس) .

المهدي

١٥٨ - ١٦٩ هـ أو ٧٧٥ - ٨٧٥ م

هو محمد وألقبه أبوه المنصور بالمهدي ، وأمه أرموى بنت منصور الخيري ، وكانت تكنى أم موسى .
 ولد سنة ١٢٦ هـ بالحريمة ، ونشأ في بيت الخلافة ، ودفن أبوه بقتيبة وعهد به الى المفضل الضبي ،
 فعلمه عليها عربياً ، وجمع له امثال العرب ومختار شعرهم ، فنشأ فصيحاً يقول الشعر ويحمده ، ويحفظ
 كثيراً منه . ومن امثال العرب . ساعد أباه في قمع الفتن التي قامت في خراسان ، وتولى إمارة الحج
 سنة ١٥٣ هـ ، ولما توفي المنصور أرسل الربيع بن يونس رسلاً يخبره بوفاة أبيه ، وبموت معه يقضب
 النبي (ص) وورثته التي يتوارثها الخلفاء ، ويخاتم الخلافة ، فجاء الناس بنزول بوفاة أبيه ، وبموتونه
 بالخلافة ، وكان اول من دخل عليه الشاعر أبو دلالة الذي انشده :

عيناى واحدة نرى مسرورة	بأميرها جئلى وأخرى تدرى
نكي ونضحك نارة ويسوعسا	ما انكرت ويسرها ما تعرف
يسوعسا موت الخليفة محرمأ	ويسرها ان قام هذا يحذف
ما إن رأيت كذا رأيت ولا أرى	شعراً اسرحه وأخضر انتف

هناك الخليفة بال أمة أحمد
هذا جاء الله فضل خلافة
وأناكم من بعده من يخلف
ولذلك جنات النعيم ترخرف
وخطب المهدي خطاب العرش في الجامع وبايعه المسلمون في بغداد .

سياحة المهدي الرافضية

كان المنصور قد مهد لابنه أحوال البلاد ، وأخضع شوكة الثأرين من علويين وعباسيين وقرس ، وترك له بيت مال عامر يكفيه عشرة سنين كاملة . لذلك كانت حالة الدولة في أيامه سعيدة ، تشبه في كثير من الوجوه أيام الوليد بن عبد الملك ، بدأ المهدي أعماله بأن أطلق سراح المسجونين السياسيين وأبقى المسجونين المجرمين الذين في وقتهم دم أو قتل أو من كان معروفاً بالفساد والظلم . وفي زمنه خرج عبد الله بن مروان بن محمد الأموي ببلاد الشام سنة ١٦٦ هـ فحاربه المهدي وهزمه وقبض عليه وحبسه ثم عفا عنه ووسع عليه الرزق . وخرج عليه في السنة التالية عبد السلام بن هشام البشكري في الجزيرة ، واشتدت شوكرته وكثر أتباعه ، وغاث في الأرض قسداً ، ولكنه حزم وقبض في قيسرين . وقتل عليه ثورة في الموصل ومصر فأخذها . وأثم الأحداث التي جرت في زمنه ثورة هاشم بن حكيم الملقب بالمقنع لقب بذلك لأنه كان يضع على وجهه قناع من ذهب أبيض قبح وجهه ، وهو من أصل عربي ثار في خراسان ثم انتقل إلى ما وراء النهر ، وكانت خراسان مرتعاً خصباً لشق الطوائف والمذاهب . وكان يقول يتناسخ الأرواح ، وإن روح الله تحمل من وقت إلى آخر في أحد عباده المستطيفين ، وأنها حلت في شخصه كما حلت من قبل في آدم ونوح وأبي مسلم الخراساني . وهو يذهب إلى أن الديانة هي الإيمان بذهب . وكانت تعاليمه الباحية تدعو إلى التحرر من القيود الأخلاقية ، فاستهوى جماعة كبيرة دافعوا عنه ، وحاربوا جيوش المهدي التي بقيت أربع سنوات تحاربه ، وكان أصحابه يلبسون ثياباً بيضاء ولذات سموا بالمريضة ، وقد حاصرهم جيوش الخليفة في قلعة ، ولما اشتد على المنع الحصار وقطع الأمل من النجاة ، أوقد النار في القلعة وحرق نفسه وأهله وأصحابه .

وقامت في زمن المهدي فرقة الرنادقة في خراسان وبلاد القرس والعراق ، وكان هؤلاء الرنادقة من القرس الذين لم يتمكن الإسلام في قلوبهم ، اعتنقوا مذهب - مزدك - فعبدوا النار ، وأباحوا زواج الأخوات والبنات ، وتحالوا من كل قيد أخلاقي ، كما أنهم صاروا يخطفون الأولاد من الشوارع ، فحاربهم المهدي واسطبلهم وأنشأ دائرة خاصة للنظر في شؤونهم ومطاردتهم ، برئاسة صاحب

الزنادقة - وكان ظهور هذه الفرقة وغيرها دليلاً على أن عقائد الفرس القديمة كانت لا تزال تؤثر في جسم الدولة الإسلامية ، ولا شك أن الفرس الذين فشلوا في الناحية السياسية ، رأوا أن خير وسيلة في إرجاع نفوذهم السابق الذي في العقيدة الإسلامية وتطبيق المسلمين إلى مذهب وشيع ، وهكذا فعلوا فقسموا الأمة الإسلامية على نفسها وتنازلوا في عضدها ، وفرقوا بين صفوفها ولم يخلصوا لها في أكثر الاوقات .

سياسة المروزي الفارسية

لم تكن العلاقة حسنة بين أمير الأندلس عبد الرحمن الداخل والخليفة المهدي ، إلا أن بند المصافاة بين الطرفين حالت دون معارضة أحدهما الآخر .

جبهة الروم :

كانت الحرب بين البيزنطيين والمسلمين دائمة في زمن المهدي ، وكانت انصوائف والموافي لا يميل من قبل المسلمين ، كما كانت الغارات مستمرة من قبل الروم . وكانت الحروب بين الطرفين في البر والبحر ، وكانت كلفة العرب في الرابضة في هذه المرة ، ففي سنة ١٦٣ هـ أغر الجيش البيزنطي على البلاد الإسلامية فعات في المدن المحيورة فساداً وتخريباً ، كما استولى على مدينة مرعش ، وأعمال الفار فزا ، وفنك بأهلها ، وما أن اقترب جيش المسلمين بقيادة الحسن بن قنطلة من البيزنطيين حتى تقهقروا من المواقع التي احتلوها ، وانتقم الفاتح العربي من الروم أشد انتقام ، فخرّب بعض مدنها وتكل بلديش ثم تكميل . وكذلك قام هرون الرشيد بن الخليفة المهدي بجيش كبير من حلب - وكانت مركز حركاتهم ضد البيزنطيين - ومعهم كبار رجال الدولة وقوادها مثل عيسى بن موسى وعبد الملك بن صالح وحسن بن قنطلة وبجي بن خالد ، واستولى من مدينة سملا بعد أن حاصرها ٣٨ ليلة وضربها بالمجانيق ، وتولى الرشيد بعد ذلك ولاية بلاد العرب كلها ، وفعلها وأحسن إدارتها ، وعندما هاجم الروم جيز عابهم جيشاً عدهم (٩٥٧٣) رجلاً فصار بهم وجزهم ونزل بهم خسائر فادحة . وواصل الرشيد زحفه حتى وصل القسطنطينية ، وكانت أبرني - زوجة ليون الرابع - تحكم بلاد الروم بالنيابة عن ابنها قسطنطين السادس . وما أن رأت جنود العرب على ضفاف البوسفور حتى طلبت الصلح ، فأجبتها الرشيد على طلبها على أن تدفع له جزية سنوية كبيرة ، وتقيم الأدلاء والحرس والأسواق في طريقه ، وسلمت أسارى المسلمين ، وعقدت معه هدنة إلى ثلاثة سنوات ، إلا أن الروم غدروا ونقضوا عهدهم قبل تمام المادة فحاربهم المسلمون وظفروا عليهم .

غزو الهند :

أراد المهدي أن يوسع حدود بلاده الشرقية فأرسل حملة كبيرة سنة ١٥٩ هـ في البحر لغزو بلاد الهند ، فحاصر الجيش بلدة باريد سنة ١٦٠ هـ وأقاموا عليها يومين ، وضربوها بالمتجنيق ، وقتلوا عنها عترة ، واشعلوا النيران فيها ، إلا أن الأمراض فتكت فيهم فاضطروا إلى الرجوع ، وفي أثناء عودتهم عصفت عليهم رياح شديدة كسرت مراكبهم ، ففرق كثير منهم ، وكانت بحرية قليلة لا تنجح المهدي فيها .

صفات المهدي وأعماله

كان المهدي عسناً كريماً ، شجاعاً بطناً ، سارع بعد اعتلائه منصب الخلافة إلى إصلاح أعمال الشدة والأرواح التي وقعت في عهد أبيه ، فأعاد قلعة المقدسة الامتيازات التي كان أبوه قد عطلها ، وسمح بإرسال الامانات التي كانت ترسلها مصر إلى بلاد الحرمين الشريفين ، ورد إلى العلويين أملاكهم وأحسن إليهم ، وأعاد أموال النظار التي مودرت في زمن أبيه إلى أصحابها ، وكان المنصور قد وضع المال المصادر في أكياس ختمها وأودعها بيت المال ، وكتب على كل منها اسم صاحبها ، وأوصى ابنه المهدي أن يرد هذه الأموال إلى أصحابها ، ليكتسب بهذا العمل قلوب الرعية ، وبني المهدي الأبنية في طريق مكة ، وزاد على ما كان قد بناه أبوه في الجبال الأخرى ، وكان السفاح قد شيد عدة منازل في طريق مكة من القادسية حتى زبالة ، فأمر المهدي بتعديد ذلك الطريق وتوسيعه ، وزاد في عدد المنازل وأثراها ، وسن المهدي سنة كسوة الكعبة بكسوة جديدة في كل عام ، بعد أن كانت توضع الكسوات بعضها فوق بعض . كما بنى الأحواض التي تملأ من الآبار لسقاية القوافل والحجاج ، وأقام الحرس لحماية الحجاج والمسافرين ، وأجرى على أعلى الحجون والجذوع ، حتى يتنعوا عن السؤال ، وبحوث دون انتشار الأمراض . وأعاد بناء المسجد الحرام وحمله ، إلا أنه عفى اسم الوليد ابن عبد الملك من حائط الحرم . ووسع المدارس والجوامع في جميع المدن المشهورة كمشيد جوامع جديدة في كثير من المدن . وجدد الأميال ، وأقام البريد بين مكة والمدينة واليمن ، وأدخل عليه ضرباً من التحسين ، وعين الأمناء في الولايات ليوافوه بأخبار الولاة ، وفساد العدل ، حتى عم الرخاء جميع أرجاء الدولة .

كان المهدي يميل إلى السنة فترجع المقاصير من المساجد ، وصير المسابر على القدوم الذي كان عليه

عنبر الرسول (ص). وكان يجلس العظام وتدخل القصص (الاستعدادات) اليه ، فارتضى بعض أصحابه بتقديم بعضها ، فاتخذ بيتاً له شباك حديد على الطريق تعرج فيه القصص ، وكان يدخله واحد ، فيأخذ ما يقع بيده من القصص أولاً فلا ينتظر فيها ، فلا يقدم بعضها على بعض . وقد بلغ حبه للعدل ، وميله الى رد العظام لأصحابها انه كان يقول : أدخلوا لي القضاة فلم يكن ردى للعظام إلا للحياء منهم لسكنى . وكان المهدي لا يشرب الخمر ، وإن كان سحره يدرجونه في مجلسه ، وكان يسع الفناء وصارت بغداد في عهده مركزاً تجارياً عظيماً ، وكان محباً للادب ، ودمجها عليه حتى أصبح الادب والموسيقى من سمات هذا العصر . وكان المهدي محباً الى النظافة والعامة .

ومن خلقه الحياء والعفو والحلم . أراد ان يعتمد على العرب ويقرهم فجعل في العاصمة (٥٠٠) فارس عربي للراسته ، واكرمهم واقطعهم ارضاً بجوار بغداد إلا ان الفرس ظلوا متغايين على الدولة . وكان المهدي موفقاً في اختيار وزرائه ، وإن كانت السعاية حلت بعضهم العذاب وسوء المصير . وكان جاداً في مطالب الزنادقة . والبحث عنهم في الآفاق والفتك بهم ، حتى قتل كثير من الأبرياء بهذه التهمة ، لأن هذه التهمة كانت وسيلة الى تشفي من يجب ان ينشفي من عدوه وخصمه . وكان المهدي شديد الغيرة على النساء بالرغم من أن الخبيران زوجته كان لها نفوذ واسع عليه ، وكان قصرها مزدحماً دائماً بطلاب الوظائف ، واصحاب الطوائج . جلست اليها - مزينة - امرأة مروان آخر خلفاء بني أمية ، تشكو رقة حالها ، فأفردت لها الخبيران جناحاً خاصاً في قصرها تقيم فيه بالقرب منرا . ويمكننا ان نقول ان المهدي في إدارته شؤون رعيته كان يعمل بوجدان على رفعية الأمة واسعادها . وكان عصره مهبطاً للعصر الذهبي الذي أتى بعده .

ولادة العهد ووفاته المرسى

اقصى المهدي عيسى بن موسى عن ولاية العهد ، وجعلها لولديه من زوجته الخبيران من بعده ، فتولى أولاً موسى الهاشمي وعقبه بعده اخوه هارون الرشيد . وفي عشرين سنة ١٦٩ هـ حينما كان المهدي يصيد الطياري على جواده ، دخل ظبي الى باب حربة ، فدخل فرس المهدي خلفه ، فدفقه باب الحربة فقطع ظهره ، فمات من ساعته .

كان يعاصر المهدي في بلاد الاندلس (عبدالرحمن الداخل) وفي فرنسا (شارلمان) وفي بلاد الروم (ليون الرابع ثم قسطنطين السادس) ولعصره كانت امه إيريني تنوب عنه في إدارة الممالك .

الرباعي

١٦٩ - ١٧٠ هـ أو ٧٨٥ - ٧٨٦ م

هو موسى الهادي ، أبوه محمد الميموني بن أبي جعفر المنصور ، وأمه أم ولدت أمها الخيزران ، ولد الهادي سنة ١٦٩ هـ وولاه أبوه العهد وعمره ستة عشر سنة ، وولي قيادة الجنود في المشرق . وفي اليوم الذي توفي فيه أبوه كان مقبلاً بمرجبان ، فأخذ له أخوه هارون البيعة على الجند ، وأرسل إليه بخاتم الخلافة ، وبالقبض والجردة والتعزية والتهنئة ، وتمت له البيعة .

سياحة الرباعي الرافضة

اضطهاد الزنادقة :

ورث الهادي عن أبيه كراهيته للزنادقة ، وعمل على استئصال شأقتهم ، وقد قام يومئذ أبيه التي أوساه بها خير قيام وهذه الوسية هي : « يا بني ، إن دارك هذا الأمر ، فتجرد لهذه المصيبة (الزنادقة) فانها تدعو الناس الى طاهر حسن ، كاستئصال الفواحش ، والزهد في الدنيا ، والعمل للأخرة ، ثم تخرجها الى تحريم اللحم ومس المساء الطيور ، وترك قتل الحوام بمرجبان ، ثم تخرجها من هذه الى عبادة اثنين أحدهما النور والآخر الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا لشكاح الاخوات والبنات ، والاشتغال بالبول ، وسرقة الاطفال من العارفين بتقديم من ضلالة الفالسة الى هداية النور ، فروع فيها المشب وجرد فيها السيف وتقرّب بأمرها الى الله لا تحريك له . »

ثورة العلويين :

خرج الحسين بن علي (١) في المدينة سنة ١٦٩ هـ وسبب خروجه ان والي المدينة عمر بن عبد العزيز (٢) أخذ الحسن بن محمد النفس الزكية وجماعة كانوا على شراب لهم ، فأمر بطردهم جميعاً ، وطيّب بهم في المدينة والمبال في اعتاقهم ، فبغوا الحسين بن علي الى الوالي وكفه فيهم ، وكذلك الحسن بن يحيى بن عبد الله بن الحسن ، فانضموا الى الحسن بن محمد النفس الزكية ، فعليه الوالي من كفايلهم وسألهم عنه ، فظنوا انها لا يدريان موضعه ، فكلموها بكلام اغلظ لها فيه ، فوعده يحيى أن لا ينأى حتى يأتيه به ، وخرجوا من عنده وأعلنوا الثورة ، وبيع أكثر أهل المدينة الى الحسين وأنتهب جماعته ما في بيت المال وذهب بهم الى مكة . فأمر الهادي محمد بن سليمان بن عتي - وكان غائباً من الحج - بحاربة الحسين .

(١) الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب .

(٢) عمر بن عبد العزيز بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب .

غاريه وقتله هو ومن كان معه ، وأفلت من الموت رجلان أحدهما إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ، أخو محمد النفس الزكية ، ذهب إلى المغرب الأقصى ، وأسس في تلمسان بمساعدة البربر دولة الأندلس التي سيأتي الكلام عنها ، والآخر يحيى بن عبد الله الذي ذهب إلى بلاد الهند وتوفي زمن الرشيد .

صفات الهادي

كان موسى الهادي قاضي القلب ، شرس الأخلاق ، صعب المرام ، كثير الأدب عجمياً ، طيب المصارعة ، كثير النادرة . وكان شجاعاً جواداً سخياً ظاهر الشهامة . وكان شديد الغيرة على حرمه ، ويشبه في ذلك سليمان بن عبد الملك في بني أمية ، وقد نهى أمه الخيزران أن يدخل عليها أحد من الأقارب أو رؤساء حكومته ، بعد أن كان لها من نفوذ الأمر في عهد زوجها المهدي ما لم يكن لأمر آخرها . وكانت الخيزران في أول خلافة موسى كثيراً ما تكلمه في الخواص ، فكان يجيبها إلى كل ما تسأله حتى مضى لذلك أربعة أشهر من خلافته وإزال الناس عليها ولمعوا فيها ، فكانت المواكب تغدو إلى بابها . تكلمته يوماً في أمر لم يجد إلى اجابتها إليه سبيلاً فاعتل بركة ، فقالت : لا بد من اجابتي ، قل لا أفعل ! قالت : قاضي قد تضمنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك ، فغضب موسى وقال : وبلي على ابن الفأنة ! قد علمت أنه عاجبها ، والله لا قضيتها لك ! قالت : إذا والله لا أنساك حاجة أبداً . قل : آذا والله لا أبلي ، وحمي غضبه ، فقامت معضبة ، فقال : ما كنت تستوعبي كلامي ، والله وإلا فأناني من قرابتي من رسول الله (س) ! ثم بلغني أنه وقف ببابك أحد من قوافي ، أو أحد من خاصتي أو خدمي لأخبرني عنقه ، ولا أقضين ماله ، فمن شاء فليأثم ذلك ! ما هذا المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك كل يوم ! أما لك منزل يشترك أو مصحف يذكر لك ، أو بيت يصونك ، إنك ثم بابك ، ما فتحت بابك إلى مدني أو دمي : فانصرت ما فقتل ما لظاً ، فم تنطلق عنده بجلوة أو مرة بعدها ، وكلم قواده بالأمرو منهم من التحدث معها ، وانقطعوا عنها البتة ، فشق ذلك سائها ، فاستزقت وألقت ألا تكلمه ، فما دخلت عليه حتى حضرته الوفاة . وقد قالوا : إن الهادي حاول سبها فلم يفلح . على أن الخيزران أفلحت في القضاء عليه حين مرض ، فقد ذكروا أنها دست إليه من جواربها من قتله بالجلوس على وجهه فسات خنقاً .

كان الهادي يجلس العظام ، ويغسل في دلو من الناس ، ويرد الحقوق إلى أهلها . وكان يرى الناس لا يصلحون إذا شجب خليفهم عنهم ، حتى أنه قل للحاجب الفضل بن الربيع : لا تحجب عني الناس فإن ذلك يزيد عني البركة ، ولا تنلق إلى امرأ إذا كشفت أسننته بإطلا فإن ذلك يوقع الملك

وبشر بالرعية . وكان موفقاً في اختيار وزرائه ، وكان يترب النبيلة ، ويسمع الغناء وهو اول من فعل ذلك من خلفاء بني العباس . وكان شجاعاً قوياً روي عنه انه كان يمشي الدابة وعليه درعان !

ولادة المهدي

عزم المهدي على خلع اخيه هارون الرشيد ، والبيعة لابنه جعفر ، وشجعه على ذلك رجال بلاطه وكان يحيى بن خالد البرمكي يقوم بخدمة الرشيد ويصحه بان لا يسقط حقه من الخلافة بعد ان طالب الرشيد نضاً بالخلع ، فبلغ ذلك المهدي فاستدعى يحيى وكلفه في ذلك فقال يحيى : يا امير المؤمنين ان فعلت حملت الناس على نكت الايمان ، ونقض العهود ، وتجرأ الناس على مثل ذلك ، وتو تركت اخاك هارون على ولاية العهد ، ثم بايعت جعفر من بعده كان ذلك اوكد في بيمته . فثرت هذه النصيحة في المهدي مدة من الزمن ، ثم غلب عليه حبه لولده ، وابشاوره على الخليفة . فأحضر يحيى وفوضه في خلع الرشيد ، فقال له : يا امير المؤمنين ، لو حدث بك حادث الموت وقد خلعت أخاك ، وبايعت لابنك جعفر وهو صغير دون البلوغ ، أفترى كانت خلافة نصيح ؟ وكان شائع بين ههناهم برضون ذلك ، ويسلمون الخلافة اليه ، قل : لا ! فقال يحيى : فذبح هذا الامر حتى تأخيره عنكم مولود لم يكن المهدي بايع هارون لوجب ان يتابع انت له فلا يخرج الخلافة من بني ابيك . ولكن الرشاة ما زالوا يوشون يحيى ويحرضون الخليفة على خلع الرشيد ، ويضيقون على الرشيد ويضطهدونه ، ويحصلون من شأنه حتى أشار عليه يحيى ان يستأذن الخليفة المهدي بالتأرجح الى الصيد ، فأذن له ، فلما غلب اكثر مما استأذن وطال غيابه ، كتب اليه يلج عليه في العودة ، ويبلغ في تحذيره وإهائه ، والرشيد يتعجل الامذار حتى انهذه فيه . وكان للخيزران يد في موته ، لأنها كانت غاضبة على ابنها المهدي لا يهادها عن المداخلة في أمر الملك ، وعجزت لابنها الرشيد الذي كان يرأىها ، حتى انها أرسلت الى يحيى تأمره بالاستعداد للأمر ، فبدأ يحيى التكب لعمال باسم الرشيد بقرم على ولايتهم ، ويبلغهم وفاة المهدي ، ولما مات المهدي بعثت الكتب على البريد ، وكانت وفاته في ١٥ ربيع الاول سنة ١٧٠ هـ بعد حكم دام سنة وشهراً ، والفنن وعشرين يوماً ، وكان يعاصره في تلك الايام من كانوا يعاصرون أباه .

هارون الرشيد

١٧٠ - ١٩٣ هـ أو ٧٨٦ - ٨٠٩ م

ولد هارون الرشيد بالري سنة ١٤٥ هـ . أبوه محمد المهدي ، ولعله الخيزران ، ولاد أبوه المهدي

أعمالاً كثيرة لما عرف فيه من الكفاءة والمثابرة ، وفي سنة ١٦٤ هـ ولاء المغرب كله من الأندلس إلى أطراف إفريقيا . وفي سنة ١٦٦ هـ جعله الهادي ولي العهد بعد أخيه الهادي . وفكر الهادي قبل وفاته في العدول عن عهده السابق ، وأراد أن يرشعه بالخلافة بعده مباشرة ومساعدته على ذلك الخبيران ، لأنها كانت تحبه وتؤثره على أخيه الهادي ، إلا أن منية الهادي حالت دون ذلك .

تولى الرشيد الخلافة في الليلة التي توفى فيها أخوه الهادي ، وهي ليلة مات فيها خليفة وهو الهادي وجلس فيها خليفة وهو الرشيد ، وولد فيها خليفة وهو المأمون .

كانت خلافة الرشيد تزهى زمن مر على المسلمين ، وأحاطهم عيشة سرية التاريخ العربي ، فدوى اسم الرشيد في مشرق الأرض ومغربها ، وتحدث الركبان عن ازدهار العلوم والآداب والفنون ، فكان عصر الرشيد عصر سحري ، خاب عقول أهل الغرب ، وزها نفوس أهل الشرق ، فهو عصر ألف ليلة وليلة ، الذي يوحى سوراً مختلفة دارت كلها حول شخص الرشيد . فكان الرشيد صورة عصره ، ومرآة زمنه ، انكسرت عليها حياة جميع الناس على اختلاف طبقاتهم . وسنرى أثر هذه الصور عند الكلام عن أسلاف الرشيد .

سياسة الرشيد الدافئة

ثورة العلويين :

لم يضر العلويون عن المطالبة بالخلافة في زمن من الأزمان . وبالرغم من تسامح الرشيد معهم في بدء ولايته ، وانطلاق سراح من كان مسجوناً منهم في بغداد ولم يجرم إلى المدينة ، فقد ثار عليه يحيى بن عبد الله بن الحسن في بلاد الديلم ، واشتدت شوكته فيها ، فأرسل الرشيد إلى قتالة الفضل ابن يحيى البرمكي ، وسعه خمسون ألف مقاتل ، فاحتال الفضل عليه ، وكاتبه واستماله إليه . وما زال به حتى قبل بتقديم المطالبة إلى الخليفة على أن يعطيه الأمان ، فأرسل الرشيد ما طالب ، وجاء إلى بغداد فأحسن إليه الخليفة وأمر له بحال كبير ، وأقامه بمنزل فخيم ووضع تحت إشراف الفضل الذي أطلقه دون عم الخليفة مما سبب غضب الرشيد عليه وحتى أسرته ونكبته لهم .

وعلم الرشيد القضاء على دولة الأمازيغية العلوية التي نشأت في بلاد المغرب (مراکش) ، فأراد أن يرسل جيشاً للقضاء عليها ، ولكن بعد المناقشة عدل عن ذلك ، وأرسل سليمان بن جرير الملقب بالشيخ ، وطلب منه أن يحتال في قتل إدريس بن عبد الله بن الحسين ، أخي يحيى المنتقم المذكور ، وزوجه مالا يستعين به . فذهب الرشيد ودرس السم لأدريس وفر هارباً . ومات إدريس

سبب من
سبب
سبب
سبب

سنة ١٧٧ هـ ولم يكن له ولد ، وكانت له جارية حاملًا ، فانظروا وضعها فولدت غلاماً سموه ادريس باسم والده ، ورجوه حتى كبر ، وابعوه بالخلافة . واستمرت دولة الادارسة في المغرب كما استقبلت ثلاث فبا بعد .

١ تأسيس دولة الاغالبة :

كان ابو جعفر المنصور قد عين يزيد الهادي على افريقية (تونس) وخلفه من بعده داود واخوه روح ، الذي عينه الرشيد حاكماً هناك سنة ١٧١ هـ . فعلم البلاد سبع سنين بحزم وقوة . وبعد موته قامت قبائل البربر بشورات على ابنه سنة ١٧٨ هـ فانظروا الخليفة الى اخضاعها ، خوفاً ان يخرج فعالي افريقية من يده . فأرسل هرقة بن ابي عبيد بن جيس كفيف استعاضاً ان يقضي على الثورات ويضع الأمن ، وبعد ثلاث سنوات اعتزل هرقة بن جيس افريقية بعد ان عرف صعوبة اخضاع البربر ، فعين الخليفة مكانه حاملاً ظهر عجزه في ادارة تلك البلاد ، فعرض ابراهيم بن الاغلب على الرشيد استمداده لدفع اربعين الف دينار سنوياً ، على ان يجعل حكم افريقية وراثياً في امرته ، فقبل الخليفة ذلك ، لان تلك البلاد كانت تكلف بيت مال المسلمين مئة الف دينار تؤخذ من خراج مصر في سبيل تسديد نفقات حكومة افريقية . ولتف هذه الدولة في وجه دولة الادارسة التي نشأت في المغرب . وبذلك تم تأسيس دولة الاغالبة التي كانت خاضعة اسمياً للحكومة المركزية في بغداد ، واصبح مركزها القيروان .

ثورة الخوارج :

خرج الوليد بن طريف الشامي على الرشيد سنة ١٧٨ هـ ودير تهر دجلة حتى وصل الى حلوان ، وكثر فيها الابعاد ، فبعث الرشيد اليه يزيد بن مزيد النخعي وهو ابن اخي مدين بن زائدة الشامي ، فجرت بين الطرفين معارك شديدة تبارز فيها القائدان فقتل الوليد وانهزم الخوارج وقضي على ثورتهم . وبعث يزيد برأس الوليد الى الخليفة برفعة بظفره . ومن جميل ما قيل في رثاء الوليد قول اخيه القصارنة :

أيا شجر الخاور مات بورقاً	كأنك لم تجزع على ابن طريف
فني لا يحب الزاد إلا من التقي	ولا المال إلا من فنا وسيوف
ولا الذخر إلا كل جرداء سليم	معاودة للكر بين صفوف
حبيب الندي ما عثر برضى الندي	فان مات لا يرثي الندي بحايف
فقدناك فقه ان الشباب وليننا	فديناك من قتياننا بألوف

عمر من عهد
الخليفة
أدريس بن
المنصور

وبذلك حتى أزهق الموت نفسه
عائده سلام الله وقلاً فاني
شجلاً لعنه و نجماً لخصيف
لوى الموت وقاعاً بكل شريف

نورة أهل الشام :

عادت بلاد الشام مدة من الزمن لما اجابها من قوط الدولة الاموية وتحويل الحياة السياسية
منها الى العراق . ولم يكن العباسيون يهتمون بشؤونها ، بل تركوا الجبل على غاريه ، فقامت
المنازعات بين القيسيين والنجاشيين ، وظلت دمشق مسرحاً لانتقامات والحروب الداخلية ، فقال
أحمد الشعراء :

قد حاجت الشام هيجاً يشيب رأس وليده

فولى الرشيد موسى بن يحيى البرمكي والياً عليها فأصبح بين أهلها وسكت الفتن وهدئت البلاد

نورة أهل خراسان :

كانت بلاد خراسان في زمن الرشيد مصدر الفتن والفتاقل ، وظلت كذلك حتى بعد
موته . فاستشار الرشيد وزيره يحيى بن خالد البرمكي في تولية علي بن عباس بن ماهان بلاد خراسان
فأشار عليه ألا يفعل ، يخافه الرشيد وولاه إياها . فصار هذا الوالي في ادارته خراسان سياسة
الظلم والفساد ، واستنصب الاموال من الأهالي . وكان يرسل الى الخليفة من الهدايا ما لم ير مثاها
من الخيل والرفيق والثياب والاموال . فقال ليهبني بن خالد : هذا الذي أشرت ألا توليه هذا
الامر ، فقد خالفناك فيه فسكن في خلافتك بركة ، فقال يحيى : يا امير المؤمنين جعلني الله فداك أنا
وإن كنت أحب ان أصيب في رأيي ، وأوفق في مشورتي ، فانا أحب إلي من ذلك ان يكون امير
المؤمنين أهلي ، وقراسته ألقب ، وعلته أكثر من علتي ، ومعرفة فوق معرفتي ، وما احسن هذا
وأكثره ان لم يكن فيه ما يكره امير المؤمنين ، وأدراك الله ان بعينه وبعبه من سوء عاقبته ونتائج
مكروهه ، ويؤمن له ان هذه الاموال قد اختلسها لوالي من الاهالي ظمناً وعدواناً . إلا ان الرشيد
لم يصغ له وأتى علي بن عباس على ولايته ، فكتب أهل خراسان الى الرشيد يشكون سوء سيرة
الوالي وتهمه أموالهم وشدة في معاملة ، فعزم الرشيد على الخروج لمعاربته ، وعسكر في الري ،
فقدم عليه علي بن عباس من خراسان بالاموال والهدايا والاعراف أكثر من الهدايا الاولى ، ووزع
على اولاد الخليفة ورجال البلاط وكتابه وخدمه وقواده كل على قدر مرتبته وطبقته ، فرضي الرشيد
عنه ورده الى خراسان وخرج مشياً له . فرجع الوالي الى خراسان وعاد سيرته الاولى ، وانتقم من
كتبوا الى الخليفة أشد انتقام .

وحدث في ذلك الوقت ان رجلاً من اهالي سمرقند يدعى رافع بن ليث بن نصر بن سيار أغوى

امراً من ذوي اليسار الى الكفر ، تخلصاً من زوجها يحيى بن الاشعث الطائي الذي ذهب الى بغداد ، وأقربها وطلقات شيعته ، وتزوج رافع بالمرأة ، فاشتكى يحيى بن الاشعث الى الخليفة ، فأرسل الى عامله علي بن عيسى يأمره ان يفرق بين رافع والمرأة ، وان يعاقبه على فعلته ، فنفذ الوالي امر الخليفة ، وحبس رافع فقرر هذا من سجنه ، واستناب ابن الوالي عيسى بن علي ، فأغاثه وكلم أباة فعفا عنه ، وأذن له في الانصراف الى سمقند ، حيث قام بثورة وقتل عامل الخليفة فيها ، وبايعه كثير من الناس في سمقند وما وراء النهر ، فأرسل اليه علي بن عيسى ابنه عيسى فقتله رافع في ديارخ . وكان عيسى قد دفن في بستان داره بباخ أموالاً عظيمة ، فعم الناس بها ، فدخلوا البستان ونهبوا الأموال ، فلحق الرشيد الخبر فقرر عزله وتبينت له خيائته وجنونه . وسوء سياسته ، فأخبر هرثة بن أعين وولاه قنبر خراسان ، وكتب لعلي بن عيسى كتاباً بخطه يوجه فيه ، ويطلبه بعزله ويقول فيه : ... وقد وليت هرثة بن أعين مولاي قنبر خراسان ، وأمرته ان يشد وطأته عليك وعلى ولدك وكتاك وعمالك ولا يترك وراء ظهره ولا يترككم درهماً ولا حقاً ليد ولا معاهد ، إلا أخذكم به حتى تروا الى أهله ، فلأن أيت ذلك وأباه ولدك وعمالك ، فله ان يسطر بكم العذاب ، ويذهب بكم السياط ... فقبض هرثة على علي بن عيسى وأتباعه وحاصر أموالهم ، وأرسلها بعد تبينهم الى الرشيد محملة على ١٥٠٠ بعير ، وذهب هرثة الى الجامع فخطب في الناس ، وقرأ عليهم كتاب تعيينه . ففرح الناس وسروا خلاصهم من الوالي القديم وعلت أصواتهم بالتهليل والتكبير وكثرة الدعاء للأمير المؤمنين . واهتم هرثة بتجارية رافع بن أيت . ولكن استفحل أمره حتى الرشيد الى القهاب بنفسه لحربه ، إلا ان المنية أدركنه وهو في طوس في طريقه لحرب رافع ، وفي ثأراً لزم من المأمون ، عندما جاء مسالماً من غير قتال .

أسرة البرامكة

نائب هذه الأسرة الى حدها برمك ، وكان يخدمه النوبهار ، وهو معبد المجوس في باخ ، فوقف فيه البرامكة ، وكان برمك وشوه مدعة لهذا المعبد . وأدنى البرامكة ان يملك الفرس القدماء هم الذين أسسوا هذا الهيكل ، وقالوا انهم من سلالة وزراء الملوك الساسانيين ، وكان برمك خبيراً بالغياك والطلب ، شفى على يده مسعدة بن عبد الملك ، ويشك المؤرخون بسلامته ، وظهر من أولاده في أوائل الدولة العباسية خالد بن برمك .

كان خالد من اكبر دعاة العباسيين ، وكان ذا صفات عالية ، أهله للسيادة ورفعة القادر حتى استوزره ابو العباس السفاح بعد هلاك أبي سلمة الخلال ، فكان مديراً أمره ، غير انه لم يكن

يسمى وزيراً تشافواً من الوزراء ، إلا أنه كان يعمل بمحل الوزراء ، وفي خلافة المنصور في خالفي منصبه مدة من الزمن ثم ولد فارس ، وانكسرت عليه جملة من المال ، فعمل إلى بغداد ، وطوب بالمال ، ونذر المنصور منه أن لم يحضر المال بعد ثلاثة أيام ، فاستدان بأصدقائه فأعطوه ووفى ما عليه ، فولاه المنصور الموصل ، فأحسن إدارتها حتى قل بعض أهلها ما يحبنا قط أميراً هيبنا خالد بن برمك ، من غير أن تشتد عقوبته ولا ترضى منه جبرته ، ولكن هيبه كانت له في صدورنا واستمر والياً على الموصل حتى وفاة المنصور ، وتوفي خالد في أوائل خلافة المهدي سنة ١٦٣ هـ .

يحيى بن خالد :

كان يحيى واحد الدنيا للعلم وأدباً وفطلاً ونبلاً وجوداً ، وباه أبو ذؤانبة حسن تربيته . وترى يحيى في كنف الدولة العباسية ، وكان يظن أنه في ملأه وشده الله ، وقد اختاره المنصور لولاية أذربيجان سنة ١٥٨ هـ وقال له عند توليته : قد أردت لك لأمر مهم من الأمور ، واعتزتك بغير من الثغور ، وكانوا لا يولون ثغوراً إلا من كانت تقمهم به عظمية . وكان محمود السيرة في ولايته ووفى والياً حتى وفاة المنصور . وفي سنة ١٦٢ هـ اختاره المهدي ليكون كاتباً ووزيراً لابنه هارون فكان معه يدبر أمره ، وهارون لا يناديه إلا يا أبي ، وذلك لأن زوجة يحيى أرضعت هارون بابان ابنها الفضل ، وأرضعت الخيزران الفضل بابان ابنها هارون . وفي سنة ١٦٣ هـ خرج هارون لغزو الصائفة ، وكان يحيى على أمر العسكر ونفقائه وكتابه والقيام بأمره . ولما نكب المهدي يحيى لذلك الأمر قال له : إني قد نصفحت ابناء شيعتي ، وأهل دولتي ، واستترت منهم رجالاً هارون ابني أشبه إليه أيقوم بأمر عسكره ، ويتولى كتابته ، فوقعت عليك خبرتي له ، ورأيتك أولى به ، إذ كنت مربيته وخاصته ، وقد وليت كتابته وأمر عسكره . وفي سنة ١٦٤ هـ أساء إلى المهدي ابنه هارون المغرب كله أمر يحيى بن خالد أن يساعده في ذلك ، فكانت إليه أعماله ودواوينه يقوم بها ، واستمر على تلك الحالة إلى أن مات المهدي ، ولما تولى الهادي إبقاء على حاله مع هارون ، حتى إذا خطر به الهادي أن يخلع أخاه من ولاية العهد ابتدأت محبة يحيى ، فانه هو الذي جرأه على الاستمساك بمحبة الذي منحه إياه أبوه المهدي . وكان هارون قد طاب نفساً بالخلع ، فقال له يحيى : لا تفعل . فقال الرشيد : أليس يترك لي الهادي والري وأعيش مع ابنة عمي — وكان هارون يحقد بأم جعفر وجداً شديداً — فقال له يحيى : وابن هذا من الخلافة ؟ وبارشاد يحيى تمكن الرشيد من المحافظة على حقه في ولاية العهد ، وحفظ هذا الجيل له ، فولاه وزارة القنوقض عند استلامه الخلافة وقوله : قد كنت أمر الرعية وأخرجته من عني إليك ، فالحكم في ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ،

واغترل من رأيت ، وأعض الأمور على ما ترى ، ودفع اليه خاتمة ، فأصبح الحل والعقد بيد يحيى وجازت جميع الأموال اليه ، فعلا شأنه وبعد حبته وأصبح هو وأولاده كعبة الآمال ، وغدت تشد اليهم الرحا . وفي سنة ١٧٦ هـ ضم الرشيد اليه خاتم الخلافة فاجتمعت له الوزارات ، وفيه يقول ابن المقفلي ونهض يحيى بأعباء الدولة أتم نهوض ، وسد الثغور وتدارك الخلل ، وجنى الأموال ، وعمر الأطراف . وأظهر رونق الخلافة ، ونسدى إبهات المملكة ، وكان كاتباً بليغاً أديباً سديداً صاحب الآراء حسن التدبير ، ضابطاً لما تحت يده ، قوياً على الأمور ، جواداً يباري الرخ كرماء وسوءاً ، مدحاً بكل لسان ، حليماً غفياً وقوراً مبرأ ، وله يقول القائل :

لا تراني مصافحاً كفت يحيى يا بني إني فعلت ضيقت مالي
لو تبس البخل راحة يحيى لسخت نفسه بيدك النوال ..

وكان يحيى أربعة أولاد وهم : الفضل ، وجعفر ، وموسى ، ومحمد ، وستكلم عن كل واحد منهم بإيجاز .

الفضل بن يحيى :

هو أكبر أولاد يحيى ، وكان عضد أبيه ينوب عنه في -لائل أعماله- ، وقد رضع مع الرشيد وبذلك يقول مروان بن أبي حفصة :

كفى لك غمراً أن اكرم حرة غذلك بشدي والتأليفة واحد

ولما ولد الأمين جعله الرشيد في حجر الفضل وعهد اليه بتربيته ، فكان له أباً . وفي سنة ١٧٦ هـ نذبه الرشيد لحرب يحيى بن عبد الله الذي تولى بلاد الديلم ، ودلاد تلك البلاد ، فخرج اليه ولم يزل يحثل في أمر يحيى حتى استنزلته من معقله بأملأ من غير أن يريق في ذات قفلة دم ، إلا حسن الديار . وفي سنة ١٧٨ هـ ولاد الرشيد خراسان وثغورها ، فأحسن الديرة فيها ، وبني بها الرباطات والساجد ، ونزاه ما وراء النهر وأخضع الكافرين واتخذ في خراسان منهجاً من القرم دعامه والعباسية ، وجعل ولدهم له ، وبلغ عددهم خمسمائة ألف رجل ، جاء بهذين الفأ منهم إلى بغداد ، وحالف الباقي في خراسان على رؤسهم ، وقد خرج الرشيد مع بني هاشم لاستنزاله عند عودته ، وعرف الفضل بكرمه وكفائه ، وسمي بالوزير الصغير لأنه كان يخلف أباه في أعماله .

جعفر بن يحيى :

اشتهر جعفر بالقصاحة والفطنة ، والحلم والكرم وخلافة الوجه وسماحة الاخلاق . وكان الرشيد يأنس به ، ويؤثره على أخيه الفضل ثم دراسة اخلاق الفضل . قال الرشيد يوماً ليحيى وقد أحجبت

ان اتقل ديوان الخاتم من الفضل الى جعفر وقد استجيت من مكابته في هذا المعنى ، فاكثرت
اليه ، فكتب يحيى الى الفضل : « قد امر امير المؤمنين اعلى الله امره ان تحول الخاتم من بينك الى
شمالك ، فأجاب الفضل الى ذلك واعطى اخاه الخاتم .

وفي سنة ١٧٦ هـ ولاء الرشيد مصر ، وفي سنة ١٨٠ هـ ارسله لحرب اهل الشام على اترقنة
اشتعلت فيها ، فأصلح بين الناس ، وضرب على ايدي المشايخين منهم ، ولم يدع مهارحاً ولا فرساً ،
وياد الى بغداد يستنفع الخليفة في اهل الشام ويستعطف قلبه عليهم ، فعفا عنهم . وفي نفس السنة
ولاه خراسان ثم عزله عنها ليوليه امر الحرس الملكي . وفي سنة ١٨٢ هـ بايع الرشيد لابنه المأمون
بولاية العهد بعد اخيه الأمين ، وضمه الى جعفر بن يحيى ليكون المدير لأمره ، ثم كان الأمين مع
الفضل بن يحيى ، وبلغ نفوذ جعفر في الدولة وتأثيره على شخص الخليفة الى حد يشك في تصديقه .
فيقال ان عبد الملك بن صالح (١) من قرابة الخليفة ، لجأ الى جعفر بطلب منه ان يخاطب الرشيد
في ثلاثة حوائج أسأله جعفر عنها فقال : « اولها ان علي دينار مبلغة ألف ألف درهم اريد قضاءه »
وثانيها اريد ولاية لابني يشرف بها قاره ، وثالثها اريد ان تزوج ولدي بامنة الخليفة فأتيا بنت عمه ،
وهو كنفه لها ، فقال له جعفر : « قد قضى الله هذه الحوائج الثلاثة : اما المال ففي هذه الساعة
يحمل الى منزلك ، واما الولاية فقد وئيت امك مصر ، واما الزواج فقد زوجته فلاة ابنة أمير المؤمنين ،
على صداق مبلغة كذا وكذا ، فانصرف في امان الله !! » وعندما عاد عبد الملك بن صالح الى منزله
وجد ان المال قد سبقه ، ولما كان من القدر حضر جعفر عند الرشيد وأعلمه بما جرى فأقره على
تصرفه . ولم يخرج جعفر حتى كاتب لابن عبد الملك تقايد ولاية مصر بوعقد عقده على ابنة الرشيد .
فلما تمت هذه الرواية فيكون جعفر قد بلغ من النفوذ ما تطاول به على شخص الخليفة ، وتوسم في
اموره الخاصة .

موسى بن يحيى ؟

كان أشجع إخوته واشدهم بأساً ، وكان قائداً محنكا ولده الرشيد بلاد الشام سنة ١٧٦ هـ عندما
هاجت بها الفتن ، فأصلح امورها واسكن الثورة بها . وانهمه علي بن يحيى أمير خراسان بالآرة
الاضطراب فيها ، وحببة أهلها له ، وانه يعمل معهم على التزويج على الرشيد . فعلم الخليفة بذلك فغضب
عليه ، وانفق ان انتفى موسى بسبب دين عليه ، فأتى الرشيد من صفة الوشوات عليه ، وأمر
به فحبس في الكوفة سنة ، ولم يدلق سراحه إلا بواسطة — أم الفضل — وضماعة ابيه يحيى .
فعفا الخليفة عنه وخلع عليه .

(٢) عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس

محمد بن يحيى :

كان محمد شجاعاً بعيد الحمة ، ولم يكن له من الثروة ما كان لآخوته .

وكانت هذه الأسرة في عهد الرشيد غرة في جبين الدولة العباسية جمع أفرادها من العائلات المعروفة ما استحقوا به إنشاء معاصريهم من الكتاب والشعراء وكانوا هم : إن الإلانة وبنوك الكلام ، كما كانوا مبرزين في حلبة الجود والسيف ، تهزم الأرمينية عند سماع المدح ، فيجودون بمسانين به الكلام ، حتى أنشوا الناس ذكر الأقدمين .

وخلل البرامكة في خدمة الدولة العباسية إلى سنة ١٨٧ هـ عندما تمكنهم الرشيد .

نكتة البرامكة :

١٨٧ هـ

١٨٩ هـ

تعود نكتة البرامكة إلى الأسباب الآتية :

أولاً : ازدياد نفوذهم ، وكثرة بلذخهم وعظائمهم ، حتى مدحهم الشعراء ومارت قصورهم قضاي قصر الخلفاء . فكان يحيى إذا ركب أمة صرروا في كل منها مائتا درهم يدفعها إلى الطريق يقفون في طريقه ، ويلتصقون بمعونته . وعمر جعفر داراً كانته عشرين ألف ألف درهم أقل له بعض أصحابه . وهو شي لا آمنه عايك غداً بين يدي أمير المؤمنين هـ . (١)

١ - قل ابن خلدون في نكتة البرامكة ما يلي : « إنما نكبت البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة ، واحتجابهم أموال الجباية ، حتى كان الرشيد يطالب الأمير من المال فلا يصل إليه . فقلوه على أمره ، وشركوه في سلطانه ، ولم يكن له معهم تصرف في أمور ملكه ، فذهبت آثارهم ، وبعد دينهم ، ومحووا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتاروا عما عن سواهم : من وزارة وكتابة وقيادة وحجابة وسيف وقلم . يقول : أنه كان يدار الرشيد من ولده يحيى بن خالد خمسة وعشرون رئيساً من بين صاحب سيف ، وصاحب قلم ، وأجمعوا فيها أملى الدولة والكتابة ، ودفنهم عنها بالراح لمكان أبيهم يحيى ، فتوجه الأثوار من السلطان إليهم ، وعذلت الدولة منهم ، وانبط الجاه عندهم ... ونحطت إليهم من أقصى الخنوم هذا الفلك ، ونهضت الأمراء وتسرعت إلى خزانهم في سبيل الزائف والاسدالة أموال الجباية ، وأقضوا في رسل الشيعة وعظلاء القرابة الطغاة ، ولوقروا المن ، وكسوا من بيوتات الانسراف المعدم ، وفكوا الناس ، وأمدحوا بما لم يمدح به خليفة لهم ، واستولوا على القرى والضياع من الضواحي والأعصار في سائر الملك ... فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ... »

ثانياً : الى استبدادهم بالأمر دون الخليفة ، وتقليلهم على الحكم والسلطة والاموال وتسيير شؤون الدولة دون مراجعة الخليفة ، فكانت انليل تردحهم بيلهم والراجهون يتوجهون اليهم ، وبلتسون منهم حاجتهم ويطلبون معونتهم . .

ثالثاً : الى عدم اخلاصهم للإسلام ، حتى ان الهادي انهم يحسوا بالكفر . ويروي انهم كانوا لا ينصتون عند تلاوة القرآن ، ولا يظفرون احترامه له .

رابعاً : الى اعتمادهم على المنصر الفارسي وتقريبهم رجال الفرس اليهم . وكانت الخيزران — التي عادت اليها امتيازاتها التي حرمتها ابداً الهادي — تقدم نفواهم . وتآري شكيتهم . وكانت البرامكة خسروا معونتها بسبب وفاتها .

خامساً : الى تخوف الرشيد من اخذ الحكم لانفسهم ، وانشاء دولة فارسية تقاوم الدولة العباسية . سائداً : بيلهم الى الحزب العلوي . واطلاق جعفر البرمكي : يحيى بن عبد الله العلوي من سجنه دون علم الرشيد . وما بالغ الفضل بن الربيع — عذروهم ومناوئهم — لتأثير الى الخليفة ، سأل الرشيد جعفر البرمكي : « ما فعل يحيى بن عبد الله ؟ » قال : يتحالة يا امير المؤمنين في الحابس الضيق ، والا كبر . قال : يحيائي ؟ فاحجم جعفر — وكان من ادق الخلق ذكاءً واصحابه مكرراً — فنجس في نفسه انه قد علم بقي من امره ، فقال : لا وحياتك ياسيدي ، ولكن اطلقتني ولدت انه لا حياة به ، ولا مكروه عنده . قال : انتم ما فعلت ، ما عدوت ما كان في نفسي ، فلما خرج ابعده بصره ، حتى كاد ان يتوارى عن وجهه ، ثم قال : قتاني الله بسيف الهادي على عمل الضلالة ان لم اقلك .

سادساً : قيام الحزب العربي وعلى رأسه فريضة : سائداً بذات الفضل بن الربيع في الكيد لهم والوشاية عليهم ، وحض الرشيد على تقييد سائطهم . تأثر ذلك في نفس الخليفة حتى منع يحيى من الدخول عليه دون اذنه ، وكان سائداً بدخل عليه وهو في فراشه ، وأمر الخدم والخدمان ألا يقوموا له اذا دخل عليه ، وكان يحيى يستلقي الشربة من الماء في مجلس الخليفة فلا يسقونه ، وان سقوه يكون ذلك بعد ان يدنو منها مراراً .

كأنها : قصة العباسية المشكورة في صحتها ، وهي زوج جعفر بالعباسية تحت الرشيد ، وابلاها غلاماً . . .

كل هذه الاسباب جعلت الرشيد يتأكد من عدم اخلاصهم له وللدولة وتلبت العباسي فعمل على تنكيتهم سنة ١٨٧ هـ . امر مولاه مسروراً الخادم بقتل جعفر وواصلت جثته على جسر بغداد ، وسجن يحيى وابلاها الباقر . ما عدا محمد — بسجن الرقة ، وصورت اموالهم ، وارسلت كتب الى الولاة في جميع انحاء الدولة بتصادرة اموالهم والتبعض على مناصريهم . وانتدت حياة هذه الاميرة بهذه النتيجة السيئة بعد ان خدمت الدولة العباسية نحو ١٧ سنة . وتوفي يحيى في السجن

سنة ١٩٠ هـ وبنى به ابنه الخضر بعد ثلاثة سنوات ، ولم يفرج على الباقين الا في خلافة المأمون
عندما أعاد اليهم أموالهم وأمتيازاتهم .

سياسة الرشيد الخارجية

عظمت هيبة الدولة في زمن الرشيد في الداخل والخارج ، وزداد نفوذ الخليفة في البر والبحر
ولما كان عنده من الجيوش والاماطيل ، وحارب أعداء البيزنطيين وكان متغلباً عليهم . كما انشأ أولئك
— ملك فرنسا — تقرب منه ، وطلب موافقه فيما يلي سداد كرم ما جرى من الموائد في هاتين
النسبتين .

أولاً: حروبه مع البيزنطيين :

بدأ الرشيد حروبه مع البيزنطيين منذ عهد أبيه المهدي ، ولما صارت الخلافة اليه تابع محله في
غزو الروم ، فكان يغزو عاماً ويحج عاماً ، وترك عاصمة آياته — بغداد — وانتقل الى الرقة ليكون
قريباً من البيزنطيين . ومنذ السنة الأولى من حكمه نظم حدود مملكته الواقعة بقرب البيزنطيين
وكانت بلاد الشام قبل زمنية تقسم الى اربعة اجناد وهي : جند دمشق ، وجند فلسطين ، وجند الاردن ،
وجند قدسرين . فزاد ولاية جديدة دلتها جند المواسم وهي الاقسام الشمالية من بلاد الشام الواقعة
على حدود البيزنطيين ، فصالحا عن الجزيرة وجعلها مستقلة عن غيرها ، وانما سميت بالمواسم لان
المسلمين كانوا ينتصمون بها من العدو اذا انصرفوا من غزوهم . وكانت الثغور الاسلامية الواقعة على
حدود بلاد الروم تقسم الى قسمين : ثغور الجزيرة : في الشمال الشرقي وثغور الشام : في الشمال الغربي .
وهذه الثغور تحمي الجزيرة والشام من غزوات البيزنطيين .

وأهم الثغور الجزرية هي : مرعش ، عين زربية ، الحارورية ، ملطية والحديث .

وأهم الثغور الشامية هي : طرطوس ، النابلس وطوانة .

وحصن الرشيد هذه الثغور ، ووضع فيها حديدات قوية للدفاع عن حدود المملكة ، وأمدّها بنا

تحتاج اليه من زاد وذخيرة .

وأشهر القواد المراتلين في هذه الثغور هم : عبد الملك بن صالح . وكان مركزه في منبج ،

خلفه بعد غزوة القاهم بن الرشيد في هذا المركز . وكان في طرطوس فرج التركي . وكانت الحروب

متواصلة تقريباً بين العرب والبيزنطيين في البر والبحر ، فاستعاد العرب جزيرة قبرص ، وغزوا جزيرة

كريت وغيرها من جزر البحر وشواطئه ، وأمر وأبهر البحر البيزنطي ، وكانت كفة العرب هي

الراجحة على الروم . وكان يحكم الروم امرأة تدعى « ايريني » باسم ابنتها الصغير قسطنطين السادس .
فلما تمت في الملك ، ضلحت عيني الخيرا - سنة ١٨٢ هـ وأعلنت نفسها ملكة ، ونالته باسم « اوجشاه »
وساسدها في ادار الدولة شبيب النعمي ، اوتوروس Aetius ، ناز عليها الروم . فكتب العرب
هذه الاضرار التي القاة في بلاد الروم ، وغزوا بلادهم ، فطابت ايريني الصالح من الرشوة ، مقابل
جزية تدفعها له سنويا قبل الرشيد بذلك . وكانت ايريني مشغولة باخذ الثروات الداخلية القائمة
عليها ، والمدافع عن بلادها من هجمات جيوش شارلمان ، الذي كان يمد على القضاء عليها من ناحية
الغرب ، وما لبثت ايريني بعد خمس سنوات قضتها في اخذ الثروات الداخلية ، وحاربة اعدائها
المارجيين ان سقطت وقم بدلا منها « تفنور » ، فمقد معاهدة مع شارلمان ، دين بها تخوم الممالك
والثقت بعد ذلك الى العرب ، وكتب كتابا الى الرشيد يقول فيه : « من تفنور ملك الروم الى
هارون ملك العرب ، اما بعد فان الملكة التي كانت قبلي اقامتك مقام الرخ ، واقامت نفسها مقام اليدق ،
فحصلت اليك من اموالها ما كنت ستيثا بحصل اثمانه اليها ، لكن ذلك ضيف النساء وحقيقت ،
فلما قرأت كتابي فلود ما حصل قبلك من اموالها ، وانقد نفسك ولما قال ليض بيننا وبينك »
فلما قرأ الرشيد الكتاب استغره الغضب ، ودعا بدواة ، وكتب على ظهر الكتاب : « بسم الله الرحمن
الرحيم : من هارون امير المؤمنين الى تفنور كلب الروم ، قد قرأت كتابك والجواب ما تراه دون
ان تسعد » وقم الرشيد من يومه وسار حتى وصل هرقلة ، وانتصر على اوزم واضطر تفنور الى
الخضوع ، ودفع جزية سنوية ، فلما رجع الرشيد الى الرقة نقض تفنور العهد وخلف الميثاق ، وكان
البرد شديدا ، فانس الروم من رجعة العرب ، ونهيب رجال الدولة اخبار الرشيد بالخبر لاشفاقا عليه
وعلى انفسهم من الكربة في مثل تلك الايام ولكنهم دسوا له شائرا انشدوه قوله :

نقض الذي اعطيته تفنور	وعليه دائرة اليوار تدور
أبصر امير المؤمنين فاته	فتح لك به الاله كبير
تفنور انت حين تدور ان نأى	سنت الامام بالهدل مخدور
أعلنت حين غدرت أنك مفلت	هباتك امك ما طننت غرور
ان الامام على اقتدارك قادر	قربت ديارك أم نأت بك دور

فعرف الرشيد نقض تفنور ، فدار اليه في الشتاء وعبر جبال طوروس ، وحاربه حتى غلبه وأصابه
بعض جراح ، واضطر لدفع الجزية ورجع . ولما عرف الروم سنة ١٨٩ هـ انشغال الرشيد فيما
وراء الهم ، نقض تفنور العهد ، وأغار على حدود الدولة العباسية ، فتصدى له التاسم بن الرشيد
واوقع به وهزيمه ، إلا ان تفنور أعاد الكربة مرة أخرى ، فتصدى له الرشيد بجيش كبير مؤلف من

(١٢٥) الآن أجنّاح به آسيا الصغرى ، واستولى على مدن كثيرة ، ووصل إلى البحر الأسود ، فطلب
تقفور الرشيد ، فأجاب الرشيد إليه وقيل منه بدع الجزية . ومن القريب أن يقبل الرشيد طاعة تقفور
بدد قلبه المتكرر ، ويخبره إلى طلبه بدع الجزية بدد أن ثبت له حياته وقضه للعهد ، والأقرب من
ذلك عدم القضاء عليه ، وعلى دولته بدد أن اجتاح الحيوش الإسلامية بلاد الروم ، وأصبحت على
مقربة من القسطنطينية عاصمة بلاد الروم ، ولكن الروايات تظهر تصامح الرشيد ، وحسن معاملاته
لأعدائه ، فقد طلب إليه تقفور خلعية ابنه التي وقت أسيرة بدد المسلمين ، كما طالب طيفاً وسرادقاً ،
فأجاب الرشيد طلبه ، وأرسل القناصة مكرمة وبعث معها هدية فخرتومها أيضاً ماله تقفور .
وفي زمن الرشيد حصل قداء بين المسلمين والروم ، فلم يبق مـ في أرض الروم إلا فودي به ،
وهكذا نجد أن المسلمين في زمن الرشيد كانوا متفوقين على أعدائهم البيزنطيين .

ثانياً : علاقة الرشيد بشارلمان : هذه قصة الرشيد بشارلمان
تذكر المصادر اللاتينية لـ : المؤرخ «إينهارد Einhard» مؤرخ الأسرة الكارولنجية ،
وسدني شارلمان ومباصرة تبادل وفود وهدايا بين الخلفاء العباسيين وبعض ملوك الأسرة الكارولنجية .
قامت هذه العلاقة بين أبي جعفر المنصور وبينان القصير . فقد أرسل بيسان سنة ٧٩٥ م وقد إلى
المنصور بتي ثلاث سنوات في الشرق ، وعاد عن طريق البحر إلى مرسيليا مصطحباً معه وفداً من
قوى أبي جعفر المنصور ، حملوا هدايا إلى بيسان القصير ، فاستقبل ملك الفرنك هذا الوفد احتراف
استقبال ، وقضى عنده فصل الشتاء وعاد معزراً مكرم ، وهذه الهدايا إلى الشرق .
وفي زمن هارون الرشيد تحول عرش بلاد الفرنك «شارلمان بن بيسان القصير» فاستولت تلك
العلاقات من جديد بين الطرفين . فأرسل شارلمان سنة ٧٩٧ م وفداً مؤلفاً من رجلين من الزنبيين ،
ومعهما مترجم يهودي يدعى «اسحق» وظل هذا الوفد ثلاث سنوات في بلاد العباسيين مات خلالها
الرجلان الزنبيان وعاد اسحق إلى شارلمان حاملاً هدية ثمينة من قبل الرشيد وفيها فيل كبير يدعى
«أبا العباس» وساعة وبعض الأمانات جميلة . ويقل أن رجل شارلمان سأروا الساعة تعجبوا منها .
وظنوها من الأمور البحرية ، وهو أسكرها لثمنهم الأبرسلور عن ذلك . وأرسل الرشيد رجلاً
فارسيّاً من قبله وآخر من قبله عليه «إبراهيم بن الأغلب» في إفريقية إلى شارلمان ، وحمل إليه قبل
اسحق ، فاستقبلها شارلمان بمفاوة عظيمة ثم ردها إلى الشرق مع هدية ثمينة إلى الرشيد .

وفي سنة ٨٠٢ م أرسل شارلمان وفداً آخر للرشيد وبقي عنده أربع سنوات ، ثم عاد إلى بلاده
معزراً مكرم . فرد الرشيد على هذه الزيارة بوفد أرسله سنة ٨٠٧ م إلى شارلمان كان احد افراده
يدعى «عبد الله» ومعه هدية فيها حيوان ملون بألوان متنوعة ، ومسوحات حريرية ، وكنائية ،

وروايح عطربة وأواني نحاسية ، فلسفة لهم شارلمان يترحاب ثم رجعوا الى بلادهم .
وتذكر الروايات اللاتينية أيضاً وجود علاقات بين بطريرك أورشليم وشارلمان بين سنة ٧٩٩
و ٨٠٢ م وأن البطريرك أرسل مفاتيح النهر المقدس ، ومفاتيح القدس مع راية خاتمة الى شارلمان !!
لحماها هذا في مدينة رومنة ، ويستنتج بعض المؤرخين الافرنسيين المحدثين من هذه العلاقات المختلفة
حماية الافرنسيين في الوقت الحاضر للأراضي المقدسة ولحجاج الدينيين الآتين لهذه البلاد !!
وقد بحث هذه المسألة كتاب عدد مدون نقوا :

أولاً : إمكان وجود علاقات وجود بين هارون الرشيد وشارلمان .
ثانياً : الافتراض وجود مثل تلك العلاقات ، فتكون العلاقات قام بها بحصار من قبل الفرشين ،
واست وفود رسمية مرسله من قبل الفرشين ، وقبولون - بحق - ان ما ذكرته الروايات اللاتينية ،
ما هي الا أسطورة ملفقة ، وخرافة لا صحة لها . دليلهم على ذلك :
ان المصادر العربية لم تذكر مطلقاً حدوث مثل هذه العلاقات بين العرب والافرنج . وان
المصادر اللاتينية وحدها هي التي اوردت بهذه الاخبار .

وإذا درسنا ما كانت عليه حالة الدولة الإسلامية من القوة والسيطرة ، والعلم والمدنية في زمن
الرشيد ، وما كانت عليه أوروبا من الحمجية والاضطراب - يمكننا بأنه من المستحيل ان يوافق الرشيد
على ترك قسم من بلاده تحت حماية ملك اسباني أقل منه شأنًا وأضعف قوة ، ونسب بعد ان تجرأ بطريرك
أورشليم بالتسل على ما ذكرته الرواية اللاتينية دون امر الخليفة ولجعه . ولهذا اذا صح وجود علاقة
بالفرض بين الفرشين فتكون بمثابة علاقة بين الرشيد وشارلمان . وذلك لأن
شارلمان كان بحاجة لمعارف العرب ولعلومهم ومساعدتهم على اعدائه واعداء العرب بنفس الوقت وهم
البيزنطيون ، لسا كان قائماً بين هؤلاء وشارلمان من نزاع على لقب الامبراطورية ، وعلى السطوة على
العالم المسيحي . ولذلك لم يحدث مثل هذه الصداقة بين هارون الرشيد وشارلمان ، لان الرشيد
كان يطمح في القضاء على البيزنطيين وعلى الاندلسيين المجاورين لبلاد شارلمان والذي كان في نزاع شديد
معه . فتكون المصاحبة عندئذ جمعت بين الطرفين . إلا أن هذا الامر يقال بمثابة فرضية لا يمكن
اثباتها إلا اذا وجد في المستقبل قصص عربية تؤيد ما ذكرته المصادر اللاتينية . وإلا فيبقى الامر
عبارة عن خرافة من خرافات اللاتين .

افراق الرشيد

كان الرشيد ديناً محافظاً على التكاليف البطريركية ، فكان يسلي في كل يوم مئة ركعة الى افراق

الدنيا الا اذعشت له علة . وكان يتصدق من ماله الخاص في كل يوم بألف درهم سوى العطايا التي كان يعطيها للناس . ولم يكن يتخلف عن الحج الا اذا كان غارياً ، وقد اقم الناس حجهم تسع مرات في سني حكمه . وكان اذا حج اخذ معه مائة من الفقهاء وابائهم ، واداً لم يحج بعت بدلامته ثلثمائة رجل بالنفقة والكسوة . وكان ورعاً يسمع وعظ الواغظين ، وتؤثر فيه الموعظة ؛ فكان رقيق القلب سريع الدفعة . وكان شجاعاً لا يترك الجهاد مع جنده بل كان غارياً في مقدمتهم ، فكان يغزو سنة ويحج اخرى . وكان يقضي آثار المنصور ويعمل بها إلا في ذلك المال ، فلم ير خليفة قبله كان اعطى المال منه . وكان لا يضع عنده احسان محسن ، وكان يحب الشعر والشعراء ، وتبيل الى اهل الادب والفقه ويكره المراء في الدين ، وكانت يحب المدح سيما من شاعر فصيح ، ويشره بالثوب الفسالي . وكان يشرب النبيذ الذي يرخص اهل العراق في شربه . وكان يسمع الغناء ويتب عليه اعظم ثواب ، ولذلك اشتهر في زمانه اعظم الموسيقين والمغنين ببغداد . وكان كثير الجواميس . كما كان يتخفي بنفسه في الليل ، ويجول في شوارع بغداد وأزقتها ، ليتفقد احوال الرعية ويقيم العدل ، ويغيث المنيوف وينصف المظلوم .

وقد بلغت بغداد في عهده درجة عالية من الحضارة والعمران . ففي فيها الجوامع الكبيرة ، والقصور الشاهقة ، والجامعات الفخمة ، والاسواق الواسعة ، وامتد البناء فيها امتداداً عظيماً ، حتى صارت كأنها مدن متلاحقة على جانبي دجلة ، وبلغ عدد سكانها مليوني نسمة ، وازدادت مولد ورونها ، فكانت مناجير البلدان القادمة تصلها براً وبحراً ، من خراسان وما وراء النهر والهند والصين ، ومن الشام والجزيرة . حتى ان الرشيد فكر في وصل بحر الاحمر بال النيل ، وادخل القناة القديمة التي بناها الفرانسة . وجدها عمرو بن العاص إلا أن يحيى البرمكي حذره من ذلك ، حتى لا يصل الروم الى الحجاز ، ويدخلوا المسجد الحرام ، فعزل عن رأيه . وكانت الطرق التجارية آمنة مطمئنة في زمانه ، والعالم الاسلامي هادئاً ما كذا في ايامه . فازدهرت التجارة وتوسعت في جميع البلاد ، ففي الناس ، وازدادت لزوة الدولة وماليتها حتى بلغ ما يأتيها من الضرائب والترايح في السنة ، ٤٠٠ مليون درهم . فكان الرشيد يستأقي على ظهره وينظر الى السحابة المألوة من فوقه ويقول : « انظري حيث شئت بأني خراجك » . ساعد على ذلك وجود رجال اكفاء في بلاط النالفة يذكرهم الخفايا البغدادي في تاريخ بغداد فيقول : « اجتمع الرشيد ما لم يجتمع لاحد من بعد وهزل ، ووزاقره البراءة ، لم ير مثاهم سخاء وسروراً ، وقضيه ابو يوسف ، وشاعره مروان بن ابى حفصة ، ولديته حمم العباس ابن محمد وحاجبه الفضل بن الربيع ، ومعتبه ابراهيم الموصلي ، واحمد نصره في مناعته ، وضارب زلزل »

وزايمره برصوما ، وزوجته أم جعفر (زبيدة) أرغب الناس في خير وأسرعهم إلى كل بر ، وهي أسرع الناس في معروف ، أدخلت المساء : الحرم ... ،
 انتشر المذهب الحنفي في بغداد ، نشروا قاضي القضاة أبو يوسف ، وكان مذهب الدولة الرضوي .
 كما توسعت دائرة الترجمة والنقل من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية ، فزدهرت علوم الطب والحكمة
 والمستلزمات المختلفة ، وأصبحت بغداد قبلة العالم الإسلامي يؤمها الطلاب من جميع البلاد الإسلامية
 ليشتملوا بها ، وساعد على ذلك ما كان يتدفقه الرشيد ووزرائه ورجال دولته على العلماء والادباء من
 الأموال والهدايا حتى أصبحت دولة الرشيد من أحسن الدول وأكثرها وفاء ورفاهاً وخيراً ،
 وأوسعها رقعة ، جنى الرشيد معظم الدنيا ... ولم يجتمع على باب - إضافة من العلماء والشعراء والفقهاء
 والقراء والخضاة والمكتتاب والكتبة والمثقفين ، ما اجتمع على باب الرشيد . وكان يصل كل واحد منهم
 أجزل حصة ، ورفقه إلى أعلى درجة ، وكان فضلاً شاعراً راوية للأخبار والآثار والأشعار ، يصيغ
 الذوق والتعبير ، مبرهاً عند الخاصة والعامة .
 وقد بلغت الدولة الإسلامية في زمانه أوج مجدها ودروة عزها ، وكانت أيامه كلها خير ورفاهية
 على بلاده وشعبه .

175 Hija ولاية العهد

ارتكب الرشيد خطأ عظيماً في حياته ، كان له أسوأ الأثر بعد ثلثائه ، وهو ولاية العهد لثلاثائه
 ابنائه وهم : الأمين ، والمأمون ، والعتاشم ، وكان على الرشيد أن يتبع ما أحياه من أخيه المصالي
 في سبيل اليمعة بالملأفة ، وإن يكون درساً قديماً له ، ولكن الرشيد كان مدفوعاً بسفه هذا بامامين
 كان لهما الأثر الشديد في سياسة الدولة وهما :

أولاً : الأحزاب المختلفة التي تكاثرت في سبيل دعم سلطتها .

ثانياً : نشاء الخليفة ومن حولها من جواري وإماء وحاشية .

وفي سنة ١٧٥ هـ عقد الرشيد لابنه محمد الأمين بولاية العهد ، وكان عمره خمس سنين وقدمه
 على ابنه الأكبر عبد الله المأمون . بتأثير زوجته زبيدة وحزبها العربي وعلى رأسه الفضل بن الربيع ،
 وأخوها عيسى بن جعفر بن أبي جعفر المنصور .

وفي سنة ١٨٢ هـ بينما كان الرشيد في الرقة أعلن بولاية العهد لابنه المأمون بعد أخيه الأمين ،
 وكان ذلك بتأثير أمه (مراجل) الفارسية وحزبها من الفرس وعلى رأسهم البرامكة والفضل بن سهل
 الفارسي صهر المأمون .

وفي سنة ١٨٩ هـ بايع الرشيد لابنه القائم بعد المأمون ، وأقبحه بالمؤتن على أن يكون ولي العهد الثالث اذا قبل المأمون بذلك ، وكان ذلك بأكبر مربية عبد الملك بن صالح العياشي ، الذي التمس الى الرشيد تعيينه ، طمعاً بأن يعظم نفوذه ويحظى بالثقل عنده فيما بعد .
 وقسم الخليفة مملكته الواقعة بين اولاده الثلاثة على أن يتولى كل منهم قسماً منها بصفة كاليقضاء طارك سبيته . فولى الأيمن المغرب من القوافل الى تونس ، وولى المأمون المغرب من (نهر الدان) الى ما وراء النهر ، وولى القائم الجزيرة والعماد ، وولى الرشيد الله بركة هذا قد وولد الملك ، وأما ابنه بين الاسود . وفي سنة ١٨٦ هـ حج الرشيد ومعه الأيمن والمأمون . وفي حاشيته الوزراء والوزراء والقضاة . وبعد أن قضى مشاك الخراج أمر القضاة أن يكتبوا المأمون كتباً فيه يذكرون في الاول بعد الأيمن لاختيار ولاية العهد ، وفي الثاني عهد الامة ان تفي له بذلك . ووجه الكتابين في البيت الحرام بعد اخذ البيعة على محمد الأيمن وإليه عليه بها : الله والملك . ومن كان في الكعبة معه من ولده ولعل بيته ، ووزرائه وكثابه ، وقراءه ومواليه . وأمر أن يلقى الكعاب في الكعبة ، ولما رجعوا لم يبقوا وقفاً ، فقام الناس وقال بعضهم لبعض : وان هذا الامر سريع التغير منه قبل تمامه .

وفاته الرشيد

خرج الرشيد لفتح الدقة في خراسان ، واستخلف ابنه محمد الأيمن في بغداد وأما صاحب معه ابنه عبد الله المأمون . ولما وصل مدينة طوس قرب مدينة (منها) في امر أن شعر بغيره الاخير . فقام من كان بمسكوه من بني هاشم ، ولؤسانم ثلاث : والمناظ لأمرتهكم . والصبغة لأمرتهكم ، واجتماع كلهم ، وانظروا محمداً . وعبد الله . فمن بنى منها على حاجته فردوه عن بيته ، وقبحوا له بيته وسكنه . وأمر أن يكون البابس الذي كان معه المأمون . وتوفي ليلة السبت في ثلاثة ايام جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ ودفن في طوس ، وكانت مدة خلافته خمس سنين وثمانية اشهر .
 وكان يحاصره في الاندلس الأمير عبد الرحمن الداخل ، ثم ابنه هشام ثم الحكم بن هشام . وفي فرنسا شارلمان . وفي بلاد الروم قسطنطين السادس . وكانت أمه إرمني تدير شؤمه إلا أنها استبدت بالملك فظلمها قومها ومولى مكنها تقدر .

محمد الرشيد

١٩٣ - ١٩٨ هـ أو ٨٠٩ - ٨١٣ م

ولد محمد الأيمن سنة ١٧٠ هـ ، وذلك بعد مولد أخيه عبد الله المأمون بسنة اشهر ، وأمه

الحرب العربية

أم جعفر - زبيدة - ابنة جعفر بن المنصور ، وولس في خلفاء بني العباس من أبواء هاشميان سواء.
ولما توفي الرشيد بطوس ، أرسل صالح بن الرشيد إلى أخيه الأمين الذي كان قائماً ، سقام إليه في
بغداد ، خاتم الخلافة ، وقضيب النبي (ص) والبردة ، وهي شارات الخلافة ، فنهض إلى المسجد فصلى
بالناس وألقى خطاب العرش ، وأخذ البيعة من قواد الجيش والائشراف والعمامة فقال أبو نوح بن
الرشيد وبني الأمين بالخلافة :

جرت جوار بالسيد والنحس	فنجحت في مأثم وفي عرس
القلب يبكى والدين ضالك	فنجحت في وشة وفي انس
بضحكنا الفائم الأمين ويب	مكينا وفاء الامام بالامس
بهران : بدو اضحى بغداد في ال	خلد ، وبدو بطوس في الرمس

سياسة الراشدين المرافقة

التزاع بين الأمين والمأمون

أسباب التزاع :

السبب الاول . - كان الرشيد قبل وفاته قد جدد البيعة لأمته المأمون وأمره بأن يصير ما
معه من قواد وجند وسلاح ومال إلى المأمون ، وأخذ المواقف على ذلك من كان معه . وبعث الأمين
لما بلغه مرض الرشيد ، ووقع وفاته رسول يوافيه بأخبار الرشيد كل يوم . وانفذ معه كتاباً أمره
بتسليمها إلى أصحابها بعد وفاة الرشيد . ومن جملة هذا الكتاب : كتاب للمأمون يعزيه فيه عن أبيه
ويأمره أن يأخذ البيعة على من قبله بالأمين بالخلافة ، والمأمون بولاية العهد ، وللقائم المؤمنين بعده .
ومنها كتاب لصالح بن الرشيد يأمره فيه بالمسير إليه مع جميع الجنود والمخازن والسلاح ، ويشجعه
أن يعتمد في تنفيذ ذلك على الفضل بن الربيع ، الذي كان وزيراً للرشيد . وأصبح بعد ذلك وزير
الأمين ومسيرة في نزاعه مع أخيه المأمون .

وقد قل الفضل بن الربيع أنواد الجند وأولاد الرشيد عندما كانوا يشاركون في اللحاق بالأمين :
« لا أضع ملكاً حاضراً لآخر لا يدرى ما يكون في أمره » وأمر الناس بالرحيل ففعلوا ذلك ، عجة
منهم للحوق بأهلهم ومنازلهم في بغداد ، وتركوا العبود التي كانت أخذت عليهم المأمون .

كان المأمون - بمرو - هذا ما وصل إليه خبر عودة الجيش ببغداد فأرسل إليهم بتسليم الفضل
ابن سهل (مشورة رسولاً يذكرهم البيعة التي أخذوها على أنفسهم ، والوفاء بها ، فلم يجيبوا عمل شيئاً .
وأصبح الفضل بن سهل وزير المأمون ، ومسيرة أعماله . وأشار عليه أن يعتمد على الجند ، وبعث إلى

الفضل بن
الرشيد

القبائل ، ويدبرهم الى الحق والعدل به ، والى اسياء الدنيا ، ورد الظالم ، وان يكرم الثوار وابناء
الملك ، ويستميل الفرس اليه . فلما فعل ذلك أحبه القوم لاسيما النمراسانيين ، وقلوا : « ابن اخنوخا
وابن عم نينا (ص) » وانتفوا حوله ، وبذلك انتقل النزاع من الاخوة الاميين والمأمون ، الى النضامين ؛
الفضل بن الربيع والفضل بن مهمل . او بكلمة اخرى اصبح النزاع بين العرب والفرس . فاعرب
اخذوا بالاصر الاميين . والفرس اخذوا جانب المأمون . وكان الظفر اخيراً يطارقهم .

السبب الثاني . — اخذ الفضل بن الربيع بلج على انمايفة الاميين بعزله اخوته المأمون والقاسم .
وتولية ابنه موسى من بعده . وذلك خوفاً على نفسه فيما اذا انقضت الخلافة الى المأمون يوماً ان
ينقم منه . إلا ان الاميين لم يصع اليه في بادي الامر ، لانه كان عازماً على الوفاء لاختويه ، وانما
قبل بتأثير الفضل بن الربيع ان يكتب الى الولاة في الامصار كلها بالدعاء لابنه موسى بالامرة بعد
الدعاء له والمأمون والقاسم . فما كان من المأمون عندما باثمه هذا الامر وعرف بوزل اخيه القاسم
عن ولاية الجزيرة ورمينيسا الذين كان ابود قد ولاه لهما . إلا ان قطع البريد عن اخيه الاميين .
واسقط اسمه من الطراز . على اثر ذلك طلب الاميين من اخيه المأمون ان يعطيه بعض اقسام خراسان
ليولي عايلها عمالا من قبله يوافقوه بأخبار تلك الجهات ، فرفض المأمون ذلك ، بعد استشارة اهل
الرأي عنده وتأثير الفضل بن مهمل .

أرسل الاميين وفد من كبار رجال دولته الى اخيه المأمون يطلبون اليه تقديم موسى بن الاميين
الذي لقبه « الناطق بالحق » على نفسه بولاية العهد ، فرفض المأمون ذلك . عندها ألج الفضل بن
الربيع على الاميين في خلع اخيه فأجاب الى ذلك . وأرسل الفضل الى الدول في جميع البلدان يهاجم
عن ذكر المأمون والقاسم على المنابر ، ويحذرهم الدعاء لها بعد انمايفة والاكتفاء بالدعاء للاميين
وابنه موسى . ووجه الى الاميين كتاباً مع احد حمية البيت ليأتيه بالكتابين اللذين كان الرشيد
كتبهما للمأمون وجماعها بالكعبة ، فلما احضرا الى بغداد مزقهما وأبطلهما .

وضع الفضل بن مهمل بأمر المأمون ، حرساً على حدود خراسان لكي لا يترك الفرصة لاحد
من شيعة الاميين من الاتصال برجال خراسان وإنسادهم على المأمون . وشمر القيون والجواسيس
في كل مكان ليوافقوه بالأخبار ويدعوا للمأمون بالخلافة .

جرت مكاتبات بين الاخوين طالب فيها الاميين ما فضل من مال الخراج عنده المأمون وبين حقه
في هذه الاموال . واقترح على اخيه ان يقبل تعيين شخص من قبله ليراقب ماليته ويوافق به خبرها .
فكان جواب المأمون بأنه هو يقوم بإبلاغه عما يريد . ويطلب اليه ان لا يخرج منه في الخروج عليه

وكانت الجاسوسية في هذه الخصومة الر كبرى في إيصال الأخبار ، وما يجري من المؤامرات والأحداث
عند الطرفين ، ولما من أسباب نجاح المأمون في هذا النزاع يعود لتفوق أن الجاسوسية عنده ،
وتفعله في إبعاد دعاة الأمن ، وإزالة من إفساد شيعته وحزبه .

وبعد أن فشلت الطرق السياسية والدبلوماسية في التوفيق بين الآخرين أصبح من المهم وقوع

النزاع الدوي بينهما .

وقوع الحرب :

جيش الأمن جيشاً كبيراً مؤلفاً من ثوبين الف مغلوب ، عيسى بن أحمد بن سلاج ، مروان
بالأوزان الكبيرة ، ودين عليم فائداً علي بن عيسى بن ماعان الذي كان والياً على خراسان في زمن
الرشيد ، والذي ثبأ معاهدة اهالي تلك البلاد . فكان تعيينه قائداً لهذا الجيش فائداً على الأمن ،
لأنه أثار حمية أهل خراسان الكبرية ومقربهم علي بن عيسى . وبذلك اشتد سرب المأمون وقوي
الانتفاخ أكثر أهل خراسان حوله ونصرتهم له . وزاد الأمر شراً غرور علي بن عيسى بنفسه ،
وعدم أكثرائه بحدوده . وقد انشأ المأمون خبر قواده لخربة جيش أخيه ، أمين طاهر بن المدين

على جيش مؤلف من (٣٨٠٠) مقاتل من خيرة المهارين . فلما عرفه علي بن عيسى بتغير هذا الجيش
أخذ يضحك منه ويستخسر من قائده قائلاً : « وما طاهر فواعة ما هو إلا شوكة من انصفاكي ، أو
شراوة من ناري ، وما مثل طاهر يتولى على الجيوش . وباقى المردب . ثم ألفت إلى اصطحابه فقال :
« والله ما بينكم وبين أن ينقصف القصاص الشجر من الرشح الخاف إلا أن يبلغه عبورنا عقبة همدان ،
فلن السهل لا تقوى على التناطح ، والتمالب لا بد لها على لقاء الأسد » . وعندما بلغ جيش الأمن
أول بلاد الري جاء قائد القدمة إلى أمير الجيش وقال له : « لو كنت - أنتي الله الأمير - إز كيت
العيون وبعتت الملائع ولزنت موحناً تدسك فيه ، وتخذ خدافاً لأه جابلك بأمتون به كان ذلك
أبلغ في الرأي وأقس ليجتد » . فكان جواب علي بن عيسى : « ليس مثل طاهر يستمد له بالمكيد
والمنفذ ، إن حال طاهر نزول إلى أحد أمرين : إما أن يحصن بالري فيرتفع أهلها ، فيكفوا مؤوته
أو يغلبها ويدبر راجعاً لو قرنت خيولنا وعسكرنا منه » . وبينما كان علي بن عيسى يسير في سبيلاته ،
وفي به بتدبره ، ويستصغر أمر عدوه ، كان طاهر بن المدين يدبر أمره مع قواده ، وينظم عسكره ،
ويجشد جنده على مقربة من مدينة الري . وعندما التحم أطرافت كسكر جيش الأمن ، وقيل
قائده المروور ، وأصبحت أمواله خبياً ، وسلاحه متناً بأيدي أعدائه ، وكتب طاهر بن المدين إلى
القنصل بن سهل يشره بنتيجة المعركة قائلاً : « كتبت اليك ورئس علي بن عيسى في حجري وخاتمة
في يدي والحمد لله رب العالمين » . فبشر القنصل المأمون بالظفر ، ونادى به « أمير المؤمنين » ففرح

المأمون بذلك وأطلق علي الفضل بن سهل ، ذا القرنين وساحب جبل الدين .

وسل خير الخزيمة إلى بغداد ، فقامت القوضى بين الناس ، وتشكر الجند على الأمان وطالبوا منه الزيادة في أرزاقهم وعطائهم ، فلان لهم واعطاهم ما شاؤوا وجيزهم بقيادة عبد الرحمن بن جبلة الألباري لقتال طاهر ومن معه . وعندما التقى الجمعان عند مدينة همدان ، أقتتل الفريقان قتالاً شديداً ، وتراجع جيش الأمان إلى همدان وحاصر فيها . وعندما نفذت ذخيرة طلب الأمان استمد إلى طاهر بن الحسين ، ولما وصل الأمر إلى الأمان ارتاح وزيره الفضل بن الربيع . وشعر زوال الدولة وأهول نعمة ، ودعا أسد بن يزيد بن مزيد ، وهو من كبار قواد الدولة لمحاربة طاهر بن الحسين ، فطلب مطالب كثيرة ، جعلت الأمان يعطي ما به ويحبسه . واتجأ الأمان إلى أهله بفش عن قائده فغير بأمن له ويركن إليه . فثاروا عليه بأحمد بن مزيد فيستدعاه الخليفة ، وسيره على رأس جيش كبير عدته عشرة ألفاً وأتبعه بمشركين ألف أخرى بقيادة عبد الله بن حميد بن قحطبة ، وأمرها أن يتزلا خلوان ، وعندما طاهراً عنها . ولما بلغ طاهر بن الحسين الخبر ، خندق حول همدان ، وأخذ يفرق بين جيشي الأمان ، ويحتمل في إقحاج الخلاف بين قائديه حتى تم له الأمر ، فاختلف القائدان وتجاربا ، ورجعا دون أن يلتقيا طاهراً . فتقدم طاهر إلى خلوان واحتلها وجاء الممدد من قبل المأمون بقيادة عرشة بن أعين ومعه كتاب من المأمون يأمره في السير نحو بغداد من جهة الأهواز ، ليكون الهجوم على عاصمة الخلافة من جهتين .

وقد حاول الأمان أن يرمي آخر سهم في كنياته ، فاستعان بأهل الشام والجزيرة ، وولى عليهم عبد الملك بن صالح الذي استنجد أمراء العرب ورؤساء الجند ، وجاؤوا إليه من كل فج وموب ، واجتمعوا عنده . ولما حط الأمان اختاف جندي عربي مع آخر خراساني ، فقتل الطرفان ونفروا العرب راجعين إلى ديارهم . فذاكرين ما فعله ذو الجواسيم . وإذا دار قتال خراساني عليهم وخطب بعض زعماء كلب في قبائله قاتلاً لهم : يا مشرك كلب ! إنها الزاية السوداء ، والله ما أولت ولا عدلت ، ولا دل نصيرها ، ولا ضميت إليها ، وإنكم تعرفون مواقع سيوف أهل خراسان في رقابكم ، وأثار أنسهم في صدوركم اعتزلوا الأمر قبل أن يقام ، ونظفوه قبل أن يضطرم ، شأكم داركم داركم ! الموت الفلمسطيني خير من العيش الجزري ! ألا وائي راجع شئت أراد الانصراف فليصرف . ي . فلفحه جميع أهل الشام . أما جند خراسان فصاروا إلى بغداد بقيادة الحسين بن علي بن عيسى وخلعوا الأمان ، وقيده وسجنوه في سنة ١٩٦ هـ . إلا أن ذوي الرأي في بغداد خلصوا الأمان من قيوده وسجنه ، ونكروا على الحسين بن علي وأبروه ، وجاؤوا به إلى الخليفة . فلامه الأمان على فعلته ، وعاتبه بقوله : ألم أقدم إليك على الناس وأولاه أمة الخوارج ، وأملأ يده من

الاموي ، واسترحم اقداركم في اهل سرمدان وارفع منازلكم على غيركم من القواد . فقال له
بني اقل : « فما الذي استحققت به منك ان تخلع طاعتي ، وتؤلب الناس عني ، وتناجهم الى قتالي .
قال الكوفة بعفو امير المؤمنين وحسن الظن بصفحة ونفسه . قال : « فان امير المؤمنين قد فعل ذلك
بك ، وولاه الطلب بشارك ومن قتل من اهل بيتك ! » ثم دعا له جليلة فخلعها عليه ، وجره على
مراكب . وامره بالمسير الى حوان ، وولاه تلك الجهات ، إلا انه لم يكن اهلاً لهذا الانعام ، فقد
حاول ان يثور مرة اخرى على الاميين فقتل .

هذه الحادثة تدنا على مبلغ الاضطرابات في بغداد . وضعف الخليفة الاميين عن فعلها ، وإلى أي
درجة قلت هبة الخليفة عند الناس حتى نجروا على خلعهم وسجنه . ولا شك ان المؤمنين والمصل
ابن سبل بدأ في إثارة هذه الاضطرابات بواسطة اعوانهم من الفرس . ولعله كان لهذه الدساسات
والمؤامرات الأثر الكبير في انتصار المؤمنين على اخيه وشوقه عليه .

حصار بغداد ومقتل الاميين :

فتح طاهر بن الحسين الأهواز و فارس ، وسقطت معظم المدن الرئيسية في العراق بيده . وكان
عمال الاميين يقيمون خضوعهم للقائد المظفر دون قتال ، او يتركون ولايتهم ويهربون من وجهه
كما فعل عامل مدينة واسط الذي قال : « انه طاهر ولا عار في الحرب منه ! » وتمت البيعة للمؤمنون
في الحجاز والبحرين واليمامة وحماد ومعظم مدن العراق ، وتقدم طاهر بجيشه نحو بغداد ، كما ان
هرثمة بن اعين ، والمسيب بن زهير وطلوقوا بغداد من جهاتهما الثلاث . وذهب المسيب بن
زهير المهازيق والمرادات وخرّب بهم بغداد . واستمر الحصار عدة اشهر أغلقت الاميين جميع اموال
الدولة في سبيل الدفاع ، حتى انه باع ما عنده من الامثلة ، وصرب آنية الذهب والفضة فوّدوزعها
على الجند . وقامت بغداد من هذا الحصار مصائب جسيمة ، من تهديم القصور ، وحرق الدور ،
وتخريب المنازل ونهب الخوانيت ، حتى حل الخراب بصف المدينة تقريباً . ومات كثير من السكان
فانفذ الاشرايف ينفذون من حول الاميين ، إلا ان العامة ثابروا في كفاحهم . واستعانت الاميين
بالبهارين والشافار واهل البحرين في الدفاع عن المدينة . وعندما استنفذ جهودهم في الدفاع ، وأقن
بالهلاك . طلب الامان من هرثمة بن اعين ، فجاوبه اليه ، إلا ان طاهر إلى إلا ان يسلم الاميين نفسه
اليه ، ولم يكن الاميين يثق به ، وأخير آتم الاتفاق على ان يسلم الاميين نفسه الى هرثمة بن اعين
ويسلم شاربات الخلافة : من خاتم وقضيب . ووردت إلى طاهر بن الحسين . وجاء هرثمة بمرافقه ليقسم
الخليفة ، فركب الاميين معه ، وسارت بها الحراسة حتى انقضت النهر ، وعندما رأوها جنود طاهر
رموها بالحجارة والسهم ، حتى اغرقوها ، فسمح الاميين الى الشافري ، فقبض عليه جنود طاهر

وأمره فلم يدم هذا بقلته فقتلوه في ٢٣ محرم سنة ١٩٨ هـ . أما عرثته بن أمية فقتلوه بقتله
وانتقم من الفرق . وعت بذلك هذه القاجمة المؤلة . وموت الامين قوي النفوذ القارس في الدولة
وكان تصاوراً القرس على العرب ، وتنفوق حزب الفضل بن سهل على حزب الفضل بن الربيع .

أخلاق الاميين

أشرف الرواة في ذكر سوء أخلاق الاميين ، وهو روه لنا بصورة رجل مشبه ، معروف ،
عديم الاخلاق ، قليل الثبصر في عواقب الامور وذلك أمر طبيعي لان الاميين قد غلبه
سخطه وعثرته قومه ، وفشل في تزاوجه مع اخيه ، فتسابق الناس إلى ذمعه وبلغوا عليه المشبه بكلي
سوء ، ووصفوه لما يابش الصفات كما في حالة كل فاشل في معترك هذه الحياة
لذلك سنحترز كثيراً في ذكر ما قيل عن الاميين ، ولا نقبل كل ما روي عن أخلاقه . نشأ
الامين في حجر الفضل بن يحيى البرمكي ، واعتنى الرشيد كثيراً بتربيته ، فبين له كبار علماء عصره
ليتقنوه ويعلموه ، حتى جمع من الثقافة ما لا يتيسر لقليل من أبناء عصره مثلاً ، فكان اديباً شاعراً ،
مربيع البديهة خريف السكتة ، حلو القنار رفيع الذميمة والفكاهة . وقد اجمع الرواة على سجاد
الامين إلى درحة الامراف ، ورووا لنا قصصاً كثيرة عن عطاؤه لشعراء والمغنيين الشيء الكثير .
كما اتفقوا أيضاً على كثرة طوره ولبه وتغريبه لخصيائه وقد قال عنه ابن جرير الطبري : « لمساكنات
محمد وجه إلى جميع البلدان في طلب الملوك وضمهم إليه ، وأجرى لهم الاموال ، وتنافس في ابتاعه
فرد اللواب ، واحد الوحوش والسياح والطير وغير ذلك ، واحتجب عن الخونة وأهل بيته وقواده
واستخف بهم ، وقسم ما في بيوت الاسواق . وما يحضره من الجوهر في خصيلاته وجلساته ومخدراته
وأجل إليه ما كان في الرقة من الجوهر والخزائن والسياح . وأمر ببناء مجالس فخرفاته ومواسع
خلوته ولطوه ولعبه وأمر بمل خمس حرافات في دجاجة ، حتى خلفه الاسد والذيل والعقاب
والخنزير والغرس والتفن في عملها مالا عظيماً »

كان الامين طيب القلب سديم الطوية ، طاهر السجية ، ذيل الاصل إلا انه ضعيف الارادة ،
استكان إلى مشيئة لا سيما الفضل بن الربيع نفسه ، وحاذ به عن الصواب ، وقاده إلى الهلاك وكانت
مدة خلافته أربع سنوات وثلاثة أشهر . كانت بناصره في الاندلس الحكم بن هشام ، وفي فرنسا
شارلمان . وفي بلاد الروم صفور الذي قتل في حروبه مع البلغار خلفه ابنه استبرق ، ثم تولى من
بعده ميخائيل بن جرجس الذي تزوج من أخته استبرق ، وتنازل عن العرش إلى القائد ليون
الامروني .

عبد الله المأمون

١٩٨ - ٢١٨ هـ أو ٨١٣ - ٨٣٣ م

ولد عبد الله المأمون سنة ١٧٠ هـ في اليوم الذي ولي فيه أبوه الخلافة ، وأمه أم ولد فارسية تسمى مراجل ، ولي الخلافة بعد مقتل أخيه الأمين سنة ١٩٨ هـ وبقي في خراسان إلى سنة ٢٠٤ هـ ثم انتقل منها إلى بغداد ، وبقي في الخلافة ما يزيد على العشرين سنة .

سياسة المأمون الداخلية

كانت مقابلة الحكم في أول خلافة المأمون بيد الفضل بن سهل وحزبه ، حتى أن المأمون آنزى البقاء في مرو في بادئ الأمر من الذهاب إلى بغداد ليكون قريباً من الفرس الذين توصل إلى الحكم بمساعدتهم . وقد علا شأن الفرس كثيراً في زمن المأمون ، وزداد نفوذ الفضل بن سهل الذي أراد أن يجعل كل مناس له حتى يستأثر بالسلطة . فأصدر أمرين على لسان المأمون : أولهما تولية أخيه الحسن بن سهل على جميع البلاد التي فتحها مظهر بن الحسين وهرقة بن ابنين . والثاني استدعى فيه هرقة بن ابنين إلى خراسان وألفظ مظهر بن الحسن إلى الرقة لحاربة نصر بن سبث الذي نازع مع العرب على المأمون في شمالي حلب انتصاراً للاميين وحزبه العربي ، وانتقاماً من المأمون لظفوعه لتأثير الفرس . وكان ظلو العراق من القائلين العظيمين الذي تم فتحه بواسطتها ، وما شاع بالعراق من أن الفضل بن سهل استأثر بالحكم في خراسان وأزل المأمون في قصر ، وحببه فيه عن أهل بيته ووجوه قواصه ، وأن المأمون أصبح آلة بيد الفرس يحركونه كما يشاؤون ، وما أصاب أهل بغداد من الضرر بانتقال مركز الخلافة إلى مرو ، أن ثاروا على المأمون . وأول هذه الثورات هي : ثورة العلويين :

خرج محمد بن إبراهيم^(١) والمعروف بابن طياطين ، وهو من أبناء الإمام علي من الفرع الحسيني بالكوفة ، ومساعدته في ثورته هذه أبو السرايا وهو أحد رجال هرقة بن ابنين ، فأرسل إلى العراق الحسين بن سهل عدد جيوش ردها أبو السرايا خسارة على أعقابها . وعظم أمر الشيعة في البلاد حتى أن أبا السرايا ضرب قوماً في الكوفة وقتل علياً : (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله مدافعاً كأنهم بيان مرسوم) عند ذلك التجأ الحسين بن سهل إلى هرقة بن ابنين بالحسن منه احتياط هذه الفتنة فوجد تردد اجابه إلى ذلك ، وتمكن من الانتصار على جماعة أبي السرايا وإخماد هذه الفتنة .

(١) محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسين بن علي .

وكان لهذه الفتنة أثرها السيئ في إقليم الفوضى في أكثر مدن العراق والحجاز ، لما قام به العلويون وشيعة من حرق الدور في البصرة ونهب الأموال من خزائن الكعبة ، ونكسب شيعة بني العباس ومصادرة أموالهم في الحجاز ، وتعذيبهم في دار العذاب ، وأخذوا ما على أعمدة المسجد الحرام من الذهب وقطع الحديد من شراكهم ومزمز وغير ذلك من الأعمال ، وعندما بلغ من في الحجاز من العلويين من نقل أبي السرايا ونسبت إسماءه إليهم محمد بن جعفر الصادق وسماه أمير المؤمنين ، إلا أن هرثة بن أعين أرسل من قضى على ثورتهم وشنت عليهم .

وبعد أن انتهى هرثة بن أعين من أداء تلك المهمة عينه المأمون لولاية الشام والحجاز ، إلا أن هرثة أراد أن يطاع المأمون على حقيقة الحالة التي وصلت إليها دولته بسبب الاستبداد الفضلي بن سهل بالأمم قبل تسليمه منصبه الجديد ، فقال الفضلي بن سهل دون ذلك ، بأن لو غر صدر المأمون عليه وأوحى إليه بأنه كان متآمراً مع أبي السرايا ، وأن الفتن التي حصلت كانت بسببه ، لذلك لم يسمع المأمون قول هرثة عندما اجتمع به ، وأمر بسجنه ، فذهب إلى الفضلي من قلة في السنين ، وذهب هذا القائد الفاضل ضحية الممانئ والمؤامرات .

ثورة أهل بغداد :

عرف أهل بغداد بموت هرثة بن أعين ، وإن ذلك كان بتدبير الفضلي بن سهل فتجمعوا من أن المأمون يسير في أعماله من قبل الفضلي ، فطردوا إسماعيل بن سهل — الجوهري ابن الجوهري — كما كانوا يلتقونه في بغداد ، وقامت الفوضى والفتن في تلك المدينة ، ونشط المصوص والسماليك في النهب والسلب ، فطلب وجهاء المدينة من المنصور بن المهدي أن يبايعوه بالخلافة : فغضب ذلك ، إلا أنه قبل أن يكون أميراً جامع الخليفة المأمون . ومع ذلك لم تبدأ الاضطرابات في بغداد . وكانت عدة روات المدينة بأيدي الشقاق والاضرام ، فانفق أهل كل حي على حماية ممتلكاتهم ، فعاد النظام والسلب الآمن في الطرقات ، إلا أنه حدث حادث شام الفوضى إلى أشدها كانت عليه ، وهو أن المأمون اختار لولاية عبده علي الرضا (١) من العلويين ونسبه الرضا من آل محمد ، وأمر جنده بطرح أموال شعائر العلويين ، وأبس ثياب الخضرة التي اختارها شعائر المندوبة الجديدة ، وكتب بذلك إلى جميع الآفاق . وكان هذا العمل تحريض الفضلي بن سهل المشرع للعلويين ، فقال المأمون أن حركات العلويين لا تبدأ إلا بأمرهم مستقيم في الخلافة ، فوالذي فلان ما في نفس المأمون الذي كان فضلي الإمام علي على غيره من الخلفاء الراشدين .

(١) علي الرضا بن موسى الشكطهم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن

إلا أن البيت العباسي غضب من ذلك، وانضموا هذه المرة إلى الثائرين من أهل بغداد وناصروهم في خلق المأمون، خوفاً أن يذهب الخلافة منهم، واتفقوا على مبايعة إبراهيم بن المهدي عم المأمون بالخلافة سنة ٣٠٢ هـ وظل خليفة مدة سنتين.

عودة المأمون لبغداد :

أخبر علي الرضا المأمون بما كان يجري في الدولة، وأطلعته على حقيقة الفضل بن سهل، الذي كفى بكم الأخبار عنه ويحجز الناس عن مفاصله، وأن أهل بيته ينفقون عليه، وأهل بغداد يأمروا إبراهيم بن المهدي خليفة عليهم، وخلقوه من الخلافة. ولما عرف المأمون صحة هذه الأخبار، وانحلت له الأمور، أمر جده وحاشيته بالرحيل إلى بغداد، وفي الطريق دبر قتل الفضل بن سهل. كما أن علي الرضا مات في الطريق أيضاً، وبمروء المأمون بتدبير موته، ويستبعد كثير من المؤرخين ذلك، وعلى كل فقد تخلص المأمون من شخصيتين كان يكرههما أهل بغداد وكان كلاهما أقرب من عاصمة الخلافة، اضطرب أمر إبراهيم بن المهدي، وما لبث أن قام عليه الجند وخلقوه، وأطعدوا الحسن بن سهل - والي المأمون - مكانه، وأظهروا طاعتهم للمأمون. وخرج العباسيون والنواد والشراف ببغداد يستقبلون الخليفة، الذي استدعى طاهر بن الحسين من الرقة، ودخل معه بغداد سنة ٣٠٤ هـ، وبذلك بدأ عصر جديد في حياة المأمون، فبعض فيه على نهاية الحاكم بدقوبة فيما الحزم والنشاط والفساح، وعاد إلى ألبس السواد بتأثير قواده وأهل بيته، وعفا عن خصومه الذين ساعدوا أخاه الأمين. وبدأ يجمع الفتن والثورات الفائرة في الدولة. وجعل طاهر بن الحسين على إمارة بغداد، ثم أرسله يطلب منه إلى ولاية خراسان خوفاً على نفسه من الخليفة أن ينتقم منه لقتله الأمين. وما لبث أن عظم نفوذه بخراسان، وأسس دولة مستقلة، دعيت الدولة الطاهرية نسبة إليه وأسقط اسم الخليفة المأمون من خطبة الجمعة، وأعلن انفصاله عن العباسيين. إلا أن المأمون دس له من سمه، فقام بعد موته ابنه طلحة، فوافق الخليفة على ولايته وبقيت الدولة الطاهرية إمارة مستقلة تحكم بلاد خراسان وماوراء النهر ونصف قرن إلى أن قضت عليها الدولة الصفارية سنة ٣٥٩ هـ (١).

(١) توفي طاهر بن الحسين إمارة خراسان سنة ٣٠٥ هـ وبقي والياً عليها مدة سنتين تقريباً. وتمايز عدة حكام من أسرته في حكم تلك البلاد، وكانت طاعتهم ونسبهم وكانوا خاضعين اسمياً للخلافة العباسية، بمعنى أن الخليفة يوافق على تعيين الحاكم منهم بعد موت من تقدمه. وقد توسعت هذه الدولة كثيراً في زمن عبد الله بن طاهر، واستمد سلاطنتها على خراسان، والري، وأكرمان والمقاطعات الشرقية حتى حدود الهند. وكان آخر حكامها محمد بن طاهر الذي خضع إلى سلطة يعقوب الصفاري مؤسس الدولة الصفارية والذي كانت نهاية الدولة الطاهرية على يده سنة ٣٥٩ هـ.

وعين المأمون على ولاية الرقة عبد الله بن طاهر الذي ورث أباه في محاربة نصر بن شيث، وشيخه عليه حتى اضطره الى التسليم، وارسله الى بغداد، فمنا عنه الخليفة. وقد أمر المأمون عبد الله بن طاهر بالذهاب الى مصر لقمع الذين القاعة فيها، فسار اليها وقمع ثورة عبد الله بن السري. كما حارب جماعة المولدين الذين جازوا من الاندلس بمراكبهم ولجأوا في ميناء الاسكندرية وعاثوا فيه فساداً، فانظروهم الى الخروج من مصر، فرحلوا الى جزيرة اقريطس (كريت) سنة ٢١٠ هـ وانظروا فيها وبذلك عدلت الثورات والفتن في حبة الغرب.

ثورة الرط :

أما الرط (البور) في زمن المأمون في حبة البصرة. وهم اخلاط من الناس من همدان آسيا انتهزوا أيام الفتنة بين الاميين والمأمون، واستولوا على طريق البصرة، وعاثوا في البلاد فساداً، ولما عاد المأمون الى بغداد، تدب عدة فراد طارئين، الا انهم لم يتمكنوا من اخضاعهم، لانهم كانوا يهربون اذا خرج موقفيهم، وشعروا بقوة خصمهم. وقد عبر نصر بن شيث المأمون بهم فقال : « انه لم يبق على اربعة ضفدع تحت جناحه » واستمرت ثورتهم قائمة الى زمن المعتصم الذي تمكن من القضاء عليهم سنة ٢١٩ هـ.

ثورة العلويين في اليمن :

قام العلويون في اليمن بثورة على المأمون، بالرغم من حسن معاملته لهم. ومباينة احد أئمتهم بالخلافة وتزويجه احد بناته من ابنه وهو محمد بن علي الرضا المعروف « باباواد » لذلك ارسل الى اليمن جيشاً كثيفاً ومعه امان الى الثأرين فاستسلموا دون قتال فولى المأمون محمد بن ابراهيم الزياتي ولاية اليمن، فذهب اليها سنة ٢٠٣ هـ وفتح نيابة دين مدينة زيدة وجعلها حاضرنه واستقل عن العباسيين واصبحت الدولة الزيادية دولة مستقلة خاضعة بالاسم الى الخلافة العباسية. فكان حكامها يخطبون في المساجد لبني العباس، ويحملون لهم في كل سنة هدايا واموالاً عوضاً عن الخراج، ويتوارثون الحكم فيما بينهم بموافقة الخليفة واستمرت هذه الدولة قائمة في اليمن نحو قرنين من الزمن الى سنة ٤٠٩ هـ عندما انقسمت على نفسها وقام على انقاضها دولتان صغيرة.

ثورة بابك الخرمي :

من الفرق الفارسية التي كان لها الازر الذي في الدين والسياسة في العصر العباسي فرقة الخرمية التي تنسب الى بابك الخرمي، وبابك هذا من اصل ومنيع، اتصل بخاويذان بن سهرل ملك جبال البذل وخديمه، فأخبرته زوجة خاويذان، وساعدته بعد موت زوجها في حكم جماعته. وقد جمعت اصحاب

جاويدان بعد موته ، وقالت لهم : ان جاويدان قال : اني اموت في ايلقي هذه ، وان روحي تخرج من جسدي ويدخل بدن هذا النمام خلدي وقد رأيت ان املكه على اصحابي ، فلما مات فاعطاهم ذلك وان لادين لمن خلفني فيه ، واختاروا لنفسه خلاف اختياري ، فقبلوا ذلك منها وتزوجت بابكا .

كان اتباع بابك الخرمي على دين الميوس القديم بعمون تعاليم مزدك (١) خرجوا على المأمون ، وكان لا يزال في مرو سنة ٢٠١ هـ . فلما ذهب الى بغداد ارسل عدة قواد لحاربهم ، ولكن لما دنا بلادهم ، ومساعدة البغضطين لهم ، لم يتمكنوا من القضاء عليهم ، واستمر امرهم مستفجلا في بلاد أرمينية واذر بجان حتى زمن المعتصم . وقد اوصاه المأمون بحاربهم قبل وفاته . فنفذ الوصية وارسل لهم قائده الافشين ، فحاربهم مدة طويلة حتى تمكن من القضاء عليهم سنة (٢٢٧) هـ وقبض على بابك الخرمي وارسله الى المعتصم الذي حبسه في مدينة سامراء ، وبذلك انتهى امر الخرمية بعد حروب دامت نحو عشرين سنة زهقت ارواح كثيرة في سبيل القضاء عابيا .

زواج المأمون

تزوج المأمون من خديجة الملقبة بـ « بوران » وهي بنت الوزير الحسن بن سهل ، خطبها من ابيها سنة ٢١٠ هـ وهو غائب في طريقه الى بغداد ، يسترضي الحسن بعد مقتل اخيه الفضل بن سهل . وكانت بوران من جميلات عصرها ، واكثرهن ذكاة وأدبا . اقيمت حفلة عرسها في قصر ابيها وفي الصلح (٢) حيث كان القصر مزينا اجمل زينة وأنهاها . واشتركت السيدة زبيدة في حفلة

(١) — يقول ابن النديم في كتابه الفهرست عن الخرمي ما يلي : « الخرمية مغلان : الخرمية الاولون ، ويسمون — الخيرة — وهم بنو ابي الجبال فيما بين اذربيجان وأرمينية ، وبلاد الديلم ، وهذان ودي نور ، منتسبون . وفيما بين اصفهان وبلاد الاهواز ، وهؤلاء اهل مجوس في الاصل ، ثم حدث مذهبهم . وساجهم مزدك القديم ، أمرهم بقاويل الذات ، والانكاف عن الخمر والشهوات والاكل والنسب والمواصلة والاختلاط ، وترك الاستبداد بعضهم على بعض ، ولهم مشاركة في الحرم والاغل . لا تمنع الواحد منهم من جريمة الآخر ولا يمنعه . ومع هذه الحال فيرون افعال الخير ، وترك القتل وإدخال الآلام على النفوس . ولهم مذهب في الضيقات ليس هو لاجد من الانتم : إذا اضافوا الانسان لم يمنعه من شيء يلتمسه كائنا ما كان . وعلى هذا المذهب مزدك الاخير ...

واما الخرمية البابكية : فان صاحبهم بابك الخرمي . وكان يقول لمن استنواوه : إنه الله ، وحدث في مذاهب الخرمية القتل ، والغضب والحروب ، ولم يكن الخرمية يعرفون ذلك .

(٢) الصلح : اسم نهر تصيب في الدجلة على بضعة أميال من واسط . وقصر فم الصلح ، قصر واقع عند مصب هذا النهر بدجلة .

تشرع العلوم في عصر المأمون

كان عصر المأمون أروع عصور الحضارة العربية ، فسمي بحق العصر الإسلامي الذهبي ، ولا غرو فان المشرق في سنة التي تضافد المأمون في الحكم تركت كنوزاً زاخرة من الثروة الفكرية ، ولم تقتصر هذه النهضة على ناحية مدينة من العلوم او الآداب ، بل شملت جميع نواحي التفكير والثقافة ، فانتعشت في زمانه حركة النقل والترجمة ، وازدهرت العلوم الفلسفية ، وازدهرت العلوم الرياضية ، والفلك والطب وغيرها من العلوم المدنية والدينية ، وانتقل ترث هذه العلوم الى الأندلس والقسطانية ومنها تدرت الى أوروبا ، وكان لها التأثير المباشر في الحضارة الأوروبية الحديثة ، التي نعيش في كنفها في هذه الأيام . والتي كان لعرب الفضل الأكبر في إيجادها ، وسند كرم ما قام به المأمون ومن عاين في كنفه من العلماء في هذا السبيل .

أخذت الحياة العلمية تتقدم تقدماً محبوساً عند العرب منذ العصر الأموي ، ثم استعرت في تقدمها في العصر العباسي . فترقب أبو جعفر المنصور علماء عصره على اختلاف اجناسهم وتعليمهم اليه ، فترجموا له الكتب المختلفة من الهندية والفارسية واليونانية . يقول ابن ساعد : « أن أول علم اعنى به من علوم الفلسفة : علم المنطق والنجوم . فلما اهتم أول من اشتهر به في هذه الدولة عبد القهار المنقذ الخطيب الفارسي . كاتب أبي جعفر المنصور ، فإنه ترجم كتب أرسطاطاليس المنطقية الثلاثة التي في صورة المنطق . . . وعبر عما ترجم من ذلك عبارة سهلة قريبة المأخذ ، وترجم مع ذلك الكتاب الهندسي المعروف بكليلا ودمنة ، وهو أول ما ترجم من اللغة الفارسية الى اللغة العربية . . . وأما علم النجوم فقد قدم على الخليفة المنصور في سنة ١٥٦ هـ رجل من الهند عالم بالحساب المعروف بالسند عندي في حركات النجوم في كتاب يحتوي على التي عشر باباً . . . فأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب الى اللغة العربية . وإن يؤلف منه كتاب تحفه العرب أصلاً في حركات الكواكب ، فولى ذلك محمد بن ابراهيم الفزاري ، وعنق منه كتاباً يسمى المنجسون بالسند عند الكبار ، وتفسير السند عند باللغة الهندية : دهر الماهر . . . وترجم الفارابي حورس من خير أول عدة كتب طبية للمنصور من اللغة اليونانية الى اللغة العربية . وكذلك قام يحيى بن بطريق بترجمة كتاب الجسطي في الهندسة ليثايموس وترجمت كتب كثيرة أخرى في زمن المنصور .

وقويت الترجمة في زمن هارون الرشيد ، لما جاء به من الكتب من بلاد الروم ، ولما كان لبرامكة من عناية في الترجمة وبذل المظاء للمترجمين . فترجمت كتب كثيرة من اليونانية والفارسية والهندية والقبطية والبرانية واللاتينية والبطلية في شتى المواضيع لاسباب في الفلسفة والطب والرياضيات والنجوم .

ولما جاء المأمون بلغت حركة النقل والترجمة أوجها ، لأنه كان من اعلم رجال عصره ،
 ففتح بيت الحكمة ، وانفق الاموال الطائلة في سبيل جلب الكتب وتقريب المترجمين والعلماء ،
 فأرسل الى حاكم صقلية المسيحي وطلب منه ان يرسل ما في مكتبة صقلية من الكتب الفلسفية
 والعلمية ، فبادر بعد تردد الى إرسالها ، وكذلك راسل امبراطور البيزنطيين يسأله الاذن في اقتاد
 ما عنده من مختار الكتب الخزونة عنده ، فاجاب الى ذلك بعد امتناع . وبعث المأمون جماعة من
 قبله منهم الحجاج بن مطر ، وابن البطريق ، ويوحنا بن ماسويه ، لتسلم هذه الكتب ، ثم عمل على
 ترجمتها ونشرها ، وحض الناس على قرائتها وتعليمها ، وقد اعد يوم الثلاثاء المناقشات العلمية ،
 والمناظرات الادبية في قصره ، فكان العلماء والفلاسفة والادباء يؤمون القصر في الصباح ، ويقدم لهم
 الطعام ، ثم يجلسون للمناقشة والمناظرة في حضرة الخليفة الذي كثيراً ما كان يشاركهم في الحديث ،
 ويرأس الجلسة بنفسه ، وتستمر الابحاث العلمية طول النهار وهم بضيافة الخليفة ، ورعايته . وكانت
 غاية المأمون من مجالس المناظرة هذه إزالة الخلاف بين العلماء فيما اختلفوا فيه ، فترك للعلماء الخوض
 في جميع الابحاث . وقد روي عن القاضي يحيى بن أكثم أنه قال : « امرني المأمون عند دخوله بغداد
 ان اجمع له وجوه الفقهاء ، واهل العلم من اهل بغداد ، فاخترت له من اعلامهم اربعين رجلاً ،
 واحضرتهم ، وجلس المأمون ، فسأل عن مسائل ، أفاض في قنون الحديث والعلم . فلما انقضى ذلك
 المجلس الذي جعلناه للنظر في امر الدين قال المأمون : يا ابا محمد . « إني لا ارجو ان يكون مجلسنا
 هذا يتوفى الله وتأيمده على اقامه سبباً لاجتماع هذه الطوائف على ما هو ارضى واصلاح للدين . إما
 شك فيدين ويثبت فينقاد طوعاً ، وإما معاند فيرد بالعدل كرهاً » .

وقد اشتهر كثير من المترجمين في عهد المأمون أهمهم يوحنا بن البطريق ، وحنين بن اسحق ،
 ونابت بن قرة ، وموسى بن شاكر وشوه عمود احمد والحسن من منجمي المأمون وغيرهم كثيرون .
 ومن التحقيقات العلمية التي جرت في زمن المأمون قياس طول محيط الارض ، فقد اوفد المأمون
 بعثة علمية الى سهل سنجار ، وقد اختاره لاستواء ارضه . فذهبت الى ذلك المكان ، وقامت لارتفاع
 نجم القطب الشمالي من مكان في هذا السهل بواسطة آلات كانت معهم ، وضربوا في ذلك الموضع ونداً
 وربطوا فيه جبلاً طويلاً ، ومشوا الى الجهة الشمالية على استواء الارض ، من غير انحراف الى اليمين
 واليسار حسب الامكان ، فلما فرغ الجبل نصبوا في الارض ونداً آخر ، وربطوا فيه جبلاً طويلاً ،
 ومشوا الى الجهة الشمالية ايضاً كفعلهم الاول ، ولم يزل ذلك دأبهم حتى اتروا الى موضع أخذوا فيه
 ارتفاع القطب المذكور فوجدوه قد زاد على الارتفاع الاول درجة ، ففاسوا المسافة التي مشوها

بلغت $\frac{2}{3}$ ميلًا ، فعملوا أن هذا هو طول درجة من سطح الأرض . ثم عادوا إلى الموضع الذي ضربوا فيه الوتد الأول ، وشدوا فيه حبلًا وتوجهوا إلى جهة الجنوب ، ومشوا على الاستقامة ، وعملوا كما عملوا في جهة الشمال من نصب الأوتاد وشد الحبال ، حتى فرغت الحبال التي استعملوها في جهة الشمال . ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الشمالي قد نقص عن ارتفاعه الأول درجة ، فصح حسابهم . وضربوا ٣٦٠ درجة في $\frac{2}{3}$ فكانت الجلة ٢٤٠٠٠ ميل وهو طول محيط الأرض ، وهذا ما يعادل تقريباً تخفيفات الفلكيين في الوقت الحاضر . ولكي يثابروا كد المأمون من صحة هذا العمل أرسل بعثة ثانية إلى سهل الكوفة قامت بنفس العمل وحصلت على نفس النتيجة .

وقد عني المأمون بعلم الفلك كثيراً ، وتمت في زمنه أرصاد فلكية عظيمة : كاعتدال الشمس ، والخسوف والكسوف ، ورصد النجوم المذنبية ، وقد اخترع أحد علماء ذلك العصر المنظار المعروف اليوم — بالتلسكوب — ووصفه بأنه أنبوب في طرفه عدسات لانعكاس الضوء . وبني المأمون مرصداً فلكياً في سهل تدمر ، وبني مراصد أخرى في جهات متعددة .

وتمت أعمال علمية كثيرة غير ما تقدم في زمن المأمون ، وصنفت كتب في الرياضيات والهندسة ، والفلسفة ، وعم البصریات ، والميكانيك ، ولا سيما في الطب ، الذي بلغ إلى درجة عالية في زمن المأمون . وفتح كثير من الأطباء أشهرهم : جبرائيل بن بحيشوش النسطوري .

وكانت العناية بالثقافة عامة عند أهل ذلك العصر ، فكثرت العلماء والفقهاء ، والأدباء من جميع الأجناس والطبقات . حتى أصبح عصر المأمون عصر علم ونور ، وفاق العرب في هذا العصر جميع الأمم والشعوب حتى قال أحد المؤرخين : « بينما كان شارلمان يتعلم القراءة مكباً على مظالمه رسائله أتراه في مدرسة العصر ، كان المأمون يعالج الفلاسفة ، ومناقشة قضاياها في بغداد » . وكان من نتيجة هذا التوسع العلمي أن انتشر مذهب المعتزلة في الدولة العباسية ، وهذا المذهب الذي يمجّد العقل ، ويجعله حكماً في كل شيء . وستكلم عنه .

المعتزلة :

سمي المعتزلة بذلك نسبة إلى الاعتزال ، وهو الاجتناب ، وذلك لأن واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد خلفاً استأذنها الحسن البصري في بعض المسائل الدينية ، فاعتزل واصل مجلس استأذنه الحسن ، وجلس عند سارية من سوارى مسجد البصرة ، وانضم إليه صديقه عمرو بن عبيد ، فقال الناس يومئذ فيها : إنها قد اعتزلا قول الأمة ، وسمي أتباعها بالمعتزلة . ولم يكن كثير من المعتزلة راضين عن هذه التسمية ، وإنما كانوا يسمون أنفسهم بأهل العدل وأئمة جيد .

أول ما ظهرت هذه الفرقة في أواخر العصر الأموي ، وقد اضطلع الخلفاء الأمويون لاسيما هشام بن عبد الملك رؤساء هذه الفرقة ، وشكل بعضهم ، إلا أنهم تأثروا على نشر أفكارهم في جميع الأمصار ، لاسيما بعد قيام الدولة العباسية .

ونقسم المعتزلة إلى فرق عديدة فلما بدأها الخاصة بها ، إلا أنهم اشتبكوا جميعاً في الأمور الحسنة الآتية : (١) القول بالوحد ، وهو أن الله واحد لا شريك له . (٢) القول بالعدل ، وهو أن الله لا يحب الشر والفساد . (٣) القول بالوعد والوعد ، وهو أن الله صادق في وعده ووعدده ، لا يغفر لمرتكب الكبيرة إلا بعد التوبة . (٤) القول بالمعزلة بين الميزلين ، وهو أن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ، لكنه فسق . (٥) القول بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو تكليف المؤمن بالمعاد واقامة حكم الله على كل من خالف أمره أو نهيته سواء أكان كافراً أم فاسقاً . وكان اختلاف المعتزلة مع الفقهاء من أهل السنة في مسألتين : الأولى مسألة القضاء والقدر ، والثانية مسألة صفات الله .

أما مسألة القضاء والقدر : فكان المعتزلة يقولون أن الإنسان يخلق أفعاله ، ومن أجل ذلك يستحق عليها الثواب والعقاب ، وأما عامة المسلمين فيقولون أن أفعال العباد مخلوقة لله ، ليس قبيحاً منها إلا جبراً منها على أيديهم .

وأما مسألة صفات الله : فقد زعم المعتزلة قديم الصفات : من قدرة ، وإرادة ، وسمع ، وبصر ، وكلام . . . وقالوا إن الله قديم نطق . أما العامة فيجسروا هذه الصفات قديمة أيضاً وإنما فاعلة بذاته تعالى . ونشأ عن ذلك القول : بخلق القرآن . لأن القرآن كلام الله ، فهل هو قديم أم مخلوق ؟

أخذ المسلمون برأي المعتزلة ، وقال بخلق القرآن ، وأراد أن يجبر الفقهاء والعلماء الأمة الإسلامية على القول بذلك ، فمنع كبيرون منهم . وأصابهم من الخيفة وحملته الشر الكبير . وكان من أصابته الحنة الإمام أحمد بن حنبل الذي ضرب وسب وسجن ، ومع ذلك لم يحل بخلق القرآن . وكانت تقع فتنة داخلية ، لكن الإزعة شرحت صوت الطائفة المسلمون التي أوصى الله المعصم النبي خلفه من بعده أن يجبر الناس على القول بخلق القرآن ، ولكن المعصم لم يكن له في ميدان العلم كبير جولة ، وبقيت هذه الحنة قائمة في زمانه وزمن ابنه الواقفي وأصلت في ذهن المتوكل .

ومن رجال المعتزلة المشهورين : الجلاف ، والطائفة ، والجاسط ، والزعدي . وغيرهم . . .

أضيق المؤمن

عرف المؤمن بالعفو وكبره التبتاع ، فعفا عن الله خصومه وهو الفضل بن الربيع ، وعفا إبراهيم بن المهدي الذي ادعى الخلافة لنفسه ، وأما قدر عليه المؤمن قال له : يا إبراهيم : أنت جيب

الى العفو ، حتى خفت ألا أؤجر عليه . اما لو علم الناس ما لنا في العفو من اللذة ، لتفريخوا اليها بالجنائات الا تشرب عليك ، يعفو الله عنك . وكان المأمون اكثر خلفاء العباسيين جوداً وابسطهم يداً ، واستحاج نفسه ، وكاتب التاريخ والادب مقعنة بما كان له من حوادث غريبة في السجناء والجوذة تذكر منها واحدة فقط : لما فتح المأمون حصن قرية من بلاد الروم وغنم ما فيه ، اشترى السبي كله بستة وخمسين الف دينار ، ثم خلا مديليم واعطاه ديناراً ديناراً .

وكان المأمون عالماً أديباً تتلمذ في حياه على شيوخ الادب والفقه والدين . انشده ابيد الشعراء قصيدة مثله بيت ، فكان الشاعر يندي بصدر البيت ، فيبادر المأمون الى إنصافه ، دون ان يكون قد سمع بالقصيدة من قبل .

وكان المأمون سياسياً فذاً موفقاً في اختيار بطاقته ومشيريه ، وظهر بحبائه السياسي بصورة خاصة بعد عودته الى بغداد ، فقد كان عازماً على بحري في دولته ، وما تطوي عليه سيرة كل فتية او قائد او رجل ذو مكانة وخطر في الدولة . وكان المأمون يميل الى الاقتاع في الجدل والمناقشة ، واحتمل آراء المناظرين حتى اذا لم تتفق مع آرائه وميوله . وكان يعمل على قطع دابر الرياء والنفاق في رجال قصره وقواك جندده .

وفاته المأمون

توفي المأمون عندما كان غريباً في بلاد الروم . وقد حارب الروم في عدة معارك انتصر فيها عليهم ، وفتح كثير من حصونهم ، اشتهرها حصن ماجدة وحصن قرية . وكان مركز حركاته العسكرية في نيقطرسوس ، الذي توفي فيه . وكان يخرج منه للغزو والفتوح ثم يعود اليه ، وذهب الى دمشق ومصر وقمع الثورة التي كانت قائمة فيها ثم عاد الى محاربة الروم . وعندما كانت به في طرطوس ، أصابه حمى شديدة قضت عليه ، فأوصى الى اخيه المنتصم بالخلافة ، وطلب منه ان يتبع خطته العلمية والقول بخالق القرآن ، وحنه على استكلام الدول بالاساس . وكانت وفاته في ١٨ رجب سنة ٢١٨ هـ . وحن الى طرطوس ودفن بحامها ، وكان يعاصره في بلاد الاندلس الحكم بن هشام وابنه عبدالرحمن الثاني . وفي فرنسا شارلمان ثم لويس الاول الملقب بالكلبي . وفي القسطنطينية ليون الارمني ثم ميخائيل الثاني الملقب بالشمس ، ثم ابنه توفيل . وفي زنه فتح زيادة الله من بني الأغلب الذين كانوا يتحكمون في افريقية بجزيرة صقلية .

المنتصم

٢١٨ - ٢٢٧ هـ أو ٨٣٣ - ٨٤٢ م

ولد أبو إسحق محمد المنتصم بالله سنة ١٧٧ هـ ، أبوه هارون الرشيد ، وأمه أم ولد تركية ؛

تدعى ماردة . وكان في عهد اخيه المأمون والياً على بلاد الشام ومصر ، وعهد المأمون له بولاية العهد ، وآثره على ابنه العباس الذي كان يتمتع بشهرة واسعة بين جند العرب ، ولعله فضله عليه لانه خشي ان يعجز ابنه عن تنفيذ السياسة التي رسمها لدولته . فرأى من شدة المعتصم ، وقوة شكيمته ، ومثانة خلقه ، ما يضمن له تنفيذ تلك السياسة . إلا أن الجند رفض مبايعة المعتصم في بادئ الامر ، وأراد مبايعة العباس الذي أسرع الى مبايعة همه بالخلافة ، محترماً بذلك وصية ابنه ، فعزدا الجيش حذوه ، وبايعوا المعتصم فذهب الى بغداد ، وتمت له البيعة .

اعمال المعتصم الرافضية

تعليم الجيش :

استعان المعتصم بجند الاتراك ، وقربهم اليه بسبب ان أمه تركية ، ولانه اراد التخلص من جند العرب والفرس ، لتعليم قودهم في الدولة ، ورأى ما للاتراك من شدة وبأس . فاستكثر منهم ، وصرّف منهم جيشاً استغنى به عن جيوش العرب ، وأسقط اسماء العرب من ديوان الجند ، واستبدلهم بجند الاجانب الذين أتى بهم من جهات مختلفة ، فبعضهم من قرغانة ، وآخرون على اشروسنة من بلاد ما وراء النهر ، وهؤلاء جند الاتراك ، وقسم منهم من مصر واليمن وهؤلاء جند المغاربة . وكانوا جميعاً عجباً جفاة قساة ، ألبسهم الخليفة انحر اللباس من ديباج ، ومناطق منسوبة ، حتى اختلف زيمهم عن سائر جنود الدولة ، وأجزل لهم اعطاء والهدايا دون غيرهم . وكان يتوّد هؤلاء الجند التساهلون منهم تحت امرة الخليفة . واشتهر من قوادهم : الافشين ، وابناح ، واشناس ، ووصف ، وبغا الكبير . ولم يخلصوا الدولة ولا للخليفة ، بل كانوا يطعنون في انتزاع السطوة منه وتأسيس دولة مستقلة لهم . فقد حاول الافشين وهو تركي من اشروسنة أن يقيم دولة مستقلة في بلاده . فكان يرسل الاموال والهدايا الى اشروسنة ، وشجع مازيار والي طبرستان بالخروج على الخليفة ، فحاربه عبد الله بن طاهر امير خراسان ، وأسرّه وأرسله الى المعتصم بسامراء واعترف مازيار بما كان بينه وبين الافشين من مراسلات ، فقبض المعتصم على الافشين الذي حاول الحرب ، وحاكمه ، فبنت بعد التحقيق بانه لا يزال على كفره ، وانه كانت يكيد المكائد للوصول الى ملك بلاده ، وأن اهل اشروسنة كانوا يخاطبونه بإله الآلهة . فقتله المعتصم وصلبه ثم احرقه .

شعر الخليفة بخطئه بتقريب الاتراك اليه ، إلا أنهم غلبوا عليه ، ولم يستطع التخلص منهم . وهو الذي تحمل تبعات حل بالخلفاء العباسيين من بعده ، من اضطراب في حكمهم ، ووضف بسلطتهم ،

واستبداد الأتراك بدولتهم ، وخلع وتولية من أرادوا من الخلفاء ، واستئثارهم بالعامية . فبجر المعتصم على أسرته وعلى الأمة الغربية كافة ، أسوأ المواقف وأوحشها .

بناء مدينة سامرا (سر من رأي) :

كان سبب بناء سامرا ، وخروج المعتصم من بغداد : « أن المساكن والطرق ضاقت على الناس ببغداد لكثرة المساكن التي تجمعت مع المعتصم ، وذلك أن جميع عساكر الأمويين وعسكر ابنه العباس ، انضفت إلى المعتصم ، وكثر غلعانه الأتراك ، وكان لا يزال يوجد الواحد بعد الواحد قبلا في الأرباض والدروب ، وذلك أنهم كانوا يركبون الدواب ويتراكمضون في طرق بغداد وشوارعها ، فيصدمون الرجل والمرأة ، ويدوسون الصبيان ، فيأخذهم الشبان ، فينكسونهم عن دوابهم ، ويخرجون بعضهم ويقتلونهم سرّاً ، فتأذى الأتراك بالعوام ، والعوام بالأتراك ، حتى شكت الأتراك إلى المعتصم . وحكي أن المعتصم ركب يوم عيّد إلى المصلى ، فقام إليه شيخ فقال : يا أبا إسحق ! فابتدره الجند ليضربوه ، فأنشأ إليهم المعتصم بالكف عنه ، وقال للشيخ ما الذي تريد ؟ فقال له الشيخ : لا جازاك الله عن الجوار خيراً ! جاورتنا وأنت بهؤلاء العلوج فأسكتهم بين أظهرنا ، فأتممت صبياننا ، وأرملت بهم نساءنا ، وقتلت بهم رجالنا ، والمعتصم يسمع ذلك جميعه . وحكي أيضاً أنه قم إلى المعتصم رجل فقال : يا أبا إسحق ! أخرج عن مدينتنا ، وإلا حاربناك بما لا طاقة لنا به ، فقدم بحمل هذا الرجل إلى داره ، فلما صار بين يديه قال : ويحك بمن تحاربني ، ومن هذا الذي لا طاقة لي به ؟ قال تحاربك بأيدينا إذا هددت الأسوات — يعني الدماء — فقال المعتصم لا طاقة لي به — فخرج في سر من رأي » .

وقال المعتصم لأحد كتابه : إني أخوف أن يصبح الجند مديحة واحدة فيقتلوا غلغاني ، فذا ابتعت في موضع سامرا ، كنت فوقهم ، فإن رأيي رائب أنيهم في البر والبحر حتى آتي عليهم ، فقصده كاتبه موضع سامرا وهو على دجلة فوق بغداد بـ (١٥٠) كيلو متراً ، فلبثه دبراً كان هناك بنحو مائة ألف درهم ، وأبشاع بسنانا كان في جانبه بنحو خمسة آلاف درهم . وبنى المعتصم سنة ٢٢٦ هـ قصره ، وشيد الشكبات العسكرية لمسكره ، وبنى مسجداً جامعاً في طرف السوق ، واقطع بعض الأراضي إلى رؤساء الأتراك ، فبنوا فيها دورم ، وما زال البنيان يتسع فيها حتى صارت مدينته من أعظم الحواضر الإسلامية ، وبقيت عاصمة الخلافة نحو ستين سنة في أيام سبعة خلفاء آخرهم المعتصم ، واتسعت بصوره خاصة في زمن المتوكل حتى صارت تضاهي بغداد في العمران . وآثارها اليوم أحسن دليل على عظمتها الماضية . وتقع آثارها في بقعة طولها نحو عشرة أميال ، وعرضها نحو خمسة أميال على شاطئ الدجلة الأيسر ، وفيها جامع المتوكل ، وشيدت في حائطه الشمالي المأذنة الكبرى الخنزونية الشكل

المعروفة بالحرية ، ارتفاعها نحو (٥٥) متراً وحولها من الخارج درج متحدر لولي ، وتوجد أيضاً عدة قصور منها : قصر الجوسق الذي ابتناه المعتصم ، والقصر الحارثي الذي ابتناه الواثق ، وفيها بركة كبيرة بناها المتوكل ووصفها البهتري بقوله :

يا من رأى البركة الحسنة رؤيتها	والآناس إذا لاحت مفاها
كان جن سليمان الذين ولّوا	أيداعها قد أقوا في مفاها
تصب فيها : فود الماء معجزة	كالخيل مخرجة من جبل مجربها
كأنها القضة البيضاء سائلة	من السالك تجري من مجاربها
إذا النجوم تراءت في جوانبها	أبلا حذبت سما ركبت فيها
لا يبلغ السمك المحصور غايها	أبعد ما بين قاضيها ودانها
محسوفة برمان لا تزال ترى	ريش الطواويس يحكيه ويحكها

وتخترق الأبنات شارع مستقيم طويل كان يمر في المدينة ، وتتشعب منه شوارع أخرى ، وفي نهايته شمالاً جامع أبي دلف وله ملوكة صغيرة ، وكان خراب هذه المدينة حوالي القرن العاشر ميلادي .
حالة العلويين :

توفي محمد الجواد بن علي الرضا في بغداد سنة ٢١٩ هـ وكان المأمون قد زوجه ابنته أم الفضل التي اتهمت فيما بعد بفساد السم له ، وقد يكون ذلك بأمر من الخليفة المعتصم الذي كان يحسن محمد الجواد أن يطالب بالخلافة ، وذلك لأن زوجته بنت المأمون ، وهو ابن دلي الرضا الذي كان المأمون يأبىه بولاية العيد ، وقد اتى المعتصم بأبنة أخيه إلى قصره بعد وفاة زوجها .

وخرج محمد بن القاسم (١) من أولاد الإمام علي في الكوفة ، ثم ارتحل منها إلى خراسان خوفاً من بطش الخليفة به ، وانضم إليه كثير من أهل خراسان ، وحارب جيوش الخليفة العباسي وردّها مراراً ، إلا أن عبد الله بن طاهر أمير خراسان قبض عليه وأرسله إلى المعتصم ، فحبسه في -أمرا سنة ٢١٩ هـ وقد اختلف الناس في وفاته ، فمنهم من قال : إنه مات مسجوناً ، ومنهم من قال : أن بعض شيعته أخرجوه من مكانه وذهبوا به إلى مكان ما ، ومنهم من زعم أنه حي لم يقت ، وأنه المهدي المنتظر ، وأكثر هؤلاء بناحية الكوفة ، وبلاد طبرستان ، وبلاد الديلم .

إخضاع الرط (النور) :

قمت ثورة الرط في زمن المعتصم ، وكانوا - كما قلنا سابقاً - قد استولوا على طريق البصرة

(١) محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي .

ومرضوا المكوس الجائرة على السفن ، ومنعوا وصول الاقليات والنزوح الى بغداد ، فأرسل المعتصم
 كتائب من جنود القبايل العربي اليهم ، فأحاط بهم من كل جانب ، وسد الانهار عليهم ، وأقسام
 تسعة أشهر ، حتى أخرجهم على طلب الامان ، وكان عددهم سبعة عشر ألفاً بين رجل ونساء واطفال ،
 وحملهم في السفن ، ومر بهم على بغداد سنة ٢٢٠ هـ فخرج الخليفة ورجل دولته وأهل المدينة
 فمشاهدوا هؤلاء الناطق بلسانهم المراكشة ، وهياهم الغربية ، وبعد ذلك خرجوا على المعتصم فمر
 بنصيبهم الى آسيا الصغرى ، فأمرهم البيزنطيون وقتلوا عدداً كبيراً منهم ، وتفرق الباقون في البلاد ،
 ويعرفون في أوروبا باسم *Cypotes* .

غزة الفصل الثامن :

كان لانهاد المعتصم على الانصار اثر كبير في نفوس العرب ، فملأوا في بلاد الشام تحت رعايته
 التي حرب الفرس التي التي لشدت اثر القتل في فلسطين بسبب دخول احمد الجند الى دياره ، وهو
 نائب عنه وضربه احد حريمه بسوط على دراعه ، فلما علم وزير بالخبر قتل هذا الجندي ، فأسرع
 حتى لا يعرفه ، وحارب الى بلاد الاردن ، وأمر بها وأضم اليه بعض الخرائين من أهل تلك النواحي
 والقرى ، ثم التفت حوله رؤسائه الباقون في الخليفة ، فكثر اضطرابه حتى بلغ عدده زهاء مائة
 ألف من الخرائين والصحاب الاراضي ، فأرسل اليه المعتصم رجلاً من جنود الحضاري في زهاء ألف
 رجل من الجند ، ولما رأى كثرة ما معه تربت في مشائره ، وعسكر بجدة انه ، وظلوا حتى جاء
 موسم حراره وانسلاخ الاراضي ، ولم يبق معه الا نفر قليل فعناره رجاء ، ووقع ثوبه وجاء به
 اسيراً الى سامراء .

اهمال المعتصم الخارجي

فتح محمودية

كان البيزنطيون يقيمون على حدود البلاد الاسلامية من وقت الى آخر كفاً وسداً فربما مناسبت
 او لغيرها ضعفاً من الخلفاء العباسيين ، فكانت تلكا الدولتين عيون ومراقبون متفكرون الاخبار ويعتدون
 بها الى دولتهم . ولما كان المعتصم يحارب بالحد الخارجي كتب اليه الى يوفيل ملك الروم يستعين به
 قائلاً : « ان ملك العرب وجد معظم عسكره الي ، ولم يبق على يده احد فأتى أرض الخرمج اليه ،
 فأبى في وجهك احد يمنعك » ، فأراد ملك الروم ان يهزم هذه الفرقة ليتخلص من دفع الخرمجة
 للعرب ويستقيم منهم ، فاجتمع نفر وطارده مسقط رأس المعتصم ثمة ألف مقاتل ، وأعمال الشريف في اهلبا
 قتل من فيها من الرجال ، ومثل بهم لتسع ثوبين موسى النساء والأطفال ، وأسرق المدينة ، ثم وجد

الى بلطية وغيرها من حصون المسلمين وسي أكثر من ألف امرأة .

بلغت تلك الاخبار المتصم وهو في مدينة سامرا فاشتد غضبه وانشق الفجر في جنده ، وسار نحو بلاد الروم ، وسأل أي بلاد الروم لنزع واحسن ، ف قيل له عمورية ^(١) وهي مسقط رأس نوفيل امراطور البيزنطين ، فتوجه نحوها بعد أن نبأ جيشه الجز اجمن حياز تعبلة حصنة ، واجتمع جميع حشمه على مدينة عمورية فحاصرها خمسين يوما ، وضربها بالمنجنيق وفتحها عنوة سنة ٢٢٣ هـ وسما فيها ودمرها وقتل كثيرا من اهْلِها انتقاما لغزبي المسلمين ، وأرسل من بقي منهم امرى الى منه ، . وبعد كذب المتصم يبي نفسه الرخف نحو القسطنطينية ليفتحها وادأ بؤامرة لئلا له في مذكره . اكتشفها قبل ان يغادر امرها ، ففقد اتفاق العباس بن المأمون مع بعض قواد العرب الداخلين على الاثراك وعلى الخليفة الذي أساء معاملتهم بتفريده لجند القرباء . وحاولوا التمسكه به لئلا ين أختيا بدلا منه . ولكن لحسن حظ المتصم اكتشف المؤامرة فأخذ جميع أولئك القواد وقتلهم وحبس العباس حتى مات ، وعند معاينة صاحب مع نبي اطور الروم ، وعاد الى سامرا ، ودخلها باستمال حشم وضعه ابو تميم بقتله الشهيرة التي مطلعها :

الغرب اصطفى اساء من الكتب في سده الخلف بين الجد والهيب

صفات المتصم ووفاته

عرف المتصم بالشجاعة والافتقار ، وشدة الزم ، حتى انه كان يعمل ألف رجل وبتي بها خطوات . كما انه شرف بالنجدة وعمل الخير ، فرفة رثى شيخا ضعيفا في يوم مظير قد غاس حماره في الوحل ، وسقط ما عليه من الشوك ، فحمل عن جواده وأخرج الحمار من الحلق وحمل الشوك بيديه ووضع على الحمار ، فتعوث رد الحمار وبيداه وأمر بعض خاصته ان يعطي هذا الشيخ اربعة آلاف درهم ، واستوى على دابته ولحق به حرسه بغيولهم . وكان المتصم محبا للمعمران وميالا لتحسين الزراعة ، واهتم كثيرا باستثمار موارد البلاد الزراعية ، فكان يقول لوزيره : « اذا وجدت موضعا ، متى انفتت فيه عشرة دراهم جاني بعد سنة احد عشر درهما فلا تؤامري فيه » .

احبب المتصم في آخر ايامه يبرس شديد قضى عليه في سامرا في شهر ربيع الاول سنة ٢٢٧ هـ وتولى بولاية العهد لابنه هارون من بعده . وكانت مدة خلافته ثمانين وثمانية اشهر . وكان يعاصره في الاندلس عبد الرحمن الثاني وفي فرنسا لويس الاول ثم شارل الاصلع . وفي بلاد الروم نوفيل بن ميخائيل .

(١) عمورية تسمى اليوم سدري حصار بتركيا .

الوائقي

٢٢٧ - ٢٣٢ هـ أو ٨٤٢ - ٨٤٧ م

ولد أبو جعفر هارون الملقب بالوائقي بالله سنة ١٨٦ هـ أبوه المعتصم ولده أم ولد رومية يقال لها فرطيس . تولى الخلافة مباشرة بعد وفاة أبيه ، ونجح نهجته في كسب الأرباح ، واستفاد عليهم في الخدمة العسكرية حتى كثرت عددهم وشغلوا المناسبات العالية في الدولة لاسيما الشبان التركي الذي سموا سلطاناً ونوجه شاح مرمع بالمواهب وقدمه على سائر قواد حنابلة .

سياسة الوائقي الداخلية

لم يترك الحجاز من بني سليم ، وعلال ، وبني مرة ، ووزارة ، ويزيد من القبائل على الوائقي ، واثوا في بلاد الحجاز فساداً . ونهبوا الأسواق ، وابتعدوا عن كثير من الناس ، وطمعوا الخراف ، وادفوا بجند والى المدينة المنورة فأرسل إليهم الوائقي سنة ٢٣٠ هـ جيشاً بقيادة ياقان الكبير أحد فؤاد الأتراك ، فذهب مع جيش إلى الحجاز ، وأضع تلك القبائل الأرض وقتل كثيراً من العصابة ، ثم عاد الوائقي سنة ٢٣٢ هـ لخربة بني خيرة في البادية فأحسبهم ، إلا أنه وجد صعوبة كبيرة في أحدهم ، من بني الذين أرادوا له خول الأتراك الأعاجم منهم ، ورأوا ذلك أمراً غير مستطاع لهم ولعجزه العربية التي عصت على كل شيء . وكانت خطبة كثيرة من الوائقي لما يستعصم خروج العرب في إضعاف قبائل العرب ، وأثبت تلك الخطبة إلى ضياع مطرد الخلافة من يد الاستبداد الأتراك بالفساد وعدم احترامهم لهم .

تسبب الوائقي أيضاً في فرض آراء المعتزلة على الناس ، مما أثار أول بغداد عاراً ، وأثمروا على طاعته إلا أن المؤامرة كشفت قبل أن يستفحل أمرها فقتل الواقي بيده أحمد بن نصر لأنه لم يقل بخلاف القرآن ، وصاب رأسه في بغداد ليعتبر بذلك أهلها .

ونسب الواقي كتب دولته تقليداً لما فعله الرشيد بأبراسكة ، وأخذ منهم ما يتوفى عن المليون ونصف دينار تأمياً لهم على ما يتقاضونه من الرشوة في مناصبهم .

وكان للتنقل على الواقي في إدارة دولته فضيحة أحمد بن أبي دؤاد الدعالي ووزارة محمد بن عبد الملك الزيت ، فمكأن لا يصدر امرأ إلا عن رأيها ، وفلدها الأمر ويحرس فيها الحكم .

سياسة الوائقي الخارجية

جرى فداء في زمن الوائقي بين العرب والروم سنة ٢٣١ هـ فقد أرسل ملك الروم رسالة يسألون

الوائق أن ينادى بمن في يده من أسارى المسلمين ، فأجاب الواثق إلى ذلك ، واعتدب الفقهاء خذلان
 الخادم ، وتقابل الفرغان على نهر الآميس ، فوقع القتل كل نفس عن نفس صغيراً لم كبيراً . وقد
 عقد المشهور جسرأ على النهر ، وعقد الروم جسراً آخر فمكأن المسلمون يرسلون الروم على
 جسرهم . ويرسل الروم المسلم على جسرهم . وكان لا يهدى من المسلمين إلا من قل تخلق القرأت .
 وذلك بأمر من الفاتحي أحمد بن أبي دؤاد .

صفات الواثق

كان الواثق واسع الذكاء ، الادب حتى سمي « سامون الأصغر » وقد قرب إليه العلماء والفقهاء
 والشعراء ، وأجزل لهم العطاء . وجعل لهم مجالس المناظرة في قصره مقنناً في ذلك امر السامون .
 وكان يميل إلى الإطلاع على علوم وآراء من نفسه من العلماء والفلاسفة والمطالين . وكان يميل إلى
 الموسيقى (يقال : أنه وضع بعض الألحان الجديدة) . وكان لا يرى في البلاد الإسلامية مشرك أكثره
 إحصائه وعظائمه .

توفي الواثق بعد مرض شديد في سامراء في شهر ذي الحجة سنة ٢٤٣ هـ ولم يهدد بالخلافة لاحد
 من بعده . وعندما سئل أن يوصي لابنه بالخلافة لم يجنب ذلك ؛ « لا تحمل امرئ حياً وميتاً » . دامت
 خلافته خمس سنين وتسعة أشهر . وكان يماصره في القسطنطينية ميخائيل الثالث الخلف بالسيكر ،
 وكان طفلاً . لذلك فلدت أمه مقامه في إدارة المملكة . أما في بقية البلاد فكان يماصره من كانت
 بعض حكامها .

شعر الواثق بتهجر الدور الأول من العصر العباسي وهو العصر الذهبي لانطفاء العباسيين . لأن
 الخلفاء كانوا يواجهونهم القضاة على ناصية الحكم والسلطة . وتستصبح الدولة من مدونهما
 للأقوى من القواد والباطلين الأعاجم .



الفصل الثاني

٢ - دور النفوذ التركي

٢٣٢ - ٣٣٤ هـ أو ٨٤٧ - ٩٤٥ م

حكم في هذا الدور ثلاث عشرة خليفة وهم: المتوكل، والمتنصر، والمستعين، والمعتز، والمهدي، والمعتد، والمتنشد، والمكتفي، والقاهر، والراضي، والمتقي، والمستفي، وهذه الاسماء هي اقباب الخلفاء يتلقبون بها عند تولي منصب الخلافة. وكلها ترجع الى - الله - أي: المتوكل على الله، والمتنصر بالله... وأول من تسمى بذلك من الخلفاء هو المعتصم بالله ثم اقتدى به بقية الخلفاء.

سمات هذا الدور العامة

ضعف مركز الخلفاء في هذا الدور وأصبحت سلطتهم اسمية فقط، وكان الحكم الحقيقي بيد قواد الترك (١)، الذين غلبوا على أمور الدولة، وصاروا يولون الخلفاء وي عزلونهم أو يغفلونهم كما يشاؤون، وكثيراً ما كانوا يجبرون على بعضهم قبل توليهم الخلافة، ويجلسونهم في القصور ليزيد من ضعفهم، وكان الخلفاء من جهة أخرى يميلون الى حبس أولادهم وأقربهم خوفاً من توطئهم مع بعض الأتراك على سلبهم أو قتلهم. فكان المجهور منهم يعاشر الخدم والحشيان، حتى ألفوا أخلاقهم، وتحققوا بالاختيار ان حياتهم تنوق بالأكثر على امانة أولئك الخدم لا أسوء من غيرتهم عليهم، وخصوصاً الحشيان، اذ لا عصبية فيهم تمنعهم من التواني في خدمة اسيادهم لعدم وجود أولاد لهم.

(١) الترك امة قديمة جداً مؤلفة من قبائل و بطون وأفراد تعيش عيشة قبلية اتخذت موطنها في اواسط آسيا بين الهند والصين وسيبيريا. وقد استولى المسلمون على بلادهم في زمن الامويين ونصروا الاسلام فيها. وقد نصر الاتراك السنة في جميع ادوار حياتهم كما كان الفرس ينصرون الشيعة على الاغلب. وكان الاتراك قلبي المنايا بالعلوم والفلسفة ويكرهون الجدل والمناقشة وانما اشتهروا بالشجاعة وقوة البدن والصبر على الاسفار فملك الخلفاء العباسيون جنداً عارياً وخدماء في قصورهم وقد ازداد عددهم عندما علا شأنهم في الدولة العباسية فاخذوا يتسلطون بالثقات والأتوف من بلاد ما وراء النهر يطلبون الارزاق بالجندية حتى أصبح الجيش والفود بأيديهم

فأصبح ولاية العهد إذا اقتضت الخلافة إنهم بالغوا في تغريب الخدم بالعطايا والأكرام التماساً لحسابهم
 إذا أراد الإتيان الفتن بهم ، فعدوا إلى الاستكثار من الخدم ، وكانوا يقدمونهم ويكرمونهم
 ويستشيرونهم في أمورهم . فلزاد الخدم غروراً وطمعاً ، حتى أصبح الأتراك يخافونهم . وقد ارتقى
 كثير من الخدم في المنازل إلى قيادة الجند أو الإمارة على الأقاليم . مما دفع بعض المؤرخين
 أن يسمي هذا المدير « بدور نفوذ الترك » الخدم . . وقد جماع الخلفاء طبقات وفرادى تعرف باسماء
 خاصة كغفرق النطن الاسافير . والقلمان الحجري . والرجال المصافية . والركابية . . وكانوا من
 اجناس مختلفة : فيهم الرومي ، والتركي ، الحبشي . والارمني والسندي ، والبربري والعقابي . وكان
 الخلفاء يدفعون اليهم أجورهم ، وينفقون ما يربح من اموالهم الخاصة لانهم جندهم وحرسهم .
 وفي هذا الدور قوي نفوذ النساء لا سيما في زمن المقتدر ، وقد اشتهر منهن أم المقتدر ، وأم
 موسى الهاشمية القرمانيه ، وكن يرتشين بالاشتراك مع موسى الخادم ونصر الحاجب ويسيرن الأمور
 كما يريدن ويريد هؤلاء . وهذا ما أدى الى تقلص نفوذ الخلفاء عن معظم أراضي الدولة الاسلامية
 وقيام الامراء في المقاطعات وتشكيلهم دويلات مستقلة ، وتغلبهم بالترك والملاحين ، وتنازعهم على
 منصب امير الامراء الذي احذته الخليفة الراضي ، حتى أصبحوا اشبه بأصحاب الاقطاع الذين ظهروا
 في اوروبا في القرون الوسطى منهم بالملك الذين يأثرون بأوامر الخليفة . وفي هذا الدور تدهورت
 سلطة الخلافة ولم تعد تحتفظ لنفسها بنير الاسم .
 وسأنتكلم باختصار عن أهم الحوادث التي جرت في عهد كل خليفة من خلفاء هذا الدور .

التوكل

٢٣٢ - ٢٤٧ هـ ٨٤٧ - ٨٦١ م

ولد المتوكل على الله سنة ٢٠٩ هـ بضم الفصح ، واسمه جعفر ، أبوه المعتصم بن الرشيد ، وأمه أم
 ولد خوارزمية يقال لها شجاع . ولم يكن بالمؤرخي عنه في حياة أخيه الواثق ، فكان شديد المراقبة
 له . كثير التقدير عليه ، حتى كان على رجال الدولة أمثال الوزير محمد بن عبد الملك الزيات محاسب
 انتقام المتوكل ومصادرة جميع أمواله بعد توليته الخلافة .
 لم يمهّد الواثق بالخلافة لأحد من بعده ، ولما توفي اجتمع كبار الدولة ، وناظروا فيما
 يولونه الخلافة . فإشار محمد بن عبد الملك الزيات : بمحمد بن الواثق وكاد الأمر يتم لو لم يكن الواثق صغير
 السن فعندما جاءوا به والبسوه دراعة سوداء وقباسوة مصافية فل لهم وصيف القائد التركي : « لما
 تتلون الله يولون مثل هذا الخلافة ، وهو لا يجوز معه الصلاة » وانفق رأيهم على مبايعة جعفر بن
 المعتصم ولقب بالمتوكل على الله وتمت له البيعة .

سياسة المتوكل الداخلية

انضم المتوكل بمن اساقوا معاملته قبل توليه الخلافة ، فسجنهم وصادر أموالهم ، كما صادر أموال كثيرين من عماله وكبار موظفيه . وأساء معاملته العلويين ، وكانت شديدة الكره لهم ، حتى انه أمر في سنة ٢٣٧ هـ بهدم قبر الحسين بن علي بكربلاء وعدم ما حوله من المنازل والدور ، وأمر ان يحرث ويذر ويسقى موضع القبر . ومنع الناس من زيارة ذلك المكان ، وهدد من يخالف ذلك بالسجن .

شعر المتوكل بازدياد نفوذ الأتراك في الدولة واستبدادهم بأموال الخلافة ، وإدارتها وجيشها فأحب ان يصف شوكتهم ويقلل من نفوذهم ، فأحتال على ابيح الذي كان قائداً أعلى على جيش الأتراك والمغاربة والموالي ، وبه أمر البريد والحجابة ، ودار الخلافة ، فسجنه في بغداد مع ولديه وبعض أقوانه وأساء معاملته حتى توفي سنة ٢٣٥ هـ .

أراد المتوكل ان يخلص من نفوذ الأتراك ، فنقل عاصمته من سامرا إلى دمشق سنة ٢٤٣ هـ ليستمع بالعرب عابهم ، الا أن الأتراك شغبوا عليه واضطروه الى الرجوع بعد ان أقام بدمشق أياماً فأظهر انه استنوباً البلد لامن الهواء بارد ندي ، والماء قليل . والريح فيها تهب مع المصير فلا تزال تشتد حتى يغطي بلمة الليل ، وغلت فيها الاسعار ، وحال التاج بين السابلة والميرة فبارحها عائداً الى سامراء . ولو نجح المتوكل بشكرته لاققه نفسه ومن أتى بعده من الخلفاء من استبداد الأتراك وظلمهم ، وتخلص الخلافة من أولئك الطلوج الذين اساقوا الدولة وسعوا لخربائها .

وفي سنة ٢٤٥ هـ أمر المتوكل ببناء مدينته المتوكلية بقرب سامراء وجير إليها الماء ، وأنفق مبالغ كبيرة من أجلها ، وما لبثت ان حُرقت بعد مقللة . وفي آخر عهد المتوكل ابتدأت الدولة اليمينية بسوء اليمن (١)

سياسة المتوكل الخارجية

كانت الحروب في زمن المتوكل قائمة بين المسلمين واليزيديين برأ وبجراً ، وفي سنة ٢٣٨ هـ انتهز الروم غياب حامية دمياط — وقد استنظام أمير مصر الى القسطنطينية — فغارتوا على البلد ، فلبوا الأموال ، وأحرقوا الدور والمسجد ، وغارتوا في الأرض فساداً وبغادوا سالمين .

(١) الدولة اليمينية (٢٤٧-٣٨٧ هـ) مؤسس هذه الدولة بعفر بن عبد الرحمن الحواري ، استقل عن الدولة الزيدية في زيد باليمن وظل يدفع لها خراجاً في كل سنة . واستمر ملك صنعاء في نقايه حتى سنة ٣٨٧ وكان آخر من حكم من سلالة عبد الله بن قحطان .

وكذلك غزا الروم كلبيكيا وأسرُوا منها عشرين ألفاً وذبَحُوا منهم نحو اثني عشر ألفاً بعد أن دُلُّوا
بهم وكان المسلمون يفترون الصائفة والثانية ، ويتوغلون في أرض الروم ، ويدافعون عن البلاد الإسلامية
وقد حصل فدائيين في زمن المتوكل ، اقتدى فيها عدد كبير من المسلمين .

صفات المتوكل

لم يكن المتوكل يحب النظر والفجل ، بل كان ميالاً إلى التقليل والرجوع إلى السنة ولذلك
أمر الشيوخ والحمدانيين بإحياء السنة . ومنع المناقشات التي كانت تدور في زمن أسلافه حول تعاليم
المغترية . وأقصى أحرار الفكر عن وظائف الدولة . وكان ينفو من استعمال أهل القضاة في الدواوين
وبكره أن يظهرُوا في الطرق بظهور المسلمين . لذلك أصدر أمره سنة ٢٣٥ هـ أن يلبسوا زيّاً خاصاً
بهم وهو الطيالة المساية والزناير ، وأن تكون لهم سروج خاصة بهم تركوبهم . ونهى أن يتعم
أولادهم في كتابات المسلمين ، ولا يعلمهم مسلم . وكتب بذلك منشوراً أرسله إلى عماله في جميع
أنحاء المملكة .

كان المتوكل كثير القهر والمجون يحب الشراب والطرب . أدخل إلى مجلسه اللعب والمضاحك
والهزل ، ولم يكن من سبقه من بني العباس يميز ذلك . وقد سماه السج أمير علي وفترون العرب
نظامه وخلعته .

مقتل المتوكل

عبد المتوكل لأولاده الثلاثة وهم : محمد المنتصر ، ومحمد المعتز ، وإبراهيم المقتدر ، فولاية العهد
وقسم البلاد بينهم ، على أن يحكم كل منهم قسمه منفرداً عن أخيه دون أن يتدخل بعضهم ببعض
وسل لا كبير هم المنتصر التقدم بولاية العهد وعينه على بلاد إفريقية والمغرب كله . وبأني بعده المعتز
وعينه على خراسان وما حولها . وجعل لأبيه الثالث جند دمشق ، وحمص ، والأردن وفلسطين
وكتب إليهم كتاباً نسخ منه أربع نسخ حفظ لإسداها في خزائنه . وأعطى كل من أولياء العهد
نسخة احتفظ بها لنفسه . وفي آخر عهد الختصم المتوكل مع ابنه المنتصر وهم بوزله عن ولاية العهد
بشعرية من وزيره عبيد الله بن خلفان ، والتفق مع الفتح على الفتح بالمنتصر ووصيف ومنا وغيرها
من نواد الأتراك ، فلما علم هؤلاء بذلك تأمروا مع ابنه المنتصر على قتله ، ونفذوا المكيدة قبل أن
يتمكن منهم الخليفة ، فقتلوه وتبرعوه وهو على حالة التراب ليلة الخميس رابع شوال سنة ٢٤٧ هـ .
ودام حكمه نحو خمس عشرة سنة . وكان قتله فاجحة جرأتهم على الخلفاء العباسيين .

ساروا الخلافة من بعده إلى المنتصر (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ) وأصيب التبرأظفار في جسم الدولة . ولم
يكن المنتصر حيلة لشخص منهم ، لما دب في قلبه من الهية لهم ورعاية جانبهم ، ولم تطل مدته

أكثر من بضعة أشهر ، مات وضعفه بوجهه لاشتراكه في قتل أبيه ، وكان كثيراً ما يقول إناسئل
عن حاله : « ذهبت - والله - من الدنيا والآخرة » .

ولي الأتراك بعده المستعين (٢٤٨ - ٢٥٢) واستأثروا بالحكم وضايقوا الخليفة في سامرا
حتى هرب إلى بغداد ، فالتصوا إليه الرجوع ، فان تابعوا المعمر بالخلافة وأصبح في بغداد خليفة ،
وفي سامرا آخر . وحاصر الأتراك بغداد وضايقوا عليها نحو سنة حتى استسلم الخليفة المستعين بالتسول
عن الخلافة ، على شرط أن يضموا إليه الديار الواقعة في المدينة المنورة . غير أن أحمد ورجاله
الخليفة المعتز اغتاله في واسط وهو في طريقه إلى الحجاز . وقد مثل أحمد الشعراء صعب الخليفة
المستعين بقوله :

خليفة في فقص	بين وديف وبغا
يقول ما قالا له	كما تقول البيضا

وفي زمنه ظهرت الدولة الزيدية بطبرستان . (١)

وفي زمن المعمر (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ) استنفحل أمر الأتراك استنفحاً عظيماً . ولما يحكى عن
استبدادهم فيه أنه لما تولى الخلافة جلس قواده واسفروا المجتهدين وقالوا لهم : « انزلواكم ببعض الخليفة
وكم يبق في الخلافة » . وكان في المجلس بعض الطرفاء فقال : « أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره

(١) الدولة الزيدية (٢٥٠ - ٣٥٥ هـ) وهي دولة علوية تسمى الحسن بن زيد في مايرستان .
وقد استمداء جماعة من الدلم عندما كان يقيم في الري ، وتقدموا على عمال الدولة السامرية التي كانت
يحكم في خراسان ، فزحف الحسن ومن معه على مدينة آمل حاضرة طبرستان ، واستولى عليها
وعلى جميع بلاد بلاد مايرستان ، وظل يحكم تلك المنطقة نحو عشرين سنة . خلفه بعد موته أخوه
محمد بن زيد سنة ٢٧٠ هـ وفي أواخر عهده وقعت تلك المنطقة تحت حكم السامانيين سنة ٢٧٩ هـ
وظلت اثني وعشرين سنة تحكم تلك المنطقة حتى سنة ٣٠٩ هـ إلى أن قام علوي آخر من غير سلالة
الحسن بن زيد يدعى الحسن الأطروش واسترد طبرستان من آل سامان وظل يحكم ثلاث سنوات .
وقتل في حروبه مع السامانيين سنة ٣٠٩ هـ فقام من بعده علوي آخر يدعى الحسن بن القاسم
ونزع أولاد الأطروش الملك إلى سنة ٣٥٥ هـ عندما انتهى أمر هذه الدولة . ولم يحكم هذه الدولة
أسرة واحدة ، وإذا كان يحكمها اثني علويون من أسر مختلفة تجمعهم رابطة واحدة هي : انتمائهم
إلى الإمام علي بن أبي طالب .

وخلافته ، فقالوا له : « فكم تقول انه يعيش ويملك ؟ » قال : « ما أريد الا ان اترككم في بيتي في المجلس
الا من ضحك . وعندما تأخر المعتز عن تقديم المال والعطاء للائترك فقلوه شر قتله . تجمعوا عند
باب منزله ، وطلبوا اليه ان يخرج اليهم فاعتذر بسبب مرضه فدخل اليه القوم فغروا برجله الى باب
الحجرة ، وضربوه بالدايس ، فخرج دقيصه مغرق في مواضع وآثر الدم على منكبيه ، فقلاموه في
الشعس في الدار في وقت شديد الحر ، فصار يرفع قدمه ويضع الاخرى من حرارة الوضع ،
وبعضهم يلطمه بيده . ثم سموا الى قاضي القضاء فحضر ، وأمر المعتز ان ينهي على كتاب خالعه ،
فأبى وشهد عليه الحاضرون . ويقال أنه بعد الخلع دفع الى من يمثله ومنع عنه الطعام والشراب
مدة ثلاثة أيام ، فطلب حسوة من ماء البحر فشعوه حتى مات .

وعكذا كانت خاتمة من يستعين بالأجنبي لمساعدته في ادارة الدولة ، وينصرفه على اهلها . وخرج
العباسيين اكبر عجرة وموعظة في إظهار خطر الأجانب على الدولة ، لان الخلفاء كلما استعانوا على
شعبهم بقوة خارجية ، كانت هذه القوة الخارجية تنقلب عليهم وتحكم فيهم وتسلبهم سلطانهم .

وقد عرضت الخلافة على المرندي (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ) فلم يقبلها ، حتى يرى المعتز ويسمع كلامه
بأنه خلق نفسه ، فجاء به - وكان لا يزال حياً - وغايه قيص مدنس ، وعلى رأسه منديل ، فلما
رآه المرندي وثب اليه فماتقه ، وجلس معه على السرير ، وسأله عن أمره ولماذا أتى بتوسطه مع
الائترك ويرجعه للخلافة . فقال المرندي : « لا حاجة لي فيها ولا يرضوني هذا » . فقبل المرندي بالخلافة ،
وحاول أن يصلح حالة الدولة ، ويرفع الظلم عن الخاصة والعامة ، وبنى قبة لها أربعة ابواب وسميها
« قبة الطعام » وجلس فيها يسمع شكايات الناس ويميد الحق لأهلها ، ويأمر بالمعروف وينهي عن
المنكر . وقد حرم الشراب ونهى عن القيان . وكان يحضر الجمعة إلى المسجد ويؤم الناس بنفسه .
وفي زمنه انقلب الجند على رؤسائهم ، وطلبوا اليه أن يرد الأمور مباشرة اليه ، وأن يصير الأموال
إليه ويوزعها عليهم كما يريد . وأن يكون أحد اخوته وليس الجاش ، ولا يكون أحد المال . وان يحارب
الروماء على ما عندهم من الأموال . فوافقهم على ذلك . وقد حاول التخلص من زعماء الائترك
فألقوا غايه وقلوبه ، واضطروه الى التنازل عن الخلافة . وأودعوه السجن حيث توفي فيه بعد
أمد قصير .

تولى الخلافة بعد ذلك المظفر (٢٥٦ - ٢٥٩ هـ) دأب حكمه ٣٣ سنة ، كان أخوه أبو أحمد
الموفق الخليفة الحقيقي ، وليس للمعتز شيء من السلطان . سوى الشطبة والسكا والاسم . وما عدا
ذلك فهو لا شيء . فكان الموفق قائد الجند ، ومدير شؤون الدولة ، يولي ويمزل الوزراء والكتاب

والموظفين حسب ارادته . وقد أخضع كثير من الثورات والفتن التي قامت في زمن المتمد وأتم
هذه الثورات :

تورد التاريخ (٢٥٥ - ٢٧٠ هـ)

وهي من أعظم الحوادث وأعنفها في ذلك الزمن . قام بها جماعة كثيروا العدد من زنج افرقية .
حاربهم سكان البصرة من اشرقي افرقية ، واستخدموهم في كسح الاراضي الواقعة في اقدم الاني
من نهر الفرات ، وهي اراضي صعبة تغطيها سياج واقية متعددة ، صعبة المسالك وصعبة العمل .
وكان زعيم هذه الحركة يدعى « بالمرث صاحب الزنج » ادعى انه علي بن محمد ، من نسل
الامام علي بن ابي طالب ، وأنه من أصل عربي من عهد القيس بن ربيعة . ادعى لنفسه في البحرين ،
وبين قبائل العرب في البادية ، حتى عظم أمره عند أهل البحرين وأطروه من انفسهم محل النبي ،
وجبوا له الخراج ، فاشتغل بعد ذلك إلى البصرة ، فقاومه طاملاً ولحق حركته . فاستعان علي بن
محمد بالعبيد ، ووعدهم باسترداد حريتهم من اسيادهم إن ساعدوه فانضم اليه عدد كبير منهم ، وأعلن
عدياته على الدولة سنة ٢٥٥ هـ وصار يبعث في تلك الجهات فساداً ، فاشرق الابله (على خليج
فارس) واستولى على عبادان ، وادفع بأهل الأهواز ، وقتل عدد كبير من سكان البصرة ، وخرب
كثيراً من مبانيها (١) وكان يقطع على المراكب الماخرة في دجلة طريقها ويأخذ ما فيها ، وما ساعد

(١) وصف ابن الرومي ما فعله الزنج بالبصرة وحض الناس على قتالهم بقوله :

فاد عن مقلتي لهذا الملام	شغلبا عنه بالدموع الدجلم
أي قوم من بعد ما حل بالبصر	د ، ما حل من هلك عظم
بيننا أهلها بأحسن حال	إن زمان عبيدهم بالعتق
أن ضواء ذلك الخلق فيها	أن لسواها ذوات الزحلم ؟
أن فلك فيها وفلك اليرسا	مشتات في البحر كالاعلام
أن تلك القصور والدور فيها	أن ذلك الزينب ذو الأحكام ؟
بدأت نلسم القصور كالألا	من زمان ومن نراب ركام
وخلت من حلولها في ففر	لا نرى ألين بين تلك الأحكام
غير أيد وأرجل باليات	تبدت بينن ففلق علم
ووجوه قد وملها دماء	بأي نلسم الوجوه الدوام
وخلت بالخوان والذل قرأ	بعد طول الترجيل والاعظام
خاضعت كأنها باكيات	بأيات الثغور لا لأقسام
انفروا لهما الكرام خفافاً	ونقالاً إلى العيد الطغام

على نجاح حركته الشغال الخليفة وأخيه الموفق بمعارضة الدولة الصفارية (١) وتغالي الزنوج بالدفع عن حريتهم وصعوبة أراضيهم الكثيرة المستنقعات والاقضية ، ومعرفتهم لها جيداً . وقد هزموا عدة جيوش أرسلها الخليفة لقمع حركتهم . وقد أخذوا عذاب الزرافة من الهولاءج ، فسكوا يقتلون كل من لا يحارب معهم ، أو من قنع أسيراً في يدهم ، فاضطر الموفق الى ان يحاربهم بنفسه فجمع جيشاً كبيراً قسمه الى فرق متباعدة ، وحاربهم بمثل طريقهم . وبني مدينة تقابل مدينتهم الحاضرة ، وصالحها الموقية ، نسبة اليه . ومنع عنهم البيرة والخميرة حتى تمكن من اخضاعهم والاستيلاء على مدينتهم ، والنقض على زعيمهم وحكيمه ، فقتلهم جميعاً وأرسل رؤسهم الى بغداد . وبذلك قضى الموفق على ثورة قامت في قلب الدولة ودامت نحو ١٤ سنة كانت خطراً على الدولة العباسية .

(٢) الدولة الصفارية (٢٥٣-٢٨٩ هـ) قامت في سيجستان أسسها يعقوب بن الليث الصفار وازدهرت في عهد أخيه عمرو بن الليث الصفار . كان هذان الرجلان يعملان في حدائقهم يعمل المصفر (النحاس) وترك يعقوب منعمته والتحق ببعض المعاصيات القائمة في سيجستان . واستفاد من الاضطرابات القائمة هناك ، وتغلب على سيجستان سنة ٢٥٣ هـ . واشتدت شوكرته حتى استولى على جميع بلاد فارس وخراسان من آند ظاهر ، وأرسل الخليفة يطلب منه ان يوليه على ما بيده من البلاد . ليستعين بذلك على تأييد مركزه . وبث اليه بهدايا ثمينة ، فأقره الخليفة على ذلك ، ومنذ ذلك الوقت أخذت املاك يعقوب تتوسع من ناحية الشرق ، فاستولى على السند ، وناحية كابوا في أفغانستان . وكان له فضل عظيم في توطيد السلام هناك . وكان الانتصارات الباهرة التي حصل عليها يعقوب الزايع في نفسه زادت طمعا وجراة . فادناؤن الخليفة المعتمد يطلب أن يمثل بين يديه ، وجاء بجيش كبير للاستيلاء على بغداد ، فعلم الخليفة بنواياه ، فخرج لخارسته بنفسه ، وتغلب عليه وتوفي يعقوب سنة ٢٥٩ هـ بالاهواز . وخلفه أخوه عمرو بن الليث بالحكم . وكان سياسياً بديراً عرف ان مناوأة الخليفة لا تجديه نفعاً ، لذلك بعت الى الخليفة ووطنته بالهدايا والتمتع ، فجعله والياً على ما كان يد أخيه من البلاد .

تعرض عمرو بن الليث في اواخر أيامه الى املاك السامانيين في بلاد ماوراء الهند ، وطلب من الخليفة المعتمد أن يوليه ايها ، فوافق الخليفة على ذلك ، وكان خراب الدولة الصفارية على يد اسماعيل بن محمد الساماني ، الذي حارب عمرو بن الليث وأسرّه ، وبعت به الى الخليفة المعتمد في بغداد فقتله سنة ٢٧٧ هـ وانتهى امر هذه الدولة .

وفي زمن المعتضد ظهرت الدولة السامانية في بلاد ما وراء النهر (١) - والدولة الطولونية بمصر والشام وسيأتي الكلام عليها .

وبلى الخلافة بعد ذلك المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ) وكان شجاعاً جريئاً حازماً . إلا أنه كان سفاكاً للدماء قليل الرحمة حتى أقبى بالسفاح الثاني . كسلفه الخليفة العباسي الأول . نشط المعتضد لقمع الاضطرابات ، حتى أذهب الناس ، وأطفأ نار الفتن ، وضرب على أيدي الاغوص وقطاع الطرق واسترد عدة مدن وقلاع من البرغلاتيين في حروبه الخارجية . كما استرجع مصر مسلماً إلى احتضان

(١) الدولة السامانية (٢٩١ - ٣٨٩ هـ) وهي دولة فارسية حكمتها أسرة تنسب إلى سامان خدا من اشراق الفرس . وقد لعب ابنه أسد بن سامان مع أولاده دوراً هاماً في الولايات الشرقية في زمن الرشيد والمأمون . وأشهر منهم أحمد بن أسد الذي اتخذ من السلالة السامانية . كان السامانيون في زمنه حاضرين الدولة الطاهرية وقد استفادوا منها ونجحوا بالحليفة بمالسة في زمن ابنه نصر بن أحمد سنة ٢٩١ هـ الذي يعتبر مؤسس هذه الدولة . اتخذ نصر مركزه في نيسابور ، ووسع هو وأولاده من بعده ملكهم في سجستان وكرمان ، وجرجان ، والري ، وطبرستان ، بالإضافة إلى بلادهم الأصلية فيما وراء النهر . وكان اسماعيل بن أحمد يخضع أخاه نصرأ فلولاه بخاري سنة ٢٩١ وقام بين الاخوين فيما بعد منازعات شديدة بسبب سعادة السوء بينهما واشتباك في حروب كثيرة . وفي سنة ٢٧٥ هـ انصر اسماعيل على أخيه : ولم يقتله أويبي إليه بل تركه على رجليه وبعثه إلى سمرقند وظل فيها حتى توفي سنة ٢٧٩ هـ فقام اسماعيل من بعده على الحكم واتخذ مركزه بخاري واستولى على خراسان . وصار له دولة عظيمة أورشها أولاده واستمرت فيهم نحو ١٧٠ سنة . وانتهت هذه الدولة على أيدي الغزنويين الذين هاجموا من ناحية الجنوب وعلى أيدي قوتل الترك الذين هاجموا من جهة الشمال . وكان لأمراء هذه الدولة فضل كبير في خدمة الثقافة . فقد نشطت العلوم والفلسفة في زمانهم وبلغوا نفوذهم على الأدباء ، سواء منهم الفرس أو العرب . فقد اشتهر من رجال هذه الدولة الرازي ، الذي قدم كتابه - المنصوري - في الطب إلى أبي صالح منصور بن اسحاق أحد أمراء هذه الدولة . وظهر ابن سينا الذي بدأت شهرته بعد ما درس في مكتبة نوح بن منصور الساماني . ويقال أن ابن سينا أحرق هذه المكتبة حتى لا يشاهده أحد بعلمه . ونسب البلخي وزير المنصور بن نوح ، وقد ترجم تاريخ الطبري إلى اللغة الفارسية . وقد كتب الفردوسي الشاعر الفارسي أول اشعاره في مدح السامانيين . وكانت سمرقند وبخاري تناحسان بغداد في الحضارة والعمران في زمن هذه الدولة .

الخلافة بزواجه من « قطر الندى » ابنة خمارويه بن احمد بن طولون، وجعل حكم مصر له ولاسرته
من بعده . وقد رجع المعتضد الى بغداد وترك سامرا بعد ان بقيت نحو نصف قرن عاصمة الخلافة
العباسية . فخرت بعد ذلك ونقلت انقاضها الى بغداد وفي ذلك يقول ابن المعتز :

قد افقرت سامرا	وما لشيء دوام
فالتفرض يحمل منها	كأنها آجام
ماتت كما مات قيل	نزل منه العظام

قوى الخلافة بعد ذلك المكنفي (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) وفي زمنه تأخرت حالة البلاد بعد ان ابتدأت
تتمش في زمن الموفق وابنه المعتضد . وبمؤد سبب التأخر الى ظهور المناقشات بين ذوي النفوذ من
وزراء وقواد الدولة . واشتداد أمر القرامطة . الا ان المكنفي حاول ان يتنرب الى قلوب الشعب
بهدم السجون التي شيدت في عهده ، وبناء مساجد مكاتب . كما انه رد الاراضي والبساتين التي
كان سلفه قد اغتصبها ليشيد عليها قصره . فاكسب محبة الناس ومساعدتهم وفي عهده انخرخت
الدولة الطولونية . واصبحت مصر تابعة مباشرة بالخلافة العباسية ، كما انتهى حكم الاموية في
افريقية على يد ابي عبد الله الشيعي داعية الفاطميين .

كانت علاقة المكنفي في بادئ الامر حسنة مع البيزنطيين ، وتبوءات الهدايا والرسول بين الطرفين
وحصل فدائين في زمنه ، ثم توترت العلاقات بين الطرفين واستولى المسلمون على انطاكية بالقوة
وغنموا من البيزنطيين مغانم عظيمة .

قوى الخلافة بعد ذلك المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ) وعمره ثلاث عشرة سنة ، فم يرق ذلك
لناس لصغر سنه ، فاجتمع القواد والقضاة والكتاب مع الوزير العباس بن الحسن وانفقوا على خلع
المقتدر ، وتولية عبد الله بن المعتز ، فاجابهم الوزير الى ذلك على آت لا يكون فيه سفك دماء ولا
حرب ، الا ان الوزير انفصل عنهم لحسن حاله مع المقتدر ، وبايعوا لابن المعتز ، وكتبت الكتب بذلك
الى العمال ، وطلب الى المقتدر بالارتحال من دار الخلافة ، فأجاب بالسمع والطاعة . وسأل الامهال
الى الليل ، الا أن مؤنس النادم ، ومؤنس الخازن وحاشية الخليفة صعب عليهم الأمر وانفقوا على
ان يصعدوا في المساء الى دار ابن المعتز وبقيائه وساعدهم المقتدر بالسلاح وكان عددهم كبيرا . فلما
راهم من عند ابن المعتز . تفرقوا عنه وهرب ابن المعتز الى الصحراء ، وانتشرت الفوضى في بغداد
فخرج المقتدر بالعسكر وقبض على كل من له يد في خلعه ، وعثر على ابن المعتز فذبحه وعذبه حتى
مات . فذهب هذا السامر ضحية السياسة ، ولم تطل خلافته اكثر من يوم واحد . وفي مدة

الحسن وعشرين سنة التي حكم فيها المقتدر توالى على منصب الوزارة (١٢) وزراء ، ومنهم من تقلد الوزارة مرتين ومثلاثة . وكانت الوزارة تنال بالرشوة ، ويتدخل في تعيين الوزراء النساء والقواد والخدم والهاشمية ، ولم يكن الصالح من الوزراء يبقى في العمل كثيراً لأن حاشية الخليفة ونساءه لا يرضون به الا اذا اُعطي عليهم المال ، وأفرغ بيت مال الدولة . لذلك كثيراً ما كان ينسكب الوزراء ويسجنون ويستبدل بهم غيرهم . واشتهرت بعض الأسر في الوزارة في هذا الدور كما كانت أسرة البرامكة ، وبنو سهل في الدور السابق وهذه الأسرة هي : بنو الفرات ، وبنو خاقان ، وبنو وهب ، كان أكثر أفرادها من أجل الناس فضلاً وكرماً وحذقاً في الكتابة . واشتهر من الوزراء في زمانه .

أبو الحسن علي بن الفرات : وكان وزيراً كريماً ذا رياسة وكفاية في عملة ، حسن السؤال والجواب هذا الأحوال بعد فتنة ابن المعتز .

علي بن عيسى : وكان رجلاً عاقلاً متديناً ، متعقفاً عارفاً بالأعمال حافظاً للأموال كثير الوقار والجد بعيداً من التبدل والهزل ، على شبح غالب في طباعه ، وجفاء ظاهر في أخلاقه . فكثرت البساية عليه والوقية فيه حتى عزله المقتدر وأرجعه بعد ذلك للوزارة .

وأبو القاسم عبيد الله بن خاقان وكان مهيباً للأمور ، ترك الأعمال وتلون في الأفعال . وكان اذا فلد عامل أنبىه عن بعزله قبل وصوله الى عمله ، حتى اجتمع مرة سبعة أنفس لمنصب واحد ، كان ابن خاقان قد أخذ من كل منهم مالاً مقابل تعيينه . وكان اذا سئل حاجة دق صدره بيده ، وقال : نعم وكرامة : حتى لقب : دق صدره .

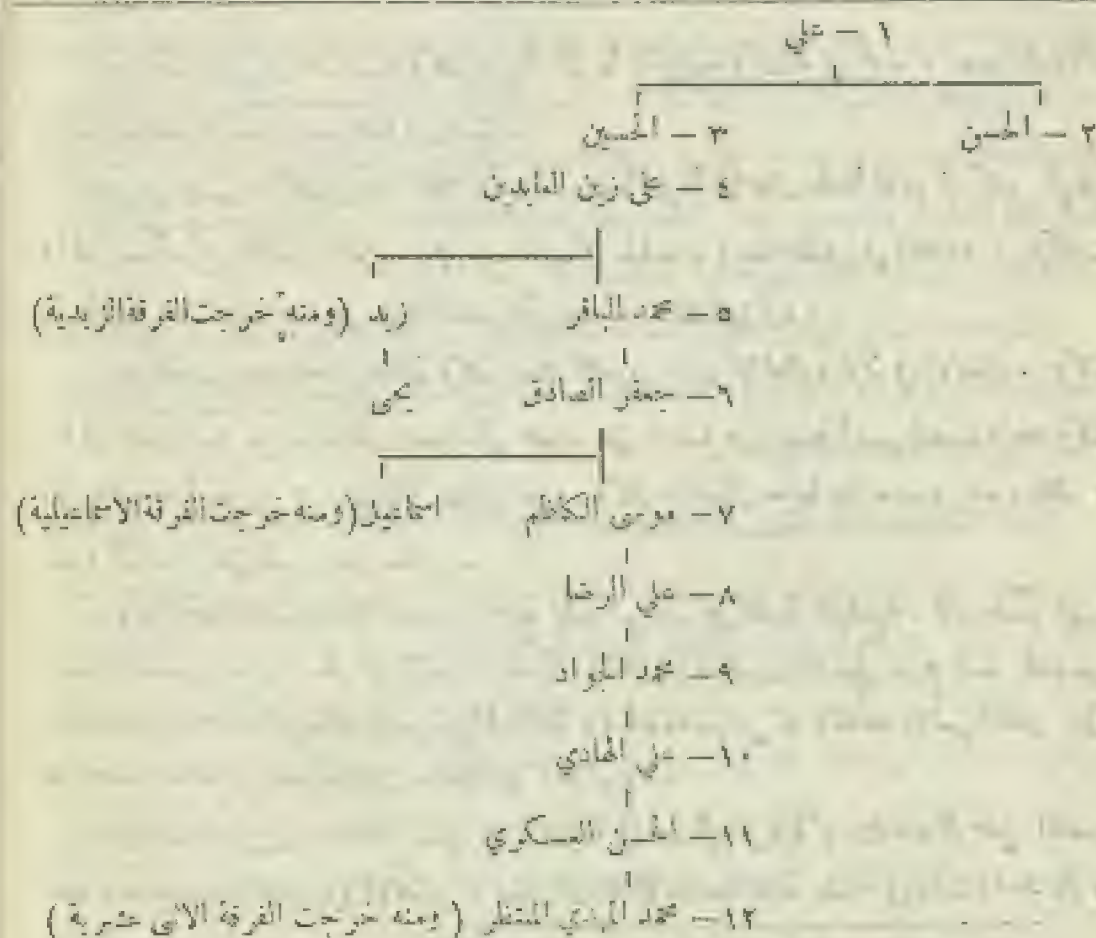
وعلى الجملة كانت خلافة المقتدر في جميع أيامها شراً أيام على الدولة العباسية ، لانه حكم فيها النساء والخدم والجند ، وبذر في الأموال تبذيراً ، وكان يعزل الوزراء ويولي غيرهم بما يقدم من الرشاه له ، ولا يهتم بغير ماله أم موسى الهاشمية ، ولخادمه مؤنس ، ولقائده مؤنس المظفر حتى قلت هبة الخلافة ولم يعد لها أدنى سلطان ولا احترام .

وفي زمانه انزلت عبيد الله المهدي نفسه خليفة في شمالي افرقية كما ان عبد الرحمن الناصر لقب نفسه هذا اللقب في الاندلس . فصار للدولة الاسلامية ثلاثة خلفاء في وقت واحد ينازع بعضهم بعضاً .

وقد استبد مؤنس المظفر قائد الجند العام بالخليفة المقتدر اشد استبداد وسير الأمور حسب رغباته ، وأخيراً عمل على قتله عندما تأخر عن تقديم الأموال له ونهب الجند ثيابه ، وتركوا جثته مكشوفة الى ان مر به رجل من الأكراد ، فستره بحشيش ، ثم حفر له قبراً ودفنه فيه . وانتهت

بذلك حياة هذا الخليفة النعس ، وكانت مدة حكمه ذات تخطيط كثير لاستيلاء امه ، وصغر سنه ،
والاستبداد الخدم فيه وهو منابى بخلافه عن شؤون وعيسته حتى خربت الدولة في زمنه .
وفي عهده ظهرت دولة آل حمدان في الموصل ونظم أمر القرامطة :
القرامطة :

هي حركة دينية سياسية قامت بها فرقة الاسماعيلية من فرق الشيعة (١) قام بهذه الحركة
عبد الله بن ميمون القداح ، وهو من أصل فارسي على الأكثر . كان ابنه ميمون يشتغل كخالاً
(طبيب عيون) في الأهواز ، ونسب ابنه عبد الله الحركة الاسماعيلية وقلعها تنظيمًا عامًا .



(١) انقسمت الشيعة الى عدة فرق منها الزيدية المنسوبة الى زيد ، والاسماعيلية وتسمى أيضاً
والسبعية ، لا تعترفوا بسببه آفة فقط أولهم الامام علي وآخرهم اسماعيل . وهي والامامية تقول بان
لا بد للناس من امام معصوم يبلغهم الشريعة عن رسول الله (ص) لان الشريعة لا تؤخذ بالقرآن -

ومزجها بالعلوم القديمة والفلسفة اليونانية ، وجعل منها حركة فكرية دينية سياسية ، خرج منها قرامطة البحرين والعراق والشام ، والدولة العاطمية في شمالي افريقية ومصر ، والحشاشون في فارس والشام . ويقال ان جمعية الخوان الصفا تنسب الى تلك الحركة .

ادعى عبد الله انه نبي مدة طويلة ، وكان يظهر الشعابذة ، ويذكر انفس الارض نظريته ، فيمضي اينما أحب في أقرب وقت . وكان يخبر بالأحداث في البلدان المختلفة بواسطة مساعديه وأعوانه ، الذين يرسلون اليه الأخبار بواسطة طيور ، يطلقونها من المواضع المتفرقة إلى الموضع الذي فيه يتم فيخبر من حضره بما يكون فيعود ذلك عليهم ، وكان مركزه أولاً في البصرة فعرف واليهامره وأراد الفتك به فارتقى إلى السابعة في سورية . وقد استفاد عبد الله من النزاع القائم بين العرب والفرس ، ومن القوضى السائدة في جميع اقسام المملكة الاسلامية ليهدم الخلافة العباسية ويقم دولة جديدة على أنقاضها يكون هو وتولاده من بعده على رأسها . وقد نجح في نشر عقائده وأنشأ نظامها واحسن ارتباط اللغة بعضهم ببعض حتى أصبحت حركته في دقة نظامها وسرعة انتشارها من أعظم الحركات التي عرفت في التاريخ .

وقيل وفاة عبد الله تسم الحركة تلميذه حمدان الملقب بقرمط ، واليه نسب القرامطة وهو من فلاحي العراق ، اعتنق المذهب الباطني ، وجماعة هذا المذهب ينسرون القرآن الكريم تفسيراً يختلف عن معانيه الظاهرة ، أي ان تشكل ظاهر باطلاً ، وبشكل تعزيل تأويل .

وكان حمدان يظهر الزهد والتقشف ، ويكثر من الصلاة حتى عظم في أميين الناس وتلاميذهم انه يدعو إلى إمام من أهل البيت ، فكثر أشيائه في الكوفة . واتخذ مركزاً في شير في الكوفة دعى « دار الهجرة » ووظف أموره على أحسن وجه . وعرض على من أحب من أصحابه ضريبة سماها « الباقعة » لهذه الدار وهي خمس ما يملكون أو يكسبون ، فكانت المرأة تقدم الداعي خمس غزلها والفاعل خمس اجرتهم ، فكانت هذه الضريبة قسماً يدفعه الشخص إلى صندوق الأضربة « كدخولها » وهذا ما يشبه النقابات في زماننا الحاضر .

وقد أخذت الاسماعيلية بالمذهب الباطني ، والامامية وتسمى أيضاً « الاثني عشرية » لاعتقادها بأثني عشر اماماً مذكورين في الاعلى آخرهم محمد الملقب بالمهدي المنتظر . دخل مرة سرداباً في مدينة سامرا ليبحث عن أبيه ولم يخرج منه فكان أصحابه يغفون في كل ليلة بعد صلاة المغرب باب هذا السرداب ، ويهتفون باسمه ، ويدعونه للخروج حتى ساعة متأخرة من الليل . وعند ما يأسون من خروجه يرجعون الأمر إلى الليلة الآتية . ويعتقدون انه سيجوع إلى الحياة الدنيا مرة ثانية وتبلى الدنيا عدلاً كما ماتت جوراً .

ولم يكن حذران بذلك بل طاب من أتباعه أن يشتركوا فيها بملكون .

وأن تكون أموالهم مشاعاً فيما بينهم يودعونها في بيت الجماعة ويوزعها عليهم رجل ذو ثقة
عندهم ، حتى لم يعد أحد يملك لنفسه إلا سيفه وسلاحه . وكانوا يحترمون المرأة ويحجون لها
حضور مجتمعاتهم ، واختصروا الصلاة وحملوها فرضين في اليوم . وأباحوا الاغتفار للبدو في شهر
رمضان . وحملوا شرب الخمر ، ويقولون ان الإمامة ليست ورثية خاصة في أسرة معينة بل تكون
في أي شخص يتصف بالصفات الحسنة في الإمام رباني .

وقد توسعت حركة القرامطة في سواد السكوة بسبب انشغال الخليفة المعتمد وأبيه الموفق
عنهم بنورة الزنج ، وقد اتبعت الخليفة المعتمد طاعته وأرسل جيوشاً عديدة للقضاء عليهم ، إلا ان
حركتهم توسعت وانتشرت في أكثر البلاد الإسلامية :

فقد استطاع أحد دعاة القرامطة وهو زكريا بن مبرويه في استغواء بعض قبائل العرب من
كاتب وأخرج بهم إلى بلاد الشام وعاشوا فيها فساداً ما بين سنة ٢٨٩ - ٢٩٤ هـ فقام بهم الطولونيون
مرات عديدة وهزموا أممهم . فكتب أهل الشام إلى الخليفة للكني يشكون إليه أمر القرامطة
وما فعلوه بهم من قتل وسي ونهيب . فجاء بنفسه بجيش كبير لمحاربتهم وقضى عليهم ، وقد اشتد
أمر القرامطة في البحرين على الخليفة الفارسي فقد قام أبو سعيد الحسن الجنابي في زمن المعتذر
بأسس دولة جعلها محاسن استولى على جميع بلاد البحرين . ثم قام إليه أبو طاهر سليمان الجنابي
من بعده ، وغزا البصرة سنة ٣١١ هـ ودخلها وقتل حاميتها . ووضع الديف في أهلها ، وأقام بها
سبعة عشر يوماً يعمل منها ما قدر عليه من المال والامتنع والنساء والعبيات . ثم عاد إلى بلده
وأخذ يهاجم قوافل الحاجج الذاهبة إلى مكة وينهب ما معها من الاموال والجن والارواد ويحصد
ما يريد من النساء والاولاد . وكان كلما أرسل المعتذر اليهم جيشاً هزموه حتى انهم هددوا بغداد
نفسها ، وصار الناس اذا أرادوا أن يخفوا بعضهم بعضاً كانوا يقولون : القرامطي على الابواب
حتى لم يبق بعض الخاصة إلى تولد بغداد والحرب إلى همدان وغيرها من المدن النائية .

وفي سنة ٣١٧ هـ سار أبو طاهر بجنده إلى مكة ، فنهب هو وأصحابه أموال الحاجج ، وقتلهم
وطرحوا أجسام بعضهم في بحر زمزم ودفن الباقين في المسجد الحرام ، وقام الحاجر الاسود وأرسله
إلى البحرين ، وكذلك قطع باب البيت الحرام . وأخذ كسوة الكعبة وقسمها بين أصحابه
ونهب دور أهل مكة ، وفي الحاجر الاسود نحو عشرين سنة في البحرين ، ولم يرجعه القرامطة إلا
بوساطة الخليفة النصور القاطمي . واستمر أمرهم مستغلاً إلى زمن الخليفة الراضي . ثم انقسموا على
أنفسهم وأعلنت قوتهم بالبحرين بعد أن جروا على أهل البلاد الخراب والمذاب .

ثم جاء الخليفة القاهر (٣٢٠ - ٣٢٢ هـ) وكان شريراً ، غيبت الشيعة ، أشتغل في أول
خلافة بالبحث عن استئجار أولاد المقتدر وحرمه ، لا سيما أم المقتدر وكانت مريضة وزاد مرضها
بقتل ابنها ، ولما سمعت أنه بقي مكنوناً جزعت جزعاً شديداً ، وأمنت من الأكل والشرب ، حتى
كانت تهلك فوعظها النساء حتى أكلت شيئاً يسيراً من الخبز والملح ، أحضرها القاهر عنده وسألها
عن مالها فأعترفت له بما عندها من المصوغ والذهب ولم تعترف بشيء من المال والجواهر ، فضربها أشد
ما يكون من الضرب ، وعلقها برجلها ، فحطفت لها لا تملك غير ما أطلعته عليه ، وفات : لو كان
عندي مال لما أسلمت ولدي للقتل ، فباع أملاكها وسائر جميع أولاد المقتدر وحاشيته وفي عمل هذه
قلل من هيئة العباسيين عند الناس وزال احترامهم لهم .

وفي زمن القاهر اختلف رجال الدولة من فواد ووزراء وحجاب وكتاب فيها بينهم ، فاستناب
القاهر من اختلافهم وبرز قتلهم بالخيلة والمكيدة ، فقتل القائد مؤنس بن زريك صاحب الشرطة
وغيرهم كثيرون ، فخاف من بني علي حياتهم بعدما رأوا من شدة القاهر وضارهم ، لا سيما الوزير بن
مقلد الذي كان يجتمع بالأنوار في ذي الحمى ونارة في ذي امرأة ، وغيرهم به حتى ملا
صدورهم ، فاضتوا على خلعه ، وزحفوا إلى الدار وحموا عليها من سائر الأيواف . فلما سمع
القاهر الأصوات والجلبة ، استبظ مخبراً ، وطاب باباً هرب منه ثم نجده ، فقبضوا عليه وحبسوه
ثم سلبوا عينيه ، وبذلك انتهت مدته ، وكانت جامعة للمعاصي والقبائح ، وقد شوهد في آخر حياته
يطلب الصدقة في شوارع بغداد .

تولى الخلافة بعده الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ) وفي زمنه انتمت عظمة الخلافة العباسية
وأفل نجمها وقضي على قودها الذي كانت تمتع به إلى ذلك الحين ، فكان رجال الدولة يقتلون
ويشاقسون على النفوذ في الدولة ، واستغل محمد بن رائق في البصرة والوسط ، ووقع البريدي
والملي الأتوز (وتسمى اليوم خوزستان) ما كان يحصله من الأموال إلى بغداد . وتقلب ابن بوبه
على فارس وأعمالها ، ولم يعد للخليفة من سلطان إلا على بغداد وشواحيها . فراعى الخليفة الرضي محمد
بن رائق وهو بواسط يمرض عليه الولاية ببغداد ، فحضر مسرراً ، فلهذه الرضي نائب أمير الأمراء ،
ووضع تحت تصرفه خراج البلاد ، وأعمال الدواوين ، وأمر بالخطاب له على جميع الدوائر ، وأخذ إليه
الطلع ، وأصبح هو صاحب السلطان ، فكانت الأموال تحمل إلى خزائمه فيتعرف فيها كما يريد
ويعطي الخليفة ما يريد ، وبطلت الدواوين والوزارة ، ولم يبق للخليفة ولا لا أحد من رجاله أي سلطة .
وقد استغوى منصب أمير الأمراء رجال الدولة وأصحاب الولايات ، فخذوا يشاقسون قوادسهم .

أبيه ، و زاهون ابن رائق عليه ، وقد تصدى لهذا المنصب البريدي صاحب الامور ولم يظفر به وبجكم الديلمي قائد جيوش العباسيين الذي خلع ابن رائق وتولى مكانه ، وناصر الدولة الحمداني صاحب الموصل وغيرهم من القواد والمتنفذين .

وهكذا انقضت مدة الرازي بالنازعات السياسية بين هؤلاء المتغلبين على الدولة ، وكل منهم يود أن تكون له إمارة الامراء ببغداد ، مما قلل هيبة الدولة في أعين العامة ، فقام الخليفة بتنازعات دينية مع أصحاب المذاهب الاخرى ، واشتد امرهم على الناس ، فكانوا يكسبون بيوت القواد والعامة ، فمن وجدوا عنده نبيذاً أراقوه ، ومن وجدوا عنده مقية ضربوها وكسروا آلة الفناء التي تعزف عليها ، وتدخلوا في كل كبيرة وصغيرة ، حتى أصدر الرازي بيانا قرى عليهم وأمرهم فعلنهم ومنعهم من التدخل وعدد الخالف بالعقاب الشديد .

وفي عهد الرازي ظهرت الدولة الاشعرية بصر وسياقي الكلام عنها .
وانتهى بوفاته الرازي أمور كثيرة كانت عند الخلفاء العباسيين منها : أنه آخر خليفة دون له شعر ، وآخر خليفة انشرد بتدبير الملك ، وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة ، وآخر خليفة جالس النداء ووصل اليه العلماء ، وآخر خليفة كانت مراتبه وجوائزه وخدمه ونجابه تجري على قواعد الخلفاء المتقدمين . وفي زمنه حدث منصب أمير الامراء في بغداد الذي يشبه منصب حاجب القصر ، عند ملوك الدولة المبروقية .

تولى الخلافة بعده المنفي (٣٣٠ - ٣٣٣ هـ) دأب في زمنه ما يستحق الذكر سوى تخادم المتنفذين في الحكم على منصب أمير الامراء . فبعد أن قتل بجكم الديلمي دخل البريدي ببغداد سنة ٣٣٩ هـ وحاول الاستيلاء على منصب أمير الامراء الا ان الجند أكرأ عليه وولى الخليفة كورتكين الديلمي هذا المنصب فتأذى العامة من الديلم فخلع المنفي كورتكين وانجأ الى ناصر الدولة الحمداني ليحميه من البريدي الذي استولى على بغداد وفعل عرو واصحابه فيها افعالا قبيحة وقتلوا من وجدوا في دار الخلافة من الحاشية ، ونهبوا دور حريم الخليفة ، وساد الاضطراب والنهب في المدينة ، وشتت الاسعار ، ومر على أهالي بغداد فترة لم يروا مثالا من قبل . فتعكن ناصر الدولة بمساعدة أخيه سيف الدولة الحمداني من طرد البريدي عن بغداد ولاخذه سيف الدولة الى واسط فاستولى عليها إلا أنه لم يتمكن من القضاء على البريدي لقله المال عنده وثورة جنود الترك عليه فعاد الى بغداد واعتزل ناصر الدولة منصب أمير الامراء ، وعاد الى الموصل ، فاختار المنفي اكبر قواد الديلم فوزون لهذا المنصب فاستبد بالامر وخلع المنفي من الخلافة وحمل عهده وولى مكانه المستكني . وفي خلافة المستكني بدأ الدور الثالث وهو سلطة آل بويه .

الفصل الثالث

٣ - دور النصف في البويعين

٣٣٤ - ٤٤٧ = أو ٩٤٥ - ١٠٥٥ م

حكم في هذا الدور أربعة خلفاء عباسيين وهم : الطائع ، والظافر ، والقاهر ، والقائم . واستمرت الخلافة في انحطاطها كما في الدور السابق ، ولم يبق ليعقلاء سوى السلطة الروحية ، وانتقلت السلطة الحقيقية الى البويعين . واكتفى الخلفاء بكتاب يدرون أمور أملاكهم وأراضيهم ، ويمتص مقدار خمسة آلاف درهم في اليوم . وانتقلت إدارة الدولة ومائيتها الى البويعين الذين خلعوا المستكفي وسملوا عينيهِ ، وأجبروا الخليفة الطائع على التنازل عن الخلافة بعد أن حكم أربعة سنوات . ولاقى الخليفة الطائع نفس المصير عندما ضعف وإسلبه القتل . وبالرغم من أن الخليفين القاهر والقائم حكما ما سوفي عن المائتين سنة ، واستمدا شبة من رونق الخلافة إلا أن سلطة الخلفاء العباسيين قد ذهبت من أيديهم وانتقلت نهائياً الى البغويين على الدولة .

لم يحصل في هذا الدور منازعات شديدة بين الخلفاء والبويعين كما حدث في الدور السابق بينهم وبين الأمراء ، وإنما النزاع كلف قائماً بين البويعين أنفسهم على السلطة . وبين البويعين والأمراء الذين سلبت منهم السلطة بقيادة الخلفاء ، وسأكلهم مما يلي من الدور التي تليها البويعيون .

البويعيون جنس من الدالية وسكنوا في الجنوب الغربي من بحر الخزر . ومن إلى أبي شجاع بويه ، وعندما أصبح لهؤلاء البويعين المراكز الرعية ودارت السلطة بأيديهم اتخذوا الديار لرجلهم : الموك الفرس الساسانيين . وكان أبو شجاع بويه رقيق الحال فاشتم أولاده علي ، والحسن ، والمحمد في الجندية لأنها كانت باباً من أبواب الرزق ، وقدموا علي مردهاويج بن زيار مؤسس الدولة الزيرية (١)

(١) الدولة الزيرية (٣١٩ - ٤٣٤ هـ) قامت في صرجان وطبرستان مؤسسها مردهاويج بن زيار قام في زمن الخليفة المقتدر واستولى علي حميدان واسهبان حتى وصل إلى الأموال فكتب الخليفة يطلب منه أن يوليهِ علي ما بيده من البلاد ، وأرسل إليه الهدايا والأموال فأقره علي ذلك .

فصلع عليهم وولي علي بن بويه إقليم الكرج الواقع غربي بحر الخزر فأحسن إلى أهله وأخذ من عليهم
الأموال وساس البلاد بإدارة حازمة مشاع ذكره وفصده الناس وأحبوه ، وانتفع أصحابه وشيخ
فبلغ ذلك مرداوش فختاف على نفسه وما بيده من البلاد ، وانضم لذلك غمماً شديداً ووقع في الوحشة
بين الطرفين ، ولحسن حظ ابن بويه قبل مرداوش من قبل جنده ، فلزاد نفوذ علي بن بويه وأرسل
إلى الخليفة الراضي يطلبه أنه على ما أمته ، وطلبت منه أن يوليّه على ما بيده من البلاد قال يحمله إلى
دار الخلافة فاجيب إلى ذلك ، وبعت إليه بالجملة وألقوا .

أخذ علي بن بويه مملكته في شيراز ، وسير أخاه الحسن بفتح بلاد المعجم ، فاستولى على الجبل
وعمدان والري وقزوین وغيرها ، وسير أخاه الصغير أحمد إلى الأهواز ، ففتحها واستولى على
واسط ، وكان النزاع قائماً في بغداد على منصب أمير الأمراء ، فاستدعاه الخليفة المستنصر
بغداد سنة ٤٣٣ هـ وهذه السنة تمير به النفوذ البويهي في بغداد واحتل الخليفة به وابنه أحمد
وحلف كل من مقيم هذا بالخلافة وذلك بالسلطنة .

وشرف الخليفة بني بويه بالإنابة : فلقب تلياً صاحب بلاد فارس عماد الدولة ، وهو أكبرهم
وقب الحسن صاحب الري والجبل ، ركن الدولة ، وأب أحمد صاحب العراق ، معز الدولة .
وأمر أن تنسب إليهم وكنام على النفوذ ، وإن يذكر اسم معز الدولة في خطبة الجمعة بعد اسم
الخليفة . وثابت نفوذ معز الدولة في بغداد حاول أن يزول اسم الخلافة عن بني العباس
وبولها ملوكاً ، لأن البويهيين كانوا شيعة زيدية ، وحل إليهم الدين الحنيف عن طريق
الدولة الزيدية العلوية وبجهود الحسن بن الأحمري أحد أمراء هذه الدولة ، الذي بقي بينهم ثلاث
عشرة سنة يدعوهم فيها إلى الإسلام ويدفع عنهم عدوهم ويوفي المساجد في بلادهم . وكان البويهيون
يعتقدون أن بني العباس قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقها ولكن بعض خواص معز الدولة
أشار عليه ألا يفعل وقال له : « أذك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة
ولو أمرتهم بقتله قتلوه مستحلين دمه ، متى اجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد

هو خلفه أخوه وشيخكير حكم ملوكاً من سنة (٣٢٣ - ٣٥٦ هـ) وأزدهرت الدولة في أيامه ، وكان
فيه نزاع مستمر مع السامانيين ، والبويهيين ، خلفه بعد موته قابوس بن وشيخ الملقب بشمس المعالي
وكان أدبياً له أشعار باللغة الفارسية والعربية ، بسط رعايته على الشعراء والأدباء ، ونفع في بلاطه
« البرقي » وقسم له كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية . وانصل به أيضاً الشيخ الطيب الرئيس
« ابن سينا » : وكانت هذه الدولة فضل كبير في رعاية الأدب والعلم وانتهى أمرها في زمن
أنوشروان بن قابوس سنة ٤٤٨ هـ على يد الدولة القزنوية .

أنت بأصحابك درجة خلافتك في أمرهم قتلك أملاً ، فمعرض محال كان قد حزم عليه وأمر لهم الخلافة أبي العباس . ولا تريد التوسع في الكلام عن البويهيين الذين حكموا في بغداد أو في غيرها من المناطق ، ونكتفي بوصف حالة الدولة العباسية في زمانهم بصورة عامة (١) .

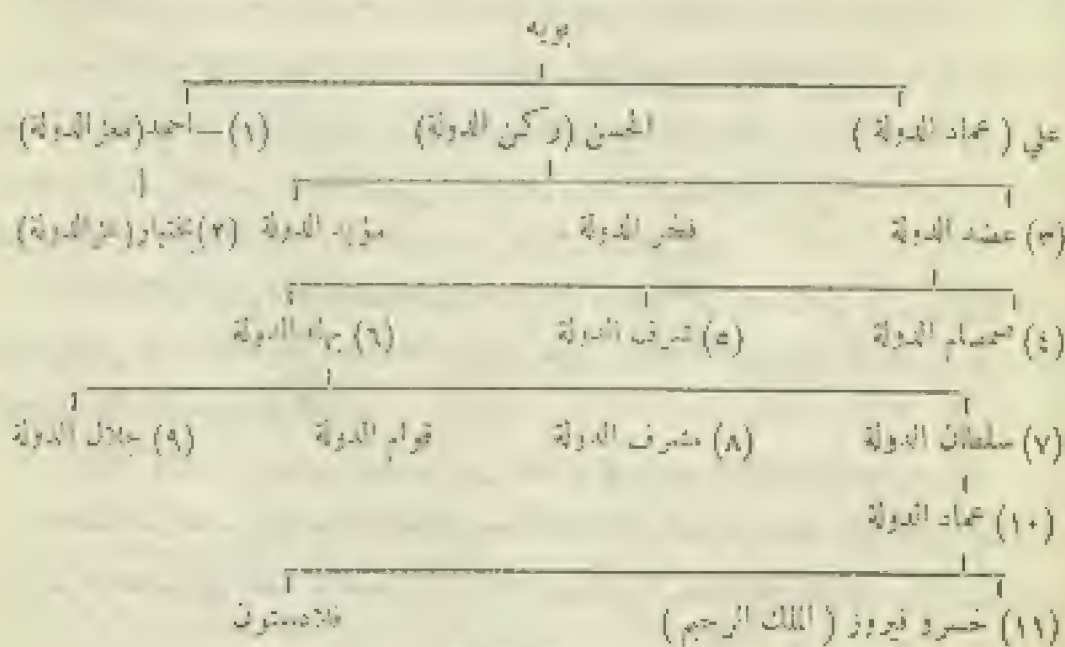
الحالة الداخلية

انحطت الدولة من الناحية السياسية بصورة عامة في زمن البويهيين ، وتأخر حال العراق لاسيما بغداد بسبب الغلاء والفوضى والذوب الذي ساد فيه ولم ترعها الدولة وتوسع إلا في زمن عهد الدولة البويهية ورجع ذلك الاضطراب الى الاسباب الآتية :

أولاً النزاع بين جند الأتراك والديلم : طمع جند الديلم الذين دخلوا بغداد بالبرغم معز الدولة البويهية ، وشغبوا عليه ، تقرب معز الدولة جند الترك ، وأقطعهم القرى والأراضي ليعتصروا من قومه ، فقام النزاع والشجاسة بين الجندين .

ثانياً تأخر الحياة الاقتصادية : انحطت الزراعة في أراضي الدولة العباسية بسبب نظام القلصاع الأراضي لجند ، فأهل هذه ولا مشؤونها وتدور في رقبا وادلاع اقية الري فيها ، مما أضعف حمة الفلاحين

(١) تظهر التقاسيم التالية البوهية ، والارقام تدل على أسماء البويهيين الذين حكموا في بغداد .



الذين يقومون بزراعتها وإصلاحها ويطلق كثير منها . وتوفقت التجارة في البلاد لخوف الناس على ما يهدم من الأموال بسبب اضطراب الأسعار ، وكذلك تأخرت الصناعة ، حتى أُنشدت الغلا في البلاد وأكل الناس الميتة والذلل والكفاف وحروب الشوك ، وكانوا يساقون جبهه ويأكلونه ، فلهذا هم أسرايس وأروام في ألسنتهم . وكثير فيهم الموت حتى عجز الناس عن دفن الموتى ، فكانت الكلاب تأكل لحومهم ، وانحار كثير من أهل بغداد إلى البصرة ، فبات أكثرهم في الطريق ، وبيعت الدور والمقارن بالخير .

ثالثاً النزاع بين أمراء الدين أنفسهم : قدم الزاغ بين أمراء الدين على السلطنة فقد كانت عز الدولة بخيار حاكمها في بغداد . وكان ضعيف السلطنة فيها ، فلقب عليه بجند الترك بزعامة قائدهم سبكتكين فاستنجد ابن عمه عضد الدولة الذي كان يطمع في أن يحل محله ويستولي على منصبه فأسرع بجنده إلى بغداد ودخلها سنة ٣٣٤ هـ وتغلب على عساكر الأتراك ، ثم أخذ يبدد المسائس على بخيار ووسوس إلى جنده أن يشردوا عليه ، وبطاليوه بالأموال ، حتى تمكن من خلعهم وقبض عليه وجمع الناس وأعلمهم استغفاره من الأمانة وعجزه عنها ، ألا أن ركن الدولة استاء من عمل ابنه عضد الدولة وساعد بخيار للرجوع إلى ملكه ، ولما توفي ركن الدولة سنة ٣٣٦ هـ ورثه ابنه عضد الدولة في الملك وتجهز إلى بغداد وأرسل إلى بخيار يطلب منه الطاعة فأجاب إلى ذلك . وقد حدثت مثل هذه الخصومات بين البويهيين فيها بعد فقد فلم شرف الدولة صاحب فارس على أخيه منصور الدولة واستولى على الأمهواز والبصرة وواسط ودخل بغداد سنة ٣٣٨ هـ واستولى على الحكم مكان أخيه . وحصل مثل هذه الخصومات في زمن بهاء الدولة وغيره من البويهيين ...

رابعاً المناقشة بين البويهيين والأمراء المستقلين : كان ناصر الدولة الحمداني مستقلاً في الموصل في السنة الأولى من حكم البويهيين استولى ناصر الدولة على الجانب الشرقي من بغداد ، وكان يتم له الأمر ، ويقضي على عز الدولة البويهي لو لم يستعمل هذا الحيلة وتغلب على الحمدانيين ، وكانت الحروب لا تهدأ بين الطرفين ، واشتغلا بها عن الاهتمام بمصالح الدولة .

وكذلك كان النزاع قائماً بين عز الدولة والبهيدي صاحب البصرة . وكان كل منهما يطمع في الاستيلاء على ما بين الآخر ، فحصل قتال بين الطرفين ، ويزيد الأمر اضطراباً وتدخل قرامطة البهريين بالأمر ومساعدتهم البهيدي .

وكذلك كان النزاع مستعراً بين البويهيين والغزنويين الذين سبكتهم عنهم فيما بعد ...
خامساً المنازعات الدينية بين السنة والشيعة : كان النزاع الديني في بغداد وما جاورها من بلاد العراق محتدماً بين السنة والشيعة ، فقد تأججت نار الانقسام بين الطرفين بسبب مساعدة

البويعيين للشيعة ، فقد أمر معن الدولة اناس سنة ٣٥٢ هـ في العاشر من محرم هـ يوم عاشوراء هـ أن
يغلقوا دكاكينهم ويغلقوا الاسواق والبيع والشراء ، وأن يظهروا النياحة ، وأن يخرج النساء
منشورات الشعور مسودات الوجوه ، قد شققن ثيابهن ، يهرفن في اليك بالنواح ، ويلعنن رجوهن
على الحسن بن علي رضي الله عنهما ، ففعل الناس ذلك ، ولم يكن لأهل السنة قدرة على الخلع الكثرة
الشيعة ولأن السلطان مهيبة .

وفي ثامن عشر ذي الحجة أمر معن الدولة بإظهار الرينة في بغداد واشتمات البراءة بمجلس
الدرملة ، وأظهر الفرج ، وفتحت الاسواق باقيل كما جعل ليالي الأعياد ، ففعل ذلك احتفالاً بعيد
القدوس يعني « غدير خضم » وهو الموضع الذي يدعى أن رسول الله (ص) قد فيه عن علي بن كثر
مولاه علي مولا عالمه والسن والآله ، وعاد من طاعة وحسن بت الدباب والوقت وكان يوماً مشهوداً .
وما كانت هذه المواسم ثم دائماً بهذه وسكينة فكثيراً ما كان السنة والشيعة يتعهدون بمماركة
دائمة ويقتفون في شوارع المدن لا سيما في بغداد حيث كان السنة يهاجمون الكرخ (حي الشيعة)
ويحرقونه وكانت هذه المنازعات الدينية تثير أوجع الموالي على الدولة العباسية .

ازدهار الدولة في زمن عضد الدولة

بلغت الدولة أوج عظمتها في زمن عضد الدولة (٣٩٩ - ٤٣٧ هـ) فقد توحدت العراق
والجزيرة والاهواز ، وفرنس ، والحبال والري ، وجرجان تحت سلطة واحدة وأصبحت البلاد التي
يحكمها تقارب في جميعها الدولة العباسية في زمن هارون الرشيد . وهو أول من خطب له في بغداد
على المنابر ، ولم يكن يخطب فيها سوى الخليفة . وأول من صرحت الطبول على أبوابه عند الصلاة
وأول من لقب « شاهنشاه » وهو لقب فارسي معناه ملك الفرس . تروج الخليفة الطالع ابنة كاكروج
هو ابنة الخليفة ، مؤملاً أن تكون الخلافة في انقباب ابنة . ولكنهم من أن بلاطه ظل في شيراز
فقد أمتى في تجميل بغداد . فبنى فيها مسجداً كبيراً على نهر الدجلة سماه « الإبرستان العسدي »
نظم فيه أطباء تنفقه كل يوم ، يطعمون أحوال المرضى ، وبينهم يوم يتناولون عمل الادوية
وعمر طريح الامام علي رضي الله عنه في النجف ، وأبنا مدارس كثيرة ، ومساجد متعددة في
مختلف أنحاء الدولة . كما أصلح الاقضية التي طمرت بالظلم من جراء إهمالها وعمر كثيراً من غيرها
وبى سوراً على مدينة الرسول (ص) ولا نجد اميراً صالحاً معبراً من بني بويه مثل عضد الدولة
« فكان عاقلاً قاضياً ، حسن السياسة كثير الاطاعة شديد الحمة ، ثاقب الرأي ، محباً لفضائل ، واهباً
بادلاً في موضع العطاء ، مانعاً في مواضع الحزم ، ناشراً في عواقب الامور ... ومن فضله انه كان
لا يقول في اموره الا على الكفاية ولا يحمل للشغاطات سبيلاً اليه . وكان يخرج في ابداً كل سنة يوماً

كثيراً من الأموال للصدقة والبر في سائر بلاده. وقد ازدهر عصره بالعلم والثقافة، وكان هو وبعض أئمه
 عالمة من المشجعين على حب العلم، وبلغت الحياة العقلية في زمنه أزهى ما وصلت إليه في جميع العصور
 فاشتهر المتنبي في زمنه ومدحه بقصائده خلدة، وكذلك اشتهر أبو علي الفارسي النحوي الذي قدم
 له «كتاب الايضاح» والطبيب علي بن عباس صاحب كتاب «الكامل في الصناعة الطبية» ونجح
 بعض البويهيين نهج عضد الدولة في خدمتهم لهم، وتشجيعهم لعلواء منهم شرف الدولة بن عضد
 الدولة فقد منحهم مرسداً فلكياً منها في ذلك سطة الخليفة المأمون، وعمر شاذي بن ارمشير وزير
 بهاء الدولة «داراً للعلم» في بغداد فيها مكتبة تحوي عشرة آلاف مجلد، استفاد منها الشاعر الفلاسوف
 ابو الفداء المغربي عندما كان تلميذاً في بغداد. وهذا العصر زعها بأدبه أمثال الوزير ابن العبد،
 والصاحب بن عباد، وديع الرمان الهمداني وغيرهم كثيرون. وبلغوا بين أمثال أبو الفرج الأصفهاني
 صاحب «كتاب الاغانى» وياكعالي صاحب «شجرة الدر» وعز الدين اشرم المصمودي صاحب
 كتاب «مروج الذهب» ومعادن الجوهر» وبيضاوين أشهرهم الأصطخري صاحب كتاب
 «مسالك المالك» واشتهر في هذا العصر شيخ الأطباء الرئيس ابن سينا وكتابه «القانون» في الطب
 أشهر من أن يعرف.

وبعد الفترة الائمة التي حكم فيها عضد الدولة قامت المازعات بين أولاده على الحكم، فحاول
 اخوة بهاء الدولة اختلاس السلطة من أخيهم إلا أنهم أخفقوا لما شجع حشد الدين والأمراء الثورة
 على السلاطين الذين حشدوا من بعد بهاء الدولة طالين مرتبائهم التي لم تكن تؤدى لهم في أوقاتها
 نقلة الواردات. ولم تحم سنة ٤٣٦ هـ إلا وأعلن أمر الخلافة والسلطنة معاً في بغداد. وعظم أمر
 القصور والعبادين، وصاروا بأسذون الأموال لبلأ وتهاوا، ولا مانع لهم. وانتشر العرب
 في البلاد يهبون النواصر والفرى وقطعون الطرق - حتى بلغوا أطراف بغداد. وقد حاول البويهيون
 في آخر أيامهم أن يعوضوا بالأكاذب الضخمة ما خسروه من سلطة. فطلب جلال الدولة البويهي
 من الخليفة القائم سنة ٤٣٣ هـ أن يلقبه «ملك الملوك» فاستع الخليفة لولا ثم قبل بعد ذلك
 وكذلك طلب أسر البويهيين خسرو فيروز من الخليفة القائم أن يلقبه «بملك الرحيم» فكان له
 ما أراد. وفي زمن هذا السلطان دخل طغرل بك السلجوقي بغداد وأزاله عن ملكه سنة ٤٥٧ هـ
 وانتهى بذلك حكم البويهيين.

الحالة الخارجية

كانت علاقة المسلمين مع البيزنطيين في هذا الدور سيئة، وكانت كلمة البيزنطيين هي الراجحة
 على الأتليبي، وذلك لانقسام المسلمين على أنفسهم، وانتقال الدافع عن حدود الدولة الإسلامية

إلى الدويلات المستقلة ، لا سيما الحدانيين ، فقد أخذ سيف الدولة أمير الحُدانيين على نفسه حماية
ثغور المسلمين من الروم ، إلا أنه لم يكن موفقاً كل التوفيق ، لأنه عندما كان المسلمون جبهة واحدة
وجدوا صعوبة في إخضاع الروم والقضاء عليهم ، فكيف وقد تجزأت قواهم ، وأخذ بعضهم يقاتل
بعضاً ، حتى ويستعين بالروم على إخوانه المسلمين ؟ ومن جهة أخرى كان يحكم بلاد الروم أباطرة
أقرباء من الأسرة المقدونية أشهر منهم بنسفور ، وكلاس ، وإميل الثاني وغيرهما ، الذين توغلوا
في بلاد المسلمين حتى وصلوا إلى شيراز بقرب حماد من ناحية الداخل ، وبلغوا طرابلس من جهة
الساحل إلا أنهم لم يتمكنوا من فتحها ، واستولوا على طرطوس وأخطاكية وهما من أهم ثغور
المسلمين . وظلت الحالة كذلك إلى أن جاء السلاجقة ، فطردوا البيزنطيين من بلاد المسلمين ،
واستولوا على جزء كبير من بلاد الروم ، وأسسوا دولة فيها ديت ، دولة سلاجقة الروم ، كانت
سبباً في قيام الحروب الصليبية .



الفصل الرابع

٤ - دور القوي الإسلامي في القوي

٤٤٧ - ٦٥٦ هـ أو ١٠٥٥ - ١٢٥٨ م

حكم في هذا الدور إحدى عشر خليفة هو : المقتدي ، والمنصور ، والمسترشد ، والراشد ، والمظفر ، والمستجد ، والمستفي ، والناسر ، والطاهر ، والمستدر ، والمستعصم . ثمانية منهم تولوا الخلافة في الدور السلجوقي والثلاثة والأخرون في الزمن المغولي .

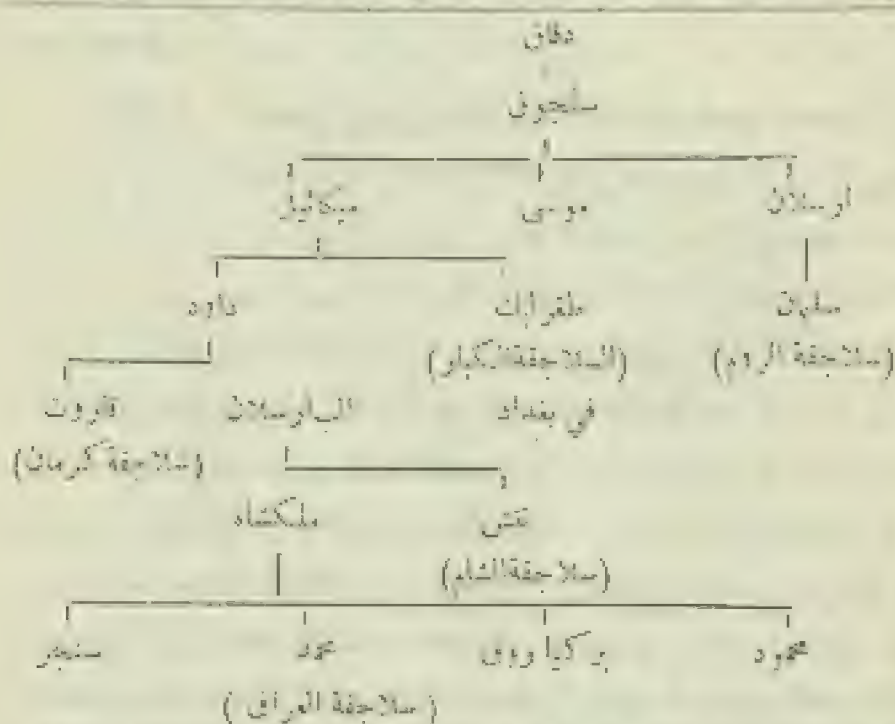
كان بعض هؤلاء الخلفاء أمثال المسترشد والمقتدي أوفياء ، حاولوا أخذ الحكم من السلاجقة وإدارة شؤون البلاد الإسلامية بأنفسهم ، وأن يعتمدوا السلطة الروحية التي كانت لهم إلى السلطة الحقيقية . فثاروا السلاجقة في بغداد وحاربا ، وفي القصور ، وفي ميادين الحرب ، وكانت الغلبة في النهاية للسلاجقة ، وقد تمكن المقتدي بعد أن حارب دوله بني مزيد الفاتمة في الحلة في قلب العراق وأخضعها أن يمد سلطانه لا على بغداد ففصب ، بل على العراق بكامله . إلا أن قوة هؤلاء الخلفاء الذين أظهروا بعض الشاؤم لم تكن مستمدة من الداخل أي من مساعدة شعبيهم لهم ونصرته أبائهم ، وإنما كانت مستمدة من الخارج أي من الاستعانة بقوى أجنبية هذه القوى كانت قضاء الدولة العباسية على يدها . فبمذما حاول الخليفة الناسر مثلا التخلص من السلاجقة ، وأخذ السلطة منهم ، استعان بالمغول فلبوا دعونه كالبيل الحارث ، وجازوا ثلاثة موجات جرفت الدولة العباسية وقضت عليها . وفي هذا الدور كانت دفة الحكم والعدل الحقيقي بين السلاجقة لذلك شككهم عنهم .

المراجع

السلاجقة جماعة من عشائر الغز إحدى القبائل التركية ، تدب إلى مقدمها سلجوقي بن

دقيق (١) الذي كان مقبلاً مع قبيلته في بلاد تركستان في خدمة ملك الترك ، ولما كثرت انصاره تزعج مع قبيلته الى بخارى ، واعتنق الدين الحنيف ، ودخل في خدمة السامانيين واستفاد اولاده : اوسلان وميكائيل ، وموسى من المنازعات القائمة في البلاد الشرقية بين القوى المختلفة من يرمين ، وسامانيين ، وغزنويين وغيرهما ، وزادوا في الاضطراب والفوضى بما فعلوا به من التهم والسلب وتحويل الأئمة ، حتى تمكن ابنه ميكائيل : طغرل بك ، وداود بعد حروب طويلة مع السلطان محمود الغزنوي ان يستوليا على مرو ، وبلخ ، وبخارى ، وبلاد الري وبؤفا دولة واسعة ، ودفع اسم طغرل بك في البلاد واحداً امراء البلاد المجاورة يتلقون الطاعة والخلافة اليه ، وانضمت اليه ديار بكر ، واسهات ، وخرجيان ، وقسم من ارمينية .

وفي سنة ٤٦٦ هـ تغلب القائد التركي ابن الخوارزمي المعروف بالسلجوقي ، وهو من تاجيك بهاء الدولة البويهي على بغداد ، وراح لملك الرضخ آخر السامانيين البويهيين من ملكه ، وبعد السطوة منه ، وحاول ان ينقل الخلافة من بني العباس الى الخليفة الفاطمي في مصر . وبعد في طاعته . فاستنجد الخليفة العباسي القائم بالسلطنة ، فجاء طغرل بك ببغداد ودخلها في الخامس والعشرين من محرم سنة ٤٥٧ هـ وبذلك بدأ الدور السلجوقي . وخطب طغرل بك على منابر بغداد



تظهر هذه التقسيمات الفروع التي انقسم اليها السلاجقة ، والدول التي شكلوها في بغداد ، وكرمان ، والعراق ، والشام ، وبلاد الروم .

وقبض على الملك الرميم وقضى على دولة البوهيين ، وهرب البساسيري الى الموصل . واثم الخليفة العباسي سنة ٢٤٩ هـ حفلة رائعة في بغداد لطفرابك جلس فيها على كرسي مرتفع وتلاه البردة النبوية ، ودخل عليه طفرابك مع بعض جماعته ، وكان أيمان بغداد حاضرين ، فقبل طفرابك الأرض وبدأ الخليفة ثم جلس على كرسي نصب له وخلع عليه سبع جبات سود بزق واحد ، وعمامة سوداء ، وطوق بطوق من ذهب ، وسور بسوارين من ذهب ، وألحى سيفاً بخلاف من ذهب ، وتوجه بتاجين برمنان إلى سلطانه على العرب والمجمل ، وخاطبه بذلك المشرق والمغرب .

واضطر طفرابك ان يهاجر بغداد ليقمع الثورة التي قام بها ابراهيم بن ابي اجدان قربائه من السلاجقة ، فاكسب البساسيري الفرصة ، وعاد الى بغداد سنة ٢٥٠ هـ واستولى عليها مدة سنة واحدة فخطب فيها للخليفة الفاطمي المستنصر بالله ، ثما الخليفة العباسي فقد لجأ الى أحد رؤساء العرب واحتسب به ، وبقي في مدينة طانة حتى عودته طفرابك الذي حارب البساسيري وقتله .

وأرتفع مقام السلاجقة عند الخليفة حتى تزوج بخديجة بنت داود أخي طفرابك كما ذهبي مقام طفرابك حتى تطاول خطبة ابنة الخليفة سنة ٢٥٣ هـ وتزوجها بالرغم من عنامة الخليفة في البدء وقوله أخيراً بهذه المضاعفة التي لم تحير المادة بتفليها . توفي طفرابك في دار ملكه في الري سنة ٢٥٥ هـ .

وخلفه ابن أخيه ألب أرسلان وكان بعيد الهمة ، ثاقب العزم ، ميمون النية إلى بره بالريعية وإرادته خبيره ، وكان إذا أمر ببناء أو عز بأن يكون اسمي بنيان ويقول : آتاه هذه تدل على علمه عمته ووفور نعمته . وقد ثار عليه قتل من السلاجقة في بلاد الري وحاول أحد السلاطة أنفسه قتل في سبيلها ، وبعد أن هدا ألب أرسلان الحالة الفاضلية التي كانت طارية أعدائه الخارجيين ، وكان ملك الروم هاجم سنة ٢٦٢ هـ منبج واستباحها وسبي طليتها ، فساء ذلك ألب أرسلان فجهز جيشاً كبيراً سار به الى اندريجان واستولى قسم من جيشه على قلعة ملاد كورد (١) وأرسل الى ملك الروم يقول : « أن كنت ترغب في الهدنة اتعنا ما تريد وإلا اغزنا وعلى الله انتمدنا » فظن ملك الروم ان هذه الرسالة تدل على خوف ألب أرسلان فقال الرسول : « سوف أجيب عن هذا بالري » فالتفت نفس ألب أرسلان غراً وحمل بجيشه على الروم وهزمهم ثم هزمتهم وأسر ملكهم رومانوس دايوجانس Romanus Diogenes واستولى على سلاحهم وعتادهم وضم مقام عظيمة . وبعد مفاوضات طويلة تم الصلح بين الطرفين على أن زوج امبراطور الروم بناته من اولاد ألب

(١) ملاد كورد حصن مهم واقع في منتصف الطريق بين مدينتي أودسوم وبحيرة وان في أرمينية .

أرسلان ، ويقتدي نفسه وجميع الأسرى بملبوس ديبازر ، ويدفع حزية سنوية قدرها ٦٠ ألف دينار .
وبارجع رومانوس إلى القسطنطينية خله شعبه وصلحوا دينه وقلوبه . وولي ابن أرسلان ابن عمه
سليمان بن قطامش ولاية آسيا الصغرى وكان جندياً شجاعاً وحكيماً مدبراً ، ألف دولة في بلاد الروم ، دبت
«سلاجقة الروم» جعل عاصمتها مدينة قونية ، وفرض على ملوك الروم الجزية ، وسار قسطنطين إلى حدودها
بأهل الغرب لحايتهم ونشأت على أثر ذلك الحروب الصليبية .

وقد اتخذ ابن أرسلان نظام الملك وزيراً له واستند إليه تدبير المملكة . فقام بهذه المهمة
أحسن قيام وبني سنة ٥٥٨ هـ «الدرسة النظامية» في بغداد التي درس بها الإمام الغزالي . وقد
جعل ابن أرسلان مقر حكمه في أصفهان ، ووضع عنه نائباً في بغداد كاهن «السلجوقية» .
وتوفي سنة ٥٦٥ هـ في طريقه لحاربة الترك فيما وراء نهر جيحون .

وخلفه ابنه ملكشاه المنصب بحلال الدولة ، وقضى على الثورات التي قام بها أقربوه من السلجوقية
لا سيما عمه قابورت الذي تار في كرمان ، يريد أخذ السلطة لنفسه . وفي زمن ملكشاه بلغت الدولة
السلجوقية أوجها ، واتسعت أملاكه اتساعاً عظيماً ، فكانت تمتد من كاشغر على حدود الصين إلى
بيت المقدس في بلاد الشام ، ومن القسطنطينية إلى آخر بلاد اليمن ، وحمل إليه ملوك الروم الجزية
ولم يشته مطلب وانقضت إبله على أمن تام وسكون شامل ، وعدل مطرد ، استقر الحكم ، والمؤمن
في جميع البلاد ، وعمر الطرق والقناطر والمرايط في المغاور ، وسفر الأنهار ، وعمر الطامع ببغداد .
وبني المصانع بطريق مكة الحجاز ، وألحقت المستشفيات ، وأتمت الطرق في زمنه . فكانت الممالك تسير
من بلاد ما وراء النهر إلى سورية دون أن يعتدي أحد عليها .

وقد استمر نظام الملك وزيراً في زمن ملكشاه . وقام في أثناء ذلك بأعمال جليلة . وقد كان هذا
الوزير الفارسي من كبار العلماء وكان يعنى على أهل العلم ، فكان يجلسه معسوراً بالقرآن والعقائد
وأئمة المسلمين . أمر ببناء المدارس النظامية في سائر أنحاء البلاد ، وأجرى لها الجرائد العظيمة .
وكان ينظر في الأوقاف والمصالح ، ويرتب عليها الأمان ، وفي زمنه أُلحقت النجوم الفارسي من قبل
هيئة من الفلكيين على رأسها الفلكي المشهور عمر الخيام ودعي «النجوم الجلالية» نسبة إلى السلطان
جلال الدولة ملكشاه ، الذي بنى المعمر الحيدام مرصداً وجيزه بأحسن الأدوات ، وأجرى عليه
الأموال الكثيرة مما شجع على تقسيم علمي الفلك والرياضيات . وقد كتب نظام الملك رسالة في إرادة
الدولة أسماها «سياسة نامه» تعتبر من أعظم ما كتب في هذا الموضوع . وفي آخر أيام نظام الملك
وشى به أعداؤه إلى السلطان ، وما زالوا في سبابهم حتى كتب إليه السلطان رسالة بعادها فيها يقول

هـ انك استوليت على ملكي وقسمت ممالكى على اولادك واصهارك ، تريد ان امر برفع دواة الوزارة من بين يدك ، وأخلص الناس من استظانتك ؟ فكان جواب نظام الملك هـ قولوا للسلطان ان دواني مقترنة بتاجك ، فني رفعتها ورفع ، ومن سلبها سلب . هـ وقال ابن السلطان أو بعض أعوانه دبروا قتله ، فقتل نجرة بطلعة خنجر من بعض الفدائيين الاسماوية ، فتمت الدولة بقتله مساحاً عظيماً ومديراً حكماً .

وفد تروج الخليفة المنتدى ابنه السلطان ملكشاه بمحاول هذا لت يولي ابن الخليفة مكانه في الخلافة ويضم إليه السلطنة ، ليجعل الخلافة والسلطنة في أصل ايته ، وحاول خاني الخابطة ، ثم طالب إليه أن يخرج من بغداد ، فاستمر به بضعة أيام ، مات في خلالها وكان شاه سنة ٤٨٥ هـ فأخرج عن الخليفة ، ودعيت أحلام ملكشاه أدراج الرياح .

وبموت ملكشاه انتهى دور السلطنة والنفوذ عند السلاجقة ، وبدأ دور الانحطاط بسبب الممارعات التي قامت بين السلاجقة أنفسهم ، فقد ملكت هـ نوكان خان هـ أرملة ملكشاه من الخابطة المنتدى أن يولي طفله الصغير محمود على السلطنة ، فبى طلبها ، ولفيه هـ ناصر الدنيا والدين هـ فقام أخوه الأكبر يركيارون بنازعه السلطنة هـ وسلبها منه فقام نفس عم يركيارون في دمشق مطالباً بالسلطنة لنفسه ، وقتل في مسماه ، وكذلك قام أخوه محمد بنازعه السلطنة ، وكانت بين الاخوين مواقع هائلة .

وبينا كان السلاجقة بنازح بعضهم بعضاً على السلطنة كان الصابريون يغزون بلاد الشام ، وهؤلاء عنهم لاهون . وانقسموا الى دول تفرقت في أماكن مختلفة ، وليس من برناجتنا دراسة كل فرع من هؤلاء السلاجقة على حدة ، لذلك اكتفينا بتذكير اسم السلاجقة بنظام في بغداد وحسبنا ان نعدد أسماء بقية دول السلاجقة ومكان حكمهم وزمنه .

السلاجقة العظام : حكموا في بغداد ، وملكوا خراسان والري والبلخ والعراق والجزيرة فخرس والاهواز وامتد حكمهم ٩٣ سنة هـ من ٤٩٢ - ٥٨٣ هـ او ١٠٣٩ - ١١٢٧ م .

سلاجقة العراق : حكموا في العراق وكرمنستان وامتد حكمهم ٧٩ سنة من ٥١١ - ٥٩٠ هـ او ١١١٧ - ١١٩٤ م .

سلاجقة كرمان : حكموا في كرمان وامتد حكمهم ١٥٠ سنة من ٤٣٢ - ٥٨٣ هـ او ١٠٤١ - ١١٨٨ م .

سلاجقة الشام : حكموا في سورية وامتد حكمهم ٢٤ سنة هـ من سنة ٤٨٧ - ٥١١ هـ او ١٠٩٤ - ١١١٧ م .

سلاجقة الروم : حكموا في آسيا الصغرى وامتد حكمهم ٢٣٠ سنة من ٤٧٠ - ٧٠٠ هـ او ١٠٧٧ - ١٣٠٠ م .

كانت السلاجقة في أيام سلاطينهم يولون الاشغال والولايات فواداً من مطالبهم يسعونهم «الامايكة»
واحد «الملك» وهو لقب تركي معناه «أمير أب» والمراد به أبو الامراء استعملوه اولاً بمعنى
الوزير ثم صار بمعنى الملك . وأسس الامايكة يستقلون شيئاً فشيئاً حتى انفسوا الممالك الساجوقية
فيها بينهم . الا الفرع الرومي في آسيا الصغرى . فانه ظل في حوزة السلاجقة حتى أتى المغانيون
في أواخر القرن السابع هجري أي حوالي سنة (١٣٠٠) ميلادية وهم فرع آخر من فرائد التتراتي
نزع منها السلاجقة واستولوا على آسيا الصغرى وشكلوا دولة عظيمة . وأسس دول الامايكة :

الدولة البورية حكمت في دمشق من سنة ٥٩٢ - ٥٤٩ هـ

الدولة الزنكية حكمت في الجزيرة والشام من سنة ٥٢١ - ٦٦٠ هـ

الدولة الأرتقية حكمت في ديار بكر ومardin من سنة ٤٩٥ - ٨١١ هـ

الدولة الخوارزمية حكمت في خوارزم من سنة ٤٢٠ - ٦٢٨ هـ

وغيرها كثير من الدول التي ظلت قائمة الى ان جاء المغول . فاكسحوها كلها واستولوا عليها .
وفي هذا الدور ظهرت حركة الاسماعيلية او الباطنية .

الاسماعيلية :

الاسماعيلية وتعرف أيضاً بالباطنية والחסاشين (١) مؤسس هذه الحركة :

الحسن بن الصباح . وأمه من أصل فارسي من مدينة طوس . وقد اتفق ان نسبته يرجع الى
ملوك الحميريين القدماء الذين كانوا يحكمون في جنوب الجزيرة العربية . وقد كان صديق نظام الملك
في المدرسة . وعندما قعدت به الهمة عن الوجود الى مرتبة عالية في الدولة الساجوقية آلى على نفسه
أن يعمل على تقويض دعائم الدولة العباسية . فالتحق بالخليفة الفاطمي المستنصر . واشتق المذهب
الباطني وتلقى عصر اسود الدعوة الباطنية . وذهب الى بلاد المشرق رسولاً من الفاطميين لئلا
الدعوة الاسماعيلية . وكان اول ما فعله ان استولى على قلعة الموت Alamut . ولحسن بها وهي
واقعة في شمالي حربي بحر قزوين على جبل البورج Alburj في موقع مرتفع حصين ذي «دش»
السر . ومنه أسس بث دعوته وينشر دعاته الذين كانوا على مراتب ودرجات :

اعلاها مرتبة «شيخ الجبل» وهو الرئيس الاعلى وكانت كتبه وطاقه وقلعه وكانت اشارة
منه نكفي لقتل من يريد وكان معظم اتباعه من الفدائيين . ويليها «داعي الدعاة» وهم ثلاثة برأسون فروع
الجمعة في بلاد الجبل . وكوهستان . والشام . ويليهم «الداعي» لكث ينتج لمن سبق ان ندرج في
مراتب الجمعية السرية . وكان عمله بث الدعوة وقبول المندوبين . ويليها «الرفيق» وهو الذي

(١) سمو بالחסاشين لاستعمالهم الخيش الخضر .

يتألف من رجبياً ميايى ، المدعوة السرية ، ومن هذا القسم تألف أكثر أعضاء الجمعية. وأخيراً الضالعية ،
الذين يرون تربية خاصة لينفذوا أوامر شيخ القبيل ، ويقاتلون بخناجرهم من يرد ، وقد قتل من
قبل هؤلاء الضالعين صكثير من السلاجقة والصلوح . وكانت العاليم تصدر بالتدريج وتبع ادق
المراسم ، والجميع مدمون بالخاصة العجيا الى من فوقهم .

وقد حاول السلاجقة منذ زمن ملككاه القضاء على هذه الحركة الخطيرة وحاربهم في قلاعهم
إلا أنهم لم يتمكنوا من استئصال شأفتهم ، وظلوا يعيشون في الأرض فساداً إلى ان قضى عليهم هلاكوا
فاجتاح قلاعهم وقتل أكثرهم ومن بقي منهم نشرق في سورية وثمان ، وزنجبار ، والهند . ولا يزال
عدهم في الهند عظيما ، ويختصمون وعيهم آغا خان ، الذي يدعي انه من سلالة الحسن بن الصباح
ويدعون اليه ضريبة من اموالهم يتفقها على حيلاته الخاصة في أوروبا .

اغارة التتر وسقوط بغداد

التتر والمغول

يتسب التتر والمغول الى أصل واحد وهو الشعب التركي ، وكانوا يسكنون اصقاع منغوليا
الشمالية الفاحشة ، في وسط آسيا ، ويعيشون حياة قبيلة قوامها الشجاعة وحب الغزو والغروسية
والصيد ، ويترغم من جهلهم القراءة والكتابة فقد حفظوا انسابهم ، ونوارثوا عاداتهم ، وتناقلوا
اخبار أبطالهم وسيرة كبار رجالهم ، وتناقلوها جيلا بعد جيل ، واشتهر من قبائلهم نيرون
Niroun التي انحدر منها جنكيز خان ، وكانت هذه القبائل بالنسبة الى المغول كالأولوة بالنسبة
لصدفها ، وكالثمرة بالنسبة الى الشجرة . وزايد عند هذه القبائل ، وتكاثر أفرادها حتى ملأت
السهول والبطاح ، وتفوقت على غيرها من القبائل النورية . واشتهر منهم أبطال اشداه منهم كوبلاي
خان Coublai عم جنكيز خان وتبائع الروايات عن شجاعته وقوة يده ، ومهادور خان
Bahadour والد جنكيز خان وكان ذا مكانة كبيرة في قومه ، ورئيس قبيلة من أشهر القبائل
المغولية ، وبنا كان عائداً من إحدى غزواته في سنة ١٢٥٩ م بعير خلفه الغنائم والاموال اذا
بالشهر يرف اليه ولادة غلام ثمرة يده التي بالهم ، وفسر ذلك المفسرون بان هذه علامة الفخر
والجود ، وانه سيكون من اعظم القواد ، فسادا قوميين . باسم رئيس القبيلة التي انتصر عليها ،
واشتهر فيما بعد بجنكيز خان .

جنكيز خان (تيموجين) :

تعلم تيموجين في حداثة أمور السياسة والحرب على امير المغوليين ، الا انه فجع بوفاة والده
وهو لا يزال بالغا في سن الثالثة عشرة ، فلم تطله قبائل آبيه ، وخرجت عن طاعته وانضمت الى

قبيلة مغولية أخرى تدعى « ناند جوت » ، وأحسن حفظ توحين مات رئيس تلك القبيلة من غير دارت
تمسكت والدة توحين « أم الفيويم Oulen Eke » بها لها من غيرة شديدة أن تستبدل بعض هذه
القبائل ، وزعم ولدها عليهم ، وتمكن توحين بماله من التقليل الرجوع والارادة القوية أن يستفيد
من خصوصيات القبائل بعضها مع بعض ، وأن يجمع كثير منها تحت سلطته .

ولقد وصف احمد بن عربشاه توحين بقوله : « وكان جنكيز خان ممتازاً على اقرباءه وورثته »
وحسن بيانه « فكر مصيب » ، ورأي صائب ، وحزم عجيب ، وعزم ثاقب ، وحجة باري الاملاك ،
وثبات بحاري الهالك ، وكان أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، أجهلاً لا يحسب ولا ينسب ، لا يطالع الا حبار
ولا ائقن في سياسة الممالك الآثار بل فرح ما قرعه من القواعد من صيغة ضكيرة ، وأترع ما ابتدعه
في تدبير الممالك من مطالعة هواجس ضميره ، فليس قواعد وشيد مباني ، وركب تجهيز المرايا
والجنود ، وربط عقود الجيوش والبنود ... »

وانضم توحين من قبيلة تاييجوت التي أسرته في صغره وتلقته صفوف المذابح ، فصارها
وتغلب عليها ورعى سبعين من رجالها في الماء الغالي وهم أحياء ، حتى هابته بقية القبائل المغولية
وخشيه زعماءها . وأخذ اسمه ينتشر في مشارق الارض ومنازلها ، ولقب اثر انتشاره على إحدى
قبائل التتر بجنكيز خان « أي الملك الأعظم » .

فتوحاته الشرقية

انضم الى جنكيز خان حوالي سنة ٥٩٠ هـ قبائل مغولية متعددة ، بعضها بالدم وأخرى بالحرب
وكثر أتباعه فخرج بهم لفتح العالم فسار أولاً جهة الشرق الى مملكة الصين ، وكان لامبرطورها
جزية على المغول يؤدونها في كل سنة ، فقطعا عنه جنكيز خان ، وزحف اليه بجيش بهد الزمان
وتقلب عليه سنة ٦٠٩ هـ ودخل باكين عاصمة مملكة ، واستولى على الأقسام الشمالية وأدمر ما يتوف
على ستة وأسمين مدينة بعد ان نهبا وأخذ كل ما يمكن حمله وأحرق القصبات والقرى التي مر بها
وسى النساء وقتل الرجال ، واستخلف ابنه في باكين وقتل راجعاً نحو الغرب ، بعد ان وطد
حكمه في تلك البلاد وخضع له سائر امرائها وملوكها .

تنظيمه الدولة :

اتخذ جنكيز خان عاصمة مملكة مدينة « قراقروم » وبدأ في تنظيم مملكة وفي نشر الأمن والسلام
في البلاد ، فحضى على النصوص وقطاع الطرق ، ومنع النهب والغارات ، وأمر رؤساء الولايات والممالك
بالحكم بالعدل بين أفراد الرعية والقضاء على المعتدين ، ووضع المنازعات والملازم والإشارات في الطرق
فأصبح الأمن والسكون يجلب على مملكته ، فلمه العلماء والكتاب والأدباء ، وأصبح له حاشية من

أكابر الرجال وأدكياه رؤساء القبائل وعقلاء الملوك . ولم يكن المغول خطا ، ولم يكتفوا
 بمعرفة القراءة ولا الكتابة ، فامر علماء ملكته أن يضعوا خطا سماء والخط المغولي ،
 نسبة الى قبيلته ، وسن لهم قانونا في كتاب سماء السياسة الكبيرة ، وكتب مواودة واحكامه بالخط
 المغولي ، وجعل احكامه مؤسسة على الاعتقاد بالله واحد وسلطة خان واحد تنتخبه الامة من العائلة
 الحاكمة ، وكان قومه سابقا على الخيرية ، فتركهم على ما هم عليه ، ولم يتعصب لغيره من الاديان
 ولا للملة من المال وركب حرية الاعتقاد للجميع . وجعل للأمراء والاشراف امتيازات عظيمة ، وأمر
 بقتل من زنى ومن اعتاد الكذب أو سحر أو نجس ، وأمرهم أن لا يميز أحد بالشرع على أصحابه
 وأن مرقوم ومم ياكلون فله أن يترك ويأكل معهم من غير إعتبار ، وليس لأحد منهم منعه .
 ومنهم من تفضيهم الألفاظ ووضع الألقاب ، وأما غلب السطان ومن دونه ويدعى باسمه فقط .
 والزعم القائم بعده بعرض العساكر وأسلحتها إذا أراد الخروج الى القتال . وحسب قومه على الزواج
 وأمرهم بالاعتناء بقرية الأولاد ، وأما يبيعهم ركوب الخيل ورمي القشاب ، وضرب السيوف والسباحة
 وغيرها من مقومات الحرب . . . ومنذ ذلك الزمان بدأ المغول يدخلون في طور الحضارة ، ويعتمدون
 من حالة البداوة التي كانوا عليها .

خروج المغول إلى البلاد الإسلامية

إن الأسباب التي دعت جنكيز خان وقومه الخروج الى البلاد الإسلامية كثيرة منها : أن
 السلطان علاء الدين محمد شاه خوارزم انتزع ملكه كثيرا بعد أن قضى على السلاجقة ، وأصبح
 يحكم على البلاد المعتدة من ما وراء النهر شرقا الى الري غربا . وسقطت في قبضة يده بلاد سجستان
 وكرمان ، وطبرستان ، وخرجستان ، وبلاد الجبل ، وخراسان وخراس و ما وراء النهر ، وقسم من
 افغانستان وبعض الهند وبعض العراق . وطبع خوارزم شاه وهو لقب السلطان علاء الدين
 في أن يتصرف بذكر اسمه على منابر بغداد ، فيطلب له بدل السلاجقة عليها وهي الخليفة الناصر ذلك
 الناصر ذلك . وكانت العلاقات متوترة بين الرسامين لطبع الخليفة في بعض بلاد خوارزم شاه
 ورده هذا منها . لما كان من السلطان علاء الدين إلا أن قطع خطبة الخليفة الناصر في بلاده ، وأبى
 مكانه أحد لمراد البيت العلوي ، وسار بجيوشه نحو بغداد ليؤذي الناصر ويولي مكانه هذا العلوي
 عندئذ بدأ الناصر يسترضي خوارزم شاه ويستعطفه ، فم يجده ذلك نقدا ، ولولا زيادة الجو وكثرة
 التلوج التي اضطرته لتوقف له دخل بغداد .

شعر الخليفة بالخطر الدائم فاستنجد بالمغول ، كما هي عادة الخلفاء العباسيين بالاستغاثة بالقوى
 الأجنبية عندما يضعف سلطانهم في بلادهم ، فخرج جنكيز خان بجيوشه ملبيا طلب الخليفة واجتاح

ويقال ان السيف الذي دعى جنكيز خان لطردج من بلاده هو انه امر جنابه من اكبر وجاله
وامرائه في سنة ٦٩٥ هـ أن يجزوا غايه تجاربه الى بلاد المسلمين ، ليربطوا القطران بملاقات تجاربه ،
و لكي تفتح المسالك والسبل وتبادل البضائع بين المارين ، وتكثر المعاملات والاعمال بين الولايات
فامتثلوا لأمره ، وجيزوا غايه مؤلفه من حدود نفس وعدهم الكثير من الأموال والغنائم والأمنه
وكتب لهم جنكيز من اسم وخوارزم شاه كرام نظم في الترويه ، وان ترويا لهم ولديهم المظلم
والملوك وان تسهل عليهم ، سارت المائتة مجازة بلاد ما وراء النهر وخرقند وخراسان
الى مدينة من بلاد الترك تسمى «أرغر» وهي مئتين حدود خوارزم شاه ، وكان له غايه فيها يدعى
«نادر خان» فحبسهم عنده ، وارسل الى خوارزم شاه يطلبه بغيرهم وما حريم من الأموال الكثيره
والمناجر الخيمه ، فصره ان يقتلهم ويأخذ ما عندهم من الأموال والبضائع ويهتك اليه . فسل ما أمره
«نورج» غايه الذي محمد البضائع على تجار بخاري وخرقند وأخذ منهم ثمنها .

بلغ الخبر جنكيز خان غضباً شديداً ، وفوت لورنه ، واستشار قوامه واداهه قوامهم
على ان يرسل رسالة الى السلطان خوارزم شاه يتقدم بها ويخاطبه على عمله ، ويشوعده بطرب انهم
يرسل له حاكم ارار . لما كان من خوارزم شاه الا ان قبل الرسول وحاق لما اطاعة الذي كانوا
معه ، وظلوا وحوهم بالسوءه ، وامدح الى جنكيز خان ليعذره بما فعل برسوله ولما فعله له سائر
اليه ولو كان في آخر الدنيا ليتقم منه وإفاته . وكان هذا العدل دبراً لجنكيز خان ولعلها لوجه
شاره خوارزم شاه .

كان من الطبيعي لجنكيز خان وقومه ان يجزوا من سائر بلادنا القاحله وهدموا ارض
الاسلام المخصبه الفامره بعد ان تكاد مدمم لدرجة ان شافت اراضيهم بهم وهدمت . عن اطلعهم
وسد حاجاتهم لا سيما وقد دناهم خاينه بخداد والظلم . خوارزم شاه . فخرج يقوم بضمير ايت
الاخير في كتابه الكامل بهم ، لا يحتاجون الى حيرة ومدد بجمع ، فانهم معهم الاغنام والبقر ومع
ذلك من الدواب يأكلون شومها لا غير . واما دوابهم التي بركنها فانها تكفر الأرض نحوها
وتأكل عروق الزايت ولا تعرف الشجر .

وكان جيش جنكيز خان بعد الزمان كثيره وجيشه من اشجع الناس وامهرهم على القتال ولا
يعرفون هزيمة ، ويملكون ما يحتاجون اليه من السلاح بالجمع .

استمد خوارزم شاه لأمير وجين جيشاً غزابه الطرفان تركستان ونهب بعض بيوت التتر
وحمل ما فيها من النساء والصبيان ، فقدمه جميع التتر وجرت موقعة شديده بين الطرفين كانت
جنكيز خان غايه عنها استمرت ثلاثة ايام بلبايتها خسرها الطرفان خسائر فادحة والصعب

الفرخان بعد هذه المعركة يرجع خوارزمشاه متخفياً خفية حذرة إلى بخارى وسرع ما مضت حدود
بلاده ووراد في تحصينها ، فخرج على أهلي بخارى وسرع ما مضت السلاح والاستعداد إلى سرار ، وعسكر
بجندة يقرب بلخ .

ثم جنكيز خان بعد خوارزمشاه على ارضه مسار نحو الغرب وأخذ بفتح المدن والامصار
وبفتح القلاع وقتل الرجال وسبي النساء والأولاد وسب ما يساقطه في طريقه من الأموال والاشياء
استولى على بخارى سنة ٦١٦ هـ وهدم قاشها ونهب ما فيها وأخذ الرجال اسرى بعد ما وهدم
الامان وسبي النساء وترك المدينة طاعة للبركات . وساق من معه من الاسرى املده على اقبح حال
وتوجه نحو سمرقند . وكانت قصبة ما وراء النهر وفيها من المذبح خسون الفاً محاصرون في النملعة
فخرج اليه من اهالي سمرقند دواء البلد والقوة والدين وساروا عسكر جنكيز خان فحاربوا هؤلاء المذبحين
بل نهبوا املدهم حتى امدوهم من مقابلهم وكان المفلح قد استدار كثيراً بأبيهم من ، خانهم ، فلما
جاءوا والسكران خرج عليهم وحال بينهم وبين البلد وكثر عليهم الباقون من الامام ، وعلجوا السيف في
رقابهم من كل جانب وقيل ، مطبوع . ولما رأى ذلك الباقون بالذ من المند والعلمة طمعت نفوسهم
وايقنوا بالهلاك . فقال المند نحن من جنس هؤلاء ولا يفتنوننا لاننا اموالكم مستاهم ، فطلبوا الامان
فمنهم . وفتحت البلد ، فخرجوا الى المفلح باعيلهم وأموالهم فطلبوا عزمهم نزع سلاحهم
تزويعها ، فوضعوا السيف في رقابهم وقتلهم من آخرهم . واستولى جنكيز خان على سمرقند سنة
٦١٧ هـ وقتل جندة مثلها فلو بخارى فدوى اسم المفلح في البلاد فذبح منهم الناس وملك قلوبهم
ربياً وسيراً ولم يعد احد يستطاع مقابلتهم .

فترك جنكيز خان في سمرقند وقسم جندة بين اولاده ، وأخذهم الفتح البلاد وسير جندة سميت
والنهر القوية ، فلاحقة السلطان خوارزمشاه الذي انهزم اعلمهم لا يري على نهر اركا بلاد
طامة المفلح ، والتجأ الى جزيرة في بحر قزوين وتوفي فيها سنة ٦١٧ هـ .

كانت البلاد تسقط بيد المفلح دون حرب ولا قتال فاستولوا على خراسان واري والنهر عات
وبلاد الكرج وخضع لهم الروس والقباق ، وداروا الباقين ان مئة أخرى من التتر استولوا
على بلخ سنة ٦١٧ هـ كما استولوا على طوس ومرود وضاير وهران . وكانوا يستخدمون
اهالي البلاد في حروبهم ، ومن امتنع قتلوه ، وسارهم جلال الدين بن خوارزمشاه ودافع عن
غزاه وانتصر عليهم . عندما تنفس المسلمون الصعداء وقويت قلوبهم وسفلوا ان التتر يمكن ان
يطلبوا . الا ان خلافاً نشب بين جلال الدين وبعض قرائه من أجل الذنائب انقسم بها جيشه ونصف
عن حدة المفلح عن بلاده وانهزم الى الهند فاراً من وجه جنكيز خان .

وتم لجنگیز خان تأليف مملكة عظيمة واسعة مترامية الأطراف تمتد شرقاً من بلاد الصين
وتنتهي غرباً الى بلاد العراق وتمتد شمالاً الى بحر قزوين وبلاد الروس وتنتهي جنوباً ببلاد الهند .
ولما شعر جنگیز خان بقرب أجله قدم تاسكته بين ابنته الأرملة وم : جوجي ، وجفلساي ،
وتولي ، وداو كدای . ولشده عليه المرض وتوفي سنة ٦٢٥ هـ ١٢٢٧ م .
هو لا كيو وسقوط بغداد

هو لا كيو حفيد جنگیز خان توفي بلاء خراسان وما وراءها من البلاد بعد وفاة أبيه — تولي
خان — سنة ٦٥٥ هـ . وكان يحكم الدولة العباسية في ذلك الزمان الخليفة المستعصم (٦٥٦-٦٥٩ هـ)
الذي كان ضيق الرأي ، لين الجانب سبل الاخلاق ، قليل الخبرة بأمور المملكة ، مطموئاً بهذين
مريب في النفوس ، ولا مطلع على صفات الأمور ، وكان يقضي أوقاته بمتاع الاغني ، والتفرج على
المساحرة ، وعرف بهذه بشتوب الفتن والاضطرابات لاسباب السنة والشيمة . وقد حدث في أواخر
عمره أن أثار أهل السنة على الكرخ (وهو حي الشيمة في بغداد) فهاجموا أهلها وأسرفوا في قتلهم
ونهب دورهم . وكان ذلك بامر أبي منكر أحد أولاد الخليفة المستعصم ، فاستاء وزيره مؤيد الدين
محمد بن الملقمي — وكان من الشيعة — من هذه المذبحة ، وكان هو لا كيو يحرصه على الشخص
الى بغداد وطلبه فيها . فسار بجيوشه ليرد ذلك ببغداد ، وفي طريقه قضى على الاحمديين وهدم
قلاعهم . وفي منتصف محرم سنة ٦٥٦ هـ زل على بغداد واصب آلات الحصار حولها ، وانظرها
بوابل من الحجارة والفضة اشتعل ، حتى أحدث فجوة في أسوارها ، فطلب الخليفة المستعصم
الصلح على شرط أن يرضى على حياته ، وحرارة سكان المدينة ، واستأنه بتقويض من وزيره ابن الملقمي
في الخروج الى مسكره . فان له مصيبة أخرى وولده وحاشيته الذين كبر القضاة والامراء
ودخلت جيوش هو لا كيو بغداد ، وحملت فيها النيب والقتل . وظلت شوارع المدينة تسلب فيها
الدماء ملوكة بدماء يوم ، حتى لم يطلع ماء دجلة لتستأبيل بالون الاحمر ، وظلت ريح التخريب
والدم تصطب بالمدينة ستة اسابيع حتى انهارت القصور البقية وتفرقت المراجع المقدسة .
وانسراج الفضة اما بالشر او بالمار من أحد قبائل النخعية . وانتهت النيران نارج قرائع العلماء
والأدباء . والقيت الكتب التي بها كتبتما الدين البار أو بناراً مياه دجلة وهكذا فقدت الإنسانية
كثيراً من طوائف قرون ، وسيت بعرة الأمة تمام بلاء . وقد عبر الكاتب الانكليزي براتون عن
هذا الحادث بقوله : « ان أسوأ المصروف على بغداد كان ضربة قاضية على الثقافة العربية : فان نهر
دجلة الذي يمر في بغداد ظل بضعة ايام اسود اللون من غير انطرطات التي التبت فيه : » ويقول
ابن الاثير في ذكر هذا الحادث : « ان النار التي في المائدة المنصية ، والصبية الكبرى ، التي

دفعت الألبان والأتالي من مطها ، تحت الخلائق ، وحدث المسلمون ، لم يقل قاتل ان العالم منذ خاني
الله سبحانه وتعالى حتى آدم الى الآن لم يسطروا بطلها لكان صادقاً ، فان التواريخ لم تتضمن ما يقاربها
ولا ما يدانيها ، ويقول ابن خلدون : إن ١٠٠٠٠٠٠٠ هلكوا في تلك المذبحة خلال ستة
أسابيع .

وقتل هو لأكبر الشبيبة المستعصم وأولاده وكثير من افراد أسر تارو بعض حاشيته ، وقضى على
الدولة العباسية التي ظلت قائمة نحو ٥٥٥ سنة .

وحده هو لأكبر جيشه نحو بلاد الشام ، وحرب المدن التي مربيها لأصحابها الى (٥٠)
العام من مطها ، والسطر هو لأكبر أن يعود الى بلاد فارس عندما لم يبقه أسير ، وتولد لها
من جيشه ليس فتح سورية ، الا أن هذا الجيش هزم وغرب قرية هـ بين جالوت ، على مقربة من
الحاضرة بفسطاط من قبل السلطان ، يونس ، من سلاطين المايك في مصر ولاسحق بيبرس المنيول
وطردهم خارج بلاد الشام ، والتقى البلاد من ترم .

استدعى بيبرس أحد أفراد البيت العباسي ، الذي كان قد لجأ من مذبحة المنيول الى مصر ،
واستقبله استقبالاً عظيماً . وبعد أن أجريت المراسم الرسمية بأثبات قبده أمام قاضي القضاء ، جوع
بالخلافة وتلقب بالمستعصم بالله ، وأول من ألقب به من قاضي القضاء من بعد ما كبار العلماء لاشراف
حسب درجاتهم وكان ذلك في ٢٣ رجب سنة ٦٥٨ هـ ، وقضى اسم الخليفة على العملة ودعي له في
الخطبة ، والزمهرن الخلافة العباسية من بعده في تلك المايك مصر ، وأصبح مركزها اتاهرة وقد
بقيت الخلافة مدياً ديداً عنه ، وتركت السلطة العملية لسلاطين المايك ، وبقي الأمر كذلك حتى
دخول السلطان - أم العباسي الى مصر ووقف له على دابة المايك ، وأخذ الخلافة الى الأتراك العثمانيين ،
وقد زالت الخلافة نهياً من السنين مدانك . ثم في الحرب العالمية وأعلنهم النظام الجمهوري - ١٩٢٣ م .

أسباب سقوط الخلافة العباسية :

وجع اسباب سقوط الخلافة العباسية الى عدة أمور منها :

- ١ - ضعف السلطة البرية وقهرية العناصر الأجنبية من فارس ، وترك ، وند ، ومنول .
- ٢ - اختلال وجاه الدولة على السلطة والرياسة السياسية لأسرة الوزراء ، والحجرات ، والناذرة
تجاسد المراتب على الأمن وإيلام اللوحى في جميع أنحاء المملكة .
- ٣ - اختلاف البيت العباسي وانطباع بعض الملوك لأهل كاتفاهر مثلاً ، مما قلل هيبة
العباسيين في أعين الناس ، وسبب عدم احترامهم لهم .
- ٤ - كثرة الممارسات الخبيثة بين السلاطين ، بين السلاطين وغيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى .

وبين المسلمين وأهل الفسقة كل ذلك مما أوجد هوة سحيقة بين أفراد الدولة العباسية .

٥ — قيام الحركات الدينية من قبل الخوارج ، والمعتزلة ، والرازيكية ، والقراءطة والاسماعيلية ، والشيعة الذين كانوا يطالبون بالخلافة محانت في عضد الدولة وجعلها في وضع تيجر فيه عن المناومة .
٦ — استمرار الحروب الخارجية مع البيزنطيين والسليبين والترك ، مما أهلك قري الدولة وأخذ كثير من مائتها .

٧ — انحلال الإدارة بسبب فساد نظام ولاية العهد ، وتوليته لأكثر من شخص واحد ، وتدخل الختم في شؤون الدولة ، ومضطرة العمال والوزراء ، وسنة المداكمة السياسية .

٨ — قيام الدويلات المستقلة في مختلف نواحي الدولة ، وانفصالها عن الخلافة المركزية في بغداد . ومنازعتها مع السلطة المركزية وفيها بينها .

٩ — تأخر الحياة الاقتصادية بسبب النظام الاقتصادي الذي انتشر في الدولة ، وكثرة الضرائب ، ونسبيل أقبية الماء ، وانقطاع سبيل التجارة بسبب الاضطراب وعدم الأمن في البلاد . وانقشار الأوبئة والأمراض في كثير من المنين .

١٠ — تفاقم الفساد الاجتماعي من تسري ذواق جوارح وخصوان ، وتدخل الخدم في شؤون العائلة ، واستيثار كثير من الخلفاء وانقسامهم في البهر والمجون . . .

خلاصة الدولة العباسية :

تولى العباسيون الخلافة الإسلامية سنة ١٣٢ هـ حيث يوجب لأولهم أبي العباس عبد الله الملقب بالكرمة ، واستمرت خلافتهم إلى سنة ٤٥٩ هـ حيث سقطت بيد الله المستعصر قتيلا بن يدي هو لا كبر الخواري من ألقاب جيتكم خلد ، حسب الزوايا السود من الشرق فألعدت في العباس على عرش أبي أمية ، وجاءت الزوايا التتر من الشرق بثلاث سرودهم من بغداد وهرة الشرق ، في سنة الدنيا ، فمن الشرق أشرق كوكب سمد من الشرق ظهر نجم نصهم ، استمرت خلافتهم ٥٢٤ سنة استعاض فيها منهم ٣٧ خليفة فتوسطت مدة الخليفة منهم نحو ١٤ سنة وأكبر مدة كانت مدة الخليفة كانت خلافة ٤ سنة وأقلها خلافة ابن المعز وكانت يوماً واحداً ، وكان من أعظم أسباب انحلال دولهم ضعف العصبة العربية وتحكم الامم عليهم وفساد الاخلاق .

الباب الخامس

الدول المستقلة

لا يمكننا ان نذكر جميع الدول التي استقلت عن المسلمين لان ذلك خارج عن نطاق برنامجنا .
وقد اعدنا سابقاً بصورة موجزة الى بعض هذه الدول وتبين لنا معنى صلاحيتها بالامانة السياسية .
وسنذكر فيما يلي بعض الدول المستقلة بصفة اقل من غير في الدولة العثمانية ومتجهين نحو الغرب
بحسب الترتيب الجغرافي .

١ - الدولة الفرنجية

٣٥١ - ٥٨٦ هـ او ٩٦٧ - ١١٨٦ م

الدولة الفرنجية من اولى تركي مراكزها بمرتبة غزاة في اقلها من سراسر الدولة العثمانية .
تركها كاليها في عهد السامانيين في السنين بدأ سبيلها العسكرية في اقلها من كتابية لعلها الاثر
ثم ارتقت وابتدأت الى قيادة فرقة الخرس . وفي سنة ٣٥٥ هـ حاكمها على سراسر ان خرج
على الدولة السامانية وانتقل الى المناطق الشرقية ، واستولى على غزاة في اقلها من وجعلها مركزاً
لحركاته ، واعتصم بها من جهوش السامانيين . وفي سنة ٣٥٢ هـ .

خلقه ابنه اسحاق ولم يكن كاليه قوة والدار ، فاستولى على المناطق : سبككين و احمد
فكان الشكين و صهره . وهو الرئيس الحقيقي للدولة الفرنجية . كان ما سطر ، سنة ، ودين ، وحرته
رأى ، وحرز ، اكتسب حدة الناس وحصل قسمة كاليها في الملك . وكان يدبر من اقلها من
ما يعمل منه فاما اهلهم في كل اسبوع مرتين . وكان جده و ابيه طاعة طاعة ، فقامهم فاجاورهم
بلاد الهند حتى وصل الى البنجاب ، وخلفه ما كان ملك البلاد ودفعوا الى الخزانة .

وفي سنة ٣٨٤ استجده الأمير نوح في سنة ٣٨٤ الساماني لمضغ الفخ في بلاد خراسان .
فبعده اليه بعض كبير وفتح القضاة واستولى على سراسر ان كاليها الأمير حج بالثانية و بكر الدولة
واعطى ابنه عمر ولاية سراسر ان و علاء سبيل الدولة ، و ابيه الخليفة العباسي في سبككين
و بكر و نوح له الخلع والراية . وفي سبككين سنة ٣٨٧ هـ بعد لابنه الصغير احمد بالملك .
فلاعه اسود محمود على السلطة وكتب اليه من بكر يقول : ان اذك ابا بعد اليك بعض سنة .
وذكره ما يعين من علاء الكبير على الصغير . وكانت منه الرضا والمعاد ما يحسنه من تركها اليه .

ثم جعل ذلك اسمها «فتش التلال عن الأسرار» ، فكتبوا فيه الحميد والستوى على خزنة ، وطلعت
أسنة مصادرة سنة ١٠١٠ هـ ، ولا تملك الأسرار إلا إلى بلخ ، وتكون القطعة في سرستان من السامانيين ، وكتب
فيها سنة ١٠١٠ هـ ، فطلع عليه الخليفة لقب «شيخ الدولة» ولقب الله ، وفتح له أعمال البلاد
المجاورة ، ودخلوا في طاعته .

أعمال محمود الغزنوي الخيرية

توجه محمود نحو المشرق ، وفتح بلاد الهند ، وقام بما بنوف من (١٧) حملة إلى تلك البلاد ،
وسكن في أنائها إلى نهر الفاج والستوى على البنجاب ، ولاحور ، والمثلث ، وقسم من بلاد الهند
وكان قسمه الفخروحات أربعين في نشر الإسلام في تلك الجهات وقسم مذهب السنة بها . وخرب
محمود كثير من ممالك الهند وسلم الإسلام التي بها فلقه الهند «بمعظم الإسلام» أي (بالهندستان)
والهند أيضاً «والغاري» وهو أول من لقب من المسلمين بهذا القاب وسكن من تلك الممالك والبلاد عظام
طليعة ، أعياها في سبيل الدين الاسلام وحضر الثقافة فيها . وبذلك وما محمود ملكه من ناحية الشرق
الثقت جهة الغرب ، والستوى على الري والبلخ ، وسمرقان من البويعين ، وفتح له بلخ طبرستان ،
وجرجان ، وأصبح بذلك ثائرة ولعبة .

أعمال محمود الثقافية

أهم محمود في إصلاح مملكته ونسجها لاسما خزنة التي كانت تافس بغداد وفرطية والقاهرة
بجمل ما فيها وقام الحركة الثقافية فيها فاجتلب إليها اللغة والادباء من عرب وفرنس وهنود ، وفتح
بذلك لرجال العلم والآداب قصده الشعراء أمثال الشاعر الفارسي الفردوسي ، صاحب الشاهنامة
وهو ملحمة مؤلفة من سبعين الف بيت شعر فجمعها مؤلفا لسلطان محمود ، فكانت طليعة سبعين الف
درهم فاستقل الشاعر المبلغ وخرج من عنده ناصباً ، عسباً أيام قصيدة شديدة . والشاعر أيضاً في
بذلة المؤرخ «أبو الرخمان البيروني» صاحب كتاب «الآثار الباقية في القرون الخالية» ، والمؤرخ
الهند هو الشاعر أيضاً المؤرخ «المسي» الذي كتب تاريخ السلطان محمود وهو «واقعة اليعقبي» والشاعر
غير هؤلاء كثير من شعراء وأدباء زمانهم بسلام المسلمين محمود الغزنوي .

انقراض الدولة الغزنوية

توفي السلطان محمود سنة ٤٢١ هـ وبه بالملك من بعده لابنه محمد ، وكان أصغر من أخيه مسعود
فتنازع الأخوان على الملك ، وأتصر مسعود في هذا النزاع وأخذ الحسب من أخيه . كان مسعود
شجاعاً قوياً شارك في سبع خطوات إليه في فتح بلاد الهند ، وفيها وراة النهر ، إلا أنه اصطدم
بالسلاجقة ، وجرت معركة بين الطرفين بقرب مدينة هراء سنة ٤٣١ هـ دارت الدائرة فيرسا على

الغزنويين ، ومنذ ذلك الوقت بدأ المذهب ينسرب الى قلب الدولة الغزنوية ، وأخذ أفراد البيت الغزنوي يتنازعون على السلطة ، فاندخلت بينهم بعض المناطق الهندية ، ولشككت فيها إمارات مستقلة . وكان إقيام الدولة السلجوقية في الشمال ، والدولة الغزنوية من الجنوب الغربية القاضية على الدولة الغزنوية ، فاندخلت أملاكها تتنافس وتتنسرح لتأين الدولتين حتى لم يبق لها الا بعض المراكز في الهند التي سبقتها نهائياً في زمن فتح الدولة والخروج منها سنة ٥٨٢ حتى بد الدولة الغزنوية .

ان أهمية هذه الدالة ترجع الى ثلاث نواحي :

اولاً الى التوسعات التي قامت بها في بلاد الهند

ثانياً الى تسرعها الاسلام والثقافة الاسلامية في تلك البلاد ، وأصبح يوجد اكثر من ثمانين مليون مسلم في بلاد الهند والسند في الوقت الحاضر

ثالثاً الى الحركة الثقافية التي احدثت في غزنة ، وتوكلت لنا زروة أممية وعلوية قيمة .

٣ - الدولة الحمدانية

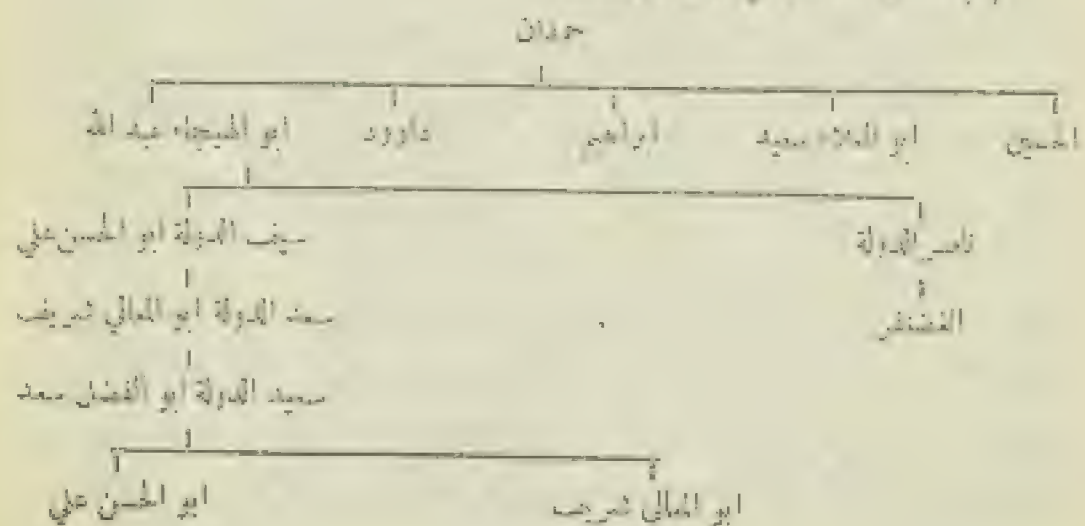
٣١٧ - ٣٥٩ هـ - او ٩٢٩ - ١٠٠٣ م

الدولة الحمدانية من اصل عربي ، قامت في الموصل وحلب (١) وحسبكام اولاً من حكم الحمدانيين في الموصل ، ثانياً عن قيام دولتهم في حلب .

الحمدانيون في الموصل

نسب هذه الدولة الى ربيع عربي ، من قبيلة نقيب اسمه حمدان بن حمدون استقل في سنة

(١) الاسرة الحمدانية في الموصل وحلب :



في سنة ٢٨١ هـ في قلعة ماردين على حدود أرمينية . وكنس بها ، وكان ذلك في خلافة المعتضد فلما علم الخليفة العباسي بخبره جيز جيشاً كبيراً سار به إلى ماردين ، وانصل الخبير بحمدان فانهزم في حرف الليل وترك القلعة لابنه الحسين ، الذي دافع عنها دفاع الأبطال . ثم استطاع الخليفة أن يستولي عليها ، ورجع بجيشه إلى الموصل ، وكتب إلى حمدان يطلب إليه الخضوع فلم يستجب . جيزه للمرة الثانية ، وانطأ امره بغير واحد من كبار فواد الترك ، وسار هو على رأس الجيش إلى ماردين ، وأخضع ابن حمدان واضطاره لأن يفتح باب القلعة للخليفة الذي لم تكده قطاً خيولته أرضها حتى أمر بهدمها ، بعد أن قتل كل ما فيها من ذخائر ونفائس إلى بغداد . وأرسل من يتعقب حمدان . وقبض عليه ، ووجه في السجن .

وفي هذه الفترة ظهر في الجزيرة الفراتية خلوجي يدعى هارون الشاري ، كان رجلاً مغامراً ولديه قوة كبيرة ، ورجال أشداء ، وكان لا أرسل إليه الخليفة جيشاً هزمه . قرأى المعتضد أن يستعين بالحمدانيين ، وإن يضرب الحديد بالمدح . فندب الحسين بن حمدان لهذه المهمة ، وقال له الحسين إن أنا جئت به فلي ثلاث حاجات عند أمير المؤمنين إحداهما إطلاق أبي ، وإحداها أن تكرها بعد عيالي . فأجاب المعتضد إلى ذلك . فضى مع حمدان اختياره حتى أتته ، فصار به وهزمه ، ثم مال إليه حتى ظهر به ، فأخذه أسيراً وأضره المعتضد ، فخلع الخليفة عليه وطوقه وخالع على إخوته ، وأمر بذلك أبيه والتوسعة عليه والأحسن إليه ، وبدأ منذ ذلك الوقت يتأق بهم الحمدانيين ويزداد نفوذهم . توفي المعتضد سنة ٢٨٩ هـ وخلفه ابنه المكتفي ، وسار على خطة أبيه من الثقة بالحمدان . قرأى أبو الهيثم عبد الله بن حمدان ولاية الموصل وإمالتها ويعتبر أبو الهيثم المؤسس الحقيقي للدولة الحمدانية . استعان الخليفة به لأخضاع الأكراد ، فقام بالمهمة أحسن قيام ، وأجبرهم على الخضوع والاسلام . وكان أفراد البيت الحمداني ثائرة بثورون على الخلفاء وأحياناً يتفقون معهم لاسية الحسين بن حمدان الذي كان يطلع دائماً في ولاية من العباسيين ولما فشل في مساهم أخذ يدس الدسائس ضدهم ويتآمر عليهم ، حتى علم القنندر بأمره فقتله . أما أبو الهيثم فقد مرل مرات عديدة عن ولاية الموصل ثم أسيد إليها إلى أن توفي سنة ٣١٩ هـ ، وتولى مكانه ابنه ناصر الدولة ، وكان شديد الهمة ، صلب الفؤاد ، أخضع نورات كثيرة واستقل في الموصل ، وجلس عن الخليفة الراضي الأموال وانصل عنه . فجيز الخليفة جيشاً بقيادة أبي الغلاء سعيد بن حمدان ليحارب أخيه في الموصل ولما التقى الجمعان قتل أبي الغلاء سعيد وتفرق جيشه . فسير الخليفة الراضي وزيره ابن مقله بجيش كبير استولى به على الموصل وحبس خراسياً ، وهرب ناصر الدولة متوغللاً في الجبال ، وما أن عاد ابن مقله إلى بغداد حتى رجع ناصر الدولة إلى الموصل . وطرد طرد الخليفة وأعان ولابته من جديد .

ساعت الحلة في هذه الفترة في بغداد ، وهم العرب والوزراء يشاركون على منصب أمير الامراء
عادل ناصر الدولة يلقب بين الدلاء ، وغرب من الخليفة الثاني ، وزوج ابنته من ابن الخليفة ، وعند
ما طلع البردي في الاسواق على هذا السجود الخليفة الثاني ناصر الدولة الحمداني ، فأرسل اليه
أخاه علي بن رستم جيش كبير لم يكاد يصل به الى تكريت ، حتى انتهى بالخليفة وابنه رائق
هناك الى الموصل ، وهنا قرر ناصر الدولة قتل ابن رائق وطلع الخليفة على ناصر الدولة لقب أمير
الامراء ولقب أخاه علياً بسيف الدولة ، وعاد الخليفة يرافقه ناصر الدولة وسيف الدولة الى بغداد ،
وبكنا للخليفة مثله في ناحية أرباعه ، وساروا البردي الذي نزع الى واسط ثم الى البصرة ، وبعد
حكم دام سنة في بغداد خرج فيه ناصر الدولة عن القيام بمهمة أمير الامراء اعتزل هذا المنصب
ورجع الى الموصل ، فاستأثر الخليفة الثاني أكبر قواد الدلم ووزون ، لهذا المنصب ، ثم استوحش
منه وترك بغداد ملتجئاً الى ناصر الدولة ، فاجب به توزون واستولى على الموصل بعد معركة دامية ،
وهرب الخليفة وناصر الدولة الى نصيبين ، وجرث وسانط الصلح بين الطرفين ، انتهت بأن يدفع
ناصر الدولة في كل سنة مبلغ ثلاثة ملايين وسبعة آلاف درهم الى توزون ، وتوفي ناصر الدولة سنة
٣٥٨ هـ بعد حكم دام (٤٠) سنة ، استولى سلاله على الموصل ، ودار بكر ، ودار ربيعة ، وتولى
منصب أمير الامراء ، وبقيت زمن حكمه لم يخرج ما سلت اليه الدولة الحمدانية في الموصل .
ساعة ابنه المنصور الذي حكم من سنة ٣٦٩ هـ ودخل في مساعدة البويهيين الذين تغلبوا على
بغداد ، وادبع من جاء بعده من الحمدانيين عمالاً عند الدولة البويهية حتى سنة ٤٦٥ هـ .

الحمدانيون في حلب

إن أهمية الحمدانيين ترجع الى الدور الذي لعبوه أيام حكمهم في حلب ، وليس الى زمن حكمهم
في الموصل ، وذلك لسببين أولاً : لما قام به سيف الدولة في الدفاع عن البلاد الاسلامية في وجه
البيزنطيين ، ثانياً : لشخصية سيف الدولة الفذة وعلاقته على الانبياء والملوك ، ورعايته لهم واستقبالهم
في بلاطه بخلق ، والحدائق الاسواق عليهم . ولقد كان السبب في شهر سيف الدولة وعظم اسمه في
سجل التاريخ .

سيف الدولة :

ولقد سبب الدولة أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان الثاني سنة ٣٠٣ هـ في ميافارقين أشهر
مدن ديار بكر ، واستولى على حلب سنة ٣٠٣ هـ ودخلها فقام بعد ان انتزعها من أحد قواد الاخشيد
سيد مصر ، فأرسل له الاخشيد حملة كبيرة بقيادة أكبر رجالة كافور ، فالتقى الجمعان بالقرب من

حصن . فانهزم كافور وتبعه سيف الدولة الى دمشق وجرت معركة انكسر فيها سيف الدولة . وجرى صلح بين الطرفين على ان تبقى دمشق وما في جنوبها بيد الاخشيديين ، وبأخذ سيف الدولة حلب وحمص واماكية . وبعد ان وطد سيف الدولة مركزه في الداخل التفت لقتال اعدائه البيزنطيين في الخارج .

حروبه مع البيزنطيين :

قاد سيف الدولة الجيوش بنفسه لقتال الروم ، ولم تكن تحضي سنة دون ان يجري قتال بين الطرفين . ولم يكن في جميع حروبه موقفاً ، فكثيراً ما كان يهزم امام عدوه نادياً بنفسه من الموت إلا انه قام بواجبه كأمير عربي حاد الذراع عن بلاده وكان يقابل الثغور مع الروم ، نصراً تسقط بيده ، واخرى يتزاحمها عنه . فكانت مرست ، وطرطوس ، ونيرشة ، وعلانية ، ومصبصة ، والحديث ، وعين زربة وغيرها تعالي أشد البلاد من هذا النزاع . ولا يستأ ان نتكلم عن كل هجوم قام به البيزنطيون ، او كل معركة خاضها الأمير الحشاني ، وإنما اكتفى بذكر حادثتين الأولى انكسر بها سيف الدولة على اعدائه ، والثانية اجتاح بها الروم مدينة حلب ، اثنتين الاخر الذي كانت تجري تلك المعارك على كلا الطرفين ، ففي سنة ٣٥٣ هـ غزا سيف الدولة البلاد الرومية وكان له بها نصر عظيم . وقتل في تلك الواقعة قسطنطين بن الدمشقي ، وقد عظم مقتله على ابيه . فجمع سائر الروم ، والروس ، والبلغار وغيرهم ، وقصد الثغور ، فصار اليه سيف الدولة ، فالتفوا عنده المحدث في شعبان ، فاشتد القتال ودير الفرقان ، وكانت العاقبة للمسلمين . هزم الروم وحل منهم ومن معهم خلق عظيم ، وأمر سير الدمشقي وابن ابنته وحكمتي من عارقه . والدمشقي سجد الروم الرئيس الأكبر لقسطنطين ، وبالطريقة فواده . والحادث الثاني الذي يظفر عليه الروم على سيف الدولة هو انه : في سنة ٣٥٦ هـ استولى ملك الروم على مدينة حلب حاضرة سيف الدولة ، فخرج منها سيف الدولة مهزوماً بعد ان قتل أكثر اهل بيته ، وطلب الدمشقي بأموال سيف الدولة واستعته وكنوزها ، وحرب داره التي كانت بظاهر حلب ، وس من حلب وحدها بضعة عشر ألف من حصينة ، وقتل أكثر من ذلك . ولما رأى مع الروم ما يسلون عليه فأنهم أمر الدمشقي بإحراق الباقي ، وأحرق المساجد وأقام بحلب تسعة ايام ، ثم لواء الاصراف منها ، فلصرف غرماً على العودة وظهر بذلك شبه الروم على المسلمين سنة . . وسب وسعان كافة البيزنطيين على المسلمين بموالم ان الروم كان يحكمهم أباطرة من الأسرة المقدونية كما مر معنا التي سكنت ما بين سنة ٨٦٨ - ١٠٥٧ م واشهر منهم يوسفور لوكاس ، وباسيل الثاني ونورما من الامباطرة الذين كان لهم الأثر في توطيد الحكم في بلادهم والتوسع في خراسان ، كما جعل سيف الدولة واولاده من بعده يجرى من رء الخيرة الروم عن بلاد الشام .

مات سيف الدولة سنة ٣٥٦ هـ في حلب وأوصى أن يوضع تحت رأسه في قبعة لبسة من تراب
جمعه من القبار الذي لحق ثيابه في أيام غزواته في أرض الروم . وبموته تلاشت الدولة الحمدانية .
انحطاط الدولة الحمدانية :

قلعت المنازعات بين أبي فراس الحمداني وبين سعد الدولة بن سيف الدولة على السلطنة وأراد أبو
فراس الذي كان والياً على حمص استخلاص حلب لنفسه من سعد الدولة وجرت معركة بين الطرفين
قتل فيها أبو فراس وهزم جيشه . واستبد كارغوب القائد التركي بالامر بعد ذلك واستعانت
بالفاطميين على سبيل سعد الدولة وقم تركي آخر يدعى بكجور وحاول أخذ السلطة لنفسه واستجد
بالفاطميين . وفي زمن سعيد الدولة بن سعد الدولة استبد القائد الأول بالسلطة وحكم في زمن أولاد
سعيد الدولة حكماً مستقلاً وكان يرسلهم إلى القاهرة ليخضعوا له . ثم قام ابنه منصور من بعده
وحكم باسم الفاطميين مباشرة ، وما لبث أن سحق عليهم واستنجد بالأعراب من بني كلاب فقال
الفاطميين واتعصر عليهم فتار بنو كلاب عليه بطايريه بالمال والفضة وحاربوه وفتحوا في حلب دولة
عربية سميت الدولة المرداسية .

الحياة الثقافية في بهرط سيف الدولة

جمع سيف الدولة في قصر الحلبية الذي بناه بظاهر حلب نخبة رجال الثقافة في زمانه . فقد
اجتمع في بلاطه الأدباء والشعراء والفقهاء والنحويون والموسيقيون . وكان سيف الدولة يساهم في
مناقشتهم ، ويشارك في اجتماعاتهم ، ويتم على المجددين منهم أحسن القام . وكانت هذه الاجتماعات تشبه
ما كان يجري في زمن هارون الرشيد وابنه المأمون . وقد اجتمع بباب سيف الدولة عالم يجمع قط
باب أحد من الملوك بعد الخلفاء . قصده القتي سنة ٣٥٧ هـ ومدحه بقصائد خلعت دحشراه مدى
الدهر ذكر فيها حروبهم مع الروم ، وشجاعتهم ، وأخلاقهم ، وكرمهم . ثم هجره على أن تدفن الوشاة
بينها وإفساد سيف الدولة عليه ، وقصد بلاط كافور الاخشيد في مصر .

واشتهر من الشعراء ابن عم سيف الدولة أبو فراس الحمداني ، والشاعر النامي ، واللامعي ، وابن
نباتة السعدي وغيرهم كثيرون . واشتهر من مؤرخي الأدب أبو الفرج الأصبهاني الذي كتب لسيف
الدولة كتاب الاناني وقدمه له فكانه سيف الدولة عليه بألف دينار واعتذر إليه ضيق حله . واشتهر
من النحويين ابن خالويه ، وابن جني ، كبير نحوي زمانهم . واشتهر الفارابي الفيلسوف والموسيقي الذي
كان يعيش بأرض دراهم في اليوم بأحدهم من خزينة سيف الدولة . وهناك كثيرون غير هؤلاء
قصدها سيف الدولة ونعموا بأعالياته ، وعاشوا في الجو العلمي والأدبي الذي أوجده سيف الدولة
في بلاطه .

٣ - الدولة الطولونية

٢٥٤ - ٢٩٢ هـ أو ٨٦٨ - ٩٠٥ م

الدولة الطولونية من اصل تركي ، حكمت مصر والشام . تأسسها احمد بن طولون وكانت أبوه ملكاً تركياً من نواحي فرغانة ، اهداه نوح بن أسد الساماني الى الخليفة المأمون حسنة ما كان في مرو سنة ٢٠٠ هـ ، وولد ابنه احمد بسامرا سنة ٢٢٠ هـ ، تقرب مع حشد التول وتعلم العربية وخط القرآن الكريم ، وكان ذا خلق قويم . ولما بلغت سنة العشرين توفي أبوه طولون ، فقدم الى دوح ابنه القائد بايكباك ، وكانت ولاية مصر مضافة اليه . وجو الذي يختار اميرها ، فاختار احمد بن طولون سنة ٢٥٤ لـ رأى من كفايته وشجاعته ، وعقد له عليا .

وفي خلافة المتقي قتل بايكباك وحل محله أماجور قائد تركي آخر . وكان صديقاً للاحمد ابن طولون ، فأقره على ولاية مصر ، وزانه الاعمال الخارجية عنها ، مغلطت لذلك منزله واتسع ملكه وكان يدعى على منابر مصر للخليفة أولاً ثم لأماجور ثم للاحمد بن طولون الى ان مات أماجور سنة ٢٥٨ هـ فاستقل احمد بمصر ودعى لنفسه بها وحده بعد الدماء لخليفة ، وضبط بلاد مصر واهم شوكة الثار بن .

وفي سنة ٢٦٢ هـ حصل بين الموفق اخي الخليفة المعتد وبين احمد بن طولون خلاف للأمر ابن طولون عن دفع الاموال التي ترسلها مصر عادة للخلافة العباسية فتعارب الطرفان ، وكانت الظفر لابن طولون . واكتسب ابن طولون فرصة انشغال الموفق بمعاراة الزنج ، واستولى على بلاد الشام والقفور وامتدت دولته الى نهر الفرات . وكان ابن طولون يدم ما بين الخليفة المعتد وبين آسيه من الخلاف ، وصادف ان كتب المعتد اليه يشكو له بما هو فيه من اعدائه اسيد بالملقة ، وان ليس له من الخلافة إلا الاسم ، فدمد ليأتي الى مصر . إلا ان الموفق اتبعه الى ذلك ومنع أخاه من الوصول الى مصر .

قام احمد بن طولون بأعمال اسلاحية عظيمة ، بنى مدينة القطائع بجانب القلعة ، واتخذها مقراً ملكه وبني فيها القصور الجميلة والمسجد المشهور باسمه . وجمع ابن طولون وجمع البارستات الذي كلفه ستين ألف دينار ، وسفر بعض الافنية وأسلح الترع المهدمة واهتم بالجيش حتى بلغ عدده مئة ألف جندي فيهم التركي والرومي والزنجي والمصري ، ووافق كثيراً من الاموال في إنشاء الاسطول واتخذ ميناء سكا قاعدته البحرية .

توفي ابن طولون سنة ٢٧٠ هـ وخلفه ابنه خوارويه من بعده .

خمارويه (٢٧٠ - ٢٨٢) هـ

كان خمارويه صغير السن عند وفاة أبيه عمره عشرون سنة . وكان الموفق بطمع في استرجاع بلاد الشام ومصر ونصبها لسلطة العباسيين فإرسل جيشه إلى الشام لغتصمها فخرج إليه خمارويه سنة ٢٧٠ والقي الحمان في معركة شهيدته قريب طاعرفت بين العلويين . انهزم فيها خمارويه بنفسه وترك جيشه الذي أكمل الفتح . واستقرت الموفق بسلطة خمارويه على مصر والشام والنوبة مقابل مبلغ قدره (٣٠٠) ألف دينار بدمه في كل سنة .

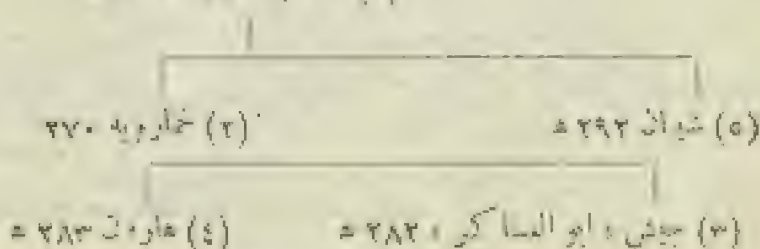
توفي المعتد فخلعه ابن أخيه المعتضد بن الموفق في سبب الخلاف وحسبت الخلافة بينه وبين خمارويه . وأراد أن يتخرب إلى الطائفة بالمصاهرة ، فعرض عليه أن يزوجه ابنته قطر الندى من ابن الخليفة . تأثر الخليفة نفسه وتزوجها . واحتفل خمارويه بجهازها أتم احتفال . فبنى لها على كل مرحلة قصرًا في مصر وبغداد . وسار وصحبها سمر القفل في الهدى فكانت إذا وافت القزل وجدت قصرًا قد فرش فيه جميع ما يحتاج إليه ، ونظمت فيه التمر ، وأعدت فيه كل ما يصلح إلى مثابها في حال الإقامة . فكانت في سبورها من مصر إلى بغداد على بعد الشقة ، كأنها في قصر أبيها تنتقل من مجلس إلى مجلس .

وكان قصر أبيها في مصر من أعظم الابنية الإسلامية يتألف من اثنتان الذهبية والمطاية جدرانها الأربعة بالذهب ، والمنقوش عليها سورة وصورة زوجة ومناجاته ، وفي ساحة القصر بركة ملحقة بآريق ، وضع على وجهها فراش من جلد ينم عليه الطائفة . وكان القصر فناء في وسط حديقة جميلة مزروعة بأنواع الأزهار التي سفت بأشكال كتبت عربية . وفي الحديقة مكان مقبور وآخر للحيوانات .

إن هذا الترف الذي أظهره خمارويه لأهله وأهله المالية الدولة ، مما أثبت أن تفرق أمرها بعد ما قتله أحمد خدامه في سنة ٢٨٢ هـ ، لا سيما وأنه من جاء بعده من الحكام الطولونيين كانوا ضعفاء ، فرجعت مصر والشام إلى حكم العباسيين (١)

(١) هذه لائحة بين أسماء الحكام الذين حكموا الدولة الطولونية :

(١) أحمد بن طولون ٢٥٥ هـ



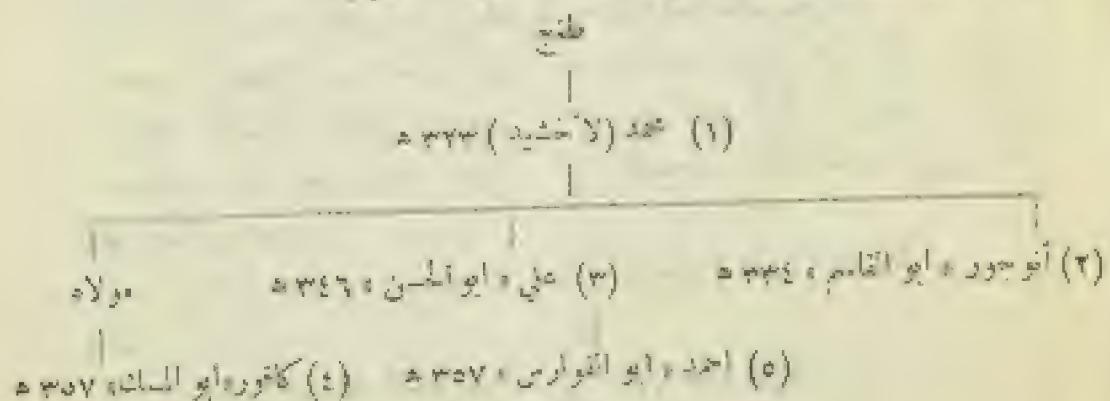
لم يفلح حكم الدولة الطولونية كثيراً ، وذلك لأنها كانت تعتمد كثيراً من الدويلات المستقلة على شخصية مؤسسها القوية ، وتبقى هذه الدويلات على الأقل أكثر ما بقي على رأسها حكام اقوياء ، فإذا مازال هؤلاء زالت معهم . لأنها لا تستند الى حق شرعي في وجودها يعترف لها به عامة الشعب وإنما تستند على جنسها المأجورين على الأتلب الذين يدعمون سلطانها ، فإذا ماتت الأموال عن هؤلاء الجند نفروا عنها وانضموا الى قوة أخرى تكون أكثر مالا . ولذلك فإذا نجد ان أكثر الدويلات المستقلة تزدهر قليلاً ثم لا تلبث ان تنقرض .

٤ - الدولة الأخشيدية

٣٢٣ - ٣٥٨ هـ أو ٩٣٥ - ٩٦٩ م

الدولة الأخشيدية من أصل تركي ، حكمت في مصر والشام والحجاز ، أسسها محمد بن طنج الملقب بالأخشيد^(١) وهو نائب حكام قرطبة ، منحه هذا النائب الخليفة الراسي سنة ٣٢٧ هـ كان محمد بن طنج كبقية الأتراك يتقدم في بلاط الخلفاء العباسيين ، الى أن قوئل لآل أبي بكر والياً على الشام ، واستولى على مصر ، وحكمها باسم العباسيين . كانت الخلافة العباسية تمر في مازق حرج بسبب تنازع المتفذين على منصب أمير الأمراء ، ولما استولى ابن رائق على هذا المنصب حاول تزع بلاد الشام من يد الأخشيديين فلم ينجح وبقيت يدهم . وكانت علاقة مصر بالشام مرتبطة اشتراكاً ، فقامت دولة همد في أحد القطرين الا وحاولت ضم القطر الآخر لسلطانها . وذلك لشدة العلاقات السياسية ، والحربية والاقتصادية فيما بينها ولم تهدأ الحرب بين العباسيين والأخشيديين - حتى قتلت من يدهم وبين الحمدانيين وأخيراً اتقى الطرفان على تقسيم سورية فيما بينهما كما ذكرنا سابقاً .

(١) هذه لأئحة تليق أسماء الحكام الذين حكموا الدولة الأخشيدية :



توفي الأشيد سنة ٣٣٣ هـ ودفن في بيت المقدس وترك الحكم من بعده لأولاده ،
 كافور الأشيدى :

حذف الأشيد ولداً أوجور ودعي ، ولم يكن لاسمها أي سلطة ، لا سيما على اصغر سنة
 والنضيق كافور عليه ، ومنع الناس من الدخول عليه ، وكان على مكانة كان أسود من قبله
 يبلغ اربع مائة ألف دينار في السنة ، ترك الامور كلها بيد كافور .
 كان كافور الأشيد أي عبداً حبشياً خصباً ، لقب باني المسك ، وه بالامتياز ، وكان قبيح
 الخلقة ، مدينة قتيلاً ، ورجلاً مشوهتان ، وكان ملوكاً لاجد تجار مصر ، فاشتره الأشيد
 سنة ٣٩٢ هـ وجعله من رؤساء حنقه ، ترقى كافور في مناصب الجيش واسم زمام الامور بعد وفاة
 الأشيد فحارب الجذائين ، وقمع ثورة اهل مصر وانتهى اليه الحكم بعد وفاة علي بن الأشيد
 سنة ٣٩٦ هـ ودعي له على المنابر بعد الخليفة ، جاء اليه المنفي ومدحه مدحاً جميلاً وكان يأمل ان
 يقطع بعض الاراضي أو يؤمره على بعض الولايات ، فلما خاب امه هجاه هجاء مراراً ولم يحل عنه (١)
 بقي كافور يحكم البلاد حكماً مستقلاً نحو سنتين (٣٥٥ - ٣٥٧ هـ) انتشر في انائها القحط
 والوباء ، بسبب الخفض ماء النيل ، وكثر الموت حتى غلب الناس عن تكفين الموتى وعن دفنهم ،
 فاضطروا الى إلقاء جثث موتاهم في النيل ، وأمر الاشرار على المزارع والحقول ، وسلب السلب
 والنهب ، وتزايد في هذا الوباء عجز كافور عن سد اقرامطة الذين أثاروا على الشام سنة ٣٥٢ هـ
 وعدم قدرته على الدفاع عن مصر حين غزاهم ملك النوبة ، وهجز كافور عن دفع رواتب جنده ،
 فثاروا عليه .

توفي كافور سنة ٣٥٧ هـ وترك البلاد الى أبي القوارس احمد - قيد الأشيد وكان طفلاً
 في الحادية عشرة من عمره . ساءت الحالة كثيراً في زمنه ، غلب جوعهر الصقلي قائد الخليفة العز
 الفاطمي ، واستولى على مصر سنة ٣٥٥ هـ وأخذ الحكم من الأشيديين ونقله الى الفاطميين

(١) دخل المنفي على كافور ، فرأى شقواً رجليه وقبحاً فقال بهجوه :
 تعجبنى رجلك في النعل أنتي رأيتك ذانعل اذا كنت حافيا
 وانك لاتدري الموت اسود من الخيل ثم قد صار ابيض صافيا
 ومثلك يوتى من بلاد بعيدة ايضحك ربات الحداد البواكيا
 وقتل ايضاً في محرة :
 وأسود مشفرة نفسه يقال له أنت بدر العسي

وقال :

لا تكثر العبد الا والعصا معه ان العبد لا تنجس منا كيد

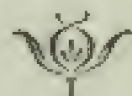
القسم الثالث

الخزفۃ الفاطمية

1120114

الخلفاء الفاطميون

- ١ - المهدي ٢٩٧ هـ
- ٢ - القائم ٣٢٢ هـ
- ٣ - المنصور ٣٣٤ هـ
- ٤ - المأمون ٣٤١ هـ
- ٥ - العزيز ٣٦٥ هـ
- ٦ - الحاكم ٣٨٦ هـ
- ٧ - الظاهر ٤١١ هـ
- ٨ - المستنصر ٤٢٧ هـ
- ٩ - المستفي ٤٨٧ هـ
- ١٠ - الأمر ٤٩٥ هـ محمد
- ١١ - الخافض ٥٢٤ هـ
- ١٢ - الظاهر ٥٤٤ هـ يوسف
- ١٣ - القائم ٥٤٩ هـ
- ١٤ - المعز (٥٥٥ - ٥٦٧ هـ) ٥٦٧ هـ



الباب السادس

الخزفة الفاطمية

٢٩٧ - ٥٦٧ هـ أو ٩٠٩ - ١١٧١ م

نشأتها : يرجع أصل الخلافة الفاطمية الى الحركة الاسماوية التي كان مركزها في مدينة سلفية ما بين حمص وحماة ، وكان من جهة الدعاة الكبار بن الذين كانوا يخرجون فيها الى مختلف البلاد الاسلامية ، لاسيما العراق ، وفارس واليمن ، وشمال افريقية ، والذين اصابوا نجاحاً عظيماً هو : ابو عبد الله الذي عرف فيها بعدد « بالشيعي » .

توجه عبد الله سنة ٢٨٨ هـ الى المغرب ، فتقوى فؤاده بين البربر من قبيلة كتامة ، واستطاع بالتدريج أن يقضي على دولة الأغالبة (١) واستألف البربر ، وهيام الاستقبال الامام عبد الله المهدي ، وبنت

(١) دولة الاغالبة (١٨٥ - ٣٩٧) هـ أو (٨٠٠ - ٩٠٩) م دولة قامت في افريقية (تونس) أسسها ابراهيم بن الأعاب بادن من هارون الرشيد ، واستقل عليها ، متخذاً هو والولاء من بعده لقب أمير ، وجعل عاصمتها مدينة - القيروان - تولى بعد وفاته ابنه عبد الله فاستقامت له الامور ، وتمتع الناس في ظله بنبعة الظلمانية والعدل . وفي سنة ٣٠١ هـ توفي ، خلفه أخوه زيادة الله وفي زمنه تم لهذه الدولة الاستيلاء على جزيرة صقلية . وكان العرب منذ فتحهم لافريقية يتطلعون لغزو هذه الجزيرة والاستيلاء عليها ، فقام بها المناز ما بين شرقي البحر المتوسط وغربه . وفي سنة ٣٩٦ هـ أرسل زيادة الله اسطولاً قوياً واقترح هذه الجزيرة من يد البرنجليين . واتخذ الاغالبة هذه الجزيرة قاعدة لهم ، وغزوا منها شواطئ إيطاليا ، وفرنسا ، وكورسيكا ، وساردينيا . واستولوا على جزيرة مالطة ، ووقعت - ارضها بقبضة يدهم . وزلت جيوشهم في الارض الكبرى (ايطاليا) وفتحوا فيها مانتوف عن (١٥٠) مدينة . كما أن اسطولهم دخل نهر التبر وحاصر مدينة رومانسة ٣٣٥ وقد انقذت مدينة البلبا من اسفند العرب عليها بواسطة زوجة شديدة هبت على الاسطول العربي وحطت سفنه . وقد استولى بحارة العرب على أكثر جزر البحر المتوسط وبحر ايجة لاسيما جزيرة كريت التي كانوا يغزون منها سواحل اليونان ، وقد نشر في الوقت الحاضر على بعض بقوش كوفية في مدينة اثينا يرجع عهدها الى القرن العاشر ميلادي وفي عهد زيادة الله بدأ بعلمه مسجد القيروان المشير الذي لا يزال قائماً بمناورة العجيبة حتى وقتنا الحاضر . وقد حكم احدى عشر أميراً من هذه الاسرة ، وكانت خاقنهم على يد الفاطميين .

بالرسول إليه ليخبروه بما فتح الله عليه ، وبأن الناس ينتظرون قدومه ، فخرج عبيد الله مع ابنه أبي القاسم وبعض خاصته ومواليه من سلمية متكررين يزيجون إلى مصر ، ووصلوا سنة ٢٨٩ هـ وساروا منها نحو الغرب حتى وصلوا سنة ٢٩٦ هـ إلى سجلماسة الواقعة على سفح جبل الأطلس ، فدخل أبو عبيد الله سجلماسة : فسمع بن مازلو على عبيد الله ورجعه في السجن ، إلا أن أبا عبد الله التزمي جاء بجيش من الغرير وحارب أبو سجلماسة واستولى على المدينة وأخرج عبيد الله من سجلماسة ، وابعده بالخلافة سنة ٢٩٧ هـ وأدى به العرب والبربر حاكم المؤمنين .

اختلف المؤرخون في نسب الفاطميين فمنهم من ينسبهم إلى فاطمة بنت النبي محمد (ص) وزوج الإمام علي رضي الله عنه ، وآخرون ينسبونهم إلى عبد الله بن ميمون القذافي أحد دعاة الفرس ، الذي أسس المذهب الشيعي الإسماعيلي ، والعهدة وسيلة لتوطيد المراسلة الفارسية ليجتمع حوله جميع الساطعين على الخلافة العباسية . وقد دس الخلفاء العباسيون للرأي الثاني إيطاموا في حق الفاطميين بالخلافة ، ولإسقاطهم من شأنهم .

وكثيراً ما بحث قسم المدة التي حكم بها الخلفاء الفاطميون إلى ثلاثة أدوار .

الدور الأول . دور التأسيس : ٢٩٧ - ٣٥٨ هـ أو ٩٠٩ - ٩٦٩ م وهو يشتمل نحواً من ستين سنة أي منذ إعلان خلافتهم في إفريقية - حتى فتح مصر .

الدور الثاني . دور القوة : ٣٥٨ - ٤١١ هـ أو ٩٦٩ - ١٠٢٠ م وهو يشتمل نحواً من خمسة وعشرين سنة أي منذ فتح مصر حتى انتهاء حكم الخليفة الشاكر .

الدور الثالث . دور الانحطاط : ٤١١ - ٥٦٧ هـ أو ١٠٢٠ - ١١٧١ م وهو يشتمل نحواً من قرن ونصف أي من مقتل الشاكر إلى تفرانس الخلافة الفاطمية على يد الأيوبيين . ويتكلم عن كل دور من هذه الأدوار باختصار .

١ - دور التأسيس

٢٩٧ - ٣٥٨ هـ أو ٩٠٩ - ٩٦٩ م .

حكم في هذا الدور ثلاثة خلفاء وهم : المهدي ، والقاسم ، والمنصور . وكانت جهودهم منسجمة لتوطيد مركزهم في شمالي إفريقية ومحاولة إخماد التمرد الإسماعيلي على مصر . ويتكلم فيها على كل خليفة على حدة :

عبيد الله المهدي

٢٩٧ - ٣٢٢ هـ أو ٩٠٩ - ٩٣٤ م

أنشأ المهدي بالحزم والنجاة والدعاء . وقام أعمال إفريقية على رؤسها فبيلة كتابته منذ مولده

الخلافة ، ودون الدواوين وجبى الأموال ، وحفظى الخرائب ، وأمن السبل ، وسار بالناس سيرة عدل وزهد ، فأطاعوه واحبوه وأخذت القبائل تفر عليه وتقدم له الطاعة ، وتقدم الى صفوته وعندما أصبحت لديه القوة السكانية قضى على بني مدراف في سبيل عاسة ، وعلى بني رستم في ناهرت وعلى الانطالية في بوض ، وعلى الامارة في مراكنش . وتقدم على ثورة داعية ابو عبد الله الشيعي بأخيه أبي العباس الذين تأمرا مع بعض رؤساء قبيلة كثرانة على خلعهم وحاولا اغتياله لسلب السلطة منه . الا ان المهدي تمكن بدهائه وحذره من القرض غلبه كما فعل قبله ابو جعفر المنصور بأبي مسلم الخراساني ، ولا في المهدي صعوبة شديدة في اخضاع البربر وكبح شكيبتهم الا انه تمكن احيراً من تهدئة الحالة ، وأنشأ عاصمة له في البحر دناقا بأسمه « المهدي » وشيد حولها سوراً قوياً وجعل له ابواباً جديدة ، وبنى بداخلها القصور ذات السرايب النسيجة التي اعتز بها كرات عظيمة من المؤنة ، وبعد ان أتم بناءها خطب نفسه قائلاً : « اني لاشعر الآن بالطمأنينة عظيم على الدولة الفاطمية الناشئة » وحاول المهدي فتح مصر ، فجزر جيشاً كبيراً بقيادة ابنه محمد وأمدده بأسطول صغير استولى به على الاسكندرية ، فأرسل الخليفة العباسي الذي كان يخشى على نفسه من مزاحمة الخليفة الفاطمي جيشاً بقيادة مؤنس الحاجب فالتقى على الفاطميين وأوجعهم من حيث انوا وبذلك قضى على حلم المهدي الذي كان يأمل اخذ مصر وترك ابنه سيأتي بعده من اولاده بتحقيق هذه الفكرة وتوفي سنة ٣٢٢ هـ بعد ان دام ٢٤ سنة .

القائم

٣٢٢ - ٣٣٤ هـ أو ٩٣٥ - ٩٣٥ م

كان القائم شجاعاً حازماً ، ومبتدئاً باستقلاله في قيادة الجيوش بنفسه ، واهتم بتوسيع ملكه ، وأنشأ أسطولاً قوياً استولى به على زمامة البحر المتوسط وعراق مصر . وفتح الاسكندرية الا ان الاحذية ردت عنها . وحارب عليه في المغرب (ابن أبي العافية) الذي حاول الانضمام الى الامويين في الاندلس فطاعه الى الطائفة ، ثم حوّل مصر وظهر لوريا فاعتزل جنوبي ايطاليا ، واستولى بأسطوله على جنوة وساردنيا ، وبسط حكمه في صقلية ولومبارديا . وفيها هو منصرف الى الفتوحات الخارجية فأجابه ثورة داخلية أوقفت حركته . قم بهذه الثورة « ابو يزيد الخارجي » سنة ٣٣٢ هـ الذي بدأ حياته معلماً للصبيان ، فجمع حوله عدداً كبيراً من البربر ، والقائم مبادئته التي تقضي بتكفير أهل الدين من غير مذهبه ، وإسباحة الأموال ، والخروج من طائفة السامان - ولقبه اتباعه « شيخ المسلمين » وخرج بهم من المغرب فاجدها المهدي . ولوقع بالخارج الفاطمي هزائم متكررة ، واستولى

على بحاية : الزوال وغيرهما من المذنب ، وحاسر المديقة ، صحة الخلافة الفاطمية وبيع منها المدد وسابقها أشد ضيق . وفي أثناء الحصار توفي الخليفة القائم ، فقام ابنه السامع من بعده وأبقى موت أبيه ، واستعان بقبائل البربر وانتصر على الخارجي سنة ٣٣٩ هـ وقضى عليه ، وأعلن وفاة أبيه فبايعه الناس بالخلافة وألقب بالمصور . وكان كأيبه شجاعاً شديد الحبس ، قضى مدة خلافته بإعادة تنظيم بلاده بعد أن خربها فتنة أبي زيد . وتمكن بعد جهوده الطيبة أن يعيد لخلافة الفاطمية رونقها وقوتها ورك لا يذم الميز تحقيق فكرة الاستيلاء على مصر والوصول بالخلافة إلى أوج عزها .

٢ - دور القوة

٣٥٨ - ٤١١ هـ أو ٩٦٩ - ١٠٢٠ م

حكم في هذا الدور ثلاثة خلفاء ، هم : الميز ، والعزى ، والحاكم . وفي زمنهم بلغت الدولة الفاطمية أوج عظمتها ، فتوسعت رقعتها وشملت بلاد مصر والشام والحجاز بالإضافة إلى أملاكهم في شمالي أفريقيا . وأصبحت القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية ومركز حضارتهم . وستكلم فيما يلي عن كل خليفة على حدة :

الميز

٣٤١ - ٣٦٥ هـ أو ٩٥٢ - ٩٧٥ م

كان الميز شجاعاً عادلاً ، عظيم الحمة ، له ولع بالعلوم ، ودراية بالأمور مكرماً للأهل ، ومحباً للديار . وتمكن أن تسميه « بأمون » المقرب . وفي عهده بلغت شمالي أفريقيا درجة عالية في الحضارة والتقدم . فقد اهتم بشؤون الرعية وورد النظام إلى أهلها ، وقمع الفتن بيد من حديد ، ونظم شؤون الإدارة . وسن القوانين ، وقسم الولايات إلى مناطق ، وعهد بإدارتها إلى الأوكلاء ، وجيزهم بالجنود والشرطة لحفظ الأمن والنظام ، وأعاد تنظيم الجيش والاستطول ، وشجع التجارة والصناعة ، وقرب زعماء البربر ، واكتسب صداقتهم ، وبعد أن وطد حكمه من جهة الغرب ، واسترجع ما أخذه الخليفة عبد الرحمن الناصر الأموي من المغرب الأقصى وجه جهوده لفتح مصر .

فتح مصر :

كانت مصر أملاً الفاطميين المشهود منذ أن وطئت قدمهم شمالي أفريقيا ، وكانوا يحلمون في الآمال بولائها عليها منذ زمن أول خلفائهم عبد الله الميدي ، وقد حاولوا ذلك مراراً كما تقدم معنا ، إلا أن العباسيين والاشعبيين ردوه عنها ، ولم يسمعهم الحظ ولم تساعد الظروف على فتح مصر إلا في زمن الميز لدين الله الخليفة الرابع . وكان ذلك بسبب استيلاء المصريين من تحكم كافور الاشعبي بهم ، واضطراب الحالة في آخر عهد الاشعبيين بسبب غرر الجند عليهم لانقراض انطاكياتهم وارزاقهم . فكتب بعض

قوات الجند الى المعز بدموه لفتح مصر ، واشترك في هذه الدعوة بعض رجال الدولة مثل يعقوب بن
كلبس الذي ذهب بنفسه الى المعز ووصف له حالة مصر وما هي عليه من الضعف والاضطراب ،
وحسنه على فتحها .

وفي الواقع كانت مصر تعاني أشد الازمات في حياتها الاقتصادية والاجتماعية بسبب غلاء المعيشة
والانكسار ما تحبزه معها من امراض سياسية وحلقية ، حتى خسرت مصر قواها الدفاعية وحيويتها في
النضال والمقاومة في وجه الفاطميين .

وقد ارسل الفاطميون جيوشا من المدينة قبل ان يرسلوا جيش الفزو ، وجيزوهم بالمال والعلم ،
ليدعوا الدعوة المذهب الاحمدي والامسكار الشيعة واليهودا الجول ليجيش الفاتح حتى يدخل مصر
بسهولة . ويظهر المؤرخون في وصف استعداد المعز في تجهيز الجيش (١) الذي اوسله بقيادة اعظم
قواده ، جوهر الصقلي ، .

وبما منذ سنة ٣٥٦ في إنشاء الطرق ، وحفر الآبار ، وإقامة المنازل ما بين القهروان ومصر
للاستراحة في فترات منقطعة ، وأنفق الاموال على قبيلة كنانة وغيرها من قبائل البربر ليدعوه بمحمد
منهم ، حتى تجميع لديه جيش يزيد عدد مرشديه على مائة الف فارس عدا المشاة استولوا في ١٥ شعبان
سنة ٣٥٨ على مصر دون عناء . وبعد ان استتب الامر جوهر امر بقطع الخطبة للعباسيين عن منابر
مصر والشام ، واستبدلها بالدعاء للخلفاء الفاطميين ، وحرم لبس السواد واستبدله بلبس الحضار شعاع
الفاطميين . وأمر ان يؤذن بحمي على خير العمل ، وإتداء ببناء مدينة القاهرة ، وجعلها بقرب القسطنطين
التي بنيت منذ زمن عمر و بن العاص . وقد دعاها جوهر بالقاهرة المعزية رمزاً لقهر عدوه ونسبه الى
المعز وبن في وسطها القصر الفاطمي ، والجامع الازهر الذي كان مركزاً للدعوة الشيعية يخرج منه
الدعاة لنشر المذهب الاحمدي ، وبعد أن وطد حكمه في مصر اتفقت لفتح الشام لانه يدونها لا يستقر
له قرار بسبب اشتداد امر القرامطية ، ومحاوئهم الاستيلاء على مصر ، فهاجمهم سنة ٣٦١ بقرب
القاهرة وحرت معركة شديدة بين الطرفين انتهت بهزيمتهم وارعادهم من مصر .

(١) وصف بن هاني ، الاتملي (مني الغرب) جيش المعز بقوله :

رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع	وقد رايتني يوم من الحشر أروع
غداة كأن الأمن سد بشله	فما غروب الشمس من حيث تطلع
الا إن هذا حشد من لم يذق له	غداو الكرى جفن ولا بات يجمع
لدا حلة في أرض بناها مدائن	وإن سار عن أرض غدت وهي باقع
تجلى بيوت المسال حيث محله	وجم العظام والرواق المرفع

وفي سنة ٣٦٢ م رحل المعز الى القاهرة ، وقد دواونه اليها على امر دعوة فائدة جوهر ،
وعندما وصل الى قصره ، خرج ساجداً في مجلسه شكراً لله ثم سلى ركعتين وسلى بصلاته كل من
دخل ، واخذ الحكم من جوهر الذي ظل يابنوف عن اربع سنوات حاكماً لمصر ، والثقت لطارية
القرامطة الذين امتد أمرهم كثيراً بالشام حتى أنهم رجعوا للمرة الثانية للاستيلاء على مصر ، فخرج
اليهم المعز سنة ٣٦٣ م وأوقع بهم هزيمة فادحة ، والثقت الى الزناتيين الذين استفادوا من الاضطرابات
القائمة في الشام ، واستولوا على انطاكية وهزموا جيش الفاطميين بقرب طرابلس سنة ٣٦٤ م
وتمكنوا الى هذه المدينة ان يردم عنها ، ووسلت اليها هذا النصر الى المعز وهو على فراش الموت
فتوفي في ١٤ ربيع الثاني سنة ٣٦٥ م بعد ان حقق حلم الفاطميين وسقط سيطرته على المغرب
ومصر والشام والحجاز .

المعز

٣٦٥ - ٣٨٦ م أو ٩٧٥ - ٩٩٦ م

كان المعز كريماً شجاعاً ، محباً للعلم والأدب ، ميالاً للتسامح مع أهل الذمة ، استوزر في
اول حكمه يعقوب بن كلس وكان يهودياً اسلم في عهد كافور الاخشيدي ، وبقي في الوزارة في زمن
المعز وابنه المعز زهاء اثني عشر عاماً ، ثم استوزر « عيسى بن نسطورس » النصراني ومن بعده
« منشا » اليهودي . وكان طبيباً نصرانياً يدعى « بابا الفتح منصور بن مقشور المصري » وكانت له
منزلة سامية في الدولة . وكانت زوجته نصرانية رمت اخونها الى أعلى المناسيب الكاسية فكان أحدها
(اريسطليس) بطريركاً لبيت المقدس وكان الآخر (ارسانيوس) مطراناً للقاهرة عيناً في سنة
(٣٧٥) وكانت بنته « ست الملك » (١) تساعد النصارى كثيراً ، حتى بلغ نفوذ النصارى واليهود
الى الذروة في زمنه ، واستولوا على معظم أعمال الدولة ، واستأثروا بأكثر السلطات ، مما أدى الى
سخط المسلمين فيقال « ان المعز بالله رأى ذات يوم في طريق المركب الخلفي امرأة تمد يدها

(١) ست الملك بنت المعز ولدت بالمغرب سنة ٣٥٩ م وكانت حازمة عاقلة ، قوية المزاج بصيرة
بالأمور ، وكان والدها المعز يحبها ، ويستمع الى نصيحها في كثير من الأمور ، وكان لها اثر
ظاهر في توجيه سياسته نحو النصارى ، مكالمته بادرة من السخط عليهم او الميل الى اضطهادهم
تدخلت لتلطيفها والعود الى سياسة التسامح وكانت في السادسة والعشرين من عمرها عند وفاة
ابها وكانت اكبر من اخيها الحاكم نحو خمسة عشر عاماً لذلك استبدت بالحكم مكانه واخذت تدبر
الأمور في بادئ حكمه ويقال ان لها يد طولاً في تدبير المؤامرة التي اودت بحياته .

برقعة كانتها طلامة ، فتناولها فلدا بالمرأة هيكل من الحديد قد البس ازواراً ، وإذا في الرقعة ما يأتي
بالذي اعز اليهود بنفشا ، والنصارى بموسى بن نسطورس وادل المسلمين بك الاما كشفت ظلامتي
قادرك العزيز ما انتهت اليه خصية الشعب من تحكم الاقلية الذمية في شؤونه وعمل قليل في سياسته ،
وكان جيش الفاطميين منذ نشأتهم حتى زمن العزيز يتألف من المغاربة الذين قمت على سواعدهم
الدولة الفاطمية ، ولما شعر العزيز بزيادة سلطانهم قرب الموالي من الفرنج والصقالبة ، فوقع بالخطبة
التي ارتكبتها من قبله الخلفاء العباسيون فلما ثبت هؤلاء ان استأثروا بالأمر وكانوا عمل فساد في
الدولة بسبب منازعاتهم مع المغاربة .

توسع ملك الفاطميين كثيراً في بلاد الشام في زمن العزيز وحاولت جيوشه الاستيلاء على حلب
الا ان أميرها ابا الفضل ، ووزيره أولو اسفنجدا بالبيزنطيين على اخوانهم المسلمين ، وكان ذلك
سبباً فيهم معارك شديدة حرت بين الطرفين على ضفاف العاصي وكانت نتيجةها أن رد البيزنطيون
على انقياهم الى انطاكية سنة ٣٨١ هـ ، ثم اخذوا الكرة بقيادة امبراطورهم باسيل الثاني في سنة
٣٨٥ واستولوا على شيزر وحمص ، وقسم كبير من ساحل الشام ، ونوفي العزيز وهو في طريقه الى
الشام لقتال البيزنطيين ، ولم يترك الا صبياً واحداً انتقلت اليه الخلافة .

الحاكم

٣٨٦ — ٤١١ هـ او ٩٩٦ — ١٠٢٠ م

تولى الحاكم بامر الله الخلافة حدثاً دون الثانية عشرة من عمره ، وأوصى به العزيز الى ثلاثة
من رجال دولته وهم : برجوان الصقلي خادمه وخازنه ، والحسن بن عمار زعيم قبيلة كتامة وتصور
الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها ، ومحمد بن النعمان قاضي القضاة . فقام النزاع بين برجوان وابن عمار
على السلطة ، واشتدت المنافسة بينهما ، فاستبد ابن عمار في بادى الأمر وظهر عظام الطاغية ، وكان
يدخل القصر ويفادره راكياً ، وألزم جميع الناس بالترجل له ، وأغلق باباً إلا على الخاصة ، واغنى
الأموال على جماعته من كتامة ، واستولى أحداث المغاربة في عهده على وظائف الدولة واقسموا
سلطانها ، وعاشوا في شؤونها ومراقبتها ، وكثير اعتداؤهم على الناس وعلى أموالهم حتى اختلعت امور
مصر والشام . وكان برجوان والصقالبة جماعته يتربصون الفرصة للقضاء على ابن عمار ، ويدسون
الدسائس عليه ، ويؤلبون زعماء الجندي الناقمين على حكمه ، واستبجرجرج برجوان في اخذ السلطة
لنفسه وتواري ابن عمار عن الانظار ، وترك الميدان حراً لمنافسه الذي بقي نحو سنين ونصف قابضاً
على زمام الأمور وقع في اثباتها الثورات التي قامت في الشام والمغرب ، وحارب الروم في عدة معارك

وهزمهم وردهم الى الشمال ، ثم نهادن معهم . كما انه ألزم الحاكم أن يقيم معه في القصر ، ووجهه عن الاتصال برجال الدولة ودفع به ما استطاع الى مجالي اللبس والظلم . ولما بلغ الطفل الخامسة عشر من عمره ، شعر بشغفه وصيه عليه ، واستنار به بالسلطة دونه ، واخذ يتطلع الى الخلاص منه ، ووبر مع بعض حاشيته اغتياله ، ونجحت المؤامرة في ربيع الثاني سنة ٣٩٠ هـ وكسب الحاكم السلطة بنفسه وانظم مجلساً اولياً يحضره أكابر الخاصة ورجال الدولة ليندوا كبروا بالشؤون العامة .

صفات الحاكم :

كان الحاكم وافر الذكاء والجرأة والمزم ، وكان منظره مثل الأسد وعينه واسعتين شمل ، وإذا نظر الى الانسان برمد لعظم هيئته ، وكان صوته جهوراً خفيفاً ، وكان مضطرب النفس والالهواء متناقض الرأي والتصرفات ، كثير التنقل من حال الى حال ، يأمر بالشيء ويأمر بغيره ثم يرجع عنه ويأمر في نفسه ، وكانت خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام ، وبين احتياط ، وحبية للعلم والتفهم من العلماء ، وميل الى الصلاح ، وقتل الصالحين ، وكان القالب عليه الصلاح ، وربما يخل بما لم يخل به احد قط ، وكان جواداً سمحاً خيلاً ما كرم ، ردى الاعتقاد ، سفاكاً للدماء ، قتل عدداً كبيراً من كبراء دولته صبراً ، وكان حبيب الميرة يخترع كل وقت اموراً واحكاماً يحصل الرعية عليها . وقد قتل عدداً كبيراً من كبراء الدولة وشدة في التخلص من قودهم الا انه أشرف في القتل ، فكان يقتل وزراءه وقلمانه تبعاً من غير سبب ، ودون حكمة ظاهرة ، حتى هابه الخواص والعوام ، وخشوا على أنفسهم منه .

وكان الحاكم الى جانب ما كرمنا جواداً وافر الهدى عادلاً يحب العلم ، شديد عدة جوامع وكليات ومراسد ومبشقيات في مصر والشام ، وانشأ جامعة ودار الحكمة ، سنة ٣٩٥ هـ ووقف عليها كثير من الضياع والاموال . وعرف عن الحاكم زهده وتقشفه وتواضعه واستناره للعلوم والاعقاب الفخمة ، وكان في أول حكمه منع الناس من مخاطبة بعضهم او مكاتبهم « سيدنا » و « مولانا » الا أمير المؤمنين وحده ، ثم أصدر أمراً بأن لا يقبل أحد له الأرض ، ولا يقبل أحد ركابه ، ولا يده عند السلام عليه . وكان أغلب طوافه بالقاهرة على الخير دون موكب ولا نخبة ، ولا يصحبه من الحشم والجند سوى بضعة من الركابية (١) وفي أواخر أيامه أطلق الحاكم شعرة حتى تلبى على كتفيه وأطلق أظافره ، واستعاض عن الثياب البيضاء بثياب سوداء ، وكان يرتدي جبة من الصوف الاسود المادي ولا يغيرها مدى حين حتى يملوها العرق والرائحة . وقد يرتدي أحياناً جبة مرقعة من سائر الالوان ...

(١) الركابية : جماعة من الجند يصحبون من الخليفة ويعتنون بركوبه . وبالمدواب التي يركبها .

تصرفات الحاكم :

شفف الحاكم بالليل حوالي سنة ٣٩٦ هـ فكان يعقد مجلسه ليلاً ويواصل الركوب في كل ليلة بحوب الخوارع والأزقة ، وصدرت أوامره بتعليق المصابيح على جميع الحوائط وأبواب الدور . وفي جميع طرقات القاهرة ، فكانت المدينة تبدو في هذه الفترة بالليل كأنها شعلة مضيئة ولازم الحاكم الركوب في المدينة المظلمة ، وكان يزور كل ليلة حياً معيناً ويشق طائفة من الشوارع والدروب ، ويقب الحسبة بنفسه أحياناً ، ويستطلع أحوال الشعب وأخباره ، وأصبحت جميع الأعمال والمعاملات تجري بالليل ، وتزدهر مواطن السمير وتختلط حياة الجد بحياة اللهو ، فسطع البادين بالوقود والزينات ، وتقص بصنوف اللهو والمرح . وتنفق الأموال الوفيرة في المتآكل والمشرب والسماع . وكان الحاكم يشق جموع الشعب المحشدة في بساطة ورقة ، ولا يمنع أحد من الدنو منه أو مخاطبته . واستمر الحال على ذلك أشهراً ، وظهر النساء في المجتمعات بكثرة واشتد تيار الجون والغواية ، فلما خرج الناس في ذلك عن الحد ، وبالقو في اللهو ، والأسراف والزينة منع الحاكم النساء من الخروج ليلاً منذ العشاء لكي تحفظ عوامل الفتنة والغواية ، وعوقب المخالفات بشدة ، ثم منع الرجال من ارتياد الحوائط والمقاهي ، وأبطلت بعد ذلك جميع الأعمال والمعاملات ليلاً وعاد الظلام يلحم على القاهرة بالليل سنة ٤٠٤ هـ . والحوادث والأخبار عن شغفه بالظلام والذيران كثيرة .

أصدر الحاكم حملة من الأوامر والقوانين القوية ، وكان مما يزيد في عرايتها ومحورض بواعثها أنها كانت تصدر ثم تنسى بعد قليل ، وانسأدل بمكسها ، ثم يعاد سادورها .

من هذه الأوامر منعه الناس في سنة ٤٠٤ هـ وما بعدها عن أكل الخوخية والقرمس ، وحرم دبح الأبقار السائمة إلا في عيد الأضحي ، وحرم دخول الخام بلا منكر وحرم على النساء أن يكتفن وجوههن في الطريق وحرم ملابهن الزين والتبرج كما حرم البكاء والمويل والصياح وراء المولى ، وزراعة القبور ، وحرم شرب الخمر من نبيذ وغيره وكسرت أواني الخمر ، وأوقفت في كل مكان وشدد على التجارين ، ومنع كل ما في بيوتهم ومحلاتهم . وهوجت أماكن البغاء ، والنصف بشدة ، وأزيلت دورهم وأوكارهم ، وظهرت منهم أجيال المنيعة ، وأمر بتدبير الكلاب وقتلها أنها وجدت إلا كلاب الصيد . وأمر بقتل جميع الخنازير في مصر فقتلت عن آخرها .

ومنع الحاكم الناس من التظاهر بالفناء ، ومن الركوب في النيل بسبب نقص مائه ومن الخروج قبل الفجر ، ومنع النساء ، وأمر بحريم صناعة التنجيم والكلام فيها وأمر أن ينفي المنجمون من سائر المملكة ثم أبطل قرار تنجيهم .

وفي سنة ٤٠٢ هـ تشدد الحاكم في معاملة النساء كثيراً ، فأصدر مرسومه الذي يمنعهن من

مقادرة دورهن ، والخروج الى الطرقات بالليل او النهار ، ولم يستثن من ذلك سوى النساء المظلمات للشرع ، والخارجات الى الحج أو المسافرين اللاتي تضطرهن ظروف القاهرة الى السفر ، والاماء اللاتي يرسم النبيع ، والقابلات ، وغسلات الموتى ، والازامل اللاتي يبعن الفول وأن يكون خروج هؤلاء أزاوله شؤونهن برفاق خاصة ترفع الى القصر ، وتصدر بها تصاريح يقوم بتنفيذها صاحب الشرطة ، ومنع النساء من دخول الحمامات العامة ، ومنع الانسا كفسة من حمل أخفافهن ، فاختفى النساء من المجتمع المصري ، وساده الانقباض والوحشة ، واغلقت المتاجر التي تبيع السلع السورية ، وساد الذعر بين النساء ، ولزم من دورهن في روعة وخشوع . وحاول النساء التظلم من هذا القرار ، وذهب الكثيرات منهن الى القصر داعيات مظلمات فلم يفرزن بطائل ، وعوقب كثير من المخالفات بالموت . واشتد الامر بنساء الكافة اللاتي ليس لهن من يقوم بأمرهن ، واستغنى بأولي الامر ، فأمر الباعة ان يملوا السلع والاطعمة وكل ما يباع في الاسواق الى الدروب ، ويبيعه للنساء في منازلهن ، وان يحمل الباعة مائة كائفة لها مائة طاريل يمد الى المرأة وهي من وراء الباب وفيه ما تشتره ، فتناولته ونضع مكانه الثمن ، ولا يسمح لها مطلقاً ان تدوم من وراء الباب وعلى النساء هذه الشدة زهاء سبعة أعوام حتى وفاة الحاكم .

تشدد الحاكم مع أهل الذمة . ففي سنة ٣٩٥ هـ أصدر أمره للنصارى واليهود بلبس الغيار وشدة الزنار ، ولبس العائم السود . وفي سنة ٣٩٩ هـ أمر بهدم بعض كنائس القاهرة ونهب ما فيها ، وحذر مرسوم خاص بهدم كنيسة القيامة (قمامة) في بيت المقدس ، وصيغ هذا المرسوم بالمباركة الموجزة الآتية : خرج أمر الامامة بهدم قمامة . فاجعل سماها أرضاً وطولها عرضاً . ولا تبيد بناؤها في عهد المستعصر بالله الفاطمي . وأمر الحاكم بإلغاء الاعياد النصرانية ، كعيد الصليب والغطاس وعيد الشهيد ، وابطلت رسومها واحتفالاتها في جميع أنحاء المملكة . وانقوت جميع الاوقوف المرسومة على الكنائس والاديار بأعمال مصر ، وحملت الى الديوان ، وحرم ضرب النواقيس في جميع أعمال مصر وأمر بترغ الصليبان المظاهرة في أبراج الكنائس ، وأن يحكي النصارى الصليب من أيديهم وسواندهم .

وحرم على النصارى واليهود ركوب الخيل ، وأن يكون ركوبهم الخيول والبغال يسرج من الخشب ، وسيور سود عاتلة من كل حلقة ، وإلا يستخدموا مسلماً أو يقتلوا عيلاً مسلماً أو جارية مسلمة ، وأقررت لهم حمامات خاصة ، علق الصليبان على حمامات النصارى ، وقراي الخشب على حمامات اليهود . ونشيء لليهود حي خاص حتى لا يختلطوا بالمسلمين . وتزع سائر المنصرنين والكتاب الذين من وظائفهم ، وكانوا جمهرة كبيرة ، وعانى أهل الذمة في عصر الحاكم أشد الحزن مما لم يجر مثله في أي عصر من العصور الإسلامية .

واضطهد الحاكم أهل السنة من المسلمين وأمر بسب السلف من الصحابة (أبي بكر ، وعمر ،

وعثمان ، وعائشة ، ومعوية وغيرهم) ثم تراجع عن أمره سنة ٣٧ هـ بسبب قيام الفتنة عليه ، وصدر أمره جديد بالترحم على السلف واستمرت الحال على ذلك حتى اواخر الدولة الفاطمية .
وفي سنة ٤٠٠ هـ صدر مرسوم (مرسوم) بالقضاء الزكاة والنجوى ، وتسبب اليه تصرفات متناقضة في أمر الصلاة والحج والصوم ، وقبل انه شرع في القائها اراد ان القاهها بالفعل . والفى صلاة الجمعة الرسمية في رمضان ، وصلاة العيدين ، والفى الحج وابطل الكسوة النبوية غير مرة . والروايات تحمل هذه التصرفات على انها انحراف من الحاكم عن الاسلام وجنوح الى الدعوة الاطلاحية التي اداعها الدعاة السريون وبشرها بالوحيته .

مفتاً الدرزي

ظهر بمدينة القاهرة في ابتداء سنة ٤٠٨ هـ رجل يدعى حمزة بن علي بن احمد الزوزني ، من بلاد فارس من مقاطعة زوزن ويعرف بالبلاد لانه كان يشتغل بصنع اللباد . وانتظم بين الدعاة الذين كانت تغص بهم العاصمة الفاطمية يومئذ ، ودعا الى الوحية الحاكم وبوجوب عبادته ، وذل بالناسخ في الاماني والخلول ، وزعم ان الحاكم ليس بشراً ، وانما هو رمز حل فيه الاله ، وكان يجلس في مسجد ريدان في القاهرة ، فاجتمع اليه طائفة كبيرة من غلاة الشيعة الاسماعيلية . وتلقب بهادي المستجيبين وتلقب الحاكم ، قائم الزمان ، وكثير جمعه وداغ أمره ، وكان الحاكم يشجعه ويرعاه ، ويحث اليه الى اتباعه السلاج والمال ليدافعوا عن انفسهم وقت الحاجة من أهل السنة ، وانتشر امر حمزة وقوي نفوذه ، وانفسه له بطانة قوية من الدعاة والرسل ، ومن جهتهم محمد بن اسماعيل الدرزي ، الذي انتسب اليه الدرزي ، وكان يسير على طريقة حمزة في الدعوة الى التماسخ والخلول ، ويرحم ان يروح آدم قد انتقلت الى علي بن أبي طالب ، ثم انتقلت روح علي الى الحاكم مدفوعة سلالته ، وشرح الدرزي دعوته واسمونه مذهبه في رسالة قدمها الى الحاكم ، فقربه وأغدى عليه عطفه ورعايته ، وارتفعت لديه منزلته واشدد نفوذه حتى غدا ملاك الكبراء وسفيرهم لديه في قضاء مطالبهم ورغباتهم .
الا أن العامة والجند ثاروا عليه واحاطوا بداره ، فقاظمهم انتخاب الدرزي من داخلها ثم فر الدرزي ناجياً بنفسه واتجأ الى قصر الحاكم ، وهدم العامة والجند داره ، ونهبوا ما فيها وقتلوا عدداً كبيراً من أتباعه ، وطالبوا الحاكم بتسليمه ووعدهم الحاكم بالاجابة الى مطالبهم ، ولما طردوا في اليوم الثاني قيل لهم ان الدرزي قد قتل ، والمرجح أن الدرزي لم يقتل ولكنه اختفى في القصر أياماً حتى هدأت الفتنة ، وهرب الى الشام ونشر مذهبه فيها .

نهاية الحاكم

زاد طغيان الحاكم وبلاؤه على الناس غفقت أخته بنت الملك شجاع الخلافة من البيت الفاطمي ،
فآمرت عليه مع سيف الدولة الحسين بن دواس زعيم قبيلة كتامة ، ودرت مقتله ، وكان ذلك ليلة
الآثنين في ٢٧ شوال سنة ٤١١ هـ وعندما انتشر خبر اختفائه خرج الناس للبحث عنه ، فوجدوا في
أعلى الجبل حماره معرقاً (مقطوع القوائم) وعثروا على مسافة قصيرة منه على ثيابه وفيها أثر طغيان ،
فايضوا بهلاكه ، وبذلك ختمت حياة الحاكم وختم معها دور مجد الخلافة الفاطمية .

٣ - دور الوثائق

٤١١ - ٥٦٧ هـ أو ١٠٢٠ - ١١٧١ م

حكم في هذا الدور ثمانية خلفاء وهم : الظاهر ، المستنصر ، المستعلي ، والآخر ، والحافظ ،
والظاهر ، والفائز ، والعاقد . ومنذ أواخر عهد الحاكم بدأت تفسد الخلافة الفاطمية تمل بحوالقروب
وذلك بسبب تصرفاته الشاذة ونفمة الانهالي عليه ، وقيام المنازعات بين جنده من المغاربة والأتراك
من جهة والزنوج من جهة أخرى . وانتقلت السلطة الفعلية في هذا الدور من الخلفاء الى أعيانهم
الوزراء والقواد أمثال بدر الجاني وابنه الملك الأفضل وحلائع بن زيات وكاظم من أصل أرمني وغير
هؤلاء كثيرين الذين استبدوا بالامر ، وصاروا يتلاعبون بمقدارات الدولة بحسب أهوائهم . وخلفاء
الخطاب بحسب الصليبيين لبلاد الشام ، وقطاعهم الاستيلاء على مصر . وما سبب هذه الاضطرابات
كلها من خلا ، وابنة بسبب انخفاض ماء النيل وسوء ادارة الخلفاء الاخيرين مما جعل الخلافة الفاطمية
تأخر عن أن تجابه هذه العوامل كلها فتقوضت أركانها وتهدم صرحها وقام على أنقاضها
الدولة الأيوبية .

القسم الرابع

أوربا - والحروب الصليبية

قوله

يحيى بن يحيى بن يحيى

الباب السابع

حالة أوربا في زمن الحروب الصليبية

بعد أن سورت الحياة العربية في العصر العباسي تأتي على ذكر حياة أوربا بانتهاز في نفس هذا العصر ، ليكون لدى الطالب صورة واضحة عن حالة الشرق والغرب في زمن واحد ، فيستطيع أن يقاوم بنفسه ما كان عليه أجداده في الغابر من حضارة ومدنية ، وما كانت عليه أوربا من اضطراب وجحش . ثم يبين بنفسه الأسباب التي قضت على المدنية العربية والإسلامية وذلك ببإقتسامهم إلى دويلات وشيع وما وصلوا إليه من انحطاط الاختلاف والتفريق وما وقع به خلفاؤهم من أخطاء هائلة في الوقت الذي كانت فيه شعوب أوربا تستعد للخلاص من حياتها المظلمة وتنبأ بالحياة متحضرة جديدة .

وسيكون هذا البحث مقدمة للقراء الذي حصل بين الشرق والغرب فأطفا مصباح النور في آسيا ، والهب مشعل الحضارة في أوربا . هذا النزاع الذي مدعوه بالحروب الصليبية ، الذي لا يمكن أن يفهم ويدرس بدون الإطلاع على شروط الحياة التي كانت تعيشها أوربا . والظروف التي خرجت منها الحملات الصليبية . لذلك بالإضافة لما قدمناه عن حالة أوربا في زمن الأمويين تأتي على ذكر حالة أوربا في زمن العباسيين لنهنا الجو المناسب لدراسة الصليبيين .

الفصل الأول

الدولة الطارئة ونجدة وشارلمان

شارل مارتل وبيبين القصير تميزتا الدولة الفرنجية حاكمان عظامان هما شارل مارتل الملقب « بالطارفة » وابنه بيبن القصير ، وهما الزقان من الطريقتين التأسيسيتين لملوكية شارلمان العظيمة . ان الصعوبات التي واجهها شارل مارتل في حكمه هي نفسها بالنسبة الى جميع حكام أوروبا الغربية لمدة عدة قرون . وهي قدرتهم على فرض سلطتهم على جميع القبائل البرابرة من الأمراء الغالين ، من الاعتياد . ورجال الدين والكيان الذين يترقبون بشوق ضعف الحكم أو الشغالة ليعانوا الفصالحهم في مقاطعاتهم أو مناطق نفوذهم فقد قام شارل مارتل بعدة حملات موفقة حارب فيها أميرا اكيثانيا بإفريقيا ، وألمانيا الذين حاولوا الانفصال عن ملكه . فتمكن من إخضاعهم وانطاعوا على الاعتراف بسيادته عليهم .

لم يكن الكهنة وكبار رجال الدين أقل الإعجابا بحاجب القصر شارل مارتل من الأمراء والنبلاء الذين كانوا يحاولون الانفصال عنه ، بالرغم من أنه احتفظ لنفسه بحق انتخاب الكهنة من الذين يملكون اليد ، ومع الناس ورجال الدين من الخاب من يريدون كما تنص عليه قوانين الكنيسة ومع ذلك ما يكد لولا تلك الكهنة الذين يتخضعون لشارل مارتل من أن يشعروا كرههم حتى يحاولوا الانفصال عن الدولة الفرنجية . لان لياك الكهنة لم تمكن أنفسهم لامتياز القرن هـ من أصل شريف من أن يتابعوا أعمالهم الخيرية والصيد والاهو كما كانوا عليه سابقا .

وقد حارب شارل مارتل العرب في خوز الواقعة على شفاف نهر الفوار في فرنسا سنة ٧٣٢م وتمكن من الانتصار عليهم .

وبين شارل مارتل قبل وفاته سنة ٧٤٦م ولديه بيبن Bippin وكارلمان Carloman في منصبه وهو حاجب القصر Mayor of the Palace فانتقلت السلطة اليهما وترك الملك على عرشه دون أن يكون له أي تدخل في الحكم . ويقول مؤرخو ذلك العصر « بأن الملكا اكتفى بلقب الملك ويشعره المدل ، وله حيتته الطويلة » . وبأن يجلس على العرش ويحمل دوبر الحاكم فيوسع الى السفراء الذين يأتون من جميع الخراف ، ويعطيهم الأجوذة التي كانت تلقاها كانوا من عنده . ويأمراته ، وبالخليفة لم يكن له شيء سوى الاسم الملكي والراتب الذي يستجديه من حاجب القصر . وهذا

ما يشبه حالة الخلفاء العباسيين في زمن ضعف دولتهم . ولكن إذا شاول من القضاء على كل معارضة
وقت لها السيادة . ومن سري ما حصل لهي كارل أن لا أسية من سعة بلطسكو والرهانة ثواب الرهبنة
وجمعت الملكية الفرنكية كلها بيد بيدان الذي جعلها يحزم وقوة . وفقت الملكية الفرنكية سدين
عاشين وهما سنة ٧٥٩ و ٧٥٠ م .

البابا وبيبان

وجد بيدان نفسه قوياً وأراد التخلص من الملك الشكلي الذي لم يكن يده تهيء من الساطرة
وأخذ لنفسه لقب الملكي . لذلك يلزم على الاستعانة بالكنيسة . فوصل إلى البابا يسأله : هل من
المناسب أن يكون أفراد الساطرة المبروفينية ملوكاً . وليس يده من زمام الساطرة شي . فأجابه
البابا : من الأفضل أن يسمى ملكاً من يده الساطرة . فليكن بيدان نفسه سنة ٧٥١ أول ملك من
ملوك الأسرة الكارولنجية . تلك الأسرة التي كانت تحكم الدولة الفرنكية باسم الملوك المبروفينيين
من أممهم .

إن اشتراك البابا في تسمية بيدان ملكاً على الدولة الفرنكية بهذا الطريقة . الثاني الملكي . لأن
البابا صرح : إن نصب الله وإتقانه يقع على كل من يحاول أن يحل محل محلولة بيدان المقدسة . فاصبح
انظرياً — على الأقل — واجب ديني إطاعة الملك . لأن الكنيسة أصبحت تعبد عقل الآله على
الأرض . يستمد سلطته منه . فكأن نوره عليه هي خطيئة ينيئة . وهذا كان الملك ولا يزال منه
الحر من معتبرا كقائه حربي منتخب من الشعب . أو على الأقل منتخب من الطبقة الأرستقراطية فيه
أن وجود بيدان على عرش الملكية الفرنكية بمصادقة البابا . حسن العلاقات بين كبريين
في الغرب وهما : الكنيسة والدولة الفرنكية . ونج منه الفاصل بين الطرفين . وكان هذا حدثاً
عظيماً في تاريخ أوروبا .

وذلك لأن الباباوات كانوا سابقاً ينظرون إلى البطريرك القسطنطينية في الشرق ككاهن لهم . لأنهم
كانوا يساعدونهم في رد هجمات العباردين القاطنين في شمالي إيطاليا الكيلا يستولوا على روما . وفي
سنة ٧٢٥ م نشر الإمبراطور ليو الثالث the III مرسوماً يحرم فيه وضع صور المسيح والتقدسين
في الكنائس وأمر بطمس ما كان مصوراً منها على جدران الكنائس في جميع أنحاء مملكته . لأن
المسيحين كانوا ينتقدون هذه الصور ويعتبرونها رجوعاً إلى الوثنية . غارت المعارضة في وجه
الإمبراطور في كل مكان . وبصورة خاصة في الغرب . ومنع البابا إطاعة هذا الرسوم . لأنه ليس
الإمبراطور التدخل في مقدسات الكنيسة . وهذا ما دعا إلى انقسام الكنيسة المسيحية إلى شرقية
وغربية . وظلت الصور المقدسة محترمة في الكنائس الغربية .

وبالرغم من هذا الانقسام ظلت البابوات يتأملون مساعدة امبراطور القسطنطينية لينصرم على
 العباردين حتى هدده استولف Aistulf مدينة روما وحاول جعل ايطاليا مملكة واحدة باسمها روما.
 وان تنقل السيادة من البيزنطيين اليه. لكن البابا ابي أن يصبح تابعاً لتلك العباردين وان يخسر استقلاله
 وبذلك حرم ايطاليا من ان تصبح دولة موحدة ، كما انهم حرموا ايطاليا من توحيدها بعد ذلك اكثر
 من الف سنة الى ان تم ذلك في زمن فيكتور وحمافويل . وعلى اثر تهديد استولف لمدينة روما طالب
 البابا المعونة من البيزنطيين فغيروا مسماهم ، فاجتاز جبال الالب ملتحقاً الى بيزان ، فاستقبله استقبالاً
 عظيماً ، وعاد معه الى ايطاليا وانقذ روما من العباردين سنة ٧٥٤ م . وما كاد بيزان يقطع جبال
 الالب عائداً الى بلاده ، حتى عاد ملك العباردين وحاصر روما من جديد ، فكتب البابا اليه يطلب
 معونته ، فعاد بحملة ثانية الى ايطاليا واخضع العباردين وحاصر روما من جديد ، فكتب البابا اليه يطلب
 معونته ، فعاد بحملة ثانية الى ايطاليا واخضع العباردين ، وضم املاكهم الى البابا فتوسعت ملكته
 في شبه الجزيرة . وظلت هذه المملكة قوية حتى منتصف القرن التاسع عشر وتدعى « بمملكة الكنيسة »
 وتنازل عهد بيزان بعدة امور وهي : اولاً قوى نفوذ الملك في الدولة الفرنكية ، ثانياً ساعد على انتشار
 النظام الملكي في اوروبا الغربية وهياً ظهور دولة فرنسا والمانيا . ثانياً بدأ في زمنه تدخل امراء البابا
 في شؤون ايطاليا ، وأصبح هذا التدخل غير عثرة في وجه ملوك فرنسا ، والمانيكيا بعد . ثالثاً شكى
 للباباوات مملكة خاسية بهم . وهذه المملكة بالرغم من صغر حجمها تعتبر من الدول المهمة في اوروبا
 مات بيزان سنة ٧٦٨ م بعد ان اعاد الى بلاد الفرنك وحدتها السياسية وترك لابنه شارلمان
 اكمل عمله .

شارلمان

٧٦٨ - ٨١٤ م

صفات شارلمان : يعتبر شارلمان اول شخصية تاريخية من بين الشعوب الجرمانية التي نعرف عنها
 معلومات كافية ، فقد وصفه امين سره بأنه كان : طويل القامة ، قوي البنية ، وجهه مدور وعينه
 واسمان وحادتان ، انفه كبير وعباراته واضحة ومسرعة ، وسننه اكان جلياً او واقفاً هز
 شكله مريباً ، وخطواته ثابتة .

كان شارلمان نشيطاً ، ومهماً بالهزيرن الجسمية ، يحسن ركوب الخيل والصيد ولا سيما السباحة
 وقد كانت محنته جيدة ، وجسمه قوياً ، وهذا ما يبرهن سرسته العجيبة التي كان ينقل بها في
 ملكته الواسعة . فكان يقود الحملات العديدة في مناطق واسعة وبصورة مستمرة .
 كان شارلمان يهتم بالتعليم ويعرف كيف يدير ويشجع رجال العلم . فكان عند تناول الغذاء

يسمع قراءة الكتب لاسيما التاريخية منها ، فهو بذلك يشبه معاوية الخليفة الأموي الاول .
وكان يحسن قراة اللغة اللاتينية ، وفهم اليونانية بسهولة . وحاول ان يعلم الكتابة الا انه بدأ
متأسراً ، لذلك لم يحسن الا كتابة اسمه .

استدعى شارلمان علماء عصره الى قصره ، واستفاد من معارفهم لتأسيس نظام تعليمي عام في
مملكته ، واهتم أيضاً بالبناء ، والاعمال المعمارية العظيمة ، ابرزن مملكته وصلاحها ، وقد وضع نفسه
مخططاً كاتدرائية اكسلاشايل ، واظهر عناية فائقة بفرشها ، وابتدأ بعمارة قصرين احدهما بقرب
مدينة ميوز Mainz والآخر في هولندا ، وبني جسراً كبيراً على نهر الرين عند مدينة ميوز .

ان الاثر الذي تركه شارلمان في عقول الناس ازداد بعد موته ، فاصبح يطلق عصره واسندت
اليه اعمال ومخاطر ليست من الحقيقة التاريخية بشئ ، وظلت قروناً عديدة معتبرة كحفائظ ثابتة
فقد كانوا يعتقدون مثلاً انه حكم ١٣٥ سنة ، واسندت اليه والى فرسانه اعظم الاعمال الحربية ،
حتى قيل انه قاد حملة صليبية ، وقيل في جميع ذلك قصائد وملاحم كلها خرافات لا تستند الى التاريخ بشئ .
ان دراسة حكم شارلمان تبرز على انه كان ملكاً عظيماً ، ومن الشخصيات العظيمة في تاريخ
العالم ، فقد طبع القرون الوسطى بطابعه الخالص ، ويعتبر من الرجال القلائل الذين اثروا تأثيراً كبيراً
في تأخير تقدم حضارة اوروبا ، وفيما يلي سنذكر اولاً فتوحاته ، ثم تنظيماته الادارية واخيراً تشجيعه
للعلم والثقافة .

صروب شارلمان الداخية

اخضاع السكسون : نجح شارلمان في اخضاع الجرمن وجمعهم في دولة مسيحية واحدة ، وقد
تمكن والد السكسون من اخضاع قسم صغير من بلاد الجرمن بالحرب ، كما ان الارماليات الدينية
تمكنت بعد جهود عظيمة من تحويل قسم آخر وضمهم الى المملكة الفرنكية . وبقيت الشعوب السكونية
على وثنيها واستقلالها كما كانت عليه في زمن الرومان قبل سبعة قرون .

كانت شعوب السكسون تحتل المناطق الواقعة شرقي مدينة كولون Cologne ، وتمتد اراضيها
حتى نهر الالب Elbe ، وفي الشمال فصل حتى الموقع الحالي لمدينتي بريمن Bremen وهامبورغ
ولا شكاد تقع مملكة ساكسونيا الحالية ضمن حدودها . ولم يكن عند الشعوب السكونية طرق
معبرة ولا مدن معمرة ، وكان من الصعب اخضاعهم لانهم كانوا يتجهقرون الى اماكنهم في الغابات
والمستنقعات عند قدوم الكفاءة بانفسهم في مقابلة عدوهم في ساحة القتال . لذلك ظلوا يهددون
المملكة الفرنكية بصورة دائمة ، وكان اخضاعهم لسلطانهم الامور الرئيسية وقد اهتم شارلمان في هذا

السبيل كمنهم ، وصرف جهوداً جبارة خلال عدة سنوات من أجل ذلك فاضطع ثوراتهم تسع
مرات متواليات ، وكان نجاحه الأخير بسبب الكنيسة لا بسبب قوته الحربية ، ولا بكونه مثلاً أبرز من
هذا على تأثير الكنيسة في القرون الوسطى . وكان شارلمان بعد احتضار السكسون يحرص عليهم
احترام الكنيسة ، ويحبرهم على الدخول في دينها قبل أن يحرص عليهم خضوعهم لنفسه
وموالياتهم لسلطانه .

وكان بهم إنشاء كنائس وأديرة ، كما بهم بناء القلاع والحصون ، وكان القانون الذي نشره ما بين
سنة ٧٧٥ و ٧٩٠ بعد فتحه بلاد الساكسون هو أن حكم الاعدام ينفذ في كل من لا يكون
موالياً للملك ، وكل من ينال على وليته ولا يتحضر .

وكان شارلمان يعتقد بأن نصير السكسون وحماية الكنيسة من أي واجباته لذلك نشر أمراً
قال فيه : أن من يدخل الكنيسة بالقوة أو يأخذ منها شيئاً يحكم عليه بالموت ، ومن يعبد شجرة
أو نبع ماء أو لا يقدم ابنه للتمتعيد قبل أن يبلغ العلم من عمره يعاقب بدفع مبلغ كبير على المبالغة
وفرض على كل مقاطعة أن تقدم للكنيسة التي فيها ثلاثمائة فدان من الأرض وتبارك من . وعلى
كل فرد في المقاطعة سواء كان حراً أو عبداً أن يقدم عشر ما يحصل عليه من عمله إلى الكنيسة
ورجالها ، وذلك يرده إلى الله جزءاً مما أعطاه إياه . وعلى أزر هذه الأوامر التي أصدرها شارلمان
قويت العلاقات بين الكنيسة والدولة وشلتا تتعاونان في حكم وإدارة الشعوب التي تخضع لها في القرون
الوسطى . وبالرغم من أن أمراً الكنيسة كانت تمارس أحياناً مع مصلحة الحكومة أو بالعكس
لم يدخل في عقل أي رجل من رجال الحكومة أو الكنيسة لمكان استغناء بعضهم عن بعض . ولم
يكن ليحكم الشعب بالمكن وجود أحداهما بدون الآخر .

وقبل غزو شارلمان لبلاد السكسون لم يكن فيها مدن . إلا أنه نشأ حول كل كنيسة بعض
البيوت التي أصبحت فيما بعد مدناً أو موانئ مهمة .

احتضار القومباردين : قلنا سابقاً أن هيبان حلي البابا من خصومه القومباردين ، وعندما رأى ملك
القمباردين أنشغال شارلمان في احتضار قبائل الجرمن اكتسب الفرصة للاستيلاء على روما فاستفاد
البابا بشارلان الذي كان مستعداً لانتفاذ وعده إياه . فأمر ملك القومباردين بإرسال المدن التي احتلها
من البابا . وعندما رفض ذلك احتضار شارلمان لباردبا سنة ٧٧٣ م بجيش كبير وأمنوا على عاصمتها
نابا Ravenna بعد حصار طويل . وأجبر ملك القومباردين أن يصبح كاهناً ، ووضع ترونة على عنقه
وفي سنة ٧٧٤ أجبر شارلان جميع أمراء بارديا أن يعتبروه ملكاً عليهم .

احتضار امبري اكينانيا وبلهريا : لقد تم ضم مقاطعة اكينانيا إلى المملكه الفرنكية سنة ٧٥٩ م

كما انه اخضع امير باقاربا وسجنه في دير . وقدم ملكته بين رجله . وبذلك سمح له تأمين حدود مملكته من جميع الجهات .

صروب شارلمان الفارسية

بعد ان وطد شارلمان حكمه في داخل امبراطوريته واخضع قبائل الجرمن بمساعيدهم اللومباردين بشي عليه ان يوسع مملكته ويخضع الصقالبة Slavs في الشرق الذين كانوا يسكنون تلك بولونيا ، وبوهيميا ، وروسيا وان يحارب العرب في اسبانيا ليمنظ مملكته من طرفهم ويوسع نفوذه من جهة المسلمين .

معاربة الصقالبة : Slavs جيز شارلمان سنة ٧٨٩ م حملة على الصقالبة والبوهيين واجبرهم على الاعتراف بسلطته ، وان يدفعوا ضريبة سنوية له . كما انه بنى قلاعاً على الحدود الشرقية وضع فيها حاميات عسكرية لتجمعي حدود مملكته من جهات القبائل الغير جرمانية . ولتجتم هذه القبائل من القرب لداخل مملكته . الا ان بعض قواد هذه الحاميات استقل فيما بعد في مناطقه ، وانفصل عن الدولة الفرنكية .

معاربة العرب في اسبانيا : كان يحكم بلاد الاندلس الامير الاموي عبد الرحمن الداخل ، ناز عليه بعض امراء العرب ، وقواد البربر ، منهم : سليمان بن يقطان العراقي أمير برشلونة ، وعبد الرحمن بن حبيب الفهري ، وأبو الاسود بن يوسف الذي كان عبد الرحمن قد حكم عليه بالسجن المؤبد ، وتمكن من الهرب . والتجأ هؤلاء الثلاثة الى شارلمان سنة ٧٧٧ م وكان مجتمعاً مع كبار رجاله بمجلسه الاعلى الذي كان يعقده في ربيع كل سنة لتداول في شؤون الدولة واتقوا معه بان يساعدهم بقوة كبيرة للقضاء على عبد الرحمن الداخل . وما لبث ان ناز عبد الرحمن بن حبيب الفهري بقوة من البربر ، واحتل مدينة « ندمير » مطبراً المدعوة للماسين . وطلب من سليمان بن يقطان اعلان عصيانه في برشلونة ، الا ان سليمان وجد ان الوقت لم يحن بعد ، لان شارلمان لم يبر جبال الپيرنة بعد ، فاشق الفهري ان ابن يقطان قد عمد الى الحماية ، وسار اليه بمحوشه وحلوه . وكان نصيبه الفشل . وفيها هو عائد الى ندمير اغتاله احد البرابرة الذين طمعه عبد الرحمن الاموي بالمال ، وبذلك خمدت روع المقاومة .

بعد شارلمان مجاز الپيرنه الى بلاد الاندلس واستولى على بلاد البشكنس وكثير من المدن في طريقه الى سرقسطه . وما ان انتشر خبر قدومه فيها حتى تارت نفوس اهل تلك المدينة ، ومنعوه من الدخول اليها ، وفي اناء حصارها وملة خبر انتفاض وتيسكند Wulkind زعيم الساكنون عليه

وعودته الى الثور. فاضطر شارلمان لعودته الى بلاد. وفي أثناء اجتيازه مساكن البيضة الصعبة مرة
في جاز ، ورواقو ، الضيق قطع عليه رجلان البشكس الطريق وكانوا قد كمنوا له في الغار
والكموف ، وبين الصخور والغابات . ولما بلغ مكاناً منخفضاً تحيط به الجبال انقضوا على مؤخرته ،
وقضوا عليه . وكان من جملة من قتلوا في هذه الواقعة ، رولان ، أمير مقاطعة برونايا وشبهه من
كبار قواد شارلمان . وقد أثارت هذه الحادثة نفوس كثير من الشعراء . وكانت موضعاً لأغنية
رولان الشهيرة .

تتويج شارلمان امبراطوراً

بعد ان توسعت مملكة شارلمان في اوروبا الغربية والوسطى ، وبلغت أقصى حدودها سنة ٨٠٠
كانت لقب شارلمان وهو ملك الدولة الفرنكية وبلاد الغبارد لا يدل على حقيقة سلطانه ، وفي سنة
٨٠٠ ذهب شارلمان ليحل الخلاف القائم بين الباباوات الثالث Leo III وخصومه ، وحكم البابا .
ولاشعار هذا الحكم عقد البابا في يوم عيد الميلاد احتفالاً دينياً في كنيسة القديس بطرس - حضره
شارلمان . وعندما ركع شارلمان أمام الذبح أثناء القداس اقرب البابا منه ووضع على رأسه تاجاً
وسلم عليه امام الحاضرين ، امبراطور الرومان . وكانت سبب هذا العمل الغريب الذي ادعش
شارلمان يعود الى الامور التالية :

اولاً : الى انقطاع لقب امبراطور في الدولة الرومانية الغربية .
ثانياً : الى ان الامبراطورية الشرقية كان يحكمها امرأة ضعيفة تدعى إيريني Irene خلعت ابنها
الصغير قسطنطين السادس ، وفقدت عينيها واخذت منه الحكم .
ثالثاً : الى ان الكنيسة الغربية كانت تنظر الاباطرة الشرقيين هراطقة ، لانهم حرموا وضع
صور القديسين في الكنيسة .

رابعاً : لم يكن تتويج شارلمان امبراطوراً الا شيئاً لوضع سياسي حصل في بلاد الغرب بعد
فتوحات شارلمان الواسعة .

وقد اعتبر العالم المسيحي آنذاك ان مملكة شارلمان ما هي الا تاج مملكة الامبراطورية الرومانية
التي اسسها أغسطس . وان شارلمان ما هو الا خلف الامبراطور قسطنطين السادس الذي خلعت
ايريني . ومع ذلك فانا نجد بين امبراطورية شارلمان وبقية الاباطرة الرومان الفروفي الثانية :
اولاً : ظل الاباطرة الشرقيون يحكمون في القسطنطينية عدة قرون غير مدبرين حكم
شارلمان ومن خلفه .

ثانياً : كان خلفاء شارلمان الذين لبسوا التاج الامبراطوري صغار الدرجة انهم لم يتمكنوا من

حكم المساندا وشملي إيطاليا حكماً فعلياً ، تندي عن بقية المناطق في اوردية الغربية .
ومع ذلك فقد ظلت المملكة الغربية التي سميت في القرن الثاني عشر ، الامبراطورية الرومانية
المقدسة ، نحو النصف سنة الى ان شارل آخر امبراطور سنة ١٢٨٠ ، عن تقية الى نابليون بونابرت
الذي سمي نفسه خليفة شارلمان ؛
وقد اتعب لقب امبراطور ، حكم الجرمين وجلب لهم مشاكل كبيرة ويعود ذلك الى
الاسباب الآتية :

اولاً : اضطرهم ان يحتفظوا بسططهم على ايطاليا التي كانت خروجة من نطاق حدودهم الطبيعية .
ثانياً : ان الظروف التي توج فيها شارلمان حملت البابوات يدعون لها بعد بأنهم هم الذين نقلوا
اللقب الامبراطوري الى العائلة السكاروانجية ، واخذوه من سلالة الابطرة الشرقيين ، ولما فلم
الحق ان يتصرفوا بالتاج كما يشاؤون ، مما اضطر كثير من الابطرة ان يتحملوا مشاق السفر الى
روما ، وسبب ذلك كثيراً من الخلافات بين رؤساء السلطة الروحية والارمنية .

ارادة شارلمان وشعاره

ان ادارة امبراطورية واسعة كامبراطورية شارلمان يعتبر من الاعمال الشاقة التي اصبحت شارلمان
واغبيوت خلفائه من بعده . فاصعبات التي واجهها هي نفسها التي كانت تعرض من تقدمه ، وهي قلة
واردات الدولة ، واتصال بعض الامراء الاقوياء والذين لا لهم منه . الا ان كفاءة شارلمان في الحكم
اظهر في إخضاع جميع الامراء في مملكته الى سلطته ، واجبارهم على موالاته .

وكان دخله - كبقية حكم القرون الوسطى - يأتي خاصة من اراضيهِ . فم يكن لديه نظام
فرض ضرائب عامة كما كانت عليه الدولة الرومانية . فكان همه ان يزوع جميع اراضيهِ وأن يستغلها
على أن لا يضع عليه من جاهداتها شيئاً .

وكان شارلمان يعتمد بصورة خاصة على الامراء الذين كانوا يد وصوت الملك معند ما لا يمكنه
أن يكون موجوداً بنفسه . فكان عليهم حفظ النظام وتحريك العدل في مقاطعاتهم ، وتربية الجند
لمساعدة الملك عند الضرور .

وليتحقق شارلمان من امانة الامراء التابعين له كان يرسل - مبعوثين ، لجميع الجهات ليراقبوا
اولئك الامراء . ورسلا تقارير الى عاصمة الدولة ، اكس لاشابل ، من حالة المقاطعات وكيف
تجري الامور فيها . وكان يرسل مبعوثين معاً ، احدهما من رجال الدين ، والآخر من الموظفين
المدينين ليراقب احدهما الآخر ، وكانت المبعوثون يبدلون جهاتهم في كل سنة لكيلا يتفقوا مع
الامراء الذين يغشونهم .

ان احياء الامبراطورية الرومانية في الغرب على يد شارلمان بنجر في نظام الحكم شيئاً سوى أنه
 طلب من كل فرد بلغ الثانية عشرة من عمره أن يقسم بين الولاء لامبراطور ، وكان بمقتضاها
 سنوية في كل ربيع او صيف يحضرها الاشراف ورجال الدين ليتذكروا في قضايا الدولة الرئيسية
 وقد نمر بمساعدة مستشارية مجموعة قوانين مهمة حفظ بعضها حتى الآن . وكان يتذكر مع رجال
 الدين عن حاجات الكنيسة ، وبصورة خاصة عن طريقة تحسين التعليم في المدارس ، ونشر المعارف
 بين رجال الدين والشعب على السواء . وكان له فضل كبير في نشر العلم في اوروبا .
 كانت الجندية إجبارية فكل فرد كان مجبر على الخدمة في الجيش ، وبالطريقة لم يكن يشترك
 بصورة فعلية إلا النبلاء ، والاشراف أصحاب الاملاك الواسعة لان الخندي كان مجبراً على تقديم جميع
 ثغاله التي تارعه في الحرب .

الانعام شارلمان بالتعليم

إن العصر الذي سبق محي ، شارلمان يعتبر من أعظم العصور التي مرت على اوروبا ، بسبب انتشار
 الجبل وفقدان الورق الذي كان يأتي من مصر . والقليل من الوثائق التي وصلتنا تظهر مقدار الجهد
 والاهمال في تلك الايام . وكانت الكنيسة هي الامل الوحيد في إبقاء بعض المعارف النادرة . وذلك
 لان لغتها الرسمية التي تراسل بها كانت اللغة اللاتينية . وكان الكهنة مسطرين لحفظ بعض المقاطع
 اللاتينية من الكتاب المقدس لتلاوتها أثناء الصلوات . ولذلك كان من الواجب عليهم تعلم اللغة اللاتينية
 بها كانت الجندية التي ينسبون إليها ، فيقوموا بالخدمة المفروضة عليهم .

وعندما جاء شارلمان لاحظ إهمال التعليم حتى عند رجال الدين أنفسهم وقال : « ان التعليم قد نفي
 تماماً وذلك بسبب إهمال اجدادنا . » وكان يرى أن من واجبات الكنيسة ان لا تنف موطئها بحسب ، بل
 أن تنشر التعليم الابتدائي على الأقل بين جميع طبقات الشعب ، ولذلك نشر سنة ٧٨٩ بياناً إلى رجال
 الدين يطلب منهم ان يجمعوا أولاد الاحرار والعبيد في مناطقهم وان يؤسسا مدارس ، يعلمونهم
 فيها القراءة ، ومن الشعب معرفة عدد المدارس التي اسسها رجال الدين على اثر هذا البيان ، الا أنه
 من المؤكد أن كثيراً من مراكز التعليم نشأت في نور ، واورلثن وغيرهما من المدن . وقد شجع
 شارلمان التعليم تأسيسه ومدرسة القصر الشهيرة لتعليم اولاده وأولاد النبلاء ، جلب اليها معلمين قديرين
 من ايطاليا وغيرها . كما انه حرص على نقل الكتب ، وحذر من الاختطاف التي يرتكبها السامع ،
 وطلب أن لا يسلم العمل الا لسامع قديرين . ولم يهتم شارلمان بأحياء المعارف ، اليونانية والرومانية
 ولكنه اكد على محض الناس على تعلم اللغة اللاتينية ليتسكنوا من قراءة الكتاب المقدس بدون خطأ .
 ان جهود شارلمان لنشر التعليم كانت فاشلة ، والنتائج التي حققها كانت ضئيلة ، لانه انقسام
 الامبراطورية بعد موته ، والنزاع بين اولاده ، وهجوم قبائل بربرية على مملكته ، والنغوضي التي

سببها الامراء الاقطاعيون جعل عمل شارلمان في نشر التماثيل يتأخر على الاقل مئتين سنة ، يظهر من جديد بصورة ضئيلة في اواخر القرن العاشر وابتداء القرن الحادي عشر ، ومع ذلك فن الفوضى والجليل لم يظهر مرة ثانية بعد شارلمان مثلاً كما كان قبل مجيئه .

ازدهار الامبرطورية الفرنكية في عهد شارلمان

كان من نتائج حسن ادارة شارلمان أن بدأ الترقى يظهر في الامبرطورية الفرنكية ، فازدهرت الصناعة ، والتجارة ، وانشئت مدن جديدة ، واسلمت المدن القديمة ، واتصل بعضها ببعض بطرق مهيبة ، وحفرت أنفية مائية لتحسين الزراعة وبنيت أسوار عالية حول المدن انحصاراً من الغارات عليها ، وأحييت بخنادق عميقة ، إلا أن هذه الأسوار منعت المدن من التوسع ، لأنه كانت غير مسموح بالبناء خارج المدن . ولما ازداد عدد السكان أخذت المنازل ترتفع وتعمد طبقاتها ، وحذفت الساحات العامة وبني ابنية مكانها . وضائق الطرق ، وتكاليف البناء في المدن حتى تشوه شكلها . نظم شارلمان المعامل لتشجيع الصناعة ، وألغى الرسوم الغير مشروعة التي كان يجبرها الامراء عند مرور البضائع في مناطق نفوذهم إما عند الجسور أو في الطرقات . كما وضع مراكب مسلحة عند مضاب الانهار لتحمي الملاحة النهرية .

وقد ذكرنا سابقاً صلته بهارون الرشيد وما قيل عن الهدايا التي نبذت بين الطرفين . وقد حول شارلمان الزواج لاريي ملكة البيرطيين ليضم لنفسه نواح الامبرطورية الرومانية الشرقية ، بجميع الناجين في شخصه ، إلا أن حلمه لم يحقق بسبب خلع ثيودور لاريي وسلبه الناج منها وخضوعه لشارلمان . مات شارلمان في عاصمة ملكه أكس لا شابل سنة ٨١٤ وعمره ٧٢ سنة بعد حكم دام ٤٦ سنة . وقد قسم ملكه في حياته بين اولاده الذين ماتوا قبله وبقي أسفرهم « لويس » الذي ورث مملكة أيبس الواقعة ، ولقب بالثقي لما كان عليه من الصلاح والحق بسبب تربيته الدينية ، ومعاشرته القس وقضاء أكثر اوقاته بالصلاة ، وهذا ما جعله غير صالح لادارة المملكة حتى ولا تدبير أمور نفسه .

قسم لويس التي ملكه بين اولاده في حياته ، وأختلف معهم . وبعد موته اختلفوا فيما بينهم ، وأخيراً اتفقوا في عقد معاهدة فيردان Verdan سنة ٨٤٣ التي اكدت اسماً في التاريخ أكثر مما تستحقه . لأنها كانت في الحقيقة عبارة عن « فاصلة ورق » بين الانجباء امام الذي آلت اليه امبرطورية شارلمان . وكان هذا التقسيم الذي نصت عليه المعاهدة كما يلي :

اولاً : مملكة لويس الجرمانى : وتضم القسم الشرقي من الامبرطورية والذي أصبح فيما

بعد — المانيا .

ثانياً : مملكة شارل الاصليح : وتضم القسم الغربي من الامبرطورية والذي يمثل — فرنسا الحالية .

ثالثاً : مملكة لوتر : وهو القسم الاوسط بين المالكين . ويمتد من بحر الشمال الى مدينة روما

وكان مع لوثر أيضاً القبط الامبراطوري .

توفي لوثر سنة ٨٥٥ . فقسمت مملكته بين اولاده الثلاثة . وفي سنة ٨٧٠ توفي الثاني من اولاده فقسام اعمامها شالك الاسلع ولويس الجرمانى الملاكها بحسب معاهدة « Merse » وتزكت ايطاليا الى الولد الثالث الذي بقي حياً .

كانت النتيجة من هذا التقسيم انه لم تات سنة ٨٧٠ الا واقسم غربي اورطال ثلاثة مناطق أصبحت فيه بعد ثلاثة قرون مهمة وهي ألمانيا وفرنسا وايطاليا .

وقد وجدت هذه الاقسام مرة ثانية في زمن شارل الضخم Charles the Fat حفيد شارلمان ولكنه خلع سنة ٨٨٧ بسبب غيرة النورمان على بلاده . وعادت التهجئة من جديد . واستقلت كل تحت حكم اميرها .

عصر الاضطراب

لم يتمكن أي ملك بعد شارلمان أن يؤسس دولة قوية واسعة تشبه الدول الكبيرة في الوقت الحاضر ويعود ذلك إلى الأسباب الآتية .

اولاً : كان من المستحيل أن يصل الملك بجميع أقسام مملكته ، فالطرق الرومانية القديمة التي عبرها الرومان قد تفرقت ، لعدم وجود مهندسين يصرفون على تبيدها ، وتدمير الجسور الخربة فيها . كما أن الاقسام التي فتحها شارلمان لم تكن الجيوش ولا المانية الرومانية قد دخلتها فكانت الحافة فيها الضعيف لانه لا يوجد حتى آثار الطرق الرومانية الخربة .

ثانياً : كانت العملة قليلة في القرون الوسطى ، وهذا ما منع الملك من استخدام موظفين دائمين يدفعون رواتب لهم ، ويستقنون بهم على ادارة الدولة . كما كان من المستحيل عليهم تأليف جيش نظامي يستمنون به في إخضاع الامراء الذين كانوا يتفصلون عن الدولة ويحاربونها .

ثالثاً : كانت الامبراطورية تتجزأ بسبب استمرار سيل البرابرة الذين يغزونها من كل جانب فمن الشمال كانت تأتي الشعوب السكندنافية الذين يدعون « بأهل الشمال » Northmen ، ويسمىهم العرب الجورس . وكانوا بحارة ماهرين يركبون سفناً صغيرة بها جموع من المشواطي بحصو الشرف ، ويدخلون مصاب الانهار الى المدن الداخلية فيهبونها ويحرقونها . ومن الشرق كان الجرمن في زراع مستمر مع السلافين ، ثم اتى الهوننساويون (وهم شعوب متوحشة قذفت بهم بلاد آسيا) لينهبوا ويحرقوا أواسط ألمانيا وفتحي ايطاليا . ومن الجنوب استولى العرب المسلمون على جزيرة صقلية سنة ٨٢٧ . وأخذوا يهددون جنوب فرنسا وايطاليا ، حتى انهم حاصروا اوربا . ولم يكن هناك ملك قوي ولا جيش منظم يرد طارات هذه الشعوب عن الامبراطورية المركزية . بل كان على كل منطقة ان تعي نفسها بنفسها . فكان يجمع حول كل أمير جماعة منضمون له ويطلبون حمايته وهذا ما يفسر لنا وجود العظام الانطاني .

الفصل الثاني

النظام الإقطاعي والفردية

مقتضى الإقطاعية : لكي نقيم حالة الأمراء الإقطاعيين في القرون الوسطى ، ونعرف مقتضى الإقطاعية يجب أن نشكك من حالة الملاكين الكبار في ذلك الوقت . فكان النظم الأكبر من أوروبا الغربية في زمن شارلمان مقسم إلى أقطاع ، يزرعها العبيد المرتبطون بالأرض ، والمهذبون من قبل مالك الإقطاع . فكان العبيد يحرثون الأرض ، ويستخرجون ثمارها لصالح المالك ، ولصالحهم دون حاجة إلى مشاركة شيء من الخارج .

وعندما نشكك من مالك إقطاع في القرون الوسطى نعني به الشخص الذي يملك إقطاعاً أو أكثر يعيش من خلاله دون حاجة لأن يعمل فيه بنفسه ، وإنما يفرغ لخدمة أصحاب الإقطاعيات الذين يعيشون على طريقته .

وجرت العادة حتى قبل زمن شارلمان أن تعطي الكنائس ، والأديرة وبعض الأشخاص امتيازات خاصة بمعنى أنها تؤمنهم من زريبة موظفي الدولة ، فليس هؤلاء الموظفون حتى تتصاع الشكاوى أو أخذ الضرائب ، لو النزول في أراضي هؤلاء الأشخاص إذا مروا بقربها وليس لهم أن يسألوا شيء حاجة وقد حصل هؤلاء الأشخاص على هذه الميزات لا ليتصرفوا في الدولة وإنما ليتخلصوا من سوء استعمال موظفيها ، فهم يقومون بشؤونهم الخاصة كتبادل عن الملك ، وليسوا كمنافسين عنه ومن السهل أن نفهم أن هذه الطريقة كانت تستغل عن الدولة المركزية عند ما تشعر بضعفها ، كما كان كثير من الأمراء والملاكين غيرهم يتفصلون عن الملك أو الأسباط القاطنين لهم إذا أصبح لهم خلاف .

كان شارلمان قد اتخذه الأمراء والأسباط الذين حكموا المقاطعات في دولته عن الإشراف والأغنياء الذين انحدروا من أسر كبيرة . وكان يكافئهم على خدماتهم بالمقاطعات الجديدة والقنود عنده ، فحاسب استبداد قوتهم وعاد لهم الاستقلال عنه ، وكانوا ينظرون إلى مقاطعاتهم كأنها ملك خاص لهم ، ويورثونها أبناءهم من بعدهم ، وبما إن شارلمان كان قوياً فقد تمكن من مراقبة هؤلاء الأمراء بواسطة مفتشين . ولكن أصبحت هذه الطريقة غير مجدية بعد وفاته لأن أولئك الأمراء والأسباط استغلوا عن الدولة .

كان النظام الاقطاعي أمراً طبيعياً في أوروبا الغربية في القرنين التاسع والعاشر ، وكان نتيجة
محنة الاوضاع التي مر ذكرها . ولم يخرج هذا النظام او تكتشف عناصره الرئيسية من أحد .
وانما تجمعت تلك العناصر لتتلاءم مع ذلك الزمن . وقد حدث مثل هذه الحالة قبيل اجتياح الجواررة
للدولة الرومانية ، وكان الفلاحون الصغار يرون مصالحهم ضم اراضيهم الى ملاك قوي يجوارهم
ليصمم . فكان هذا الملاك الكبير " يبق الفلاح الضعيف في أرضه يعمل بها من غير أجر ، ويعيش فيها
دون أن يكون مالكاً . ومثل ذلك كانت بحري الفلاح الذي يلتجئ الى إحدى الاديرة المجاورة
لتحميه على أن يبقى في أرضه ، وهذه الطريقة كانت الخطوة الاولى في تكوين الاقطاعية .
وحدث نوع آخر من الاقطاعية في اواخر العهد الروماني وهو ان الرجل الحر الذي لم يكن
يملك أرضاً ، ولا يجد عملاً ، يلتجئ الى رجل غني وقوي ، فيقدم له طاعته على ان يلمعه ويحميه
ويصبح مولاه ، فيجب كالمحب سيده ، ويعرض عن كل مالا يربده ، وهذا يشبه ما يحدث بين السيد
والتابع في النظام الاقطاعي .

إن كانت جذور النظام الاقطاعي قد وجدت قبل مجي شارلمان ، ونمت بالتدريج ، وبصورة
غير منتظمة ، وبدون أي خطة سابقة ، وكما وجد هذا النظام الجو مساعداً يظهر فيه لأنه نتيجة
طبيعية للغوذي والاضطراب ، ووجود قوي وضميف .

وقد وجد أصحاب الاملاك الكبيرة في زمن شارلمان من مصالحهم تقديم اراضيهم بما فيها من
فلاحين وعبيد بين اتباع ضمن شروط معينة : كأن يجربوا معهم اياماً معدودة ، ويخدموا في قصورهم
ويحرسوا قلاعهم ، ويسمفونهم في حالة الضيق . وكان من حق التابع أن يمنح قسماً من حصته الى
تابع آخر بشروط تشبه الشروط التي عقدها مع سيده . كان التابع الصغار الذين لا يستطيعون حماية
انفسهم يعطون اراضيهم الى الاسياد الاقوياء المجاورين ، ثم يأخذونها منهم من جديد على انهم اتساع
لهم . وبذلك يكونون (اتباع لميدين) .

وما تقدم تبين أن الاقطاعية في القرون الوسطى كانت تسمى أما من الاعلى الى الاسفل ،
او من الاسفل الى الاعلى او من الوسط ، وذلك بالاشكال الآتية .
اولاً أن يقطع الاسياد اراضيهم لمن دونهم .

ثانياً أن يقدم التابع الصغار وأصحاب الاراضي الصغيرة اراضيهم الى الاسياد الاقوياء المجاورين
أو الى إحدى الرهبانات المجاورة ثم يسترجعونها منهم على انهم اتباع لهم .
ثالثاً ان يعطي قسماً من اقطاعهم الى تابع آخر ضمن شروط معينة .
وأصبحت القاعدة في فرنسا في القرن الثالث عشر أنه لا يوجد أرض بدون سيد عليها ، وهذه

في الحالة نفسها تقريباً في أوروبا الغربية في ذلك العصر .
والاقطاع يعني وراثياً في أسرة التابع فوريته ابنه الأكبر من بعد موته . لا لا يسكن السيد او
توريته من بعده ان حذر جمعوا الاقطاع بعموده شرعية ظناً يعني التابع او وراثته مختلفين لهم ومنعجزين
العمود التي قطعوها على انفسهم . ولا يمكننا ان نعلم ان من الذي أصبح فيه الاقطاع وراثياً .
ولكن يمكننا ان نحول انه كان كذلك في القرن العاشر ميلادي .

وقد عرف الفول والاسبياد الحظائر الذي ينتج توريث الاقطاع . الا ان كل محاولة من قبلهم
دعيت دون جدوى . لان اولاد الاتباع عرفوا انهم سيتفعلون في الفقر المدقع اذا لم يرثوا الحصة
أبهم من الاقطاع . وكانت النتيجة انه لم يبق لدى الاسبياد سوى الخسائر والواجبات التي قبلها
انفسهم عندما أخذوا الاقطاع . ان معنى آخر أصبح الاقطاع يخص التابع ولم يبق لسيده من ملكية
الأرض سوى ظلاله .

وفي الوقت الحاضر يمكن القول ان يشتمل لورثه نفسه او يؤجرها بذهبية من الزمن بغيره
ولكن في القرون الوسطى كانت اكنى الأراضي مضمرة من السوا أصحها . كما ان اصحابها
الاسبياد لا يستطيعون استخلاصها من انفسهم .

وقد استغل الاتباع الكبار الذين أخذوا اقطاعاتهم مباشرة من الملك لمحدود . وقد هووا انفسهم
بين اتباع آخرين . وهؤلاء الاتباع لا يخضعون ابداً لسلطة الملك . لانهم ليس له علاقة قطعية به .
لذلك كان ملك فرنسا والمانيما بين القرن التاسع والقرن الثالث عشر لا يحكم بلاداً واسعة
كما انه ليس لها سلطة على عدد كبير من الاتباع مما جعل ساطرها محدودة جداً .

المعروف بين الاسبياد والاتباع

ان معنى الاقطاع Fief هو أرض يملكها ملكاً الى شخص آخر على شرط ان يفي بالتابع
له والشخص الذي يوافق على ان يكون تابعاً Vassal يركع امام السيد Lord ويقبله القامة
Homage وذلك بان يضع يده بين يدي السيد ويمكن بانه تامة على الاقطاعات الممنونة . وعندئذ
يقبله السيد ويرفعه عن الأرض . ويقبله التابع بين الولاء على الكتاب المقدس بانه سينجز ما وعد
به من الواجبات نحو سيده . وهذه المراسم المتقدمة كرها تدعى والابطال المندسة Feudal bond .
وادخلت التابع الشرطي قدم الطاعة بموجبها يعتبر عمله قصداً للعباد . وتورة على السيد .
ويمكن للسيد تنمها ان يسترجع منه الاقطاع .

وتختلف واجبات التابع كثيراً . فتقتصر أحياناً على ان يحلب التابع إهانة سيده او معاً كسرة
مصلحه . وان يشترك معه في الحملات العسكرية . وكانت القاعدة ان لا يجارب التابع أكثر من

أربعين يوماً على نخسته الخاصة مع سيده . وكان يشترط منذ البداية على مقدار الأيام التي يجب على
التابع أن يحرص بها فاعية السيد . وهذه الأقسام تختلف كثيراً بحسب الشرط . ولا كانت الخدمة
العسكرية التي يقدمها التابع قليلة . لذلك عند الملك والأشراف الكبار في القرن الثالث عشر أن
يطلبوا بعض الفرسان مالا ليحاربوا في أي وقت أرادوا .

وكان التابع يخدم في بلاط السيد عندما يستدعيه ليجتمع مع بقية الأتباع ليتذاكروا في القضايا
المروسة عليهم . وعليه أن يقدم النصائح إلى السيد في الأمور التي يستشيرها . وأن يخدمه
في مناسبات الاعياد . وعليه أن يقدم المساعدات المالية لسيده وأن يخدمه بنفسه في المناسبات لآنية
مثلاً عندما ينتقل الإقطاع إلى ابن التابع بعد موت أبيه أو على العكس . وعند ما يموت الشريف
ويرثه من بعده ابنه في السيادة أو في الحفلة التي يصحب فيها ابن السيد قرصاً . أو عند زواج ابنه
الكبرى . أو عند اقتدانه من الأبر إذا وقع به . وعلى التابع أن يقدم للسيد هدية كل عام عليه .
وهناك تفاصيل مضحكة عن عدد الزيارات التي يشرف بها السيد تابعه . وعدد الرجال الذين يصحبهم
معه . ونوع الطعام الذي يجب أن يجب أن يقدم له

وكان على السيد مقابل ذلك واجبات منها مثلاً بحماية التابع والدفاع عنه . ورفع الحيف إذا ألم به . . .
ولا يجوز للسيد أن يسترد الإقطاع إلا إذا أدخل التابع بالشرط المتفق عليها . وعند ما يقوم التابع
بجميع واجباته تجاه السيد يصبح عندئذ الحاكم المطلق في إقطاعه وليس لأحد التدخل في شؤونه .
وهناك أنواع كثيرة للإقطاع تتدرج أهميتها من الدوق Duke أو الكونت Count الذين يأخذون
إقطاعاً مباشرة من الملك . ويقتصر فإن بها كامراً مستقلاً . حتى درجة الفارس البسيط الذي يأخذ
قطعة صغيرة من الأرض من أحد الأسياد يورثها له الفلاحون أو العبيد تكفيه وحصانة مقابل
خدمته العسكرية نحو هذا السيد .

ولكني يعتبر الرجل شريفاً في مجتمع القرون الوسطى يجب عليه أن يكون حراً مالكا لأرض .
وعنده دخل على الأقل يكفيه وحصانه دون أن يقوم بأي عمل إلا الحرب . وللهذا بعض الامتيازات
التي تفصلهم عن الطبقات الغير نبيلة . وقد ظل قسم من هذه الامتيازات موجوداً في فرنسا حتى زمن
الثورة الفرنسية . وبقيت هذه الامتيازات في ألمانيا وإيطاليا وكثير من الدول الأوروبية مستمرة
حتى القرن التاسع عشر . وأهم هذه الامتيازات إعفاء النبلاء من قسم من الضرائب .

ولا يوجد تقسيم ثابت في طبقات الشرف قبل القرن الثالث عشر . ولا نعلم مثلاً الفرق بين
الكونت والدوق والمركيز . ولكن على العموم يمكن أن نقول بأن الدوق والكونت والسكابر
والراعي الذي أخذ إقطاعاً مباشرة من الملك هو أعلى درجة في سلم الشرف من الذي يأخذ إقطاعه

من هؤلاء ، والتي في آخر درجات الترقى القانون البسيط الذي ليس لديه سوى ما يكفي وحده
كما تقدم ، ويجب ان تؤكد أنه لا يوجد لسلط طبق مرتبة يتحدى من الملك وينتهي بالفارس البسيط ،
وانا العلاقة بين الاسياد والاتباع على اختلاف أنواعهم هي على غاية من التعقيد ، فيمكن للسيد ان
يكون تابعاً ومقبولاً ، وأن يكون غوياً وتابعه تابعين السيد واحد .
وكان لأصحاب الاقطاعات الكبيرة الحق في محاكمة رعائهم في محاكمهم الخاصة ، وأن يحكموا عليهم
بالموت اذا اقتضى الأمر ، ولهم حتى إعلان الحرب ، وضرب النقود ، ولهم مجلس خاص وهو المجلس
الاقطاعي ، ولهم علم خاص وقصر خاص بهم .
وقد أظهر بعض الاقطاعيين كفاءة فائقة ودهاء عظيماً وشكروا إقطاعات كبيرة ضموا بعضها الى
بعض أما عن طريق القوة أو بطريق الارث وأصبحت هذه الاقطاعات فيما بعد دولاً مرموقة كى فعل
ذلك ملك فرنسا .

الحرب بين الاسياد والاتباع

كانت القوانين هي القانون السائد في ظل النظام الاقطاعي ، لأن التابع لا ينفذ واجباته الاقطاعية
الا اذا كان سيده قوياً ، ولذلك فالروابط الاقطاعية والوفاء بالعهد التي هي اساس النظام الاقطاعي قد
حطمت من قبل الاسياد والاتباع على السواء ، وكثيراً ما يختلف التابع مع سيده فينتقل ولائه الى
سيد آخر ويحدث ذلك مثلاً فيما إذا لم يرض السيد بتابعه ، ولكن على الاكثر كان الاتباع يحاولون
التخلص من واجباتهم الاقطاعية فيلتجئون الى سيد آخر ليحصلوا على شروط أفضل ، وعندما يجد
التابع في نفسه الكفاءة كان يستقل عن سيده ، وكثيراً ما يحدث ذلك عندما يرث السيد ولد ضعيف
لذلك يمكننا أن نقول أن الحرب هو النظام السائد في عالم القرون الوسطى ، وكان الحرب على
الاسياد الرئيسى ، وكانت المعارك وزحف الدماء هي الشغل الشاغل للاسياد ، لانهم كانوا يتباهون
بقاتل بعضهم البعض ، وكان الاتباع الاقوياء يحكمهم أن يحاربوا : أولاً لسيادهم ، ثانياً لنبأهم ،
ثالثاً لاتباع الاسياد الآخرين ، رابعاً الكهنة والرهبان المتصايين بهم والناقلين على إدارتهم .
وعوضاً عن أن تكون الروابط الاقطاعية سبباً لاسلم كانت على العكس مثيرة للزاع والحرب .
فكان كل إقطاعي يكتب ضعف جاره ليتطلب عليه حتى أن الحرب كثيراً ما تحدث في المناقعة الواحدة
بين الاب وابنه ، والاب وأخيه ، والعم مع ابن أخيه من أجل اغتصاب حقوق بعضهم البعض .
وكانت السيرة نظرياً يمكنه ان يحل الخلافات بين أبنائه في محكمة قصره ، الا انه عملياً لم يكن
يستطيع ذلك ، لأن الاتباع كانوا يحاربون بعضهم البعض ، ويحدون قوة في هذه الحروب . فكان

الحرب هو القانون الحقيقي . وكانوا يلبسون في أوقات السلم بالباورقة ، والعباء الفردوسية . وكانت هذه الالاماب اشبه بمباركة حقيقية يتقابل بها عدد كبير من الانبياء مع بعضهم مع بعض ، وقد سألوا البابوات . ومنع هذه الالاماب لان الملاك انفسهم كثيراً ما يخلون بهذا المنع . وقد قلت الحروب في القرن الحادي عشر سبب تقدم التجارة والمعارف في الهند . وتدخل رجال الكنيسة في محاوره نذر السلام ، فعرضوا الحروب في ايام معينة من الاسبوع وسنوها الهادة الزمانية . وهي تمتد من مساء الخميس حسنى صباح الاثنين ، كما انهم استرموا القتل في ايام الاحاد ، وفي بعض ايام العسايم .

وهذا ما يقبه الانبياء المحرم عند العرب الجاهليين . وقد اخذ رجال الكنيسة الايمان والعهد من الامميين بان يملوا بموجب هذه الاوامر ، وكان من يخالف ذلك يعرض نفسه لحزن الجرمين من الكنيسة . وعندما بدأت الحروب الصليبية سنة ١٠٩٦ وجد رجال الكنيسة اهل القرب المتاصل في قوسهم حب الحرب فقال المسلمين ، فطفروا على بلاد الشام وعملوا فيها الخراب والدمار .

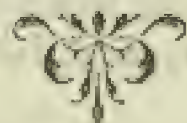
الفردوسية

تمتد الفردوسية في زمن معين ، فهي كالاقتالية — إذ كانت مفصلة بها فحلم الاتصال — لم يأسسها أحد . بل ظهرت من تلقاء نفسها في أوروبا الغربية لتلائم حاجات ورعات ذلك العصر . وقد كان الحر من قديما ومبرون في الوقت الذي يحصل فيه الشاب سلاح الجندي هو من الاوقات المقدسة ، لان ذلك معناه ان الشاب بلغ من الرجولة ، وهذا انتهاء الشرف بالنسبة اليه . ومن المحتمل ان يكون فكرة الفردوسية هي احياء تلك الشعور لان الشاب من الاسر الصليبية عندما يعود جديداً عند بيل آخر ركوب الخيل واستعمال السلاح ، واستخدم الصقر في الصيد يعتبر — فارساً — ويقل هذا القاب باحتفال مريب تشترك فيه الكنيسة . مع ان هذا القاب منع للشباب من الفارس الذي خرجت عنده .

وكان الفارس يعتبر جندياً مسيحياً ، وبشكل مع آخراته منظمة خاصة ذات مال عليا . ولم تكن الفردوسية جمعية لها أعضاء . موظفون وقانون مكتوب ، وإنما كانت مجتمعاً خاصاً ينتشر من ينسب اليه حتى ولو كان ملكاً أو أميراً .

والفردوسية لا تموت فائتلف الشرف لا بل فارساً ، وإنما تعهد على هذا القاب بعد ان يقوم بالسرقات المتوحشة عليه . فقد يكون شرفاً ولا يعتبر فارساً ، كما ان الشخص من غير طبقة النبلاء يمكن ان يصبح فارساً بعد ان يقدم بأعمال جليلة .

وعلى الفارس أن يصف بدمى الصفات وهي : أن يكون مسيحياً طيباً ، وخادماً ومساعداً
لكنيسة في كل الاموال ، وأن يحسن الضعيف ويحرم الضعفاء ، وأن يحارب الكفار بدون رحمة
أن ما وجدته ، وأن لا يستسلم إلى عدوه . وأن يحسن واجباته الاقطاعية ، وأن يكون صانفاً لعدوه ،
وأن لا يكذب أو يخون بوعده ، وأن يكون كريماً فيعطى المحتاجين ويساعد المظلومين بدون أجر .
وأن يكون مغنياً لزوجته ويحميها ويصون شرفها من كل فساد الامر ، وعليه أن يكون نصير الحق دائماً ...
فان مروءية إبن انعام إسماعيلي وجد في القرون الوسطى ، وهي تتلاءم مع حالة العصر وأهله ، وقد
جاءت بواسطتها طاعة القفال والحرب بين الملوك إلى حماية الضعفاء ونصر المظلومين .



الفصل الثالث

حالة الفلاحين والعبيد في ظل النظام الإقطاعي

كانت حياة المدن قليلة في أوروبا الغربية قبل القرن الثاني عشر. فقد قل عدد سكان المدن الرومانية قبل هجمات البرابرة. وعندما زاد الاضطراب عقب اجتياح البرابرة للاستمبرطورية الرومانية تخربت هذه المدن، وانحصر عدد كبير منها في عالم الوجود. وما بقي منها أو ظهر من جديد كان قليل الأهمية في مطلع القرون الوسطى لذلك كان القسم الأكبر من سكان أوروبا يعيشون في القرى ويقعون الأسبياد الإقطاعيين سواء كانوا من الأشراف أو من رجال الدين. فقد كان الأسبياد يحتفظون بقسم من أراضيهم لاستعمالهم الخاص، ويوزعون بقية الأراضي على الفلاحين. فكان لكل فلاح قطعة أو أكثر من الأرض. وكان الفلاحون على الأكثر اقرباً لامتلاكهم حقولهم. كما أنهم لا يفردون منها طائفة يشتغلون بنشاط لاسبيادهم ويدفعون ما عليهم من الضرائب. وكان الاتقاف منسولين بالأرض يراعون ميا، وكانوا يزرعونها ويرعون خيلها إلى السيد، ولا يمكنهم الزواج بدون إذن السيد. وكانت ذكورهم وأولادهم يساعدونهم في العمل، فكانت المرأة تغزل وتخبيط وتخبز، وكان الفلاح يقدم إلى السيد ثيابه وملعاه وجميع ما يحتاج إليه.

وهناك جملة من العبيد لا يشتغلون بالزراعة، بل يشبهون لاجد الحرف، كان يكون طائفاً يدفع ضريبة إلى السيد، أو جداداً أو غير ذلك. وعلى العموم كانت حالتهم أحسن من الاتقاف المتقدمي الذكر.

ومن أبرز صفات الاقطاع استقلاله عن العالم الخارجي، فهو ينتج تقريباً كل شيء يحتاج إليه أفراداً، ويمكن أن يكون منزلاً عن مجاوره. وكانت قليل من النقد ضرورياً. لا فلاحين يدفعون ما عليهم إلى السيد من إنتاج الحقول، ويساعد بعضهم البعض، ويجدون قليل من المناسبات للبيع والشراء.

ولا يوجد تقريباً فرص ليحسن الفرد شروط حياته، فالحياة على عمل واحد وتظل مستمرة في سلاية إلى أخرى. وهي دائماً بالسة. فكان الطعام مقلداً وقليل التنوع، لأنه ما كان الفلاح يكلف نفسه عناء زراعة الخضروات.

وغالباً يسكن الفلاح مع أسرته في غرفة واحدة مظلمة لا يأتها النور إلا من كوة صغيرة ليس فيها زجاج. كما أن الغرفة ليس فيها مدفئة بما يجعل الجو الغرفة مفرط بالدفء.

وكان الفلاحون في الاقطاع الواحد يعيشون حياة مشتركة ، ويساعد بعضهم البعض ويعملون بعضهم لأن أراضيهم متصلة ، ولأنهم يتعبدون في كنيسة واحدة وهم مسؤولون أمام مالك واحد ، وكان الأتباع يحضرون لقصر السيد ويتداولون في شؤون الاقطاع ، وكان السيد يحصل في حيازاتهم وغرس العقوبة على المذهب منهم ، وأحياناً كان يعيد توزيع الاقطاع عليهم .

المخطاط الرق

كان الاقطاع عادة مزارعين وعمالاً في المعبشة ، فكانوا يزرعون الأرض بطريقة ابتدائية ، وكانت حاصلاتهم قليلة وردية . والرق يوجد عادة عندما يكون عدد السكان قليل والاراضي كثيرة . الا أنه في القرن الثاني عشر والثالث عشر ازداد عدد السكان في أوروبا الغربية ، فكان من الطبيعي أن يتناقص عدد الرقيق لأن الأراضي المبعول زراعتها ، والحقول المزروعة بصورة غير مثمرة لم تعد تفي لغذاء السكان .

كما أن استعمال النقد ازداد في القرن الثاني عشر والثالث عشر بسبب انتشار التجارة والصناعة مما ساعد على اقوال حجم الاقطاعية ، وقد اختفت عادة المقايضة في التجارة بسبب وجود النقد ، وكان كما تقدم الزمن زادت الحاجات ولم يعد الأسياد ولا الأرقاء يقتنعون بالتنظيمات الابتدائية التي كانت تسد حاجتهم في عصر شامان ، فقد أخذ الاقطاع ليكون نقداً لجميع حاصلاتهم في أسواق المدن المجاورة ، ووجدوا من مصلحتهم دفع واجباتهم الاقطاعية بمبالغ من النقد عوضاً عن أن يشتغلوا مذايلها عند السيد ، وبذلك تفرغوا للاهتمام بزمائرهم الخاصة ، كما أن الملاكين من جهة أخرى وجدوا من مصلحتهم أن يأخذوا نقداً من أتباعهم عوضاً عن خدماتهم . لأنهم يستأجرون بهذا النقود عمالاً يزرعون لهم حقولهم ، ويشترون بها بقية من السلع الفاخرة التي كان التجار الإيطاليون يأتون بها من الشرق . وأخذ الاقطاع يستردون حريتهم بأن يهربوا إلى المدن التي انتشرت أكثر من ذي قبل . وإذا بقي العبد مدة خمسة ويوم واحد بعيداً عن مداول يد سيده يعتبر حراً ، ودأبت محاولة الهرب أكثر من ذي قبل .

كل هذه الاعتبارات المتقدمة جعلت الرق يتدرج نحو الانحلال ، وأخذ يخل محط المزارع والمستأجر الحالي . وما أنى القرن التاسع عشر إلا وزال الرق من أوروبا .

اهمية صباغة المدن

إن كثيراً من مدن القرون الوسطى ظهرت حوالي سنة (١٠٠٠) م بجانب قصر السيد

الامماني أو حيول كنيسة أو دير أو قلعة ، ولعل سبب ظهور المدن هو اجتماع بها السكان المجاورون
سدد هجوم عدد عليهم ، ولذا كان بني حولها الاسوار والأبراج وحفر ضاحيق ، وكانت تلك المدن
صغيرة ومكتظة بالسكان ، ولا يوجد فيها مساحات خالية سوى مساحة السوق ، والطرق فيها ضيقة ،
والبيوت متلاصقة ومؤلفة من عدة طوابق ، وتكاد تغلي بوزنها الطرقات التي فصلها ، وكانت
الاسوار المحيطة بالمدينة تمنع من توسعها .

كانت التجارة في هذه المدن في القرن الحادي عشر والثاني عشر قليلة ماعداً المدن الإيطالية وذلك
لنقل البضائع بالعالم الخارجي ، وكانت اصنع جميع ما يحتاج اليه سكانها ، أما الحاصلات الزراعية فكانت تأتيها
من المزارع المجاورة ، ولم يكن سكان المدن أحسن حالاً بكثير من الأقباط ، ورغم من أنهم يعيشون
بين جدران المدينة ويستغلون الصناعة بدلاً من الزراعة ، لأنهم كانوا يخشون من دفع ضريبة الاسبياد
ولم تحسن حياة المدن إلا بعد أن تحررت من سيطرة الاسبياد وشكلت حكومات نفسها ، ولم يحصل
ذلك إلا بعد أن ازدادت التجارة مع الشرق فأخذ سكان المدن ينتجون بضائع ليبيعوها مع حاصلات
البلاد الشرقية ، إلا أن الفائق الكبير الذي كان يمنعهم من متابعة عملهم وإقبالهم بالعالم الخارجي
هو عبوديتهم للاسياد ، ولذلك ناضلوا في سبيل التحرر خلال القرن الثاني عشر من سيطرة الاسبياد
وحصلوا على charters حددت فيها حقوق كلا الطرفين .

وهذه الاعاقبات هي عبارة عن عقود مكتوبة ما بين الاسبياد ونباتة تجار المدينة وتحتوي على وعد
من قبل السيد أو الملك بأن يحترم النباتة ويحدد حقوق الاسبياد في محاسبة التجار وتفرغهم بالمال ،
وبعدد أنواع الضرائب التي يمكنه أن يأخذها من أهل المدينة ، أما الخدمات والواجبات القديمة فقد
اتاحت أو تحولت الى عدد من النقود .

وكان في كثير من المدن يوجد برج مرتفع يدل على تحرر المدينة يقف عليه حارس في الليل والنهار
يصرخ الناقوس في حالة حدوث خطر ، وفي المدينة أيضاً قلعة يقيم فيها حرس عموم المدينة لإحتوائه
ونجها من أيضاً ، ولا تزال هذه القلاع من أبرز ما يشاهده المسافر من الانبئة عندما يمر بالمسكن
التجارية القديمة في أوروبا .



الفصل الرابع

١ - أسرة آل طابت

قامت الأسرة السكابية على انقاض الدولة الكارولنجية سنة ٩٨٧ م . ومن هذه الأسرة جاء ملك فرنسا . وأهم الحوادث التي جرت في عهد هؤلاء الملوك : الحروب الصليبية التي اشترك فيها بعضهم . وأشهرهم :
فيليب الاول (١٠٦٠ - ١١٠٨ م) وفي زمنه دعا البابا في مجموع كاثوليك فرنسا للحملة الصليبية الاولى .

ولويس السابع (١١٣٧ - ١١٨٠ م) الذي اشترك في قيادة الحملة الصليبية الثانية .
وفيليب أغسطس (١١٨٠ - ١٢٢٣ م) الذي اشترك بالحملة الصليبية الثالثة .
ولويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٧٠ م) وبذى أيضاً شغفه بالقدوس لويس . فاه حملة صليبية الى مصر . وأخرى الى تونس مات في أثناءها .

وفي عهد هذه الأسرة قامت حروب المئة سنة (١٣٣٧ - ١٤٥٣ م) ما بين فرنسا وانكلترا ، سببها أن الانكليز ورثوا نصف فرنسا الغربي تقريباً بسبب الزواج مع أميرات من فرنسا . فقام الفرنسيون بمحاولون استرداد بلادهم وتوحيدها . فجرت الحرب بين الدولتين مدة (١١٦) سنة تخللها فترات طويلة من السلم والمهادنة ، وأخيراً تم للوك فرنسا توحيد بلادهم ، إما عن طريق الزواج أو الحرب . وكان لهذه الحروب نتائج باهرة لامة الفرنسية منها : (١) فضي على النظام الاقطاعي (٢) توطدت سلطة الملكية (٣) قويت الروح القومية والعاطفة الوطنية عند الفرنسيين . ومن أشهر أبطال هذه الحروب : جاندارك : وهي فتاة فروية ، رأيت ما وصلت اليه حالة بلادها من الضعف والانشقاق ، وترامى لها أنها سمعت هتافاً متواكباً بنادبها بأن تقوم لفصرة وطنها ، ولحاربة الانكليز الذين كانوا يحاصرون مدينة اورلئان ، ولطردهم خارج بلادها ، وأن تأخذ بيد ولي العهد الفرنسي وتوجهه ملكاً على فرنسا . ذهبت الى باريس ، وقابلت ولي العهد ، وعرضت عليه رسالتها ، فأمدتها بجيش الهوت الخاس في فلوب أفرادها ، وتقدمت على رأسه متعطية حياءه بجوادها وحاربت الانكليز وأشدت مدينة اورلئان التي كانوا يحاصرونها وهزمتهم شر هزيمة في سنة ١٤٢٩ م . فذهب الحسد والغيرة في نفوس قواد الجيش الفرنسي ، فقتلوها في إحدى المعارك مع البورغنديين بالذين أسروها وابعوها الى سلفاتهم الانكليز فأكفها هؤلاء وأتهموها بالسحر والاحاد ، فحكمت عليها المحكمة الدينية بالحرق ونفذ الحكم بها .

في مدينة « روان » - إلا أن العاطفة الوطنية ، والحماس الشديد الذي تركته جاندارك في نفوس الجيش الفرنسي جعله ينتصر على الجيش الانكليزي ويخرجهم من البلاد الفرنسية . واعتبرت جاندارك في عداد الأبطال الخالدون .

لويس الحادي عشر (١٤٦١ - ١٤٨٣ م) وهو آخر ملوك العصور الوسطى في فرنسا . كان ذا دهاء عظيم ، ومعرفة بأمور السياسة . تمكن من التغلب على معظم امراء فرنسا ووجد البلاد تحت سلطته ماعدى شبه جزيرة بريطانيا وقد استطاع بحكم جديده هو شارل الجسور أمير منطقة بورغونيا . ولكن تمكن بدعائه أن يثير عليه أهالي سويسرة والولايات المجاورة لها ، وأن يقضي عليه . اهتم لويس بتحسين اقتصاديات البلاد فأدخل صناعة الخمر الى ليون ، ونور ، بواسطه بعض الطليان . ونشط الصناعات الأخرى ، والتجارة البحرية . ونظم المسالية والجيش فكانت بذلك من أعظم ملوك عصره .

٢ - تطور تاريخ انكلترا حتى نهاية الفتح النورمندي

انكلترا قبل الفتح النورمندي :

كانت تسكن انكلترا بين القرن الثالث والرابع قبل الميلاد شعوب من الغنصر (الاييري) الذي يظن ان أصلهم من اسبانيا ، ثم جاء من بعدهم شعوب من الغنصر الساني الذين كانوا يسكنون وادي الدانوب وغاليا قبل وصولهم الى انكلترا . وأشهر الاقوام السلتية : الاسكتلنديون الذين قطنوا في الشمال . والبريطانيون الذين سكنوا في الجنوب وسببت البلاد بأسمهم ، وفي منتصف القرن الاول قبل الميلاد احتل (الرومان) انكلترا في عهد يوليوس قيصر ، وادخلوا الديانة المسيحية والحضارة الرومانية ، فعمروا المدن وعبدوا الفرق ، إلا أنهم لم يتوغلوا في الداخل . وعندما سقطت الدولة الرومانية في القرن الخامس ميلادي تحرر البريطانيون . إلا ان القبائل الجرمانية ما لبثت ان هاجمت البلاد واستقرت فيها . وأشهر هذه القبائل (الاسكن) و (السكسون) و (الجوت) . وقد أتى معظمها من المناطق الشمالية في ألمانيا . فقام السكان الاصليون هذه القبائل البربرية ، إلا أنهم انهزموا أمامهم ، فهرب قسم منهم الى الجبال الغربية وزرع بعضهم الى فرنسا ونزلوا في شبه جزيرة برتانية ، التي سميت باسمهم . إلا ان الغنصر الانكلوسكسوني سيطر على البلاد ، وشكلوا سبع دويلات رئيسية اعتنقت الديانة المسيحية في القرن السابع على يد مبشرين ارسلهم البابا غريغوريوس .

غزوات النورمنديون على انكلترا :

كان الدانماركيون من أهل الشمال يغيرون على سواحل اوروبا الغربية ، فقد أغاروا على فرنسا

في عهد الملكة الكارولنجية ، وكذلك زلوا سواحل انكلترا في سنة ٨٧٠ م ووطنوا في شمالي نهر
التيمنس Thames الا ان الملك القوي الكبير (٨٧١ - ٩٠١ م) هزمهم هزيمة منكرة ، وأجبرهم على
اعتناق النصرانية . ورسم الحدود بينهم وبين مملكته .

وكان (القوي) كشارلمان مهم بالنشر الثقافة والتعليم في بلاده ، فجلب رجلاً متعلماً من القارة
ليعلموا في بلاده ، وطلب من كل رجل حر في انكلترا ان يتقن اللغة الانكليزية . وأجبر الكهان ان
يتعلموا اللغة اللاتينية زيادة عن اللغة الانكليزية .

وفي القرن العاشر أثار أهل الشمال على انكلترا من جديد ، وتمكن ملك الدانمارك كنوت Cnut
سنة ١٠١٧ م ان يملن نفسه ملكاً على انكلترا وحكمها نحو عشرين سنة ، فأتبعها ملك انكلترا الى فرنسا
واحتسب أمير النورماندين الذي كان يحكم في شبه جزيرة نورمانديا في فرنسا ، وتزوج بابنته . وبعدموت
كنوت واسترجع ملك انكلترا عرشه ، وحكم آخر ملك ساكسوني ادوارد المعترف Edward
the Confessor . وكان ضعيفاً تربى في نورمانديا في فرنسا واستدعى كثيراً من النورماندين الى بلاده
ومنهم اكبر وخائف الدولة . وبعد موته أعلن غليوم William أمير نورمانديا نفسه ملكاً على
انكلترا . ولقب « غليوم الفاتح » . وبذلك انتهى حكم السكسون الذي تشكلت في اثنتي
الامه الانكليزية .

غليوم الفاتح :

بعد ان أعلن غليوم نفسه ملكاً على عرش انكلترا ، اعتبر كل من يخالف حكمه ضالماً . وادى
انه عندما زار انكلترا في عهد ادوارد المعترف ، قبل ان يكون نائبه بشرط ان يخلفه على عرش انكلترا
إذا مات بدون ولد . الا ان هارولد أحد كبار الاقطاعيين في انكلترا أعلن نفسه ملكاً بعد وفات
« ادوارد المعترف » . ولم يعترف بحق غليوم ، كما انه طرد رؤساء الاساقفة التابعين لسلطته البابا .
لذلك استعان غليوم بالبابا ، ووعده ان يجعل رجال الدين في انكلترا تابعين لسلطة البابا إذا ساعده في
الاستيلاء على انكلترا . فغرض البابا الكسندر الثاني شعوب أوروبا لمساعدة غليوم ، واعتبر ان كل حملة
تساعد في القضاء على هارولد مقدسة . فكانت هذه الحروب تشبه بحروب صليبية . وتمكن غليوم
بقوة خياله ورمائه ان يقهر عدوه في معركة هاستنكز Hastings الفاتكة ، وأن يقتل منافسه هارولد
ولقب بعد هذه الموقعة بغليوم الفاتح ، وقد اعترف بسلطته بعد بضعة أسابيع كثير من النبلاء ورجال
الدين ، وفتحت له أبواب لندن . وتوج في يوم عيد الميلاد في وستمنستر Westminster
سنة ١٠٦٦ م .

أدخل غليوم النظام الاقطاعي الى انكلترا ، فقسم أراضي الامراء الذين ثاروا على سادته بين اتباعه من النورمان والانكلز . وأعلن أنه لا يريد تغيير العادات القديمة ، وأنه يحكم كخلف للملكم السابق . ادوارد المعترف ، وحاول ان يشعل الافة الانكلزنية ، وحكم البلاد بقوة وحزم . وكان رافب رؤساء الاقطاع بواسطة موظفين من قبله دي الواحد منهم شريف Sheriff . ولم يعط احداً اقطاعاً واسعة في منطقة واحدة حتى لا يتفصل احد عنه . كأنه طالب من جميع اصحاب الاقطاعات الصغيرة ان يتبعوا له مباشرة ، ويقسموا له عيّن الولا . حتى يساعدوه من جهة ويمنع ثكلهم او اتحادهم مع اصحاب الاقطاعات الكبيرة من جهة اخرى .

وكان للفتح النورمندي تأثير كبير على حياة انكلترا لأن منصرفاً جديداً امتزج مع السكان الاسليين وكان هو المنصر الحاكم المقتاب على البلاد . ولما كان غليوم اميراً على مقاطعة نورمندي التابعة للملك فرنسا ذلك كان يعتبر تابعاً لهم ، الا انه بعد استيلائه على انكلترا ادار اقوي منهم ، وهذا مما سبب وقوع التنافس بين الطرفين ، وانفق انه حصل تزواج بين امراء انكلترا وبين بعض اصحاب الاقطاعات الكبرى في فرنسا فكانت النتيجة ان نصف فرنسا الغربي أصبح تابعاً للملك انكلترا ما بين القرن الحادي عشر والثالث عشر ، مما سبب التراع بين الدولتين كما تقدم معنا . واشتهر من ملوك انكلترا بعد زمن غليوم ، ريكاردوس قلب الأسد الذي اشترك بالحملة الصليبية الثالثة سنة

١١٨٧ م .

٣ - نشأة الجمهورية الرومانية المقدسة

على اثر تنوع شارلمان امبراطوراً رومانياً في يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠ م تنابك وتداخل تاريخ المانيا مع تاريخ ايطاليا لمدة عدة قرون ، بالرغم من وجود جبال الالب ، هذا الحاجز الطبيعي الفاصل بينهما . وقد كانت الخصومة مستحكة بين المانيا والبابوات وذلك (١) لما بذله ملوك المانيا من القوى في سبيل حكم البلاد الايطالية بما فيها مملكة البابا (٢) ولما كان يحاول البابوات من فرض سلطتهم الدينية على جميع ملوك اوربا . وقد كان البابوات زمن العصور الوسطى يحاولون التدخل في جميع شؤون اوربا ، وتمثل ذلك بصورة خاصة في تاريخ المانيا في تلك العصور . ولا يمكن لاحد أن يفهم حوادث القرن التاسع عشر دون أن يفهم بعض الافكار عن القرن التاسع وبالرغم من أن الحوادث طويلة ومعقدة فسنعرضها بصورة موجزة .

ان تاريخ القسم الشرقي من امبراطورية شارلمان والذي نسميه المانيا يختلف تماماً عن تاريخ القسم الغربي اي — فرنسا — فبعد ان مرّ تاريخ المانيا بحروب ومنازعات مدة (٤٠٠)

سنة سار من الواضح في القرن الثالث عشر بأن خلفاء لويس الجرمانى (حفيد شارلمان) لم يتمكنوا
أن يبنوا من ألمانيا دولة كما بنى القديس لويس لآلواده مملكة فرنسا ، ففى القرن الثالث عشر حتى
عصر نابليون بونابرت لم يكن يوجد ألمانيا بالمعنى السياسى وإنما كان يوجد عدد من الولايات
المستقلة بعضها كبيرة والاخرى صغيرة .

وقد اتحدت هذه الولايات سنة ١٨٧١م تحت زعامة بروسيا - وهى دولة لم تشتهر إلا بعد زمن
شارلمان بعدة عصور - وشكلت اتحاداً سمي « المملكة الألمانية » .

وقد كان مصور القوم الشرقى من مملكة شارلمان بعد قرن من وفاته يظهر بأن هذا القسم قد تجزأ
إلى ولايات يحكمها أمراء ، ما عدى مقاطعة ساكسونيا ، وأقارباً اللتين كان يحكماها ملوك ليس لهم من
السلطة إلا الاسم . ولا نعلم كيف تشكلت هذه الولايات ، وإنما الذى نعرفه بأن خلفاء لويس
الجرمانى كانوا ضعفاء لم يتمكنوا من فرض سلطتهم على أصحاب تلك الولايات كما فعل شارلمان من قبل
كما أن هذه الولايات اضطرت أن تدافع عن نفسها في وجه الهجمات الخارجية التي كانت تأتيها من
أهل الشمال ومن الهونناريين الذين كانوا يدخلون البلاد ويعيثون فيها فساداً . وبما أنه لا يوجد قوة
مركزية تدافع عن أهالى الولايات لذلك تجمعوا تحت زعامة رؤسائهم المحليين ، واستقلوا لأنفسهم .
وقد كان زعماء هذه الولايات يتمتعون بملوك ألمانيا من ضم مقاطعاتهم لسلطتهم ، ولذلك كان أحسن
طريقة يتبعها ملوك ألمانيا هي أن يجمعوا هذه الولايات بشكى « اتحادى » كما فعل هنري الأول
(٩١٩ - ٩٣٦) ملك ساكسونيا ، الذى لم يحاول أن يطرد حكام الولايات من ولاياتهم ، وإنما
استعان بهم في إيقاف الغارات الخارجية التي كانت تضغط على البلاد من جميع الجهات . وترك لابنه
أوتون الأول Otto I أن يقضي على هذه الشعوب الغيرة ، وأن يؤسس مملكة قوية .

أوتون الكبير (٩٣٦ - ٩٧٣ م) .

إن زمن حكم أوتون الأول الذى سمي « بالكبير » يعتبر من اعظم صفحات تاريخ ألمانيا ، فلم يحاول
« أوتون » أن يوحد الولايات الألمانية ، وإنما جعلها تحت حكم آلواده وأخوته وأقاربه ، وقلل من سلطة
جميع الأمراء الألمان . وبعد أن وطد حكمه في داخل بلاده ألغى الخسارية الاقوام المجاورة له التي
كانت لاقتناهاجه من ناحية الشرق والشمال .

وقد كانت الشعوب السلافية لا تزال على وثنيها تجاهم حدود ساكسونيا وقد جعل أوتون الكبير
زيادة على محاربتها أن أسس كنائس ما بين نهر الاودر Oder والالب Elbe وجعلها مراكز دينية
للعلم المسيحية بين الوثنيين ، وأصبحت هذه المراكز مثل براندنبورغ مثلاً موطن الحركة السياسية في
ألمانيا الحالية ، كما أنه حارب الهونناريين وهزمهم في معركة عظيمة قرب أكسبورغ Augsburg سنة

٩٥٥ م وخرجوا على أثرها من حدود ألمانيا ، وتوطنوا نهائياً في بلادهم ، وعملوا على تشكيل قوتهم في شرقي أوروبا .

الآن أعظم أعمال اتون الكبير هو تدخله في شؤون إيطاليا التي نال على أثرها نجاح الامبراطورية الذي ليسه شارلمان من قبله .

فقد كانت إيطاليا في فوضى صغيرة ، وذلك بسبب منازعات امراء البلاد على السلطة ، ولا سيطرة المسلمين على جنوبي إيطاليا وجزيرة صقلية .

فاجتاز اتون الكبير جبال الألب لأول مرة سنة ٩٥١ م وتزوج ثرملة إحدى ملوك إيطاليا ، فاعترف به ملكاً لإيطاليا بالرغم من أنه لم يتوج بصورة رسمية . وعندما سمع بثورة أحد ابنائه عاد إلى ألمانيا . ولم يلبث طويلاً حتى استدعاه البابا لمساعدته ، فأسرع حلاً لاجابته ، وأخذ من أعدائه فكاهه البابا على ذلك بأن توجه امبراطوراً في روما سنة ٩٦٢ م .

وكان لقب اتون الكبير لهذا اللقب الكبير على خلفائه من بعده الذين اتفق كأهلهم لقب الامبراطورية وجعلهم يرزحون من عبثه . فكان عليهم في خلال ثلاثة قرون أن يحكموا ألمانيا ، وديروا شؤون إيطاليا والبابوية . وبعد تحروب مرعبة ، وخجائا عديدة خسروا كل شيء فقد خرجت إيطاليا عن سلطانهم واستقل البابوات عنهم ، ونجرت ألمانيا إلى دويلات صغيرة .

وكانت علاقة اتون الكبير مع البابا سيئة ، فلم يكدر يرجع إلى بلاده حتى تولى عليه البابا ، فعاد إلى روما وجمع مجلساً وعزله ونصب غيره ، إلا أن أهل روما رفضوا الاعتراف بابا المنتخب بأشراف اتون مما جعله مضطراً إلى العودة إلى إيطاليا ومحاصرة روما واجبرهم على أن يعترفوا بابا الذي من منصبه . وبعد عدة سنوات اضطر أن يقوم بحملة ثانية لإيطاليا ليعيد البابا الذي طرده أهل روما لمنصبه . ولم تكن حملة الإمبراطور الذين خلفوا اتون بأحسن مما تقدم فكانوا يضطرون للقيام بعدة رحلات يجتازون بها جبال الألب إما لحضور حفلة التتويج أو إخضاعوا أحد البابوات الثائر عليهم أو ليعيدوا أحد البابوات من ثورة قامت عليه . وكانت هذه الرحلات شاقة لاسباب وان الامراء الألمان كانوا يكتسبون فرصة شياهم لينوروا عليهم ؛ وقد ظلت امبراطورية اتون التي سميت فيما بعد بالامبراطورية الرومانية المقدسة نحو ثمانية قرون . قضى فيها إمبراطور الألمان وقتهم في المنازعات مع البابوات عوضاً عن أن يوطدوا سلطانهم في بلادهم . وأخيراً انتصر البابوات عليهم .

وسأفكم عن الكنيسة والبابوية وأثرها فيما يلي :

الفصل الخامس

نشأة الكنيسة المسيحية

نشأت الكنيسة المسيحية في آخر عهد الامبراطورية الرومانية ، وقد اتبع لها ان تدبر وتوجه حياة وانكار أوروبا خلال العصور الوسطى . ولا يزال تأثيرها كبيراً حتى يومنا هذا . ولم تكن منظمة دينية لحسب — كما هي حالة الكنائس في الوقت الحاضر — ولكنها كانت دولة عالمية كبيرة تشمل جميع غربي أوروبا . فكانت الوريث الحقيقي للامبراطورية الرومانية .

كان اليونان والرومان متدينين . انشأوا المعابد لآلهتهم المتعددة وكانوا يصلون لهذه الآلهة ، ويقدمون لها الذبائح . الا انه لم يكن لديهم كنيسة — عالمية — . وكان من ينكر وجود الآلهة ينظر اليه بالشتم فقط ، لان كل فرد متروك حراً لان يكون لنفسه فكرة عن طبيعة الآلهة وكان لديهم تسامح ديني عام . وبالحنيفة كان لكل مدينة او فئة آلهة خاصة يقدمون لها اجل الاحترام دون ان يحتقروا آلهة الآخرين . او بكلمة اخرى كان كل فرد يعبد الآله الذي يراه مساعداً له . إن فكرة تعدد الآلهة ، ينظر اليها عادة وشركاء وهي تتعارض مع فكرة التوحيد أي الايمان باله واحد ، التي اخذها المسيحيون عن اليهود ، والتي كانت موجودة عند بعض الفكرين الوثنيين الذين كانوا يؤمنون بوجود آله واحد عظيم .

ومن تعاليم المسيحية ايضاً اعتقادهم بوجود عدد كبير من المخلوقات الجيدة والشريرة — وهي الملائكة والقديسين من جهة — والشيطان من جهة أخرى . وكان الكتاب المسيحيون سابقاً يعتقدون بوجود فوارق كبيرة بين المسيحية وبقية الاديان ، وكانوا يكرهون أن يفكروا أن الاديان كلها تتشابه بعضها مع بعض في بعض النواحي ، تشابه بعض الافكار الوثنية ، الا ان علم مقارنة الاديان الذي ظهر حديثاً ، أظهر أن الديانات كلها اخذ بعضها عن بعض . ولذلك فقد كانت المسيحية في العصور الاولى في نزاع شديد مع كثير من الديانات التي تقبل فكرة التجساة في اليوم الآخر ، والتخلص من الذنوب ، والوعد بالجنة للعنفيين وبالعذاب للكافرين .

وقد بشرت المسيحية بالجنة والخير لمن يتبع تعاليمها ، ويستقدهما ورد بالانجيل . وبينت ان الحياة

الآخرة هي أفضل من الحياة الدنيا . وقد تغيرت المسيحية كثيراً بعد أن اعتنقها الوثنيون مما كانت عليه عند ابتداء ظهورها في فلسطين ، لأن هؤلاء الوثنيون أدخلوا كثيراً من مستفاداتهم في الديانة الجديدة . فكثيراً من صيغ وأشكال العبادة دخلت إلى المسيحية . فبعد أن كانت العبادة بسيطة تعقدت بإيجاد طبقة من الكهسان ، وأشكال للصلوات لم تكن موجودة في بادي الأمر .

رجال الكنيسة

لقد وجدت الكنيسة منذ نشأتها ضرورة التنظيم في جهازها . لذلك اتخذت بعض الموظفين الذين لا يعرف على التمام واجباتهم . وكان المسيحيون الأول في بدء حماسهم الديني ، لذلك كانوا يقيمون تعاليم الانجيل ، باخلاص وينظرون إلى اليوم الآخر بشوق ، دون حاجة إلى نظام كنسي معقد ، وعدد كبير من الكهنة والاساقفة . ولكن كلما تقدم الزمن كان حماس الديني يخف من جهة ، ويزداد عدد المسيحيين الذين ليس لديهم حماس الرجال الأولين . فكان من الضروري إيجاد نظام ثابت تدارسه الكنيسة . ومنذ سنة ٢٥٨ م كان المسيحيون يمتنعون الكاثوليكية Catholic ، أي وجود كنيسة تالية جامعة لجميع المسيحيين المؤمنين في أي مكان وجدوا . وكل مسيحي يريد انجازه كنسائيه ان يقع هذه الكنيسة العامة ، وكل من يتفصل عنها يتفصل عن وعود الكنيسة له بالنجاة ، فهو مخائف وغير مقدس ، ونجس ، وعدو . ولا يمكن ان يكون الله اياه من ليست الكنيسة اياه .

وقد وجد فصل واضح فيما بعد بين رجال الكنيسة وبين بقية الناس ، فرجال الكنيسة يعملون على ادارة الكنيسة وتعليم افرادها . فكان في كل مدينة رومانية يوجد اسقف Bishop . وعلى رأس كل قرية يوجد كاهن Brist ثم يأتي بعد ذلك جماعة أقل ممن تقدموا وهم بالترتيب : الشمامسة Deacon ، والقندلفت Acolyte والمغرم Esecorcist والقاري Reader والبراب Doorkeeper . وكان الاسقف يدير الكهنة الذين هم في منطقتهم . وكان من العالبيين ان يكون الاساقفة في المدن الرومانية الكبيرة بعض النفوذ في ادارة شؤون الكنيسة ، لذلك كانوا يسعونهم رؤساء الاساقفة Archbishops وكانوا يجتمعون مع الاساقفة احياناً للعدالة في الامور المهمة .

مبدأ سلطة البابا

بعد ان ارتفع البابوات على رأس الكنيسة الغربية ، صار لهم من السلطة والنفوذ ما لا يساهبها سلطة أي ملك أو امير في عصرهم .

ولم يكن لأسقف روما في بادئ الأمر سلطان زائد عن غيره من الأساقفة، إلا أنه كثر
دون شك ذا مركز ممتاز بنظر المسيحيين . وذلك لأن الكنيسة الرومانية كانت هي الوحيدة التي
تستطيع أن تبرز نفسها في بلاد الغرب ، بأنها كانت تدار منذ البدء من قبل بعض حوارى المسيح
« وهما القديس بطرس وبولس »

فالعهد الجديد يذكر دائماً عن حضور القديس بول Basil إلى روما ، كما أن القديس
بطرس Peter أشار إلى ذلك . ومن المآثر أيضاً في الكنيسة المسيحية أن القديس بطرس كثر
أول أسقف في روما ، وبالرغم من أنه لا توجد وثائق تثبت أنه يوجد ما يثبت هذا الرأي أو
بخلافه . ولكن في الاعتقاد بذلك — سواء كان صحيحاً أو خطأ — لأن يجعل هذا الأمر حقيقة
ثابتة . وكان القديس بطرس مفضلاً بين الرومانيين ، وكثيراً ما كان يلقى المسيح بمفرده في
أحيان كثيرة . ولقد وردت فقرة في العهد الجديد عن لسان السيد المسيح كان لها تأثير كبير في
تأريخ أوروبا المسيحية وهي : « وأنا أقول أيضاً لك بطرس ، وأنت ستبنى على هذه الصخرة كنيسة
وأبواب جهنم سوف لا تقهرها ، وسأعطيك مفاتيح الجنة ، وكل من ستأمره في الدنيا سيدخل
الجنة . ومن ستعرك في الدنيا سيهلك في الآخرة . » وبذلك أصبحت كنيسة روما محترمة منذ
البداءة في بلاد الغرب ، واعتبرت تعاليمها أمراً عالمياً لأنها صادرة عن حوارى النبي عيسى .
وعندما يوجد بعض الاختلافات في النظر عن إحدى التعاليم المسيحية فإنه يؤخذ بين الاستمرار
رأى أسقف روما . كما أن أسقف روما ممتاز من بقية الأساقفة بوجوده في عصمة الإمبراطورية
الرومانية وكان من العادى أن يعترف بقية الأساقفة بسيادته عليهم ، لأن روما كانت سيدة بلاد
العالم في زمن الرومان . ولم يتعثر البابا بالنفوذ السياسي إلا بعد انحطاط الإمبراطورية الرومانية .
ومنذ أصبح ليو الكج (٤٤٠ — ٤٦١) Leo the Great أسقف روما لم يتأخر أبوت
لأن الإمبراطور فالنتينيان الثالث Valentinian III الذي كان يحكم القسم الغربي من الإمبراطورية
الرومانية الغربية أصدر بياناً في سنة ٤٤٥ م أعلن فيه امتداد سلطة أسقف روما على جميع بلاد
الغرب ، وذلك احتراماً للقديس بطرس من جهة ، ولكون روما عصمة الإمبراطورية . وأمر بأن
ما يقوله أسقف روما يعتبر قانوناً موكل من يخالف أوامرهم يجب على احترامها بواسطة السلطة الزمنية
وبعد ستة سنوات عقد مجمع ديني في خالقدونيا Chalcedon قرر جعل القسطنطينية على البسفور
مركزاً دينياً بدلاً من روما على نهر النيبس . وأصبح أساقفة هاتين المدينتين مشهورين عن بقية الكهنة
الآن هذا القرار رفض من الكنيسة الغربية (اللاتينية) التي انفصلت بالتدريج عن الكنيسة
الشرقية (اليونانية) . وكما أمم — بابا — Pope المشتق من اللاتينية papa أى (الأب) يطلق

على جميع أساقفة روما . وكانت غريغوري السابع سنة ١٠٨٥ م أول من خص إسقف روما بهذا اللقب .

الكنيسة والحكومة

إن أهمية الكنيسة في القرون الوسطى لا ينحصر في عملها الديني ، بل بمعالمها الحكومي أيضاً . وقد كانت الكنيسة في بادئ الأمر على صلة وثيقة مع الحكومة ، وكان كلاهما يساعد الآخر وبدمعه . وعندما كانت الامبراطورية الرومانية قوية كانت تدار من قبل الأباطور . وكان كلاهما يجده مناسبا يصبح قانوناً ، ولا يستطيع احد من رجال الدين المانعة او التشكي ، وذلك لأن الحكومة كانت أمراً ضرورياً بالنسبة اليهم لأنها كانت تكافح الوثنية ، وتهدم هياكلها ، وتكسر أعضائها ، وتغني أصحابها وتعاقب بشدة من لا يأخذ بتعاليم الكنيسة .

بعد هزات البرابرة وسقوط الامبراطورية الرومانية أخذ رجال الدين في الغرب يتدخلون من تدخل الحكام في شؤون الكنيسة ، ولم يكونوا يحترمونها . وبدأ الكهنة يخاضعون بالتدريج من سلطة الحكومة . وصاروا يتدخلون محلها في كثير من أعمالها ، وفي سنة ٥٠٢ م عقد مجمعا في روما واعاد مفعول الامر الذي أصدره اوداكر Odoacer الذي أهمل ثم أهمل من بعد ذلك ، والذي ينص على أنه ليس لأى رجل علماني الحق بالتدخل في شؤون الكنيسة . ولقد صرح احد أساقفة روما سنة ٩٦٠ بأن المبدأ الذي تليه الكنيسة هو أنه « يوجد سلطانين يحكان العالم : السلطة الدينية والمدنية ، والأولى تفضل الثانية لأنها مسؤولة أمام الله عن سلوك جميع الناس حتى الأباطرة أنفسهم » . ولم يكن احد في القرون الوسطى ينكر بأن منافع الكنيسة للخدمة تزيد أهمية عن منافع الدولة التي تشرف على الأمور المدنية . لذلك كان من الطبيعي فيما اذا حصل خلاف بين الطرفين أن تكون الكلمة الأخيرة لرجال الدين . وقد صرح رجال الكنيسة بأن لهم الحق لأن يدبروا شؤونهم بأنفسهم ، ومن ثم أخذت الكنيسة تحمل على الدولة الرومانية في الاعمال التي كانت تقوم بها ، والتي تقوم بها حكوماتنا في الوقت الحاضر ، مثل استنباب النظام وإدارة التعليم العلم ، وسن القوانين ، ولم تقتصب الكنيسة هذه الحقوق عنوة من الحكومة بل أنها كانت تحمل محلها عندما تعجزت عن ممارستها ، لأنه لم يبق في أوروبا الغربية لمدة عدة قرون حكومات بلعن الصحيح بعد سقوط الامبراطورية الرومانية . . وأنشأت سلطة المونة لا تقي بفرض النظام في داخل مناطقهم بسبب حروب ونفورات الامراء المتكررين في أنحاء الدولة . والذين كانت الحرب شغلهم الشاغل وسلوهم العظمى ، فلم يكن المونة كالدورين على نفس السلام ولو كانوا راغبين فيه . ففي مثل هذه الظروف

كان من الطبيعي أن تحفظ الكنيسة التي كانت منظمة أحسن تعظيم الأمن والنظام وأن تهدد أو تقنع
المسيحيين للقوض بالهدوء والسكينة ، وأن تشرف على تنفيذ التعهدات بين المتعاقدين ، وأن تتدخل
في شؤون الزواج ، ودفن الأموات وتنظيمها وأن تحمي الزمان والارامل ، وتصرف عليهم عند
العوز ، وأن تشر الزمان في زمن فقد فيه المتعلمين من طبقة الفقراء والأغنياء على السواء . وأن
تحفظ المدنية والمعارف القديمة وأن تحافظ على اللغة اللاتينية وتبقيها حية بين رجالها . ولئن تمكن
البرابرة من تفويض الامبراطورية الرومانية فان الكنيسة التي ورثت هذه الامبراطورية تمكنت من
امتصاصهم ونفثهم وإخضاعهم لدينها .

سياسة رجال الدين في القرون الوسطى

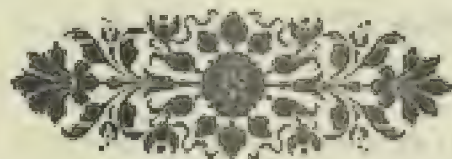
لانت امتيازات الكنيسة الرفيعة مع منزلتها العالية وثروتها الواسعة جمات رجال الدين اقوى
طبقة حاكمة في القرون الوسطى . ففي يدهم مفاتيح الجنة وبدون مساعدتهم لا يستطيع احد الدخول
اليها . ومن تحرمه الكنيسة بطرد من رحمتها ، ويمنع الناس من التعامل معه ، ويلعن ويصبح من حزب
الشيطان . ويمكن لرجال الدين ان يحرموا مدينة او قرية بكاملها بأن يلقوا ابواب الكنائس ويوقفوا
الصلوات وبقية المراسيم الدينية فيها . وقد ازداد تأثير رجال الدين كثيراً لانهم هم الطبقة المتعلمة
فقط . فبعد مضي ستة او سبعة قرون على سقوط الامبراطورية الرومانية في بلاد الغرب ، لم يكن
أحد يعلم حتى الكتابة او القراءة . فقد كان الحكم عليه في القرن الثالث عشر ، والذي يريد أن
يثبت أنه من طبقة رجال الدين ليحاكم في محاكم الخاصة التي كانت لها ، يكفي ان يقرأ او لو سطرأ
واحداً . لان المعروف عند الحكم بأن القراءة لا يعرفها الا رجال الدين .

وكانت جميع الكتب تؤول من قبل الكهنة والرهبان . واصبح رجال الدين هم المسيطرون
على الحياة الفكرية والفنية والادبية كما انهم كانوا المشجعون والمبارسون الحضارة القديمة . وكانت
الكتب والمخطوطات تخزن في مكاتب الاديرة والكنائس ويصل النسخ على زيادة عددها ونسخ
القيم منها ومبادئه مع غيره من المخطوطات في الأماكن الأخرى .
وكانت الحكومة مجهزة على الاعتماد عليهم في كتابة ونشر وأعلان اوامرها العامة . فقد كان
الكهنة والرهبان يكتبون للملك ، وكان للكنيسة ممثلون فيها يجلسون في بلاط الملك ويملكون
كائنات سرراً ووزراء او مستشارين . وبالخليفة فقد كانت ادارة الحكومة منوطة بهم الى حد كبير
في خلال القرون الوسطى .

كانت وفلائ الكنيسة مفتوحة امام جميع الناس ، وكثير من البابوات ارتفعوا من أحرار
الطبقات الى كرسي البابوية ، وبذلك كانت الكنيسة دائماً تجدد أعضائها من اجناس وعناصر جديدة

ولم تكن وظائف الكنيسة وراثية ، لأنه لا يوجد زواج شرعي عند رجال الدين ، لذلك لم يكن يرث الولد أباه في منصبه بعد وفاته كما هي الحال في أكثر وظائف الحكومة في ذلك الزمن . كانت واردات الكنيسة لا تعتمد فقط على إعانات أعضائها ومساعداتهم الثابتة كما هي الحال في الوقت الحاضر ، وإنما تعتمد على الأموال التي تستخلصها من إهلاكها الواسعة ، وعلى الضرائب المتنوعة التي تفرضها على أتباعها لأسباب الدين . الملتحق من العهد القديم الذي كان ضريبة رسمية تشبه ضرائب الحكومة في الوقت الحاضر .

الخلاصة : إن الكنيسة لم تكن مؤسسة دينية شطب تشرف على العبادة ونظم مراسيم الصلاة ونفوذ الحياة الروحية . وإنما كانت أكثر من ذلك فقد كانت دولة لها نظامها وقانونها الكنسي ومحاكمها المستقلة ومجنتها الخاص . وكانت أهم مؤسسة في القرون الوسطى ويديرها رجالها معظم الأمور الدينية والمدنية . وقد دممت العالم الغربي في سنة ١٠٩٥ م لنزق والشرق وحملت المسيحيين على اختلاف طبقاتهم للقيام بالحروب الصليبية .





الباب التاسع

الحروب الصليبية

٤٨٩ - ٦٩٠ هـ أو ١٠٩٥ - ١٢٩١ م

الحروب الصليبية حملات دينية قامت بها الشعوب الأوروبية المسيحية إلى بلاد الشرق حاولت فيها تخليص الأراضي المقدسة لاسيما بيت المقدس - من أيدي المسلمين ، وضم الكنيسة اليونانية إلى كنيسة روما اللاتينية التي انفصلت عنها نهائياً سنة ١٠٥٤ م . وقد سميت بالحروب الصليبية إشارة إلى الصليب الذي حملته أعضاؤها علامة على صدورهم وكان ابتداءها في زمن المستظير بالله الخليفة العباسي (١٠٩٤ - ١١١٨ م) .

أسباب الحروب الصليبية

إن من الصعب جداً معرفة أسباب الحوادث التاريخية لاسيما إذا كانت متعاقدة متشابكة وطويلة المدى كالحروب الصليبية ، وإننا نحاول أن نستنتج أسباب هذه الحروب بعد وقوعها مستفيدين من الحالة التي كانت تعيش فيها شعوب أوروبا والبلاد الإسلامية ، ومن الحوادث التي سبقت وعاصرت الحملات الصليبية . لذلك نقسم أسباب هذه الحروب إلى : أسباب بعيدة ، وأسباب مباشرة

الأسباب البعيدة

أولاً - النزاع بين الشرق والغرب :

إن الصراع بين الشرق والغرب بعيد المدى يرجع عهده إلى حروب طروادة وحروب فارس واليونان ، وحروب المسلمين مع هرقل وفتح بلاد الشام . وعندئذ إلى ما بعد الحروب الصليبية عندما فتح الأتراك العثمانيين قسماً كبيراً من أوروبا ووصلوا إلى أبواب فيينا ولا يزال هذا النزاع مستمراً إلى عصرنا الحاضر المتميز بالاستعمار الأوروبي لبلاد الشرق . وقد كانت الحروب الصليبية بمثابة رد فعل ضد الإسلام في العالم المسيحي ، وبمثابة قيام أوروبا المسيحية على آسيا الإسلامية التي كانت اتخذت خطتها المهجوم منذ سنة ٦٣٣ م ليس على سورية و آسيا الصغرى فحسب بل على إسبانيا وإفريقية .

ثانياً - العامل الديني :

إن الشرق مهد الديانات القديمة ، وكانت سوريا مسرحاً للحياة المسيحية الأولى فيها ولد المسيح

وعلى وتري ، وفي سوره تكونت الديانة المسيحية ، ومنها انتشرت إلى البلاد الأخرى ، وكانت سلطان الدين قوياً في القرون الوسطى وسيطراً على عقلية رجال الغرب فانزالات هذه النعمة الدينية ووجهوا أهل البلاد الأوروبية لفتح القدس .

ولم يكن الشرق مهد الديانة المسيحية فحسب بل كان منبع الثقافة المسيحية أيضاً ، فلهذا سقطت روما بيد البرابرة الجرمن انتقلت الحركة الثقافية إلى القسطنطينية وانطاكية والإسكندرية والقيصرية . وكانت هذه المدن مراکز تشع منها التعاليم الدينية والنشاط الفكري . وكان الشرق موطناً للحضارة اليونانية ، وفيه نشأت الكنيسة اليونانية .

ثالثاً — نظام التكفير عن الخطايا :

وهو النظام الذي فرضته الكنيسة على أتباعها ليكفروا عن خطاياهم بالصلاة والصوم أو بتمذيب الجسد أو بالحج . هـ ولما كانت اورشليم (القدس) أقدس الأماكن وأقدس المزارات الدينية بعداً عن أوروبا ، وكان الحج إليها غزيراً مضاعفاً ، فقد كانت منه التقدم مقصد أمثال هؤلاء الحجاج الذين يرومون التكفير عن سيئاتهم . وإذا رأى الأوروبيون هذا المقصد مخوفاً بالخطر ، فقد عقدوا العزم على اتخاذه وحمايته . ومن ثم كانت الحروب الصليبية بمثابة حج كبير بجميعه السلاح ، وكان الغرض منه إفصاح الطريق وتحرير المكان المقدس ليمكن الناس من الحج إليه في المستقبل .

وكان المسلمون في اليهود الأولى يتساحلون مع الحجاج ويسهلون مهمتهم لتأنيهم بالحج إلا أن الخليفة الفاطمي الحاكم تشدد في معاملة النصارى كما رأينا وأمر بهدم كنيسة القيامة سنة ١٠٠٩ م وهدم غيرها من الكنائس والأديرة . ثم جاء السلاجقة بعد ذلك ووضعوا صعوبات كبيرة في وجه الحجاج الأوروبيين وفرضوا عليهم ضرائب فادحة أثناء مرورهم في آسيا الصغرى وفي سورية . زد على ذلك ما كانت تعانيه سورية من الفوضى والاضطرابات الداخلية ، بسبب الحروب بين الإمارات المستقلة مما جعل وصول الحجاج إلى الأراضي المقدسة صعب المآل حتى أنهم حوالي سنة ١٠٦٥ م جاؤا بشكل جماعات كبيرة من جنوبي ألمانيا تحميهم قوى مسيحية . وكان ذلك فاتحة للحروب الصليبية

رابعاً — طموح البابوات إلى السيادة العليا في الغرب والشرق :

كان النزاع قائماً في أوروبا بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية على السيادة الفعلية ، فكانت البابوات يريدون فرض سلطانهم على حكام أوروبا حتى أنهم جعلوا حق تنصيب وإطاعة الأبرشيات الجرمانية المقدسة بأنفسهم ، فكان الأباطرة يشكفون مشقة السفر إلى روما لينالوا تاجهم من يد البابا . وعيناً حاولوا التماس من ذلك ، وكان من نتيجة سيطرة رجال الدين أن وجه البابوات ملوك وأمراء وشعوب أوروبا إلى الشرق للقيام بالحملة الصليبية .

كما ان البابوات كانوا يطمحون من القيام بالحروب الصليبية إلى ضم الكنيسة الشرقية تحت
سلطانهم وتوحيدها مع الكنيسة الغربية .
خلفاً — فساد النظام الاقطاعي :

كانت الحرب لا تنقطع بين الامراء الاقطاعيين كما مر معنا وقد حاولت الكنيسة عبثاً القضاء على
هذه الحروب الداخلية فأوجدت « الهدنة الربانية » و « نظام القروسية » وأبقت مختلف الوسائل
لتخفيف وبلاء الحروب ، ولما كان من المتعذر ايجاد السلم الداخلي لما انتطبع عليه أهل الغرب من
حب القتال والحرب ، وجه البابوات الحاربين الغربيين لقتال المسلمين ، وكانت هذه الحرب المقدسة
حلاً لكثير من مشاكل أوروبا السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

أما السياسية : فقد وجد الامراء الاقطاعيون السطار في الحروب الصليبية مخرجاً لهم ، لتأسيس
امارات واسعة في بلاد الشام . وكانت هذه الامارات عبارة عن مستعمرات اقطاعية أدى الريا
المهاجرون الغربيون .

أما الاقتصادية : فالحروب الصليبية أوجدت سوقاً تجارية واسعة لأهل الغرب في بلاد الشرق
أخذوا منه ما يحتاجون من غذاء ولباس وترف .

أما الاجتماعية : فكانت الحروب الصليبية وسيلة لتحرير طبقات المجتمع الاوربي من نير الاقطاعية
فتخلص الفلاح من ظلم السيد ، وتحرر الارقاء من عبوديتهم ، ونشطت حركة الصنائع كثيراً . وقد
أوجدت الحروب الصليبية حاجة ماسة في قلوب أهل الغرب ، لأن افراد المجتمع الاوربي كانوا
يريدون الخلاص من حالهم السيئة فتقبلوا نداء البابا بشوق وحماس .
سادساً — حب الكسب :

كانت الحملات الصليبية ينظر كثير من اشتركوا فيها واسطة لتبذير والسلب ، فكثير من
المشردين كانوا يسمون للفنية والكسب اكثر من سعيهم لانقاذ الاراضي المقدسة والتكفير عن
خطاياهم . وكانت الحاجة والجوع والفاقة شديدة عند أهل الغرب بسبب سوء الموائم الزراعية
وقلة الحاصلات ، وزيادة عدد السكان بالنسبة لقدره الأرض على الانتاج بأطراف الفينة التي كانوا
يقعونها ، وللكثرة الامراض والأوبئة التي تجتاح بلادهم . فكانت الحروب الصليبية واسطة لتحصين
سألهم المادية .

سابعاً — أطماع التجار الايطاليين :

كانت المدن الايطالية آخذة في النمو ، وكان تجار البندقية وجنوة وبيزا وأمالفي وغيرهم قد
عرفوا ثروة الشرق وغناه ، وبهرتهم حضارته وعمرانه فشجعوا الحملات الصليبية كثيراً ، وساعدوها

ينقل بحموش الصليبيين مدفعهم إلى بلاد الشرق وإمدادهم بأدوات الحصار والدخيرة عند حصار
الآن . وكانت سفنهم تنقل أفواج الحجاج في كل سنة ، وقد أسس التجار الإيطاليون . استودعات
على الساحل السوري تملكون من بضائع آسيا وحاملاتها وتنقلها بطريق البحر إلى أوروبا وتأتي
بحموش الصليبيين بدلاً عنها .

ثمناً — حب المغامرة :

كان حب المغامرة شديداً في نفوس رجال ذلك العصر يدفعهم للاعتماد عن بلادهم الفقيرة والتفتيش
عن بلاد أغنى وأوسع ، وهذا العامل هو الذي دفع النورمان (أهل النبل) من أسوج ونروج
وجلبيم إلى فرنسا وحقلية . كما أن قصص الحجاج والتجار والرحالة الذين زاروا الشرق مثل
ماركوبولو ، الذي وصل إلى الصين وكتب كتاباً عن رحلته كان يُقرأ وغيره من الكتب
والأخبار في قلاع وحصون الاقطاعيين يدفعهم للمغامرة في البر والبحر للوصول إلى بلاد الذهب
والعاج والبهارات والحرير والنصود والتمدن

ثامناً : أقسام المسلمين

إن أقسام المسلمين إلى دولات صغيرة يتنافس بعضها البعض ، وتفرق وحدة الخلافة ووجود
خليفة سني في بغداد وآخر شيعي في القاهرة ، وقيام دولة السلاجقة وأتابكتهم ينازع بعضهم بعضاً
جراً الفريسيين لدخول هذه البلاد وغزو المسلمين في عقر دارهم .

السبب المباشر

إن السبب المباشر الذي خرجت منه الحروب الصليبية هو انحصار سلاجقة الروم على البيزنطيين
وتوغلهم في بلادهم ، لاسيما بعد موقعة متسكرت Manzikert في آسيا الصغرى سنة ١٠٧١ م
فلما وجد الامبراطور البيزنطي ميخائيل بالباغريغور رويس السابع سنة ١٠٨٠ م فوجدت هذه الدعوة في
نفس البابا بحالاً رجعاً ووعد الامبراطور البيزنطي أن يقود الحملة بنفسه لمساعدته ، ولكنه ما لبث
أن استبدك بزواج مع الامبراطور الحرمان هانري الرابع ، فبقي وعده . ولما اعتلى الامبراطور
القساريوس Alexius عرش بيزنطة وجد نفسه محاطاً بالسلاجقة من جميع الجهات فأرسل الدعوة إلى
البابا أوربان الثاني Urban II (١٠٨٨ — ١٠٩٩ م) وهو أفرنسي الأصل ، وكان حريصاً على رفع
مقام البابوية ، ودعم قوتها الزمنية ، فأرسل دعوة إلى أوروبا وأمرائها وأساقفتها سنة (١٠٩٥ م)
(٤٨٨ هـ) بدعوه فيها لعقد مؤتمر في مدينة كليرمنت Clermont الواقعة في جنوبي فرنسا ،

وخطب في الاحتفال خطاباً الشهير (١).

الذي دعى فيه إلى حملة الصليبية . وحركة السابا جميع المواطنين التي كانت تنور في نفوس
الغربيين من سياسية ودينية واقتصادية ، هموا بقبول دعوته ، وصاحوا بصوت واحد هكذا أراد
الله God Will it ، واخذوا الصليب ومن ثمة الحرب . واطن البابا غفران ذنوب الخاطئين الذين
يلتفتون بهذا الجهاد الذي ، ووعدهم بأن يكون في سبيل هذه الحرب جنات الخلد ، وعلى الحاربين
من الديون والضرائب ، ووضع أموالهم وأعضائهم وذويهم في حماية الكنيسة ، وكان أكثر المستركين
في الحملة الأولى من الغربيين لأن الدعوة كانت في أرض فرنسية ومن بابا أملة أفرنسي .

الحملة الصليبية الأولى

كان من نتيجة الخطاب الذي ألقاه البابا أوربان الثاني أن قامت الحملة الصليبية الأولى وبمكث
تقسيمها إلى قسمين : الحملة الشعبية ، وحملة الأمراء .
الحملة الشعبية :

قام بهذه الحملة داني اسمه بطرس الناسك Peter the Hermit ، وهو فلاح من أصل أفرنسي
ولد بقرب مدينة أميان . أخذ ينتقل من بلد إلى آخرى راكباً على حماله بشر عواطف الاوربيين
الغزاة بلاد المسلمين وتخلص الزهر المقدس وتمكن بخطاباته الحماسية أن يجمع خمس فرق من الفلاحين
والشردن من الرجال والنساء والاولاد وألف يسير بهم إلى القسطنطينية ، غير منتظر حملة الشتاء
الاقطاعيين التي تقرر في جمع كلبرمنت أن تسير في ربيع سنة ١٠٩٦ م .

سارت هذه الفرق الخمس تنهب ما تجده في طريقها من الطعام والملف ، و تبيت في المدن والقرى
التي تمر بها فساداً وتخريباً ، فاصبحت المجر وبلغاريا أرضاً يرأبها أمام جموع بطرس الناسك ، فخارهم

(١) هذه بعض فقرات من خطاب البابا : « أيها الجند المسيحيون ، لقد كنتم تحاولون من غير
حدوى إثارة نيران الحروب والفتن فيما بينكم ، أيقنوا بفساد وهدم اليوم دائماً حقيقياً اليها ، لقد
كنتم سبب إزعاج مواطنيكم وقبائلهم ، فادعوا الآن وازعجوا (البرابرة) أذهبوا وخلصوا البلاد
المقدسة من أيدي (الكفار) . إنكم إن التصرتم على عدوكم كانت أنكم تمالك الشرق ميراثاً وإن أنتم
خلفتم فستموتون حيث مات المسيح ، فلا يترككم الرب من رحمته ، فيجلكم محل أوليائه ، إن هذه
الحرب ليست لامتلاك مدينة واحدة ، بل لامتلاك العالم آسيا بأكملها مع غناها وخزائنها التي لا تحصى
فلتخذوا حجة البيت المقدس ، وخلصوا الأراضي المقدسة من أيدي الخناسين لها ، ولتملكوها أنتم
خالصة لكم من دون أولئك الكفار ، فهذه الاوص كما قالت التوراة : تفيض ابنا وعسلان . »

المجربون والبلغار يون وقضوا على عدد كبير منهم ، كما شهك الشعب والمرضى والجوع القسم الآخر ، ولم يصل الى القسطنطينية الا فرقين إحداهما بقيادة بطرس الناسك والاخرى بقيادة « والتر المفلس » Walter the Penniless ، والذين وصلوا القسطنطينية كانوا بحالة سيئة من القوضى والاضطراب وكانوا يظنون أن كل صعوبة ستكشف عنهم عند تقبل أقدامهم الاراسي المقدسة . فراد الا برطولز الكبيرين أن يخلص منهم فساعدهم على عبر البوسفور ، دون أن يسمح لاحد منهم بالاقامة في عاصمته ولو الى حين .

وشرعوا في اسيا الصغرى يرتكبون اشرع الفظائع التي تفوق حد الوصف ، ويقول المنيو ميشو Michael : « إن الصليبيين ارتكبوا جرائم وفظائع جعلت الطبيعة تهز خوفاً وقرعاً من هولها . فكانوا يقتلون الاطفال في أحضان أمهاتهم ، ويثرون أسلامهم في الهواء .. » غير أن سلطان السلاجقة زحف عليهم بخمسة عشر ألف مقاتل وألدهم عن بكرة أبيهم . انتهت هذه الحملة دون أن تترك أثراً حروبياً يذكر ، وإنما جلبت طائفة أهل الغرب مدة من الزمن نباحاً كموه حول شخصية بطرس الناسك من خرافات وأقاصيص أقرب للخيال منها الى الحقيقة التاريخية فخلوه بطل الحروب الصليبية ، والمسيب الحقيقي لها .

صحة الامراء

في سيف وخريف سنة ١٠٩٦ م (٤٩٠ هـ) سارت جيوش الصليبيين الى البلاد المقدسة ، وكان أشهر قوادها :

اولاً : كوند فرى Godfrey أمير مقاطعة الحروب ومعه أخوه « بالدوين » Baldwin . سار جيشها من شرقي فرنسا وقطع البلقان الى القسطنطينية .

ثانياً : ريمون دو طولوز Raymond of Toulouse أمير مقاطعة البروفانس في جنوبي فرنسا وكان أغنى الامراء وأكبرهم سناً . وهو أول من أجاب دعوة البابا في مجمع كليرمنت . سار هذا الامير صعباً « أديار » مثل البابا من جنوب فرنسا الى سواحل إيطاليا الشامية ، ومنها الى البلقان فالقسطنطينية .

ثالثاً : بوهمند Bohemond النرماندي — والنرماندون أسسوا دولتهم في جزيرة صقلية وجنوبي إيطاليا ، ولحق به ابن اخيه تاتيرنل Taternal الذي اجتاز بحر الأدرياتيك . وواصلوا معهما الى القسطنطينية .

تبعهم جيوش الصليبيين مع قوادها في القسطنطينية . ولم تسكن هناك وحدة تربطهم سوى الوحدة الدينية . فهم خليط من مختلف شعوب أوروبا الغربية ، ليس لهم قيادة موحدة ، ولا أهداف

متفقة ، بل كل منهم يسمى بصلحته الخاصة . وقد سهر الامبرطور البيزنطي الكسبروس بنواياهم ، وخاف منهم على ملكته ، ولم يكن متفقاً معهم في الرأي ، لأنه كان قليل الاهتمام بتخليص بيت المقدس من يد المسلمين ، وكان هدفه من دعوة أهل القرب هو أن يتعدوه بجيش يستطيع أن يخلص بواسطته أراضي في آسيا الصغرى من السلاجقة . كما أنه اختلف معهم عن مصير البلاد التي يفتحونها هل تكون تابعة له ، أو تصبح ملكاً للكنيسة أو بأخذها الامراء الذين يفتحونها ، وأخيراً اتفقوا على أن يكونوا أمراء أقطاعيين تابعين للامبرطور البيزنطي في الأوامر التي يفتحونها ، وأقسموا له بيمين الولاء . الا أنهم لم يبرؤوا بتسليمهم .

فطاع الصليبيون البوسفور سنة ١٠٩٧ م (٥٩٦ هـ) واستولوا على نيقية (١) بعد حصار دام مدة شهر ، ساعدتهم فيه الامبرطور البيزنطي الكسبروس ، وضم إليه هذه المدينة مقابل ما وزعه عليهم من الاكراميات والاموال . وفي طريقهم نحو انطاكية التقوا مع السلاجقة بقرب مدينة أذروية وجرت بين الطرفين معركة شديدة انهزم فيها السلاجقة ، وفتح طريق سورية أمام الصليبيين وأفصل به مد ذلك بلدين عن عامة الجيش الصليبي وسار نحو الشرق ، واستولى بمساعدة الأرمن على مدينة الرها Edessa سنة ١٠٩٨ م وأسس فيها أول إمارة لاتينية . وتزوج بالمرأة أرمنية لتزيد صلاته مع أهالي البلاد ، ولينتقرب ويحبب منهم .

فتح انطاكية ومرة النعمان .

زحف الجيش الصليبي إلى انطاكية ، وهي من أهم المدن السورية من الناحية الجغرافية والثقافية والسياسية لانفتاحها على سورية الحالية ، ومركز الثقافة الدينية المسيحية ، وقريبة من الدولة البيزنطية . فحاصرها الصليبيون اربعة أشهر من تشرين الأول سنة ١٠٩٧ م حتى حرر ران سنة ١٠٩٨ م ساعدتهم في أثناء الحصار المراكب الجنوية وأمدتهم بالميرة والذخيرة وأدوات الحصار . ودافع السلاجقة عنها دفاع الأبطال (٢) ، ولو لا خيانة القائد فيروز الأرمني ، أحد محافظي الأبراج لما تمكن الصليبيون من فتحها ، يقال أنه أدلى الجبل بلليل من على الأسوار فسلق عليها الصليبيون . واستولوا على بعض الاستحكامات بعد أن دبحوا حراسها . ثم فتحوا أبوابها وتدفقوا لها غل المدينة وأحملوا السيف في وقاب أهلها وقتلوا منهم عدداً كبيراً . وشرع هؤلاء اللاتينيون يذبحون السكان دون أن يراعوا حرمة الشيخوخة وضعف النساء ، وعجز الأطفال ، فنهكوا حرمة المساكين ، وكان منظر الجوارح

(١) نيقية : مدينة بجوار اسطنبول .

(٢) دافع الصليبيون أثناء حصار انطاكية وبلات الجوارح حتى اكلوا اللحوم البشرية ، ويقول المستر ميلر أن جنود الصليب كانوا يذبحون القبور ، ويأكلون اللحوم البشرية سراً .

زبدى وحشية على وحشيتهم ، ففوضوا القصور المنيعه ، والاكواخ الخفية ، وتركوها ركناً ياباً
كما سالت الدماء البشرية في الميادين والطرق على السواء ، ويقدر المؤرخون عدد الذين قتلوا في تلك
المنهجة زهاء عشرة آلاف ، وظلت القلعة محاصرة في داخل المدينة ، وبعد عدة أيام ومات أخيراً
الحصار الى الموصل فصار حاكمها لا يفسد أنطاكية ، فوجد الصليبيون قد استولوا عليها ، فحاصروها
وسدد الخناق عليهم ومنع الميرة عنهم حتى ضاقت سبل الحياة عليهم ، فصاروا يأكلون الحيوانات
والأخشاب وحشث الاموات ، ودب اليأس في قلوبهم حتى أن كثيراً منهم تسلقوا الاسوار في الليل
وهربوا الى الشامي ، وجرى حادث أثار الصليبيين وهوان الراهب بيتر ، واكتشف الحربة المقدسة
التي ظمن فيها المسيح ، فكان ذلك فلا حسنة يتظلم فحشدوا قوام وخارجوا للملايكة وحاربهم
وسدوهم عن المدينة واختلف الصليبيون لمن تكن أماره انطاكية وبعد جدل كبير انتخبوا يوحنا
أميراً عليها وزحفوا نحو معرة النعمان . فاستولوا عليها غنوة ودبحوا مئة الف من سكانها ، فمات
الدماء في الشوارع كالأنهر ، ثم استعرض يوحنا أسراهم بقولهم بلز ، إننا ندين الخبيثات والشباب والاقوياء
لكم ببيعهم في اسواق الرقيق ، وأمر ببيع الشيوخ والاطفال على مذبح القدوة والذلة ، وفي معرة
النعمان أقدم الصليبيون على اكل اللحوم البشرية ، حتى أنها كانت تباع علناً في معسكراتهم .

فتح بيت المقدس :

كانت القدس بيد الفاطميين عندما حاصرها الصليبيون سنة ١٠٩٩ م (٥٩٩ هـ) وساعد الجنويون
والبيادقة الصليبيين من ميناء يافا ، فحلبوا اليهم بواسطة سفنهم الاعمدة والأخشاب والسلاح والرجال
والازواد ، واشتد حماس الصليبيين كثيراً لمشاهدة بيت المقدس وبعد حصار دام أكثر من شهر سقطت
في أيديهم فقتلوا بضعة هائلة دامت اسبوعاً ، كانت المسمون يدبحون ذبح الاعسالم في الشوارع
والمنازل ، ولم يجد أهل المدينة عملاً أميناً يتصمون به ، فألقى بعضهم نفسه من فوق الاسوار ، وازدحم
البعض الآخر في النصور والحصون والمساجد ، ولكنهم لم يستطيعوا برغم ذلك إخفاء أنفسهم من
متصليبيهم ، فحاصر الصليبيون جامع عمر - الذي اعتصم فيه المسمون - وجددوا تلك المناظر
الوحشية التي نهد وصية في جبين فرسان التيتون إذ هجم الجنود على المصارين وأعملوا السيف في
رقبهم من غير شفقة ولا رحمة . ، وقد أحرق الصليبيون بعض المسلمين وهم نساء ، وأخذوا يفتلون
بهم لشنع تعذيب ، ولم تكن تجدي في ذلك الموقف الدامي دموع النساء ولا صراخ الاطفال ولا منظر
البلد الذي صفح فيه السيد المسيح عرب جلاديه . وكتب الصليبيون الى البابا بنونيه بفتح القدس
بقولهم : ، إذا أردت أن نعلم بما جرى لأعدائنا فاق أنه في أيوان سايلان ومعبد كانت خيولاً تتغوض
في بحر من دماء المسلمين الى ركبتها . وبطل أنه هناك من أعالي القدس وحدها زهاء سبعين الفا
في هذه الجزيرة . وأعجب الاشراف كود فري حاكماً القدس ولقب نفسه بسكي خشوع ، حامى القبر

المقدس ، وأخذ يناوش أهل البلاد ، وقد عجزوا عن قتل الفاطميين قرب عسقلان سنة ١٠٩٩ م وما لبث أن قتل سنة ١١٠٠ م أثناء حصار مكة ، خلفه أخوه بلدوين حاكم ولاية الرها ، وتوج ملكاً على القدس . وبذلك تم تأسيس الدولة اللاتينية . وخلفه في الرها ابن أخيه . وكان تابع إقطاعي له يعمل بأمرته . وعمل بلدوين على توسيع حدوده في البلاد المحيطة بالقدس وكانت جهوده موجهة إلى ناصيتين رئيسيتين .

أولاً : استخلاص الساحل السوري من يد الفاطميين ، لأنه هو المنفذ الحقيقي الذي يصل الصليبيين بالغرب . وبدون المددات التي تأتي من الغرب لا يمكن لدولة القدس أن تبقى . لذلك استولى بلدوين على أرمصوف وفيصرية سنة ١١٠١ م واستولى على عسكاسنة سنة ١١٠٤ م واستولى على صيدا سنة ١١١٠ م ولم يبق بيد الفاطميين على الساحل إلا صور وعسقلان وشوكة وكانت عسقلان في جنب الصليبيين وعملاً لقوى الفاطميين . وسقطت سنة ١١٥٣ م .

ثانياً : كانت جهود بلدوين موجهة إلى الدخول بمتارب حاكم دمشق مراراً وتوسيع نفوذه من ناحية الجنوب في ناحية البحر الميت والاردن ، حتى وصل في غزواته إلى خليج العقبة ، وكان همه قطع القوافل التجارية بين مصر والشام ، وفصل القطرين عن بعضها البعض من الناحية السياسية والاقتصادية . وقد نجح إلى حد كبير في عمله وتوفي سنة ١١١٨ م (١) .

(١) خلف بلدوين الأول بعد موته بلدوين الثاني ، الذي كان حاكماً على الرها . وعمل أثناء حكمه في بيت المقدس على جمع جهود جميع الصليبيين في سورية في جهة واحدة ، وتوفي سنة ١١٣١ م بعد أن بلغت قوى الصليبيين أوجها . خلفه على ولاية بيت المقدس صهره فولك Fulk أمير ولاية أنجو Anjou في فرنسا ، رثى حاكماً في القدس حتى وفاته سنة ١١٤٣ م حافظ خلال سنتين حكمه على مملكة القدس دون أن يحاول التوسع . وخلفه ابنه بلدوين الثالث وهو أول ملك صليبي ولد في سورية ، وتربى فيها . استولى على عسقلان سنة ١١٤٣ م وفي زمنه استولى عماد الدين زنكي على أمانة الرها . وبعد وفاته خلفه أخوه أموري الأول الذي تولى إمداد الدين برككوه في الاستيلاء على مصر . وخلفه بلدوين الرابع وكان مصاباً بمرض البرص .

ولم تكن له يد فعالة في إدارة الدولة . وخلفه ابن اخته بلدوين الخامس وكان صغير السن فكان وصيه ريموند أمير طرابلس . وبعد وفاته سنة ١١٨٦ أخذ الملك في بيت المقدس أحد مقامري الفرنج ويدعي في Guy de Lusignan وفي زمنه سقطت بيت المقدس بيد صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٨٧ م .

فتح طرابلس الشام

وجه ريمون حمة أنطيس أمارة صليبية في طرابلس قرباً أدوات الحصار سنة ١١٠٢ م وبقي قلعة على التلة المواجهة لطرابلس أهم فيها الصليبيون ، إلا أن القدر لم يمهله فمات قبل فتح المدينة سنة ١١٠٥ م فأكمل الصليبيون العمل من بعده وسقطت المدينة سنة ١١٠٩ م بعد حصار دام خمس سنوات ساعدهم فيه أسطول مدونة بيزا الايطالي . وحكم المدينة Bertrand of Forlagnie برنارد برنيمون وقد دافع المسلمون دفع الأبطال عن مدبتهم واستعمل حاكمها طر الملائكة بن عمار بالمسلمين فلم يسيروه وأخيراً تمكن الصليبيون من الدخول إليها وأعملوا الديف في رقاب أهلها وأحرقوا مكنتها العامة ، وكلبتها ومصانعها وقضوا على مزارعها الجميلة وبيوتها الفخمة .

نتائج الحملة الصليبية الأولى

لقد أسفرت هذه الحملة الصليبية على نتائج كثيرة منها :

١ - امتزاج الصليبيين بالدورين في أيام الحرب والدم والاختلاط مع بعضهم البعض بسبب التجارة ، والزراعة ، والاسر . والتدخول بالاعمال والتسافر معهم وتأثروا بعادات الشرقيين واخلاقهم (١) .

(١) ذكر الاستاذ فيليب حتى في كتابه تاريخ العرب ما يلي : جاء الفرنجة الى الاراضي المقدسة وهم يحسبون انفسهم أرفع منزلة من أهلها ويعتبرونهم وكهين يبدون محمد كاهناً . ولكنهم ما كادوا يتمكنون الصلات بالمسلمين حتى سقطت المناوذة بين ديونهم . لما الأثر الذي تركه الفرنجة في نفوس المسلمين فقد عبر عنه المؤرخ العربي أسامة بن منقذ بقوله في كتاب الاعتبار : إنهم بهائم فبهمة فضيلة الشجاعة والقتال لا غير . ولكن الاختلاط الذي لم يكن منه بد بين المسلمين في أيام الدم - وهي أطول من أيام الحرب كثيراً - أدى الى تطور الشؤون بين القرنين ، والتأثرت على أثر ذلك علاقات الصداقة وحسن المأو ، ودار الفرنجة يستأجرون منادياً وطلائعياً بآلهم . وما لبث النظام الاقطاعي الذي وجدوه أن تحول وأصبح على مرور الأيام ملائماً لاحتياجات البلاد . واتخذ الفرنجة لانفسهم البيوت العربية في البزاة وكليات الصيد ، وعقدوا المفاقيت مع العرب لحماية الصوادين ومن الاعتماد . كذلك تحالف الفرنجاء على حيازة وجل السفر والتجارة فوجدوا لذلك قوانين جبرى الفرنجاء على مراعاتها . وأطلق الفرنجة عن انفسهم الأوربي واختاروا الاريا الوطنية التي كانت ادنى الى الراحة واكثر ملائمة لطبيعة البلاد . واكثر . وأدواتاً جديدة في الطعام فاجابوا بغصة الاثوان التي يكثر فيها استهلاك السكر والتوابل . وفشلوا سكنى البيوت الشرقية التي تنوسطها صخور -

٢ - تأسست أربع أمارات صليبية أحدها في الرها والثانية في أنطاكية والثالثة في بيت المقدس والرابعة في طرابلس ، ولم تكن جهود هذه الإمارات موحدة دائماً بل كان يعمل كل منها لوحده ، وأكبر هذه الإمارات من الناحية الدينية والحربية ، كانت الدولة اللاتينية في بيت المقدس .

٣ - ازدادت علاقات جمهوريات إيطاليا التجارية مع الشرق لاسبيا جمهورية جنوة ، وبيزا والبندقية وأمالفي . ودار الإيطاليون بنون مستودعات على الساحل السوري لتبادل التجاري بينهم الصليبيون في مقابل مساعدتهم لهم أثناء حصار المدن السورية .

٤ - ازداد عدد الحجاج الغربيين الذين ما سمعوا بسقوط القدس بيد الصليبيين حتى توافدوا من جميع أنحاء أوروبا لزيارة البلاد المقدسة ، وكانوا عوناً لأخوانهم الصليبيين في هذه البلاد ، في أعمالهم الحربية .

٥ - ظهرت مؤسسات دينية حربية في الشرق جمعت بين مبادئ الرهبنة والفروسية منها حماية التحصينات والضمائم ، والعناية بالمرضى والجرحى أثناء الحرب . وكان أعضاؤها يأخذون على أنفسهم العبء غلارمة الفقر والطهارة والصلابة . وأهم هذه المؤسسات : الاستثنائية Hospitallers والداوية Templars وفرسان التينون Teutonic Knight وغيرهم وما لبث أن انضم الإشراف والفرسان بكثرة لهذه المؤسسات ، وانتهت عليهم المنح والأراضي والأموال .

وضع المسلمين السياسي في الشام عند مجي الصليبيين

علاء الدين زنكي :

عند ما جاء الصليبيون لسورية وجدوها مقسمة ضعيفة يحكم في كل بلدة منها حاكم مستقل يخضع جميعاً للسلاجقة . وكانت النزاع محتملاً بين السلاجقة والفاطميين للسيطرة على سورية . فاستفاد الصليبيون من انقسام المسلمين واستولوا على بعض المناطق السورية . وكان توحيد الجبهة العربية مقروناً بجهود الاتابك عماد الدين زنكي (١١٢٧ - ١١٦٦ م) ابن آق - سنقر أحد مماليك السلطان

مكشوفة واسعة فيها توافير المياه . وتزوج بعضهم بالوطنيات فنشأ من هذا المزاج جيل جديد متوسط بين الجنسين أشير إلى المراده بلفظ (بولان Poulains) وبلغ أئدهم بالمقارن المحلية درجة احترامها معها المزارات التي قدسها المسلمون واليهود . وكان اللاتين في بعض خصوصياتهم المستعرة فيما بينهم يرجعون بمساعدة المسلمين الذين كانوا يحسبونهم قبلاً كفاراً . وكذلك فعل المسلمون فكثيراً ما حالفوا الأقوام اللاتينية ضد أخوانهم المسلمين .

ملكشاه السلجوقي .

تولى عماد الدين ولاية الموصل سنة ٥٢١ هـ وأسس دولة في الموصل امتدت إلى حلب ، وحماة وحمص ، وميلك . وأنتأ في سورية الداخلية دولة موحدة فنظم أدلنها وجبايتها ، وأمن سبلها وجيز جيشاً متعلماً حارب فيه الصليبيين والبيزنطيين الذين اتعدوا على قتاله ، وأعظم عمل حربي قام به استيلائه على مدينة الرها سنة ١١٤٤ م (٥٣٩ هـ) ولجده الصليبيين منها ، وقد سمى هذا القصر « قصر الانصار » إذ كان المسيحيون يعتقدون أن الرها من أعظم مدنها ، وهي مفتاح الجزيرة وبالأسيلا عليها تمكن من القبض على ناحية الامور في المناطق والحصون الأخرى المجاورة لها . ثم أخذ يحصن المدن الداخلية المجاورة للصليبيين ، وما زال يجاهد الأفرنج قولة والخارجين عليه من أهل البلاد أخرى حتى قتل على أبواب قلعة « جعبر » سنة ١١٤٦ م (٥٤١ هـ) استأله أحد تاليكه وهو ناشم بخرمض من أعدائه .

كان عماد الدين رندي عادلاً كريماً عتلاً تنبع الزراعة والتجارة وشهد المدن القوية وشده الوطأة على الفتنه والفساد ، ونظم البلاد من السفاكين والهايين ، ومن المأثور عنه قوله : إنه كان يؤثر ظهور السبل على الفرائس الوئير ، ولمصلحة السيوف على أنجي الانقام ، وقرعة السلاح على معارلة الغالبات ، وقد أحب من الأولاد سيف الدين الغازي وهو أكبرهم سناً وأسندت إليه إمارة الموصل . ونور الدين الذي ورث عن أبيه لقب إمارة حلب ، ولقب حامي المسلمين .
نور الدين رندي :

تدرب نور الدين رندي (١١٤٦ - ١١٧٤ م) على الفنون العسكرية منذ صغره ، وكانت شجراً عادلاً متديناً محباً لهم ، أسس الكليات والمستشفيات في جميع أنحاء المملكة ، وكان يفيض على طلاب العلم والعلماء الذين كانوا يؤمون بلائله بكرم وسخاء ، وأسس داراً للعدل ، وكان جل أنابه في حياته أن يوفر أسباب السعادة والرفاهية لشعبه ، وأدى مكافئة الصليبيين وتوحيد القوى الإسلامية التي بدأ بها يوم ، وفي زمنه قامت الحملة الصليبية الثانية .

الحملة الصليبية الثانية

كان سبب قيام الحملة الصليبية الثانية المباشر سقوط مدينة الرها بيد المسلمين مما حرك حماس القرييين المسيحيين . وقد كلف بوجدين الثالث بالاروما « سان برنارد » أن يمد عولفذه الحملة ، فالتطاع برنارد بخصايته ودلانة لسلاله أن يجمع عدداً كبيراً من الحاربيين ، وأنجح أمير المظفر المائيا ككونراد الثالث Conrard III وملك فرنسا لويس السابع Louis VII أن ينضموا هذه الحملة فقبلا ذلك وحب

ملك فرنسا زوجته ، الينور ، معه وعدد كبير من النساء ، مما أدى الى انتشار شروب الفساد في صفوف الجيش . ولم تكن قيادة الصليبيين موحدة في هذه الحملة ، فقد اتبع امبراطور المانيا طريقة في البر حتى وصل القسطنطينية ، ثم لحق به ملك فرنسا ، ولم ينتظر كونراد الثالث مجيء الفرنسيين بل دخل آسيا الصغرى ، والتحق مع السلاجقة في موقعة أنزوليا سنة ١١٤٧ م فهزمه شر هزيمة . وتأروا لانفسهم من عزة هم أمام الصليبيين في الحملة الأولى . وانضمت فلول الألمان المهزومة الى الجيش الفرنسي الذي سار محاذياً لساحل آسيا الصغرى متجنباً الاضطدام مع السلاجقة ووصل الصليبيون الى بيت المقدس واجتمعوا مع بولدين الثالث ملك القدس وقرروا مهاجمة دمشق ، فحاصروها أربعة أيام سنة ١١٤٨ م الا ان الخلاف دب في صفوفهم بسبب اختلاف مائتي الغرب مع الصليبيين الذين عاشوا في هذه البلاد ، فاضطروا لرفع الحصار وشنع هذا الحصار حصار آخر فاشل لمدينة عسقلان ، ولم يلبث كونراد الثالث أن غادر البلاد مع بقايا جيشه الألمان الى أوروبا وخلفه في السنة التالية لويس السابع ، وانتهت بذلك الحملة الثانية .

نتائج الحملة الصليبية الثانية

- ١ - كانت نتائج هذه الحملة وبالأخص على الصليبيين وذلك الاسباب التالية :
 أ - اوجدت الحفاء والخلاف بين صليبي الغرب والشرق وذلك لأن الصليبيين الذين توطنوا في سورية تلغفت أخلاقهم ورفقت طبائعهم وكانوا أميل لتفاهم مع المسلمين والتفاهم معهم فانهم صليبيوا الغرب الذين لم يزالوا على وحشيتهم أنهم أصبحوا نصف مسلمين .
- ٢ - أضرت هذه الحملة بسعة الصليبيين كثيراً لأن ملكين من أعظم ملوك أوروبا انهزموا أمام السلاجقة ، وعادوا فاشين بحملتهم دون أن يقوموا بعمل حربي يذكر . مما سبب نهيب الغرب للشرق ، وجعل اهل أوروبا يفكرون ملياً قبل القيام بحملة جديدة .
- ٣ - قويت جبهة العرب باستيلاء نور الدين زنكي على معظم ولاية انطاكية ، فسقطت بيده أقاليم ، وحارب سنة ١١٤٩ م (٥٥٤٤) وتل بانر وعثاب سنة ١١٥٠ م كما سقطت دمشق أيضاً سنة ١١٥٤ م فعملها عجمته ، وأصبحت معظم سورية بيد نور الدين زنكي .

استيلاء جيوش نور الدين زنكي على مصر

كانت مصر بيد الفاطميين ، وكان الخلفاء الفاطميون في آخر عهدهم يفتنى الضعف ، وقسود نوكوا الأمر لوزرائهم الذين كانوا يتنافسون على الحكم . وفي زمن العاضد (١١٦٠ - ١١٧١ م) آخر خليفة فاطمي كان يتنازع على الوزارة « شاور » و « ضرغام » . كان شاور وائياً على الصعيد

ثم توجه إلى الوزارة ، ولقبه الخليفة العاضد « بأمير الجيوش » ولم يكده قطعاً من كرسي الوزارة ، حتى قام في وجهه حاجب الباب الأمير ضرغام وسلب الحكم منه . هرب شاوور إلى الشام واستجار بنور الدين ووعده أن يدفع له ثلث خراج مصر جزية سنوية مع تكاليف الجند الذي يبعث بهم إلى مصر . فتردد نور الدين في بادئ الأمر ولكنه قبل عندما علم بأن ضرغام يستعبد بأموري ملك القدس الصليبي . فجهز جيشاً إلى مصر سنة ١١٦٤ م بقيادة أسد الدين شركوه ، الذي صاحب معه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي . وأعطاهم جيش نور الدين مع الجيوش المصرية والصليبية عند « بلبيس » وانتصر عليها فثار أهل مصر على ضرغام وقتلوه ، وعاد شاوور للوزارة . إلا أنه لم يلبس بوعده الذي قطعه على نفسه ، وامتنع عن تقديم الأموال إلى نور الدين ، فحاربه أسد الدين شركوه فاستعبد بالصليبيين ! كما فعل سلفه من قبله . فجاه أموري بجيش آخر لحاربة شركوه أملاً بأن يمنع جيش نور الدين من الاستيلاء على مصر ، لأن في توحيد مصر والشام القضاء على دولته في بيت المقدس وصلت نتيجة الأفرنج إلى مصر . ونجحت الجنود النورية في بلبيس ، وظل الحرب بين الفريقين نحواً من ثلاثة أشهر . قام في أثناءها نور الدين بمحاولة الأفرنج في فلسطين والشام ليشغلهم عن محاربة جيشه في مصر ، فاستولى على حارم وحاصر قلعة أناباس ، فكان من واجب أموري العودة لتخليص ملكه ، كما أن شركوه أراد التخلص من حصاره بسبب قلة المدخيرة عنده ، فانفق الفريقان على الصلح بأن يخلي كل منهما عن مصر .

عاد شركوه إلى الشام بعد أن اختبر بلاد مصر وقوتها . وقد قال عنها لنور الدين : إنها من غير رجال ، وإن حكومتها قلقة غير ثابتة ، وإنها ضعيفة واهنة . وأن ثروتها وخصب تربتها مما يطمع فيها . وقبل أن يغادر الصليبيون مصر فاقضهم « شاوور » راء للبقاء فيها . فعلم نور الدين بهذه المؤامرة ، وأشار عليه أسد الدين شركوه أن يفتح مصر عنوة ، ويضعها إلى ملكه ، فأجابته إلى ذلك وأرسله على رأس جيش كبير لمصر ، وجاء الصليبيون لمساعدة شاوور ، وجرت معركة بين الطرفين عند « البابين » انتصر فيها أسد الدين شركوه ، ودخل الاسكندرية ، وأقام ابن أخيه صلاح الدين حاكماً فيها . جاءت نجدة إلى الصليبيين من ناحية البحر فحاصروا الاسكندرية سبعين يوماً ، وأخيراً تم الاتفاق بين الفريقين على الصلح والانسحاب من مصر وتركها لأهلها . إلا أن أموري نكث بوعده وعاد إلى مصر أملاً بأن يستولي عليها وكتب إلى امبراطور الروم يطلب منه المساعدة ، واستولى على بلبيس ، واتجه نحو القاهرة فأحرق شاوور القسطنطينية ليؤخر تقدم الصليبيين وظلت تحترق نحو (٥٤) يوماً وأرسل الخليفة العاضد يستعبد نور الدين وأرسل مع الكتب شيئاً من شعور نسائه الفهر دايلاً على شدة الحاجة . وقال له في كتابه « هذه شعور نسائي من قصر ي يستغل بك انتقذهن

من الأفرنج ، وأخذ شاور يفاوض الصليبيين بأن يعطيه مبلغاً من المال بشرط أن يوقفوا حفرهم على القاهرة . وكان يماطلهم أملاً بوصول التعيدات من الشام .

هرب نور الدين لاقاؤه بمصر فدير جيشاً بقيادة شركوه مع شجرة ريناله ، وحاول أموري أن يقطع عليه طريق اتصاله بالخربيين ، ولكنه فشل . وتمكن شركوه من إخماد الصليبيين عن مصر وفي ٨ كانون الثاني سنة ١١٦٩ م (٥٦٤ هـ) دخل شركوه القاهرة فاستقبله المصريون والخليفة الفاطمي استقبالاً منقطع الطائر وقبض رجاله على شاور وأرسلوه إلى الخليفة الذي أمر بقطع رأسه ونهب داره وهكذا كان جزاء الخائن الذي استعان بالأجنبي على وطنه . ثم أرسل الخليفة مرسوماً بتفويض الوزارة إلى أسد الدين شركوه وأقره بذلك المنصور . وأخذ شركوه يرتب أمور الدولة ويضع من ينشئ بهم في الأعمال ، إلا أن القدر عاجله فتوفي يوم السبت في ٢٢ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٩) م فخلفه في الوزارة ابن أخيه صلاح الدين ونائبه بذلك السامري . ويقول السيفي : « أن الخدمات التي أدائها عمل شركوه للإسلام والمسلمين لجديرة بأن يكتبها التاريخ على صفحاته بأحرف من الذهب ، لأنه بعد عشرين سنة من توليته أمر مصر عادت مدينة القدس إلى أيدي المسلمين ، كما عاد كثير غيرها من البلاد التي كانت بيد الأفرنج . ولأنه كذلك لم يرجع يوماً واحداً من الحروب ، وأخذ كان ذا نظر بعيد في الأمور . يضع الخطط لنفسه فلا يغيرها ، بل تنفذها بكل جسارة وإقدام . ولو مات قبل موته بسنة أشهر لكان مصابه التي ورزقه جديداً على نور الدين وأهله وبلاده ، ولكنه مات بعد أن انتهى ما علق في صدره ، انقضت مهنته التي تناولها فأزكيا لولا كنهه جهاده وانتصاراته إلى ابن أخيه يوسف صلاح الدين الذي استعنى بكل إدارة شرف الوزارة لهذا البطل الكبير . »

الدولة الأيوبية

٥٧٤ - ٦٤٨ هـ أو ١١٦٩ - ١٢٥٠ م

أسس هذه الدولة صلاح الدين الأيوبي بن نجم الدين أيوب وهو من أصل كردي (١) وأد

(٢) الأكراد جيل من الآريين ، أقاموا زمناً طويلاً في الجبال الجبلية التي بين بلاد الفرس وآسيا الصغرى ، وهم قوم أشداء عاشوا حياة بدوية في الأيام . وانصفوا بالشجاعة والكرم والفرسية والغزو ، وكان نساؤهم يشاركنهم في الحروب ، ونظراً لثقتهم بالمداد والخنس لم تستخدم الدولة العباسية إلا في المنصور المتأخرة ، وظلوا يبدون عن الحضارة ويطاوعها ، مستعدين صلابتهم ونصرتهم واستقلالهم ولم يفتروا شأنهم إلا في عهد الدولة الأيوبية .

صلاح الدين في تكريت على دجلة سنة ١١٣٨ م (٥٣٢ هـ) وكانت ولادته يوم رحيل أبيه وعمه
 شركوه وأهله من تكريت الى عماد الدين زنكي ، فأحسن وفادتهم نظراً لما أسدوا اليه من معونة
 عندما كانت جيوشه منهزمة من وجه السلاجقة . فصوروا له الجسور على دجلة وساعدوه على عبور
 النهر ، وقدموا له الخوف والأزواك . فحفظ لهم هذا الجليل ، وولى نجم الدين أيوب خلعتاً على بيلك
 سنة ١١٣٩ م (٥٣٣ هـ) وعندما توفي عماد الدين زنكي سلم نجم الدين أيوب بيلك لأهله في دمشق
 على شرط أن ضاموه عشرة طبقات بحوزة دمشق وإن جهوا له فصر في دمشق . وما زال يتقرب
 من حكم دمشق حتى وصل الى رتبة قائد فواد عند الدولة البورية التي كانت تحكم دمشق . أما أخوه
 أسد الدين شركوه فمصر الى جيش نور الدين الذي كان بطبع في الاستيلاء على دمشق . وفي سنة
 ١١٥٤ م (٥٤٧ هـ) جهز نور الدين جيشاً بقيادة شركوه لرد له لفتح دمشق . فلم يشأ نجم الدين
 أيوب أن يقوم في وجه أخيه ففاوضه مد ستة أيام وأخيراً سلمه البلد . وبذلك نال الإخوان أحسن
 الجزاء من نور على ما قام به من الخدمة الصادقة والاعلاص العظيم . فأسند الى أسد الدين شركوه
 قيادة الجيوش التي ذهبت لفتح مصر لئلا يمد صلاح الدين بن نجم الدين كما مر معنا .

صلاح الدين الأيوبي :

لا نعلم إلا القليل من طفولة صلاح الدين ودراسته الأولى في سورية . والظاهر أن بصره وهو
 فتى انجبت نحو الانحياز الدينية . وكان مع أبيه في بلاط نور الدين وعرف ما يجري من أمور السياسة
 في زمانه ، وكان يتلم من أقسام المسلمين وينصت لهم أمام الصائمين لذلك وقف حياته لتحقيق آمانيهم :
 الأولى ازال السنة منزلة الشيعة في مصر .

الثانية متواءمة الحهاد ضد الفرنجة .

وفي سنة ١١٦٩ م (٥٤٦ هـ) أسندت اليه الوزارة في مصر على أثر وفاة شركوه . وبعد عشرين
 من ذلك قضي على خلافة الناطقين وأمر الخطباء بأن يخطبوا خطبة الماضد آخرهم . ويخطبوا بالخليفة
 العباسي المستضي . فأنتموا الأمر .

استطاع صلاح الدين أن يوطد ملكه في مصر وفتح جزء من بلاد النوبة والمجسار واليمن .
 وخلف نور الدين من قبله صلاح الدين أن يستقل في مصر وينصل منه . وكانت المسومة تقع بين
 الرحلين ، وتمتص الحبهة العربية مرة أخرى . إلا أن الصدر عاجل نور الدين فتوفي في ٢٩ شوال
 سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤ م) وخلفه ابنه الصغير اسماعيل المنقب ، بالملك الصالح . وكان عمره إحدى
 عشرة سنة فأخذ الامراء البورية في الشام يقاتلون لأحد الحكم من هذا الطفل الصغير ، وبشائل
 بعضهم بعضاً ، حتى استعين بعضهم بالآخر حتى الآمر . بدأنا على ذلك ما قلناه صلاح الدين في كتاب

أرسله إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله في بغداد قال فيه : « وتوافت اليها الأخبار ، بما عليه المملوك
 السورية من تشعب الآراء وتوزعها ونشتت الأمور وانطباعها وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، وكل
 جانب قد طمع إليه طالب ، والافرنج قد بنوا قلعة خيخوفون بها الأطراف الإسلامية ، وبضايقون
 بها البلاد الشامية ، وأمراء الدولة السورية قد سجن كبارهم ، ورفقوا وعودوا والمالوك الاتحاد
 الذين خلفوا الأطراف لا قصودور ، وجمعوا إليهم لا تورد قوما الأيدي والأعين والسيوف ،
 وسارت سيرتهم في الأمر بالسكر والتهرب من المعروف ، وكل واحد يخذل عند الافرنج يدك . ويجعلهم
 لظهوره سندا . »

وكان صلاح الدين يكتب على الدوام إلى الملك الصالح ، فيظهر له - ضوعه وولاه - ، فيضرب
 السكة باسمه ، ويطلب له على المنابر ، وظهر للثوريين شدة خوفه على مصالح الأمير الصغير ، فطلبوا
 إليه الحضور إلى الشام لينقذهم من الفوضى التي هم فيها ، فجاء بجيش إلى دمشق في ربيع الأول سنة
 ٥٥٧ هـ ودخل دار أبيه وجلس فيها حتى سلفت القلعة ، فذهب إليها واستوفى على ما فيها من الأموال
 والكنوز ورفقها على الأهالي الذين فرحوا بقدومه فرحاً كبيراً . ثم استولى على أكثر المدن السورية
 ما عدا حلب التي بقيت بيد الملك الصالح . وقد لاقى السلطان صلاح الدين صعوبة عظيمة في فتح البلاد
 نظراً لمقاومة الأمراء الثوريين له أشد المقاومة . وقد حاول المشائشون من الطائفة اسماعيلية عند ممرات
 الأنهار لم يخرجوا في مؤامراتهم التي كانوا مدفوعين إليها من الأمراء الثوريين والصليبيين . وقد
 خلق الخليفة العباسي عليه الطمع وولاء أمر الشام ومصر . « ذلك ثم توحيد الطائفة العربية أمام
 الصليبيين . »

معركة حطين واسترداد بيت المقدس

قام صلاح الدين بحملات متعددة على الفرنجة ، وفي أول تموز من سنة ١١٨٧ م (٥٥٨٣)
 احتل طبرية بعد حصار دام ستة أيام . وعلى مقربة منها جرت معركة حطين الحاسمة في نفس السنة
 المذكورة . بدأ القتال يوم الجمعة الذي كان صلاح الدين كثيراً ما يحضره للجهاد ، فيكون يوم يؤس
 وشؤم على الفرنجة . وكان في معسكر الفرنجة نحو عشرين ألفاً أنهبهم العاص والحرب ، موقع
 جدهم في قبضة صلاح الدين . وكان في مقدمة الأسرى المسلمين في دولوسينيان Guy de
 Lusignan ملك أورشليم . فأحسن السلطان صلاح الدين ، الكريم النفس ، استقباله في خيمته ،
 أمارفته الملك راجينالدو شاتيون Reginald of Châtillon موثق نزل الحرب ، فتمتلكه
 معاملة أخرى . ولعل راجينالدو هذا كان أشد رجلاً للفرنجة مقاومة ، وأنهم نددوا ونقضاً للعهود ،

وأوفرقهم المناساً باللغة العربية ، وحين كانت الكرك في عهده أوقع مراراً بالقوافل الآمنة بسلمها
أمتعتها ، بينما كان أصحابها يجازون الطريق حلقاً ، وأولها المصيبة . كل هذه الأمور أنماها خروجاً
على شروط اليهود والمخافة . وفي سنة ١٨٩٦ م طامع قافلة كانت فيها أخت صلاح الدين ، فلما نظد ذلك
صلاح الدين ، وتلك الأخت أن يفتنه بدهة أبا وض ، وأبوع منه التكبيل للمسلمين أن جهز أسطولاً
أخذ يبيت في شواطئ الطنجار مسالماً ، ويترك الأذى بؤراً كلب المحتاج . فلما قبض صلاح الدين
عليه وجد الفرصة قد ضاعت للوهة بيبية ، فاستمال راجعاً لله لاجئاً بأن شرب الماء في خيمة صلاح
الدين ، وهو عارف بأن العادات العربية تحول دون إيفاح الأذى بمن شرب ماء القوم . إلا أن صلاح
الدين لم يأذن له بالشرب ، فلم يحظ بالماء ، بل جوزي على غدره بأن ضرب صلاح الدين عنقه بيده ،
وبر يمينه ، وقتل نحو مئتين من جماعته . فرعب الملك في دولوسيان ، فطيب السلطان صلاح
الدين خاطره وعفا عنه وأرسله إلى دمشق وبغية قومه بكل عفاوة وأكرام .

جاء الانتصار بمحطين قضاء مبرماً على الفرنجة ، وبعد حصار أسيوط سالت بيت المقدس في ٢
تشرين الأول سنة ١١٨٧ م فصاح صوت المؤذن من على المسجد الأقصى عوضاً عن ناقوس النصارى ،
وانزل رجال صلاح الدين الصليب الذهبي من على قمة الصخرة ، وكانت شروط الصلح أن يخرج منها
الفرنجة في مدة أربعين يوماً ، وأن يدفع الرجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمسة والولد اثنين ، ومن
لم يستطع ذلك فهو أسير ، وقد تسامح السلطان كثيراً في الشرط الأخير ، فسمح لكثيرين بالرحيل
من غير قدية . وأذن المرحلين أن يحملوا ما شاءوا من المتاع والأموال ، ولم يعترض أحد سبيلهم ،
وما لم يقدروا على حمله ابتاعه المسلمون منهم ، وفلير بذلك الفرق العظيم بين رحمة صلاح الدين
والمسلمين وبين قسوة الصليبيين عند فتح القدس ، فقد مر معنا ما ارتكبه الصليبيون وفوادهم من
الفظائع والوحشية . (١)

(١) يقول السيد أمير علي في كتابة مختصر تاريخ العرب : ص ٣٠٧ من مر وصف صلاح الدين
وانسانيته عند خروج الفرنجة من بيت المقدس ما يلي : « وكان من شروط الصلح أن من يعجز عن
أداء الفدية يؤخذ أسيراً ، غير أن ذلك الشرط أهمل إعمالاً لما ، إذ دخل إن السلطان اقتدى وحده
عشرة آلاف شخص ، كما أطلق أخوه سيف الدين (لقب بالملك العادل) سراح سبعة آلاف أخرى
وقد كان رجال الدين عندما نادوا المدينة يحملون معهم الأموال والامته ، كذلك شوه عدد كبير من
النصارى يحملون والديهم وأصدقائهم الذين بلغ بهم المرض أو الضعف حداً لم يستطيعوا معه السير
على الأقدام ، فتأثر السلطان بهذا المنظر وأمر حلالاً أن توزع عليهم الصدقات ، وأن يزودوا بالدواب...
ويقول ميلز : أن كثيراً من المسيحيين الذين غادروا بيت المقدس رحلوا إلى انطاكية ، غير أن بومهندس

وقد احتزم صلاح الدين شعور المظفرين ، فلم يدخل المدينة بجيشه الا بعد ان غادرها جميع الصليبيين . ففي يوم ٢٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ دخل يمس القدس بخف به الأتراء ، وأشراف الدولة وجاء كثير من المسلمين من جميع الأقطار لتهنئته على هذا النصر المبين . ثم ألقت لصلاح المدينة قلعة جبريم ما عذرتة الحروب ، وشيد الجوامع والكنائس التي هدمها الفرنج ، ووضع أساساً لادارة المدينة وخارج منها يكثر الفتح .

وبسقوط عاصمة الديانة اللاتينية دانت صلاح الدين معظم المدن الامرنجية في سورية وفلسطين وبعد سلسلة حملات باهرة سقطت القلاع وكانت هزائم الفرنجة تؤدي الى جلائهم التام عن البلاد ولم يبق في حوزتهم إلا انطاكية وطرابلس ودمشق وبعض المدن الصغيرة والقلاع .

الحملات الصليبية الثالثة

أخذ استثار سقوط القدس حملة أوروبا ، فندى حكامها خصوماتهم القديمة وقام رجال الدين وعلى رأسهم البابا غريغوريوس الثامن بدعوى حملة جديدة ، ونوالت صيحات صليبية الشرق فاستجده الدعوة من أهل الغرب . على الشدة اباطرة أوروبا وسفوكراء ونسط فرديك ايراروسا Barbarossa امبراطور ألمانيا ، وريكاردوس قلب الأسد Richard the Lion Heart ملك انكلترا وغياب انطلس ملك فرنسا الى القيام بالحملة الصليبية الثالثة (١١٨٩ - ١١٩٢ م) وهي اكبر الحملات عدداً ، ويتوعدا أعظم ملوك أوروبا في ذلك العصر ، وكان يرعى لها خصراً عظيماً إلا أنها لم تشر عن نتائج حربية مهمة ، إذ أن أنظام مملكة الصليبيين هو حصار عكا والاستيلاء عليها بعد حصار دام سنتين من (٢٧ آب ١١٨٩ حتى ١٢ تموز سنة ١١٩١ م) وكانت نتائج المفاوضات السلمية ، والاتات الودية بين صلاح الدين وقلب الأسد أعظم بكثير من الأعمال الحربية .

وكان قول من شرع بالسير إلى الشرق فريدريك ايراروسا الذي سلك طريق البر ووصل الى القسطنطينية وقام التراجع بين الامبراطور البيزنطي السحق الكومنين الذي أسيات تنال الشكوك من هذه الحملات لأن امبراطوراً باسمه قلب الاسبراطور ي يقوم على قيادتها وكانت هذه المنازعات بذوراً للحملة الصليبية الرابعة التي اتجهت الى القسطنطينية .

— أميرها لم يجرهم الضيافة فحسب بل سلبهم أموالهم ، في حين كان هؤلاء الباباوسون ايضاً ساروا في بلاد المسلمين بلافون ضرورب العطف والكرم .

توغل بارباروسا وحيشته في آسيا الصغرى إلا أنه غرق وهو يدير نهراً في كيليكية فعاد معظم
أفراد جيشه إلى بلادهم وسار الباقى بقيادة ابنه سوابيان إلى عكا واشتركوا في حصارها .
أما ريكاردوس وفيليب أغسطس فقد تواعدا على المسير بجرأ إلى البلاد المقدسة واتجهوا نحو صقلية
وقضيا فيها وقتاً من الزمن . ولم نثبت المنازعات أن قامت بينها ، فخافق فيليب أغسطس الجزيرة
في ربيع سنة ١١٩١ م واتجه إلى عكا . ولحقه بعد ذلك ريكاردوس الذي عرج في طريقه على قبرص
واحتلها ونسبت هذه الجزيرة فيما بعد ملكاً للصليبيين بعد أن أخرجوا من سورية .

تجمعت القوى كلها في عكا وتزعم الهجوم الملك « غي » الذي كان صلاح الدين قد أطلق سراحه
بعد معركة حطين بعد أن أسط عليه العهد بأن لا يعود لقتال المسلمين ، فلم يبق بوعده — كما هي
عادتهم — وضرب الفرجة الحصار حول عكا التي كانت بيد المسلمين ، ولما بلغ الظاهر صلاح الدين أسرع
بحيسته لانتاء المدينة . وضرب معسكره قبالة العدو . وكانت التجهيزات والمساعدات تأتي الصليبيين
من طريق البحر ، كما أن السفن المصرية والشامية كانت تمد أهل عكا بالميرة والذخيرة نظراً لانقطاعهم
من ناحية البر عن جهوش صلاح الدين .

نشبت القتال بين الطرفين برأ وبحراً وكان أهل عكا يرسلون السلطان صلاح الدين بواسطة
كتب يحملها الخمام الرجال أو بواسطة الفواصين الذين يظلمون الخندق في الليل ويحملون
الأخبار السلطان .

وقد شيد الفرنجة أبراجاً خشبية مرتفعة ستورها باللود المسقاة بالنار أو بالمواها بالطين ،
وشحنوها بالرجال الثقيلة وقربوها من أسوار عكا وأخذوا يطردون المسلمين يوابل من قذائف النفاط
والسهام والحجارة ، إلا أن المسلمين تمكنوا من إحراق هذه الأبراج (١)

(١) يوسف ابن الأثير كيفية حرق المسلمين لأبراج الصليبيين بقوله « وكان سبب ذلك
أن اسدأ من أهل دمشق كان مولعاً بجميع آلات الغلمان وتحصيل عقاقير تقوي عمل النار ، فكان
من يعرفه بالمهمة على ذلك ، ويشكره عليه وهو يقول هذه حالة لم يأنسها بنفسه وإنما أشبهى بمعرفتها
وكان يكا لأمير بريد الله . فلما رأى الأبراج قد انصبت على عكا شرع في عمل ما يعرفه من الأدوية
المقوية للنار بحيث لا ينمها شيء من الطين والحل وغيرها . فلما فرغ منها حضر عند الأمير قراقوش
وهو « تولى الأمور بـعكا ، والحاكم فيها وقال له يأمر المنجنيق أن يرسي في المنجنيق الحافى لبرج من
من هذه الأبراج ما أعطيه حتى أحرقه ... فاجابه إلى ذلك وأمر المنجنيق بممثال أمره فرمى عدة
قدور نفاطاً وأدوية ليس فيها نلر فكان الفرنج إذا رأوا القدر لا يحرق شيئاً يصبحون ويرقصون —

وكانت جموع الصليبيين على مكأ التي قاومت مقاومة شديدة ، وانقطعت عنها البرد كما أن
السلطان صلاح الدين السحب عنها بسبب انتشار الأمراض والأوبئة من كسح حنت الفتى ، ففاوض
قادر حامية مكأ الصليبيين على التسليم ، وبعد مفاوضات طويلة سلم أهل المدينة بشرط الإبقاء على
حياتهم وعلى أن يرد المسلمون الصليب المقدس ، وعلى أن يدفع المسلمون مائتي ألف دينار في مدة
شهر . ولما حصل بعض التأخير من المسلمين في دفع المال أمر ريكاردوس بقتل الأسرى البالغ
عدد زعماء الدين وسبعون نفساً ، وهو عمل شائن يناقض تماماً مبادئ صلاح الدين لا يسمي اللاتين .
تخرج الصليبيون على سبيل مكأ وأخيراً اتفقوا أن يكون (علي) ملكاً عليها ، وعاد فيليب ملك
فرنسا إلى بلاده نظراً لذكره مشاعله فيها . وبقي ريكاردوس يفاوض صلاح الدين ، وقد اقترح
زواج أخته الملك العادل أخي صلاح الدين على أن تعطى اورشليم عهده للزوجين فينتهي بذلك المهاد
المتحكما بين النصارى والمسلمين . إلا أن الأمر لم يتم بسبب تدخل الكهنة . وقد تبادلت الهدايا بين
صلاح الدين وريكاردوس دلالة على استحباب الواحد منها بالآخر حتى أتى ريكاردوس أمير رنسة
الفرنسية على الملك الكامل بن الملك العادل في حفلة شائعة . وكان ريكاردوس شديد الرغبة في
مغادرة سورية والعودة لبلاده لاختار الثورة التي قام بها أخوه عليه . وبعت وفداً إلى السلطان صلاح
الدين يعرض عليه شروط الصلح وأخيراً تم الاتفاق بين الطرفين في ٢ تشرين الثاني سنة ١١٩٢ م
على أن يكون الساحل السوري بيد الصليبيين والداخل بيد المسلمين وأن لا يتعرض أحد بائدي
الحجاج الموقدين على بيت المقدس . وصار بيان بذلك فسادت الطائفتان وانتشر الأمن في ربوع البلاد
وفرح الناس فرحاً شديداً وعادت الجفود إلى أوطانها بعد أن كانت قد حشدت من جميع الأصقاع في
فلسطين ، وعاد ريكاردوس إلى بلاده ، وفي مارشيه قبض عليه أمير النصارى وسجنه سنتين ، ولم يطلق
سراحه إلا بعد أن دفعت انكثرا غرامة كبيرة لا تقدره .

نتائج الحزن الصليبية الثالثة

من نتائج هذه الحملة :

١ - أنه ٢٥٥ فيها عدد لا يحصى من الناس ، وخربت آلاف الدور العامرة ، وخسرت المائيا
أعد أبنائها العظيم كما فقدت فرنسا وانكثرا زهرة فرسانها . ولم يكسب الصليبيون منها غير
فتح مكأ .

- وبقيون على سطح البرج . حتى علم أن الذي أتاه قد تمكن من البرج التي قدراً عظيماً وجعل فيها
النار فاشتعل البرج والتي قدراً ثانية وثالثة فاضطربت النار في فواحي البرج وأعجلت من في طيقاته
الحبس على الحرب . . . الكامل ج ١٢ ص ١٩ - ٢٠

- ٢ - إنها فتحت باب المفاضات بين أهل الشرق والغرب ، وزادت في تعارف كلا الطرفين بعضها على بعض ، وجعلتها أكثر حرصاً على السلم من الحرب .
- ٣ - أنها أظهرت بحول قيادة الحملات الصليبية نهائياً إلى السيادة الزمنية من ملوك وأباطرة ، فأصبحت الحملات تحت قيادة الملوك بعد أن كان يقومها الأمراء والفرسان والكهنة .
- ٤ - وطدت حكم الصليبيين في قبرص ، فأصبحت هذه الجزيرة ملجأ لهم بعد خروجهم من سورية .

مفهوم صلاح الدين ومآثره

كان صلاح الدين مثال الساطعة في مبادئه ومآكله ومسكنه ومعاملته للناس . فكان كل فرد من رعيته يستطيع أن يخاطبه ويدخل عليه دون أن يعترضه حاجب . وكان ديناً ورعاً تقياً رقيق القلب مريح الناس بدمع عينه عند سماعه أصوات الضعفاء والمساكين . وكان متواضعاً لا يحب الابهة فقد بني له مرة منزل فخيم في دمشق فقال : ما كنا نجلس في هذا المكان إلى الأبد ، فهذا المنزل لا يصلح لمن يطالب الموت . وما نحن هنا إلا لنقوم بخدمة الله سبحانه ، وكان جواداً كريماً يقول : إن المال والقراب سيان عندي . كان يكره أن يندس عليه سائل فلا يعطيه ، وما ظلت منه أحد غطاء الا واعظي أكثر عما سأله . وسكني دليلاً على كرمه أنه لم يخلف في خزانته غير دينار واحد و ٣٦ درهما أرسلت إلى بغداد مع الرسول الذي دعاه إلى الخلافة .

كان السلطان صلاح الدين جريئاً قوياً الفؤاد شديداً الصبر فقد حارب الفريجة حتى أثناء مرضه . ولقد كان يركب جواده ويقود جنده وهو مريض لا يستطيع الاطمئنان على سرجه فيقال له في ذلك فيقول : إني إنما أشعر بالمرض حين أشرك ظهر جوادي . وكان حليماً حسن الاخلاق كثير التغافل عن ذنوب أصحابه مديناً للعلماء والأتقياء حريصاً على أن يكونوا في مديته .

مآثره :

أهتم صلاح الدين بأمر دولته وشؤون رعيته . أنشأ المدارس والمساجد والخوانق والربط والجامعات في جميع أنحاء مملكته ووقف عليها الدور والساتين والأموال الكثيرة . ومن آثاره الباقية قلعة الجبل في القاهرة التي بدأ في تشيدها مع أسوار المدينة والحدائق سنة ١١٨٣ م واستخدم فيها حجار الأهرامات الصغرى .

أبطل صلاح الدين المكوس التي وضعها الفاطميون على التجار في البر والبحر فانتعشت التجارة . واجتنب السدود وأمر بحفر الآقية وتمييز الجسور حتى تسهلت الزراعة . وكان يدرج المزارعين من جنده في الشتاء ليقوموا بشؤون مزارعهم .

أهبط مغارم أهل الحجاز وعوض أمير مكة عنها في كل سنة بالنبي ديثاد والقب أردب من القمح
وبعض الاقطاعات بالصعيد واليمن وبذلك سهل الحج على الراغبين به .

أهتم صلاح الدين كثيراً بأمر الاسطول لماله من عظيم الاثر في رد غارات الصليبيين وتزويد
المدن الساحلية والجيوش الصلاحية بالميرة والدخيرة . وأنشأ ديواناً للاسطول سمي « بديوان الغار »
بجمل وبشبه أخوه الملك العادل نظراً لأهميته . فزاد الملك العادل أجور البحرية وعمال دور الصناعات
عما كانت قبلاً . وبني كثير من المراكب . واتخذ مركز هذا الديوان في داخل الصناعة بحصر
ليكون قريباً من المال يشرف عليهم بنفسه . وكانت السفن تصنع في الاسكندرية ودمياط ومصر ،
وضعف أمر هذه الصناعات بعد موت السلطان صلاح الدين . وشهد لصلاح الدين بالبطولة اعداؤه
وهو لا يزال يعتبر حتى اليوم مثال القروبية الكاملة . وقد جاء في كتاب تاريخ المؤرخين ما ترجمته
« والذي أدهش المسيحيين من أمر صلاح الدين هو مروءته وشهامته ونخاؤه وكرمه وبرحمته وحلمه
ومنفحة وعفوه لاسيما بحفاظته على العهود والمواثيق » .

توفي رحمه الله بالحنين في دمشق يوم الاربعاء في ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) وهو في
السابعة والخمسين من عمره . ولا يزال قبره في العاصمة السورية قرب الجامع الاموي .

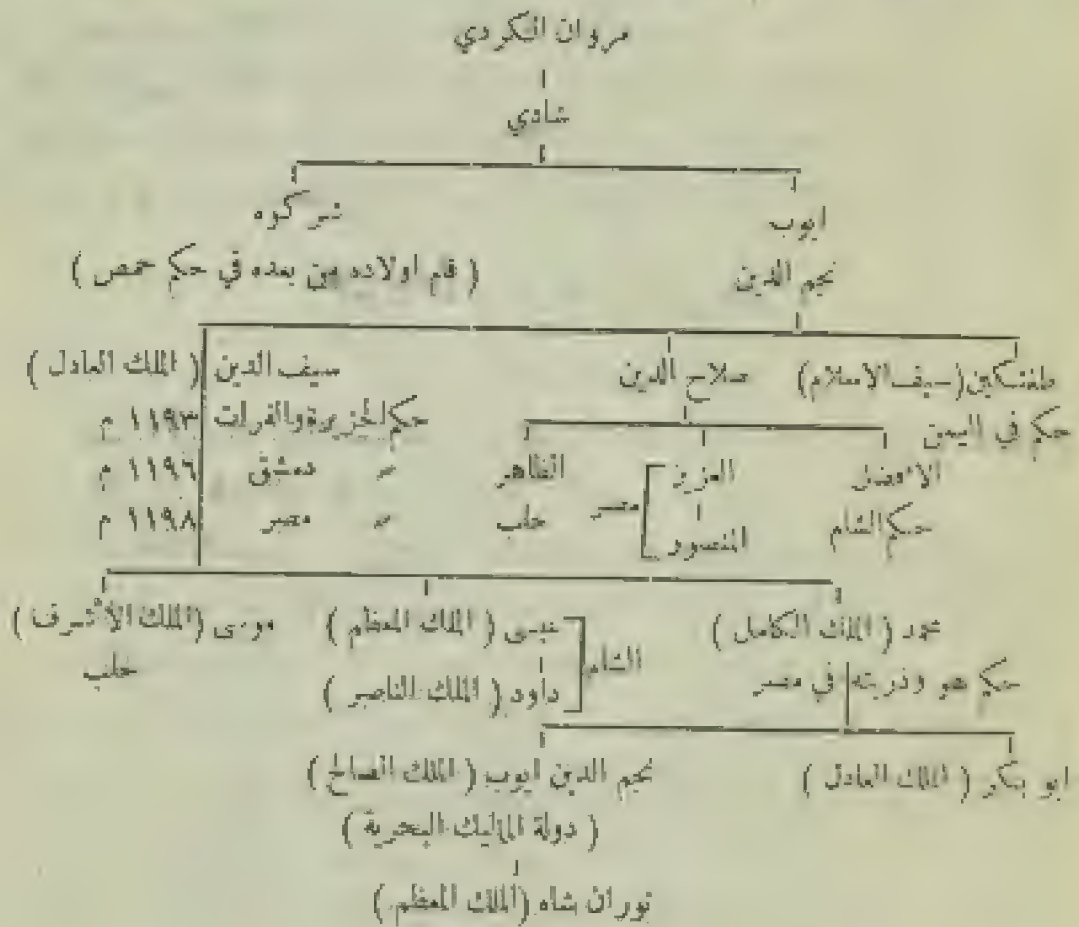


انقسام الدولة الأيوبية (١)

الملك العادل

انقسمت الدولة الأيوبية بعد وفاة السلطان صلاح الدين بين أولاده الثلاثة : الأفضل ، والعزیز ، والظاهر ، وبين أخيه الملك العادل وبقية الأمراء الأيوبيين . وقام كل أمير من الأيوبيين بنزع الآخر عن السلطة . وكان الأفضل حاكماً على الشام وفلسطين وكانت دمشق عاصمة أبيه مركز حكمه . وبقي العزيز يحكم مصر التي كان والياً عليها منذ زمن أبيه ، وولي الظاهر إمارة حلب وبقي مستقلاً فيها حتى سنة ١٢٦٠ م. وحكم أولاد شركوه في حمص وكان الملك العادل والياً على الجزيرة

(١) تظهر هذه التقاسيم السلالة الأيوبية لأسيان أولاد السلطان صلاح الدين وأولاد أخيه الملك العادل الذين ورثوا الحكم بعد وفاة أبيهم .



الفرات ، وكان أقوى الأمراء الأيوبيين ، فلما لبث بعد أن اشترك في النزاع الذي قام بين الأفضل والعزیز أن ضم دمشق لسلطنته سنة ١١٩٦ م ولما توفي العزيز وترك ابنه الصغير المنصور استولى الملك العادل على مصر سنة ١١٩٨ م ولم يلبث أن ضم إليه بلاد اليمن ووجد جميع البلاد - ما عدا حلب - تحت سلطانه وأعاد ذكرى صلاح الدين .

كان الملك العادل بعيد النظر وافر العقل عظم الخطه حسن السيرة شديد الحزم وكان كاشيه خبياً للعلم ، مكرماً للعلماء ، امتدت دولته من أعالي الجزيرة من بلاد اليمن وكان سيد الشام ومصر . توفي الملك العادل في طريقه الى مصر عندما كان داخلاً لرد غارة الصليبيين عنها سنة ١٢١٨ م (٦١٥ هـ) بعد حكم دام عشرين سنة هزم خلالها الفرنجة في عدة مواقع ، واجبط عزواتهم في البر والبحر . وانقسمت الدولة بعد وفاته بين اولاده . فولي الملك الكامل مصر ما بين سنة ١٢١٨ - ١٢٣٨ م والملك المعظم بلاد الشام ما بين سنة ١٢١٨ - ١٢٣٧ م والملك المنصور الجزيرة وحلب ثم استولى على دمشق سنة ١٢٣٧ م وبقي فيها حتى وفاته سنة ١٢٣٧ م .

وعندما توفي الملك الكامل في مصر خلفه ابنه الملك الناصر وكان شاباً ضيف الاخلاق يميل الى الفهم والمجرب ، فخلفه سنة ١٢٤٠ م اخوه نجم الدين ايوب الملقب بـ « الملك الصالح » حكم ما بين سنة ١٢٤٠ - ١٢٤٩ م وفي زمنه قويت سلطة المماليك وتغلوا بعد وفاة ابنه نور الدين سنة ١٢٥٠ م على السلطة وشكلوا دولة المماليك التي قامت على انقاض الدولة الايوبية .

الحملة الصليبية في القرن الثالث عشر

انتهاء العهد الصليبي

ضعفت الجهود الغربية الموجهة لسورية في القرن الثالث عشر ، ونضمت القوى التي تدفقت في القرن الثاني عشر لهذه البلاد او تحولت الى ميادين اخرى .

١ - الحملة الصليبية الرابعة (١٢٠٢ - ١٢٠٤ م) توجهت الى القسطنطينية ، واستقر فيها امبرطورية لا يتبىة دامت ٥٧ سنة (١٢٠٤ - ١٢٦١ م) امتصت خلالها الجهود الصليبية . لان الجماعات المدفوعة من الخسائس الدينية ، وجدوا في غارة اعداء الكنيسة الغربية ما يشق عليهم . والمدفوعين بالتعامل المادي وجدوا في كنوز القسطنطينية ومرفئها التجاري ما يفي بحاجتهم (١) كما

(١) ارتكبت الصليبيون أشنع الفظائع بسكان القسطنطينية ، فحرقوا البيوت ، وحاربوا الكنائس ونهبوا ما فيها من الأموال . يقول ميشو : « أصبحت القرى والساكنات حراً بلا أن لا تصالح الا للمجرات بشق ركامها » . ويقول مؤرخ بيزنطي : « لبث هؤلاء الذبوسيين حلب دحرجهم الى ابته » .

أن القوى الصليبية توجهت الى اوروبا نفسها سواء للمشاركة بالنزاع مع العرب في اسبانيا والفتح المناطق الشرقية في المانيا التي لازال على الوثنية ، او لغيرها من البلاد .

٢ - نجد في هذا الدور ظاهرة جديدة في الحملات الصليبية وهي حماس الاولاد في اوروبا ومحاولتهم القيام بحملة صليبية لانقاد بيت المقدس . فقد سارت حملة من الاولاد من فرنسا تحت قيادة طفل يدعى « سايغن » الى مرسيليا ، فسطى عليهم تجار الرقيق ، وابعوهم في اسواق مصر وسور البحر المتوسط . كما ان الاولاد الذين ساروا من المانيا بقيادة الطفل « نيقولا » فقد حملهم في الطريق وعاد قسم منهم الى بلادهم ولاقي القسم الآخر أسوأ العواقب .

٣ - نجد في هذا القرن تحول وجهة الصليبيين من الشام الى مصر . والحملة الصليبية الخامسة (١٢١٨ - ١٢٢١ م) التي دعا اليها البابا ايشوسنت الثالث ، والحملة الصليبية السادسة (١٢٤٩ - ١٢٥٠ م) التي قادها القديس لويس ملك فرنسا على أثر سقوط بيت المقدس بيد المسلمين انتهتا الى مصر ، وكانت الاحمال الجارية فيها تدور حول الاستيلاء على دمياط . وكانتا فشلتين في النتيجة . فقد اسر القديس لويس ومعظم رجاله في الحملة السابعة ، ولم يطلق سراحهم الا بعد ان ابل لويس بتسليم دمياط ، ودفع فدية قدرها ٨٠ ألف دينار .

٤ - تابع الصليبيون سياسة المفاوضة في هذا القرن ، فقد قضى فريدريك الثاني ملكه في الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨ - ١٢٢٩ م) بتفاوض مع الملك الكامل وأخيراً عقد معه ماهدة لمدة عشر سنين أخذ بموجبها فريدريك بيت المقدس والناصرة وبيت لحم وقسم من الساحل يصل مكا بيت المقدس ، مقابل تعهد فريدريك بريك الثاني بعدم اودان تحركات صليبية من اوروبا لتدمير التلال القوية في الشام وترك المسلمين يزورون اما كنسهم المقدسة دون ان يتعرضهم احد .

٥ - زالت سلطة النورمان في هذا القرن عن صقلية وجنوبي ايطاليا ، وحلقتهم في حكم تلك البلاد أباطرة من المانيا منهم « شارل الف الحور » أخي ملك فرنسا القديس لويس . واتفاقاً مساعدة الصليبيين فقاما في سنة ١٢٩٨ م بحملة مشتركة الى تونس وهي الحملة الثامنة والاخيرة . مات في اثنائها القديس لويس فاستلم اخوه شارل القيادة ، وفازت سلطان تونس وأخيراً تم الاتفاق على ان

— اقتزعوا الجواهر من كنوزهم الذهب كل المقدسة ، وطفنوا يشربون بها الخمر ويورثوا الشاهداني كانوا يقامرون ، وبأكاون عليها بصور المسيح والقديسين ، وداسوا تحت اقدامهم الزابل المقدسة ، ومزقوا في كنيسة سان صوفيا ستارها المشهور وانزعوا حوائضه الذهبية . وحملوا المنح المبرين بالصور الفنية واقتسموا قطعها الصغيرة فيما بينهم .

بدفع السلطان مبلغاً من المال ، اخذ الافرنسيون قسماً منه واخذ الباقي لنفسه . وبذلك انتهت الحملات
القائية التي يمددها المؤرخون . والحقيقة ان الجيوش الصليبية والحجاج الاوربيين لم ينظموا من
الوفود الى بلاد الشام خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الذين قامت في اناسها الحروب الصليبية .
٦ - جلات في هذا القرن موجت التمر الى البلاد الاسلامية . وقد حاول الصليبيون نشر
المسيحية بين التمر ، فأرسل البابا اثنو سنت الرابع وملاك فريفا الفديس لويس . وتمرين الى بلادهم
ليخلقوا قوة نصرانية جديدة تأتي من الشرق وتساعد أهل العرب في القضاء على المسلمين . إلا ان
حلمهم لم يتحقق بسبب اعتناق كثير من التمر الدين الاسلامي ، وكانت هذا التصار الاسلام
على المسيحية .

٧ - انتقل الدفاع في هذا القرن عن مصر والشام في وجه الصليبيين من الابوين الذين انقضت
دولتهم الى المائيك . فقد أقر الملك الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) الفرية القائية عليهم ،
وفي سنة ١٢٦٣ م احتل الكرك وهدم كنيسة الناصرة ، ولم تقو قيسارية وبافا وانطاكية على الوقوف
في وجه هجمات الغتيفة فاستسلمت ، وفي سنة ١٢٦٨ م اندم حامية انطاكية التي كان يبلغ عددها
سنة عشر ألفاً ، وسبى من رجالها ونساءها وأطفالها نحو مائة ألف فباعهم في الاسواق فكان ثمن
الطفل يومئذ اثني عشر درهماً ، وثن الطفل خمسة دراهم ، وباجرى تقسيم الغنائم كانت الاموال تشكل
كبيلاً . وفي سنة ١٢٧١ م انزع بيبرس حصن الاكراد من أيدي الفرنسيين ، أما الرقب الذي
يجوار طرابلس فالنقطة سنة ١٢٨٥ م . خليفته قلاوون الذي استولى على طرابلس بعد ذلك بالربعة
أعوام ، ولم يبق في سورية من مرا كز الفرنجة الملمعة الا سكا ، وجرى حصارها في عهد الملك
الاشرف خليفة قلاوون . وبعد قتال دام شهر استخدم المسلمون فيه (٩٠) منجقاً سقطت سكا في
أيار سنة ١٢٩١ م وعملوا السيف في رقب حاميتها من الفرسان اللادوة والبنوم . وبهذا سقط
آخر حصن منبع اللادين في الشرق . وفي السنة نفسها استولى المسلمون على سور رسيديا وبيروت
وطرابلس . وهكذا اسدل الحجاب على أروع الفصول الحربية في تاريخ سورية في العصر المتوسط
وكثير من المؤرخين من يعتقد ان الحروب الصليبية لم تنته في ١٢٩١ م بل ان العرب لا يزال في
حرب صليبية مع الشرق سواء من ناحية السياسة أو الدين .

٨ - انتقل بقايا الصليبيين من سورية الى جزر البحر المتوسط ، فقد أصبحت قبرص التي
استولى عليها ريكاردوس من اليونانيين في الحرب الصليبية الثالثة موطناً لاصحاب الاطفال والقساوسة
نحت حكم ملوكها من امرة لوزينيك . وكذلك استل ريكاردوس فرسان الاسبتارية بعد ان خسروا
مكائناً ، واستقروا في الجزيرة حتى عام ١٥٢٣ م وبعد هذا التاريخ نزحوا الى مائة . وسقطت

كبرت بيد البندقية على أثر الحرب الصليبية الرابعة . وأخذ الجنويون بعض جزر بحر الميجة من الدولة
البرنقلية . وكان الصليبيون يتنون الحرب على المسلمين من هذه الجزر من وقت إلى آخر إلى أن
ساد الانزالك الغماليون على البحر المتوسط وجزره .

٩ - قام بعض الباحثين في أوروبا بحثون في أسباب اختفاء الحملات الصليبية ، وقترحوا طرق
اشدها من جديد ١١ وأصلاح التدوير بالماضية التي وقع بها الصليبيون ، فبعضهم جعل السبب الرئيسي
في فشل الحملات الصليبية اطلاع البابوات ، ومنهم من وجه انتقاده إلى ملوك العرب وامراتها وارسع
القتل إلى منازعاتهم الدائمة . ومنهم من لام وأنهم المان الايطالية مركزها المادية التجارية . ومنهم من
وجد السبب في فشل الصليبيين شدة المنافسة بين الداوية والاستبارية . والباق كالا طرايين مصالحه
الخاصة . ويقترح بعضهم توجيه جهود الغرب في القضاء على الشرق . ويرى البعض الآخر بيع
املاك الكنيسة وثقاتها في هذا السبيل . ويوجد آخرون سير هذه المقترحات فليقتنه الشرق النائم
وليأخذ لنفسه الخذر .

نتائج الحملات الصليبية

كانت نتائج الحملات الصليبية مردودة فبعضها كان تأثيره على الغرب . كما أن البعض الآخر كان
تأثيره على الشرق . وسنذكر من هذه النتائج في كلا الجانبين .

أثر الحروب الصليبية في الغرب :

خرجت أوروبا بعد الحروب الصليبية من طغمة العصور الوسطى إلى عصر النهضة والاكتشافات
البحرية والاصلاح الديني . ويقول بركر : إن الحروب الصليبية كانت عاملاً من جملة عوامل كثيرة
أحدثت هذه التغيرات ، ولها ليست هي السبب الوحيد .

الا أن الحروب الصليبية كانت من جملة العوامل على نحو فروع الديجوية وسنمضعة الرهبة من
الناحية الدينية ، كما أنها عملت على المساواة بين الطبقات من الناحية الاجتماعية ، وساعدت على نمو
طبقة الفلاحين الاسرار وحميات الصانع الصناعوية ، على ازدهار التجارة والصناعة والرواسا من
الناحية الاقتصادية . ولما في ميدان السياسة فكان للحروب الصليبية الاثر الكبير في التعاون الحربي
بين مختلف شعوب أوروبا وإلى قيام الدول المستقلة والحكومات المركزية والتعاون الدولي بين هذه
الحكومات . كما أن الغرب استفاد من الثقافة العربية بالتصاله المباشر بمسيرة المسلمين مما أدى إلى تفتح
عقول الغرب . وظهور كبار المفكرين في الفلسفة والفنم والآداب لاسيما الآداب الحاية منها . كما
انه ازدادت المعلومات الجغرافية على أثر الحروب الصليبية التي ساعدت أوروبا وجرأتها على القيام

بالرحلات البحرية . واكتشاف أمريكا . وقد انقضى عصر العبرة الرومانية وخلفه فن العبرة القوطية .
ويجب ان نعرف بأن أخذ أوروبا من الحضارة العربية لم يكن في ميدان الحروب الصليبية حسب
بل ان الغرب اتصل بالشرق في ميدان أخرى لا سيما في الاندلس وجنوبية ، وتعد معرفة ما أخذته
الأوروبيون من الثقافة الإسلامية في ميدان الحروب الصليبية أو في غيرها من الميادين . فتجد مثلا
في اللغات الأبرشية كثير من الالفاظ العربية مثل : حبة . وبنار . ولعيرال . - امير البحر -
- والرسال - دار الصلابة - وسكر . وغيرها من الالفاظ الكثيرة قبل اخذها الغرب باحتكاكه
مع الشرق في زمن الحروب الصليبية أو في وقت آخر ؛ ان علم اشتقاق اللغات هو الذي يرفنا على
ذلك ، ولكن الوصول الى الحقيقة في كل هذه النواحي أمر صعب جدا .
وما أخذته الغربيون عن الشرق في زمن الحروب الصليبية هو :

١ - تقدم فن الحرب والقتال في أوروبا على أثر الحروب الصليبية ووجد فن جديد لبناء القلاع
في أوروبا ، كما ان الغرب تعلم من المسلمين بعض وسائل الدفاع استلزمها فن حركات الحصار الذي
أرغى في الشرق . فاستعملوا مدفعية من الخناجر والكيش الهادية ، وتعلموا صناعة النيران
الحرقة كالنار اليونانية وقوارير النفط والقارور المدفوعة بمواد مشتتة وتقابل المجر التي تخذ من حجر
مدور فيه أربعة ثقب تملأ بالنفط وتهدف للخناجر . والمطون ان استخدم المدرج القارور ونقره في
الغرب مأخوذ عن الشرق اين الحروب الصليبية . وتعلموا استخدام الرماح القاطنة تحت القروع
واستخدم الحزام الراسل لقتل الاسوار . وتقدم فن المبارزة والفروسية أثناء الحروب الصليبية
واقتبس استعمال الدارات . كالسر المزدوج ، وزهرة الزينة . والمتناسين في أوروبا على اثر اتصال
الصليبيين بالمسلمين في سورية . وتعلموا استعمال الطابل والظهور في سوقاتهم الموسيقية ، ونقلوا
عدة الاغاني بالظفر بالشمع النيران .

٢ - توسعت التجارة مع الشرق على اثر الحروب الصليبية وتعرف الصليبيون على منتجات
مصر والشام والهند والصين والفرقة وبضائعها . وتعود الغربيون على هذه المنتجات والمصنوعات
ونقلوها الى بلادهم . فافادوا السهم والحروب والقررة والارز والبيون والبطيخ والشمس والثوم
وبعض الاقشة كالوسلين والدمقس والعتابي والاملس والسجاد والبذرة وبعض الالوان كالفرمزي
والاصباح كالبيلة . والمفاير كخبر الشب . والوايل كالبازل والدك . والقطر كالعود والقرنفل
والابان وبعض القطع الفنية المصنوعة كالخمار والرياح والمصوغة كبعض الحلي من الذهب والفضة
والمناسخ حتى انهم أخذوا المسبحة ...

٣ - أخذ الغرب عن الشرق بناء المستشفيات لمعالجة الانراس وفتحوا الحمامات العمومية

للنظافة وترف ذوقهم فاستعملوا الروائح العطرية من ماء الورد المدمشق والعطور المشهورة بها
فارس ، وادخلوا التوابل في أطعمتهم وتعلموا صنع الحلويات . وامتد الحرب الصليبية عرف القرب
السكر ، وما كانوا يعرفونه من قبل ، وكانوا يستعملون العسل لتحلية أطعمتهم ، فقد وجدوا في
ساحل سورية الألداد عصون فصب السكر فلما ذاقوا طعمه ادخلوا رعايته بلادهم .

٥ - أخذ الأوربيون في زحف الحملات الصليبية من الغرب إلى المشرق وادخلوا الأعداد
العربية ، وتركوا الأرقام الرومانية وادخلوا الصفر في حساباتهم . وانتشر علم الحساب في القرب
بسبب التجارة التي كانت قائمة بين سورية وإيطاليا . وانتشرت دراسة اللغة العربية والترقية
في القرب بغاية التشير المسيحية في البلاد العربية والترقية وادخلت تعلم هذه اللغات في الجامعات .
هذا شيء مما انتجته الحروب الصليبية في القرب فلننظر ما كان تأثيرها على الشرق .

أثر الحروب الصليبية في الشرق :

١ - ورت الشرق من الحروب الصليبية ذكريات التعصب الديني والنفور بين المسلمين والنصارى
٢ - تركت الحروب الصليبية بعض الأبنية الحربية والمدنية من قلاع وأسوار وكنائس
وأديرة شاد بعضها أهالي البلاد ليدافعوا عن أنفسهم من الغارات الصليبية ، وعمر البعض الآخر
الصليبيون بالاستعانة بعمالهم وصناع سوريين . وأهم القلاع التي بنيت في العهد الصليبي في سورية
ولا يزال آثارها باقية حتى الآن هي : قلعة الشموذ قرب بانياس ، وقلعة الشقيف بطريق صيدا
وقلعة سنجر وبعض الأبراج الصليبية في طرابلس ، وقلعة الحصن ما بين حمص وطرابلس ،
وقلعة المرقب ومربون بقرى اللادقية ، وقلعة الكرك والشوبك بقرى الأردن . وتعتبر سورية في
الوقت الحاضر من أفضل البلادين للدراسة الفن القوطي في زمن الحروب الصليبية .

٣ - امتزج الصليبيون مع قسم من أهالي البلاد ونشأ عن التمازج جنس جديد يعرض قسم منه
في سورية بعد خروج الصليبيين منها ولا يزال أحفاده موجودين حتى الآن .

٤ - انتقل إلى الشرق بعض الألفاظ الأجنبية التي لا يزال مستعملة حتى يومنا هذا منها :
البوسطة - بك - الله - كروسة - كنيانة - لوكائنة وغيرها .

٥ - بدأت بذور الاستعمار السياسي والاقتصادي والديني تنمو في البلاد الشرقية فعمل
الأوربيون على فرض امتيازاتهم في البلاد الشرقية إما لحماية الأقلية المسيحية أو بالقوة العالم أو بطرق
الحجرات الخيرية من فتح المدارس الأجنبية أو تأسيس المستشفيات أو الملاهي ، أو الأرماليات وغيرها
ولا يزال تعاني البلاد الشرقية وبيلات الحروب الصليبية بما سببته من خراب البلاد وتأخر الحياة
الاقتصادية والفكرية والاجتماعية .

11. 1911

لائحة باسما سلاطين المحامليك البجعية

سنة توليه الحكم		اسم السلطان	سنة توليه الحكم		اسم السلطان
ميلادي	هجري		ميلادي	هجري	
١٣٤٠	٧٤١	١٤ - أبو بكر بن الناصر	١٢٥٠	٦٤٨	١ - شجرة الدر
١٣٤١	٧٤٢	١٥ - تاج الدين	١٢٥٠	٦٤٨	٢ - إيبك
١٣٤٢	٧٤٣	١٦ - أحمد	١٢٥٧	٦٥٥	٣ - علي بن إيبك
١٣٤٣	٧٤٣	١٧ - اسماعيل	١٢٥٩	٦٥٧	٤ - قطز
١٣٤٥	٧٤٦	١٨ - شعبان	١٢٦٠	٦٥٨	٥ - بيبرس البندقداري
١٣٤٦	٧٤٧	١٩ - المنصور طاجي	١٢٧٧	٦٧٦	٦ - بركة خان
١٣٤٧	٧٤٨	٢٠ - المنصور (١)	١٢٧٩	٦٧٨	٧ - سلاش
١٣٥١	٧٥٢	٢١ - الصالح	١٢٧٩	٦٧٨	٨ - قلاوون
١٣٥٤	٧٥٥	المنصور (٢)	١٢٩٠	٦٨٩	٩ - الأشرف خليل
١٣٦١	٧٦٢	٣٢ - محمد بن طاجي	١٢٩٣	٦٩٣	١٠ - الناصر محمد (١)
١٣٦٣	٧٦٤	٣٣ - شعبان بن حسين	١٢٩٤	٦٩٤	١١ - كشتغا
١٣٧٦	٧٧٨	٣٤ - علي بن شعبان	١٢٩٦	٦٩٦	١٢ - لاجين
١٣٨١	٧٨٣	٣٥ - طاجي بن شعبان (١)	١٢٩٨	٦٩٨	الناصر محمد (٢)
١٣٨٢	٧٨٤	برقوق (عزالدين رجبية)	١٣٠٨	٧٠٨	١٣ - بيبرس الجاشنكير
٩٠٠ - ٣٨٩	٧٩١ - ٩٢	طاجي بن شعبان (٢)	١٣٠٩	٧٠٩	الناصر محمد (٣)

ملاحظة : تشير الأعداد التي بين قوسين الى عدد المرات التي تولى فيها السلطان الحكم .

الباب التاسع

الممالك

٦٤٨ - ٩٢٣ هـ أو ١٢٥٠ - ١٥١٧ م

أصلهم :

المماليك جماعة من الرقيق الأبيض استخدمهم الخلفاء العباسيون في خدمتهم لاسيما الخليفة المعتصم الذي استعان بهم على العرب والفرس ليجري سلطته ويتولى توليته في الدولة . واصبح اقتناء المماليك سنة مشهورة عند بقية الدول الاسلامية لاسيما في مصر . فاقبل العتق والقبول والانشاء يولدوا الفاطميون والايوبيون عدد كبير منهم .

كان المماليك خليطاً من عناصر مختلفة منهم التركي ، التركي ، الرومي ، الرومي ، والفكردي والامروني وبعض الاموريين جاء بهم النخاسون (تجار الرقيق) من بلاد ماوراء النهر وشبه جزيرة القرم وقفقاسيا والفججاق والخزر وأواسط اوربا . وكانوا يحملونهم الى مصر والبلاد الاسلامية الاخرى ويبيعونهم احدائاً في اسواق النخاسة ، ثم يربونهم تربية حسنة ، فيهربونهم على الحرب والفرسية ويعلمونهم القراءة والكتابة والفقه والحساب وملك المماليك أيام حكمهم في مصر منفصلين عن أهالي البلاد لا يختلكون بهم كثيراً . لذلك ظفروا شافعياً على جنسهم وعملهم القديمة . وكانوا ينسبون الى أسيادهم الذين اشترؤهم فأبيك كان ينسب الى سيده الملك الصالح نجم الدين ايوب لذلك تسمى « بالصالحى النجمي » وقد استكثر الملك الصالح نجم الدين ايوب من اقتناء المماليك حتى تغلبوا على دولته الايوبية . وبعد وفاته لم يستطع ابنه توران شاه من كبح جماحهم فقتلوه وولوا امه شجرة الدر مكانه فتلقت « بعصمة الدين ام خليل » وملك البلاد ، وخطب لها من منابر مصر وضربت النقود باسمها . الا ان الاحوال قد اضطربت في زمنها بسبب امتناع امرائه عن وجوب من الاعتراف بسلطانها . وقد ارسل أمراء المماليك الى الخليفة المعتصم العباسي يطلبون الموافقة منه على سلطتها فكتب اليهم : « ان كانت الرجال قد علمت عندكم فاعلمونا حتى نسير اليكم رجالاً » فعارض الشعب في توليتها عرش مصر ، فزوجت عمر الدين ايبيك ، وجعلته ابايكا على الدولة . وبذلك تم انتقال الحكم من الايوبيين الى المماليك ، الذين حكموا مصر والشام نحو ثلاثة قرون حكم في خلالها نحو خمسين سلطاناً أظهر بعضهم كفاءة منقطة المثل ، لذلك سنتكلم عن بعض هؤلاء وأشهر أعمالهم .

انقسم حكم المماليك الى قسمين :

القسم الاول : حكم فيه المماليك البحرية او التركية من سنة (١٢٥٠ - ١٣٨٢) م او

(٦٤٨ - ٥٧٨٤) .

القسم الثاني : حكم فيه المماليك البرجية او الشراكسة من سنة (١٣٨٢ - ١٥١٧) م

او (٧٨٤ - ٩٢٣) .

وعرفت الدولة الاولى بالبحرية لان المماليك كانوا يسكنون في سكنات بناها لهم الملك الصالح نجم الدين ايوبي في جزيرة الروقة في بحر النيل وسموا بالمماليك التركية لان اكثرهم كان من الاتراك . وعرفت الدولة الثانية بالبرجية لانهم كانوا يسكنون في أبراج قلعة القاهرة التي بناها السلطان صلاح الدين الايوبي على جبل المقطم في مصر ، وسموا بالمماليك الشراكسة لان اكثرهم كان من الشراكسة .



الفصل الاول

دولة المماليك البحريةية

٦٤٨ - ٧٨٤ هـ أو ١٢٥٠ - ١٣٨٢ م

كانت الفتن الدامية قائمة في البلاد في زمن المماليك البحريةية بسبب نزاع أمراء المماليك على السلطنة ، وذلك لأنه لا يوجد طريقة ثابتة لتولي الحكم . فالسلطنة كانت عندئذ نهياً الأقوى . فمن كان عنده حاشية قوية وأتباع كثيرون أصبح سائطاً . فإذ ضعف خلفه غيره وحل مكانه . وكانت البلاد بأسرها غنية للسلطان وجنده ، يأخذون مغانمها ويتعمدون بحيراتنا في سبيل إشباع رغبتهم وتقوية استبدادهم . فإذ ضعفوا غلبهم غيرهم وحلوا مكانهم . واشتهر من سلاطين المماليك البحريةية : عز الدين أيبك ، وقطز ، وبيرس ، وقلاوون ، والملك الناصر وسنكلم عنهم باختصار وقد توالى السلطنة في بيت قلاوون من أبنائه وأحفاده حتى انتهاء دولة المماليك البحريةية . إلا أن الأمراء أتبعوا أولاد قلاوون بالسلطنة وحكوا باسمهم لذلك كانوا المعوية يديم .

عز الدين أيبك

٦٤٨ - ٦٥٥ هـ أو ١٢٥٠ - ١٢٥٧ م

هو أحمد مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب تزوج شجرة الدر سنة ٦٤٨ هـ فزالت له عت العرش بعد أن حكمت مصر تسعين يوماً ، برهنت فيها على كفاية وبراعة وحكمة في تصرف الأمور وقد اعترض أيبك في عهد سادته عدة عيوب منها : (١) أن المماليك البحريةية كانوا لا يزالون يذكرون حتى الأيوبيين التبرعي في عرش البلاد ، فاستدسوا أحد الأيوبيين وهو الناصر صلاح الدين يوسف صاحب بلاد اليمن . وبايعوه بالسلطنة ولقبوه بالملك الأشرف . إلا أنه لم يحكم مع أيبك ، ولم يكن له سوى الاسم . فلما قويت شوكة أيبك بانضم عدد كبير من المماليك إليه ، انهمز فرصة ازدياد خطر التتر في بلاد الشام وتمديد مصر سنة ٦٥٠ هـ فقطع اسم الأشرف من الخطبة ، وكانت الأشرف آخر ملوك بني أيوب بمصر . ولم تقم للأيوبيين بعد ذلك قائمة على الرغم من المحاولات الكثيرة التي حاولها بعضهم في سبيل الوصول إلى عرش مصر وأسياد الدولة الأيوبية فيها . (٢) وكذلك لم يعترف بسلطنة أيبك إلا أمير فارس الدين اقطاي مقدم المماليك البحريةية وكان يأخذ

بثاق او امره ، فمات السلطان ابيك في طلبه ، ونظاير يانه يريد انتشاره في مهام الامور ، والمواصل
الى قلعة الجبل سنة ٦٥٢ هـ اغلق بابها ومنع مما يليك من الدخول معه ، ثم امر به فقتل ، ورمى
برأسه الى مما يليك خلف النصارى وهرىوا الى الشام .

ونيجعل ابيك ملكه شرعياً أرسل الى الخليفة العباسي ببغداد المستعصم بالله يلتمس منه
بالفيلد والخلع والاثوبة أسوة بمن تقدمه من ملوك مصر ، وأنه ناثيه فيها . فأرسل له ذلك ، فصفوا
الجو له الى سنة ٦٥٥ هـ . الا أن العلاقة ساءت بينه وبين زوجته شجرة الدر إذ عرفت انه أرسل
بخطاب من الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل فدبت الفيرة في نفسها ، فقامت عليه مع بعض
خصياتها وقتلوه في الحمام في ١٤ ربيع الاول سنة ٦٥٥ هـ وبايع الاعراء لابنه علي وعمره يومئذ
عشر سنة على ان يلقب بالنصور ودين الامير سيف الدين قطز انايكاً له .

وقد بدأ هذا السلطان الشاب عهده بالانتقام لايه ابيك من شجرة الدر فأوعز الى بعض
الجواري فقتلنها بالقباطيب . وفي عهده طغت موجة المغول على البلاد الاسلامية واستولى هولاكو على
بغداد سنة ٦٥٦ هـ فالتخذ قطز هذا الحادث زريعة لاخذ السلطنة لنفسه فاعتقل الملك المنصور بقلعة
الجبل وأعان نفسه سلطاناً على مصر سنة ٦٥٧ هـ .

قطز

٦٥٧ - ٦٥٨ هـ او ١٢٥٩ - ١٢٦٠ م

تولى قطز السلطنة لقتال التتر ، كما أعلن ذلك بنفسه لامراء المماليك عند ما اشكروا عليه خلع الملك
النصور . خرج لقتالهم في اواخر شعبان سنة ٦٥٨ هـ وعلق بهم في عين جالوت بين بيسان ونايلس
في فلسطين . وجرت معركة بين الطرفين انتصر فيها المماليك انتصاراً باهراً ثم تجتمع التتر في بيسان
وانزلهم قطز وهزمهم هزيمة منكرة . الا ان بعض المماليك بزعماء الامير ركن الدين بيبرس اتفقوا
على قتله ، وذلك لانه كان وعد بيبرس بولاية حلب ثم استطاعا لصاحب الموصل . فقتلوه وهو عائد في
طريقه الى مصر سنة ٦٥٨ هـ ونادوا بيبرس سلطاناً عليهم .

بيبرس البندقداري

٦٥٨ - ٦٧٩ هـ او ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م

كان بيبرس أعظم سلاطين دولة المماليك البحرية ومؤسسها الحقيقي . وهو في الأصل رقيق تركي
في اول ملكه على تنظيم شؤون البلاد الداخلية . فاعتنى بترتيب الجيش وتعمير الاستطول ،

وتحصين قلاع سورية ، واهتم بحفر الترع ونحسب المواني وربط القاهرة ودمشق بواسطة مصادرة
بريد سريع يصل ما بين المدينتين في اربعة ايام . وكانت بدائل الخيل تخف على أهبة الجري في كل
محطة للبريد ، حتى لقد كان في مكتبة السلطان أن يلعب الصولجان في كلنا العاصمين خلال مدة لا
تزيد على اسبوع واحد . وكذلك اهتم باستخدام حمام الزاجل في نقل البريد فكان يربى ويحفظ
انسابه في سجلات خاصة . واهتم بيبرس بالانشغال العامة ، فأسس المدارس وبنى المساجد واصلاح
المسجد النبوي وقبة الصخرة وأقام المؤسسات الخيرية . ومن العمارات الشهيرة الباقية التي شيدها :
الجامع الكبير والدرسة التي تحمل اسمه . وهو اول سلطان يصدر عين اربعة قضاء للمذاهب الاربعة
ووضع نظاماً دائماً للمجمل المصري . وكان يجلس العظام بنفسه ويستمع على الفقراء والموزون
وامدر عدة قوانين لنهذب أخلاق المصريين ، فأمر سنة ٦٦٤ هـ بمنع بيع الخمر وأطفال الحانات
التي بالقاهرة وجميع اعمال مصر ، ونفى كثير من المفسدين . وخفض الضرائب وكانت يراقب
جبايتها وصرفها حتى لا تنسرب الى جيوب الموظفين وكان يعاقب المرتشي والظالم أشد عقوبة . وكان
له مقام عظيم بين امراء مصر ، فقد هابوه وخشوا يأسه حتى لم يكن احد منهم يحسر على التدخل
عليه الا بأذنه وهدأت الاحوال في زمنه .

كان بيبرس قائداً شجاعاً ضربت الامثال بطولاته وشهامته - حتى أن سيرته في ذلك الظاهر
لا تزال تقرأ حتى يومنا هذا . وقد تجلت بطولاته في حروبه ضد الصليبيين خلالهم مدة عشر سنوات
انهك قوامهم وهدم حصونهم وشقت شملهم . وكذلك حارب فرقة الحشاشين من الاسمايلية في جبال
العلوين وأخضعهم ونشر حكمه أيضاً على بلاد النوبة والبربر ، وتعاقد مع ملوك المماليك وملك اوربا
فبعد مخالفة مع زعيم طائفة المنون في قبضاق من وادي الفولفا وكذلك اثنى اعدائية تجارية مع
شارل دو أنجو Charles of Anjou ملك صقلية ، ومسح جميع ملك اراملون والفونسو
ملك اشبيلية .

ومن اروع الخوافت في ملك بيبرس اقامته على تجييد الخلافة العباسية وحياتها في مصر . بعد
ان قضى عليها هو لاكو النوري في بغداد سنة ٦٥٦ هـ وكان جل قصده من ذلك جعل سلطنة شرعية
واكتاب بلاطه رفعة في نظر سائر الاقطار الاسلامية . لذلك استقدم من دمشق في حزيران سنة
١٢٦١ م أحمد العباسي عم المستنصر آخر الخلفاء العباسيين . وكان قد نجح من مذبة بغداد ، فابع
له بيبرس والناس على طيناتهم بالخلافة ونقب بالمستنصر باق . وكتب بيبرس الى الواسع بأحمد البصة
للخليفة وبالخطبة باسمه على المنابر وبتنسي اسمه على المسكة . وقد انس مخالفة شارل السلطنة الى
بيبرس وفرض الامور البدني البلاد الاسلامية وقلده الحسك على مصر وسورية ودار بكر والخطار

والبحر والمراق ، وبعد ثلاثة اشهر توجه بيرس من القاهرة ومعه الخليفة طامعاً في إعادة بغداد الى املاك الخلافة ولكنه لم يرافقه الا الى دمشق فودعه فيها وعاد الى مصر . وقبل ان يذهب الى القاهرة الى بغداد اثار عليه سلك القوي ببغداد في الصحراء وكان ذلك آثر المهدي ، وندب ابنه اؤد على الخلافة مدة فربين ونصف وليس لهم من الخلافة الا الاسم . ولما انزع السلاطون منهم المنافع مصر في سنة ١٥١٧ م من ايدي المماليك حل معه ابي القسطنطينية الخليفة المتوكل آخر خلفاء هذه الأسرة .

توفي بيرس في ٢٧ محرم سنة ٦٧٦ هـ على اثر عودته من واقعة فيسارية ودفن في دمشق وكان قد عهد بالسلطة لابنه محمد المسمى بركة خان وكان قد بلغ التاسعة عشر من عمره . وقام المماليك بينه وبين الامراء المماليك من بعده حكمة مما ادى في النهاية الى خلعهم ونفيه الى الكرك منى سلاطين المماليك .

سيف الدين قلاوون

٦٧٨ - ٦٨٩ هـ او ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م

كان قلاوون قنصلاني الاصل ثمته الف دينار لذلك عرف بالافقي . واصبح امينا ليدار ليدن سلاطيس بعد خلع اخيه بركة خان . واستأثر بالحكم لصغر سن السلطان . وظهر نفوذ قلاوون بأبلى معانيه حين ضربت السكة باسم الملك المادل سلاطيس على احد الوجدين وباسم قلاوون على الوجه الآخر . وزاد نفوذه وارفع ذكره . حين خلع له والمادل مملأ . واستدبره الطربق لودوله الى السلطنة . فعزل نواب السلطان بركة خان عن البلاد الشامية وولى من يشق بهم من قبائعه وتخلص من منافسيه البارزين الذين كانوا يطمحون الى السلطة . وبعد ان دفا ابو القلاوون بمراضاته الامراء والبايعهم اثنى معهم على خلع السلطان سلاطيس . لانه لا فائدة في بقاء ذلك الصبي الصغير . وتولى مكانه .

سار قلاوون على نهج بيرس في ادارة شؤون البلاد وتقريب الشعب اليه . وكانت سياسته قائمة على الانذار من المماليك ليكونوا عوناً له ولاولاده من بعده في كريت مروشهم . ولتأ ذلك فرقة جديدة من المماليك اطلق عليهم اسم البرجية . نسبة الى ابراج القلعة التي اقموا بها . الا انه قدر لولا ان يسلموا الممر من اولاده وبشكوا دولة المماليك البرجية .

واتبع قلاوون سياسة بيرس في اخراج الصليبيين من بلاد الشام واستولى على ما بقي في ايديهم

سنة ٦٨٦ هـ فلما مدينة سكا التي استولى عليها ابنه الاشراف خايل سنة ٦٩١ هـ بعد وفاة ابيه .

وبذلك قضى على آخر حصن كان يدهم ، ولم يبق بعدها للمصريين في بلاد الشام اى حصن ينجون
اليه وهاجروا بقاياهم الى جزر البحر المتوسط كما مر معنا .
وقد قلاوون سياسة يبرس في ازالة اثر من بلاد الشام وحسن حالهم بقرب حصن وكنا في
تسعين الف فارس فكسروا وابعد ادا من البلاد .
كان قلاوون - اطمأن طاماً منتصباً في سفك الدماء ، تحت جمع المال ، وقد ائتمن على الشارع
العمرانية كبناء المدارس والمساجد والكنائس والاداريات . وتولى الولاء من بعده على عرش
السلطنة وتكتفي بذكر الناصر منهم .

الناصر محمد

٦٩٣ هـ أو ١٢٩٣ م

تولى الناصر عرش السلطنة في التاسعة من عمره ، وقد تولى على منصة الحكم ثلاث مرات ، كان
يتمحى "خلطاً الى الكرك ويستأجر غيره بالسلطنة لم لا يثبت ان يستعبد المماليك للحكم على اثر
قيام الاضطرابات والفتن .

وكانت الحوادث السياسية تدور في زمن الناصر حول التنازع على السلطنة من قبل كبار المماليك
الطامعين بها ، وانحرفوا في بادئ الامر حدائق من الناصر ، فوردت سياسة لتحقيق افراضهم .
وكان الاتباع من المماليك الضغار يشتركون في هذا النزاع من خلف جانب الامراء الكبار ، ويزيدون
في تشويش الحالة وسوءها . وكذلك كان القادة من اهل مصر يدسسون في الممارعات بين السلطان
والمماليك فتضطرب الاحوال وتشتد الفتن .

وفي سلطنة الناصر الثانية (٧٠٩ - ٧٤١ هـ) انفرد الناصر في حكم البلاد ، وتمكن من القضاء
على الذين اختصوا عرشه ، واهموا الدين والمساكن موله . واستمرت هذه الفترة اثنتين وثلاثين
سنة ، وهي المدة التي بعدها المؤرخون عرّفوا سلطنة الناصر الحادية . اذ انه قبل ذلك لم يكن الا
العوية بين الامراء الاقوياء الذين يجادلون على العرش او يصرون له ، فله حسب احوالهم ، وقد حكم
في الفترات التي تمحى "الناصر فيها من السلطة كبرياء ، الا - بين وبين الماشك في الاث - ق
الناصر في ورثة عرش ابيه ممكنه ان يحكم مصر نحو نصف قرن .

وتعتبر سلطنة الناصر الثالثة اظهر تصور مصر في عهد المماليك ، فقد كانت القاهرة عاصمة
لمملكة واسعة تمتد من بلاد برقة غرباً الى ساحل البحر الاحمر شرقاً ، ومن آيا الصغرى شمالاً
الى بلاد النوبة جنوباً ، كما خضعت بلاد اليمن والساحل لسلطنة الناصر . وكانه بعض ملوك اوروبا

وآسيا و قدوا معه المعاهدات وأرسلوا إليه الهدايا . وحارب المغول الذين استولوا على دمشق وعاثوا
في بلاد الشام وفسدوا ما دام . فالتقى بهم في مرج الصفر بقرب دمشق سنة ٥٧٠٢ هـ وهزمهم
هزيمة منكرة .

اصوليات الناصر

بعد ان استتب الامن في البلاد انصرف الناصر الى محاولة ارضيعهم الزراعية وترويج التجارة
وتحسين الصناعة ، ونظراً لان الناصر كان متديناً لهم بتشيد المعابر الدينية والمؤسسات الخيرية التي
لا يزال بعضها قائماً يشهد لما كان لعصر المماليك من البراعة في الفنون والعمارة . ويعتبر الناصر من
اعظم الملوك شغفاً بالتشيد والبناء ، وكان له حجرة فردا . ولقد ابداه من الامراء بالعناية بالمباني
والثاني فيما حتى أصبح أهم خولص عصر المماليك البناء والمران .

وهم الناصر بعد اصلاحات داخلية منها انه وحد الموازين والمقاييس والمكاييل في الدولة وراقب
ضبطها ، وخفض الضرائب على الرعية ومن الفقراء بصورة خاصة وعنى بالاخلاق العامة والحفاظة
على آداب الشعب ، واعتم بالمع والعارف . ووصفه ابو الحسن في كتابه النجوم الزاهرة بقوله انه :
« أطول الملوك في الحكم زماناً وأعظمهم ديانة ، وأحسنهم سياسة ، وأكثرهم عطاء ، وأجودهم تدبيراً »
واقوامه عدلاً وشجاعة . مرت به التجارب وقضى الشطوب وباشر الحروب ، ونقاب مع الدهر
الوارث ولد في الملك والرياسة ، وله في ذلك الفخر والسعادة ، خليفاً بالملك والباطنة ، فهو سلطان
واين سلطان ووالد تحمية سلاطين من سلبه . والملك في دربه وانفاده وعقبه وشماليكه وماليك
ماليكته الى أن تنقضي الدولة التركبة . فهو أصل ملوك الترك وأعظمهم بلا مدافع .

توفي الناصر سنة ٥٧٤١ هـ . ١٣٥٩ م ولم يقدر الولاد أن يقوموا بالسلطنة فوكت البلاد في قوضى
نحو سبع سنة الى ان انتهى الامر بطغرائس دولة المماليك البحرية التي كان لها الفخر بالانصال
الصليبيين من سورية وحالت بين المغول وتدمير العالم وحالت دولة المماليك البرجية محالها .



لائحة باسما سلاطين المحمديين البرهية

سنة توليد الحكم		اسم السلطان	سنة توليد الحكم		اسم السلطان
ميلادي	هجري		ميلادي	هجري	
١٤٣٨	٨٤٢	١١ - حنظل	١٣٨٢	٧٨٤	١ - برقوقي (١)
١٤٥٣	٨٥٧	١٢ - المنصور - عثمان	١٣٨٩	٧٩١	حاج بن شعبان (٢)
١٤٥٣	٨٥٧	١٣ - إيثال	١٣٩٠	٧٩٢	برقوق (٣)
١٤٦٠	٨٦٥	١٤ - المازد - أحمد	١٣٩٨	٨٠١	٢ - فرج بن برقوقي (١)
١٤٦١	٨٦٥	١٥ - حشقدم	١٤٠٥	٨٠٨	٣ - عبد العزيز بن برقوقي
١٤٦٧	٨٧٢	١٦ - بلياي	١٤٠٦	٨٠٩	فرج (٢)
١٤٦٨	٨٧٢	١٧ - تيمور بونا	١٤١٢	٨١٥	٤ - الخليفة المستعين
١٤٦٨	٨٧٣	١٨ - قباي			العباسي
١٤٩٥	٩٠١	١٩ - الناصر - محمد	١٤١٢	٨١٥	٥ - المؤيد - شيخ
١٤٩٨	٩٠٤	٢٠ - الظاهر - قاصود	١٤٢١	٨٢٤	٦ - المظفر - أحمد
١٤٩٩	٩٠٥	٢١ - جنبلات	١٤٢١	٨٢٤	٧ - الظاهر سيف
١٥٠٠	٩٠٦	٢٢ - قاصود القوري			الدين ططر
١٧-١٥١٦	٩٢٢	٢٣ - طومان باي	١٤٢١	٨٢٤	٨ - الصالح - محمد
			١٤٢٢	٨٢٥	٩ - بر - باي
			١٤٣٨	٨٤٢	١٠ - العزيز - يوسف

الفصل الثاني

دولة المماليك البرجية

٧٨٤ - ٩٢٣ هـ أو ١٣٨٢ - ١٥١٧ م

صفات المماليك البرجية

كان المماليك البرجية من أصل شركسي ما عدا اثنين منهم وهما خشمقدم ونيعور يونا الذين كانا من أصل يوناني . ولم يكن الملك عندهم وراثياً كما كانت الحال في بيت قلاوون وإنما كانت السلطنة عندهم نهياً للأقوى . وبلغ عدد سلاطين هذه الدولة ثلاث وعشرين سلطاناً حكموا ١٣٤ سنة امتد سلطانهم في خلالها على مصر والشام والحجاز . كانت هذه البلاد أيام حكمهم في أنظار عبودها ، لأن عدداً من سلاطينهم كانوا بناءً سفاحين بل إن منهم من كان ما جناً خليفاً وكانت بعضهم لا غلث شيئاً من الكفاة أو الثقافة . قالمؤيد شيخ الذي اشتراه السلطان برقوق من تاجر شركسي كان كبيراً بفترف جسام القبايح ، ورسباني من مماليك برقوق أيضاً لم يكن يحسن اللغة العربية . ومن مساوئه أنه أمر بقطع رأسي طبيبه عندما تضر عليها شقاؤه من داء عضال . أما إنال وهو أيضاً من مماليك برقوق فكان أمياً جهل القراءة والكتابة وعلى الرغم من تناول عهد سلطنته قلته لم يكن يعرف توقيع اسمه على المراسيم إلا بعد أن يرسم له الموقع رسماً خفيفاً عليها فيعيد هو على ذلك بالقلم أما بلبلي فلم يكن أمياً غريب بل متوهماً . ولما قايتاي الذي اشتراه برسباني بخمسين ديناراً فقد أمر بالكبابوي علي بن المرشوشي أن تطلع عيناه ويقطع لسانه لمعجزة عن تحويل المادون الحسيدة إلى ذهب .

فساد الحالة الاقتصادية

كانت البلاد في زمن المماليك البرجية في حالة سيئة من الناحية الاقتصادية ومما زاد في سوءها الحالة الاقتصادية سياسة السلاطين النخبية القائمة على مصالحهم الشخصية من ذلك أنه برسباني منع استيراد التوابل من الهند ، وفي جملتها الفلفل المرغوب فيه كثيراً ، وقبل أن ترتفع أسعارها احتكر جميع الكميات الموجودة منها في البلاد وباعها بعد ذلك من الناس بأسعار فاحشة ضمت له ربحاً كبيراً كذلك احتكر صناعة السكر ، وبلغ به الطمع أن حظر زراعة قصب السكر رهناً لكي يؤمن

لنفسه ارباباً عطية . وفي هذه اجتاح الطاعون مصر والبلدان المجاورة . وهو ضربة تكبت بها
البلاد مراراً . فكثر الطلب على السكر إذا كان يستخدم علاجاً لهذا الداء . ومع ان الطاعون
لم يقتل بالناس فذلك الموت الأسود Black Death في اوروبا فانه مات من جرائه نحو ثلاثمائة
الف نسمة في العاصمة المصرية وحدها خلال ثلاثة اشهر . وخلف السلطان من الوباء غصبة عظاماً من
الله لا تخشاه المعصية بين الناس وعدم خروج النساء في الاسواق سبب ذلك الوباء فنعون من الخروج
وسمى الى التكثير عن سوء اعماله فخرى ضرائب جديدة على اليهود والنصارى .

على ان ايزار الاموال لم يقتصر على اهل القصة بل كان المدعون ايضاً متقنون بالضرر ائب وذلك
لعدم وجود نظام معين لزيادة الضريبة . السكك المدللة في مصر من ضرائب فاشية في سبيل جمع
الاموال اللازمة لخدمتهم البحرية . وكان البلاط المباشرة وتشييد الممرات الكبيرة . وكانوا
يصنعون ايامال كبار المولفين في اثناء الذين اروا على حساب الجهور

وما يزيد لالة سوء حالة قبائل ايسو من الصحراء على الفلاحين في وادي النيل وعينهم في
مزارعهم والافلام مزروعة فيهم ونهزم ما فصل اليه ايديهم . ثم ان الجراد كالا وبشة كانت يزور
البلاد بين الفينة والفينة حتى أصبح الجوع يقتل البلاد خاصة في سنين القاعون والجفاف الثاني عن
النفاس ما النيل وبهاك حدة كبير من السكان . وتقدر خسارة سورية ومصر بسبب الجوع
والامراض في مصر المائات نحو اثنى مجموع السكان .

الضرائب على الجراد

في آخر عهد المماليك البرنية أخذت بعض العوامل المالية تزيد البلاد فقراً وتعايسة في سنة
١٤٩٧م اكتشف الملاح البرتغالي فاسكو دو كاما طريقاً بحرية جديدة حول رأس الرجاء الصالح .
وهو حادث خطير كان له اثره السي في قروح مصر وبلاد الشام وذلك لان اساطيل البرتغاليين
الاوليين أخذت تغزو سفن المسلمين وتطرد تجار المسلمين من البحر الاحمر والياه الهندية وخارج
فارس وتحتكر تجارة التوابل وسواها من المحصولات الاستوائية التي امنارت بها المازر الشرقية
وبلاد الهند . وبذلك انتقلت الارواح التي كانت تدور على مصر والشام الى اوريطا واوراوسل السلطان
يقصود ان يورد في اوروبا في التجارة طبر تالين الا انه كسب املهم . وبذلك ضاعت هذه التجارة
من يد المسلمين نهائياً .

تجوز لك

ولقيت دور لنهر في بلاد ما وراء النهر سنة ٧٣٨هـ (١٣٣٥ م) من امرة تركية من سلاله

أحمد وزيره جنكيز خان . وفي سنة ١٣٨٠ م سار على رأس قومه التتر في سلسلة حملات متواصلة افتتح بها أفغانستان وبلاد المجرم وفارس وكردستان . واستولى سنة ١٣٩٣ على بغداد ودوغ ارض الرافدين . ففي تكريت مثلاً انشأ هرمًا من رؤوس القتلى . وفي سنة ١٣٩٤ انطلق الى روسيا واحتل موسكو واقام بها ما يزيد عن السنة . ثم تحول فنهاية ثلاث سنوات الى الهند الشمالية واحتل دلهي سنة ١٣٩٨ م وقتل ثمانين ألفاً من اهلها .

وكانت سرعة اكتساح تيمور لسيورية الشمالية سنة ١٤٠٦ م أشبه بالعاصفة تمر بالبلاد فلا تبقى ولا تدر في جلب اقام عساكره نحو ثلاثة ايام بأسرون وبهرون وبطلون ويستيجون كل شيء حتى عمل تيمور من رؤوس القتلى البالغ عددهم عشرين ألفاً اكبات محيطة بكل واحدة منها عشرون ذراعاً وارفعها عشرة ازرع جاعلاً الوجوه بارزة الى الخارج راساً من يربها . وهدم اهل ما فيها من مساجد ومدارس وتوجه الى دمشق فاحتل في طريقة حماة وحمص وبعلبك ولم يقو جيش المماليك الذي كان بقيادة السلطان (فرج) على الصمود في وجه التتر فاهزم وسقطت دمشق بعد ان دافعت عنها حامية قلعتها شهراً واعمل جيش تيمور في دمشق النهب والسلب والنار حتى لم يبق من الجامع الاموي الا بعض جدرانها . ومن دمشق ناد تيمور الى بغداد لينتاز من اهلها تقتلهم بعض رجاله فاعمل في المدينة السيف وقتل عدد كبير من اهلها واقام فيها مائة وعشرين رجلاً من رؤوس خيالة . وفي سنة ١٤٠٢ زحف تيمور على اسيا الصغرى ففتح جيش العثمانيين عند انقرة وأخذ السلطان بايزيد الاموال اسيراً ووضع في قفص كان يحمله معه في غزواته واستولى على بصرته بروسة وعلى ازمير . ولحقه حفظ المماليك مات تيمور سنة ١٤٠٥ م (٨٠٧ هـ) وهو زاحف لاقتحاج الصين فذهب النزاع بين ورثته واقنوا قوام في المشاحنات والنزاع الداخلية وانزعج على العرش .

العثمانيون والقضاء على دولة المماليك

جاءت الفكرة القاضية على المماليك من جانب العثمانيين في اوائل القرن السادس عشر ميلادي وبدأت المنافسة بين الجانبين بسبب اطماع السلطان سليم العثماني والتوسع في البلاد العربية واتخذ مساعدة قانصوه العنوري شاه اسماعيل الصفوي ملك الفرس وابو القاسم العنصرة والقارين من وجه السلطان سليم ذريعة للحرب وجرت المعركة الحاسمة في مرج دابق بالقرب من حلب سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) انصر فيها العثمانيون على المماليك وقتل فيها قانصوه العنوري ودخل السلطان سليم العثماني مدينة حلب طاقراً فرحب به اهلها وما لبثت سورية بأسرها ان انتقلت اليه . ثم زحف هذا القائد جنوباً الى مصر فاحتلها سنة ١٥١٧ وقضى على آخر سلاطين المماليك اليرجانية طوهمات باي وخضعت مصر والشام والحجاز للدولة العثمانية .

القسم الأخير

اللائحة

الفردوس المفقود

الباب العاشر

الأندلس

يعتبر تاريخ الأندلس من أهم أدوار الحياة العربية وأهمها فقد نحت الحياة العربية نحتاً خاصاً في الغرب بما يلائم وطبيعة تلك البلاد ، والعناصر المختلفة التي تسجنها من عرب ، وبربر ، وولدين . كما كانت تلك الحياة في كثير من نواحيها ممدى لما كانت تجري في الشرق في الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والفكرية ، والفنية . وقد مر تاريخ الحياة العربية في تلك البلاد بتراحل مختلفة نذكرها بما يمكن من الاختصار .

الفصل الأول

الأندلس قبل الفتح العربي

كان يسكن اسبانيا من أقدم الأزمان اقوام من الجنس الايبيري Iberians والسليتي Kelts . ثم جاء الفاتحون واولهم الفينيقيون في القرن الثاني عشر قبل الميلاد . وفتح الرومان اسبانيا ونشروا فيها لغتهم وثقافتهم وحضارتهم . وظلت اسبانيا بيد الرومان من القرن الثاني قبل الميلاد حتى القرن الخامس بعد الميلاد . وبدأت عوامل الاضطراب عند الرومان في اسبانيا بسبب : (١) انحطاط الاخلاق (٢) وحصر الثروة والمال بطبقة الأشراف (٣) واتحال كاهن الطبقة المتوسطة بالضراب (٤) وامبوديه القسم الأكبر من السكان من الفلاحين الأفنان . وعندما اجتاحت البرابرة الجرمن الأمبراطورية الرومانية الغربية أساءت اسبانيا فصيب من هؤلاء مهاجمتها قبائل الفاندال والسويق التي غالت في البلاد فساداً وخربتها ولم تترك فيها من الأثر غير اسمها - فاندال - الذي اشتقت منه كلمة الأندلس التي أطلقت على القسم الجنوبي من شبه جزيرة ايبيريا ثم تحولت البلاد بكاملها . وحل محلهم قبائل قوط الغرب الذين حكموا البلاد منذ منتصف القرن الخامس ميلادي حتى اوائل القرن الثامن ميلادي وقادروا بالحضارة الرومانية ، واصبحوا الطبقة الحاكمة في البلاد فكانوا هم ورجال الدين أنفسهم المملكة فيما بينهم . فلو كين امر الزراعة والصناعة لطائفة الفلاحين لو العبيد الذين لم يكن

لهم ثمة أمل في استئصال نسيب الحرية ، ويعيشون في ذلك وضعة لا يملكون عقلاً ولا متفلاً ولا يستعملون الزواج إلا بادن سيادهم .

وكان يهود اسبانيا يعاقبون ابلغ صنوف العذاب من جور الاشراف ورجال الدين . وقد حاولوا الثورة قبل الفتح العربي زمن قصير فأخفقوا ، وقررت جموعهم نهيت دوزخهم واجبروا على استئصال النصرانية ، واخذت الكنيسة اولادهم لغربهم على النصرانية ، واجبر اليهود على الزواج بالنصرانية ايضا وقوميتهم ، لذلك سهل اليهود فتح البلاد العرب عند قدومهم ، وكانت الموحدة مملوكة للعرب الى اسبانيا .

فتح الاندلس

٩٢ هـ او ٧١١ م

سبب الفتح :

بعد وفاة ملك القوط ديتزا Witsa (ويسيه العرب غيطشه) اغتصب الملك رودريك (ويسيه العرب لدرين) وساعده في ذلك الاشراف الذين يريدون ان يكون العرش اختيارياً فاتجأ أبناء غيطشه إلى أنصار أبيهم وتحالفوا على العصيان والثورة . وكان يوليان حاكم مدينة سبته في افريقية نائماً على الطريق بسبب شغفه (١) فاشترك في المؤامرة ضد لدرين وكتب موسى بن نصير والي افريقية لغزو اسبانيا ووصف له جزيل خيراتها ووفرة غناها فاستأذن موسى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بالفتح واطلعه على ما جرى من غارات بينه وبين يوليان ، فاستأذنه ان لا تسرع ، وان يختار البلاد قبل الاقدام على فتحها ، حين مر به ٤٠٠ رجل وثلثة طرس في اربع سفن ، وولى عليهم طريف بن مالك فزلوا سنة ٩٠ هـ (٧١٠ م) في مكان جنوب اسبانيا دعى طريف باسم هذا القائد . وانزلوا على بقعة سموها الجزيرة الخضراء وادابوا بها ما لم يكنه وعادوا سالمين .

(١) اتفقت أكثر المصادر العربية واللاتينية على أن جوليان كان نائماً على الطريق بسبب الشغف النهائي : يقال انه كان للكونت يوليان ابنة رائعة الجمال أرسلها الى بلاط الملك في طليطلة ، وكان في عادة الامراء ، تتناق ما يليق بها من القرية بين كورسات العذائل واشراف الفرسان المستعززين بها . فالتفت قلب رودريك وقاومته الفتاة في بلاط موح بالساد ، فاعبرت الفتاة البحر فاستقبلها الخليفة واقامه بان يقتحم لشرفه واشترك لادخال العرب لاسبانيا .

حوادث فتح الاندلس :

لتجمع موسى بن نصير بعد أن رأى نجاح الحملة الأولى وجيز سبعة آلاف مقاتل من العرب والبربر وولى عليهم طارق بن زياد الذي والى ميناء طنجة ، واحد قواد البربر الذين اظهروا شجاعة فائقة في حروب افريقية . وكان طارق جندياً جريئاً وفائداً مجرباً ، عبر البحر من المضيق الذي عرف باسمه (جبل طارق) في شباط سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) واستولى على ولاية الجزيرة وهزم شرادم القوط التي تصدت لابقائه . وكان لظريق إذ ذاك مشتغلاً بالحروب في المقاطعات الشمالية التي انارها عليه اولاد غبطة . فلما سمع بفتح طارق أسرع الى الجنوب ، وجمع جيشاً كبيراً بلغ عدده نحو مائة ألف مقاتل . فلما سمع طارق بهذا الجيش كتب الى موسى يطلب منه التجهدة ، فلمدة خمسة آلاف من جند المسلمين فصار مع طارق اثنا عشر ألفاً ، حارب بهم جيش لظريق . وظلت الموقعة غامضة أيام انتهت بانتصار المسلمين . وكان من اسباب انتصارهم خروج ابناء غبطة وحزبهم من جيش لظريق ، والتحاقهم بجيش المسلمين ، وشجاعة طارق بن زياد ذلك القائد الباسل الذي الهب حماسه جنده بخطابه الشهير : أيها الناس : أين المفر البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر ... وبعد أن مناهم بالغنائم والقيش الهنيء ووعد من عوت منهم بالجنة حمل على عدوه وحملوا معه حملة رجل واحد ومزقوا جيش القوط ثم غزق . واستسلمت المدن الواحدة تلو الأخرى حتى وصل طارق الى طليطلة حاضرة القوط . وكان في كل مدينة فتوحاً يعظم اليهود الذين فيها الى سرية من المسلمين لحفظها . ولم يكن ما يدعو الاسبان الى التفور من الفتح الاسلامي ، فقد أبدى المسلمون كما فعلوا في جميع البلاد التي افتتحوها اعتدالاً في معاملتهم واستمراماً لقائدهم فسمحوا لهم بالاحتفاظ بكنائسهم وحكامهم وقضاةهم ، وفرضوا الضرائب عليهم بالمساواة والعمل . وأكمل طارق الفتح الى الشمال حتى أشرف على خابج غاسقونيا ، ووصلته أوامر موسى بن نصير بالعودة الى طليطلة .

حسد موسى قائده على هذا الانتصار الباهر وادرك ان يقرب فتح الاندلس باسمه . فكتب الى طارق بنقره أن لا يتقدم حتى يلحق به ، وأن لا يفر بالاسبان في تلك الاصفاع التالية ، وعبر البحر في عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر نزل بهم ولاية الجزيرة ، واتبع طريقاً غير الذي سلكها طارق ، وتم الفتح الخفيقي على يده . واستقبل طارق بالقرب من طليطلة فأبته موسى وضربه بسوطه ، وزجه في اعماق السجن بنهمة الخروج والعصيان ، وكانت هذه العملية السيئة من عوامل الخلاف الذي قام بين العرب والبربر فيما بعد في الاندلس . لان البربر كانوا يعتبرون فتح البلاد ثم على

بدم وبمساعدهتهم وأنهم أحق بتلك البلاد وبغنائمها عن العرب .
وبعد ان انظم موسى البلاد . وضرب نفوداً عربية ، أكل مع طارق . بعد ان عفا عنه . فتح
المناطق الشمالية . وكان يسكر في غزو أوروبا والوصول الى الشام من طريق القسطنطينية . الا ان
استدعاه الوليد بن عبد الملك له وطارق استدعاه عليه خطاه ، فنظم البلاد وجعل حاضرتها اشبيلية ،
وعهد ادارتها الى ابنه عبد العزيز وذهب الى الشرق سنة ٩٥ هـ يصحبه طارق وضباط الجيش
واربعه امير قوطي على رقوسهم التيجان وعلى اوساطهم مناطق ذهبية ، يتبعهم عدد غفير من
الفلدان والسي حاملين مقادير عظيمة من الكنوز والغنائم ، وساروا عبر افريقية الشمالية حتى
وصلوا الى العاصمة الشامية . وقد ذكرنا سابقاً ما حل بموسى وطارق .

الفصل الثاني

الولايات المضطربة (١)

٩٥ - ١٣٨ هـ أو ٧١٤ - ٧٥٦ م

حكم الاندلس اثنان وعشرون والياً بعد موسى بن نصير أولهم : عبد العزيز بن موسى بن نصير

لائحة بأسماء وسمي حكم الولاة في الاندلس

(١)

اسم الوالي	سنة حكمه هجريه	اسم الوالي	سنة حكمه هجريه
١ - عبد العزيز بن موسى بن نصير	٩٥	١٢ - محمد بن عبد الملك الاشجعي	١١٢
٢ - أبو ب بن حبيب النخعي	٩٧	١٣ - عبد الرحمن بن عبد الله النافق ^(٢)	١١٢
٣ - الحرث بن عبد الرحمن النفقي	٩٨	١٤ - عبد الملك بن قطن ^(١)	١١٤
٤ - السمع بن مالك الخولاني	١٠٠	١٥ - عقبة بن الحجاج السلوي	١١٦
٥ - عبد الرحمن بن عبد الله النافق ^(١)	١٠٢	١٦ - عبد الملك بن قطن ^(٢)	١٢٢
٦ - عنبسة بن نجيم الكلبي	١٠٥	١٧ - بلج بن بشر الفشيري	١٢٣
٧ - عذرة بن عبد الله القهري	١٠٧	١٨ - ثعلبة بن سلامة العامري	١٢٤
٨ - يحيى بن سلامة الكلبي	١٠٧	١٩ - حسان بن ضرار الكلبي (ابو الخطار)	١٢٥
٩ - حذيفة بن الاحوص القيسي	١١٠	٢٠ - ثؤابة بن سلامة الجذامي	١٢٨
١٠ - عثمان بن ابي نسة الخثعمي	١١٠	٢١ - يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب	١٣٠
١١ - الهيثم بن عبيد الكفائي	١١١	٢٢ - عبد الرحمن بن معاوية	١٣٨

الذي أبدى حمة ونشاطاً في إدارة الحكومة ، وإصلاح أمورها ، وتوافد عليه المهاجرون من مصر والشام وفارس . إلا أنه قتل في شوارع أشيلية بأغراء من الخليفة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٥ هـ خوفاً من أن يشوز عليه بعدما أزيله بأبيه من التكتلات . وفدت القوضى عقب وفاته في أنحاء البلاد نحو أربعين سنة وكان سبب القوضى يرجع إلى مايلي :

١ - الاختلاف في تعيين الأمراء : كانت الأندلس تابعة للخلافة الأموية في الشام ، ونظراً لبعيد المسافة بين القطرين ، لم يكن هناك انتظام في تعيين الولاة ، فخارة كان الولاة يمينون من قبل الخليفة في دمشق ، وأخرى يمينون من قبل طائفة على القيروان ، وسببنا يمينه أهل الأندلس ، وحينئذ آخر نبق البلاد مدة بدون أمير مما سبب الاضطراب في الإدارة .

٢ - انقسام العرب في الأندلس إلى قيسيين وبنيين : حمل العرب معهم إلى الأندلس عصبيتهم القبلية ، وقام النزاع بين قيس وبنين على السيادة والحكم ، وساعد على ذلك ما كان قائماً في الشام في زمن سليمان بن عبد الملك من تقرب البنيين والتكيد بالقيسيين ، فكانت هذه الخصومات في الأندلس سدى لما كان يحدث في الشام .

٣ - التنافس بين العرب والبربر : إن هذا التنافس بدأ منذ زمن موسى بن نصير وطارق بن زياد ، وزاد في سوء الحالة أن العرب عندما قدموا إلى الأندلس بعد الفتح خصوا أنفسهم بالسهول الخصبة ، والرياض الغناء ، وأقطعوا البربر المناطق الجرداء والجبال حيث كانوا دائماً عرضة لهجمات الأسبان ، فأثار هذا حفيظة البربر .

٤ - النزاع بين العرب والقوط : ظلت ذمة من القوط غير راضية عن حكم العرب ، كانت تسكن في المناطق الشمالية في جبال أستوريش الحسنة . وكانت تعمل على توسيع نفوذها لإخراج العرب من الأندلس ، وكسبت عددهم فيها بعد ما توافد اليهم من الأفرنج وشككوا بملك قشتالة ، وجرت بينهم وبين ولاة الأندلس وقائع كثيرة ، كما جرت بين العرب والأفرنج حروب كثيرة ، فيما وراء جبال البرانس (البيرنه) وصل العرب فيها إلى نور على غير الوار في سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) حيث جرت معركة بوايه التي هزم فيها العرب وقتل فيها قائد الجيش العربي عبد الرحمن النافقي .

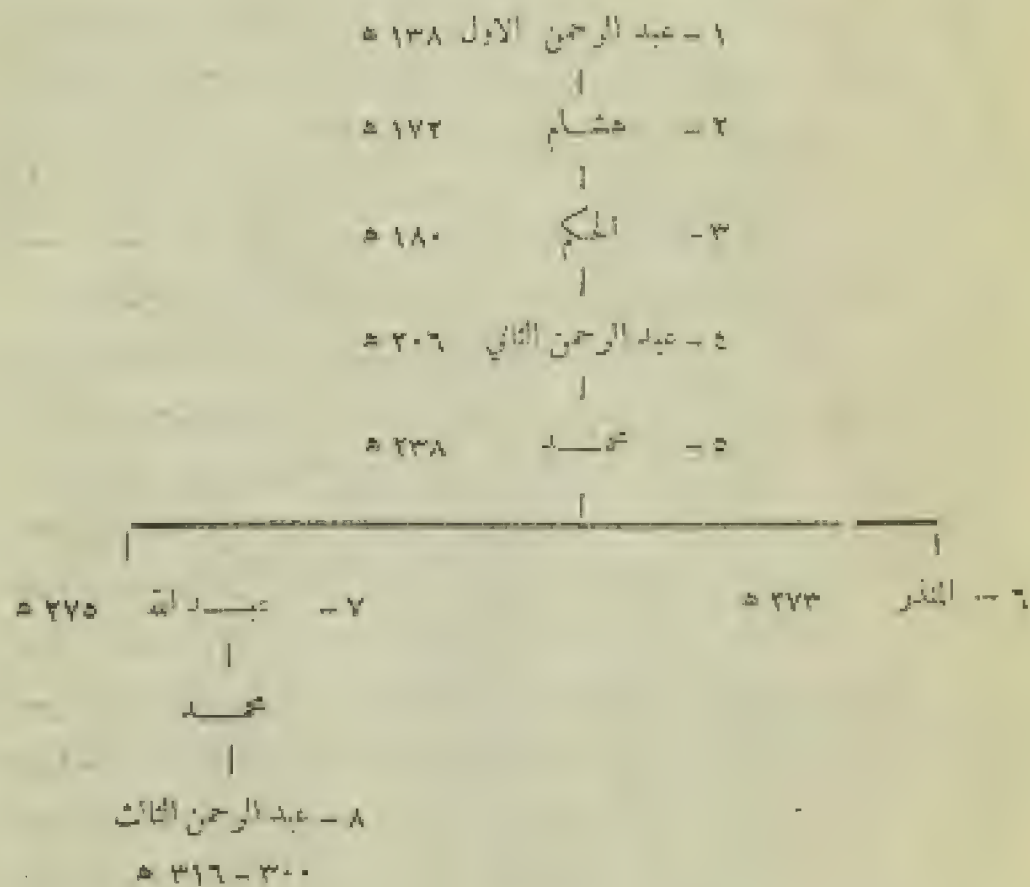
الفصل الثالث

دولة بني أمية في الأندلس (١)

١٣٨-٣١٦ هـ أو ٥٧٦-٩٢٩ م

عندما سقطت دولة بني أمية في الشرق على أيدي العباسيين أسس عبد الرحمن الداخل دولة أموية في الأندلس ، كانت في بادئ الأمر إمارة مستقلة عن العباسيين وأصبحت في سنة ٣١٧ هـ في زمن عبد الرحمن الثالث خلافة أموية تأسس الخلافة العباسية لقب الخلافة والحضارة وسأنتكلم أولاً عن الإمارة الأموية ثم عن الخلافة الأموية في الأندلس .

(١) لائحة باسماء وسنن حكم الأسراء الأمويين في قرطبة



عبد الرحمن الدامل

١٣٨-١٧٢ هـ أو ٧٥٦-٧٨٨ م

نشأته الأولى

ولد عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك سنة ١١٣ هـ وتوفي أبوه سنة ١١٨ هـ فكفله وأخوته جده هشام ، وعاش معه في الرصافة في قصر فخم على الفرات ، وكانت أمه ، راح ، من قبيلة زنالة إحدى قبائل البربر المشهورة في شمالي إفريقيا ، وكان عبد الرحمن يفكر في هذا القصر ، وفي زيارة أخواله . ولما حلت النكبة في أسرته على الرقيم الباسيين وملاحقهم أبي أمية وتقتيلهم ، نجوا من القتل كما يروي هو عن نفسه قال : « إني لجالس يوماً في ظلمة بيت توأمت فيه ، وأنا شديد الهم ، ومعي خرقه سوداء لماسح بها فذى عيني ، وإني سائلان بكر ولدي بلمب قداسي وهو يومئذ ابن أربع سنين أو نحوها ، إذ دخل الصبي من باب البيت فرحاً بكياً ، فأعوى إلى جبري فقامت أذنيه لا كان بي . وبأى إلا التعلق وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع ، خرجت لأنظر فلما بالروح قد نزل بالقرية ونظرت فلما بالرايات السود عليها منجطة ، وأنح لي حديث السن كان معي يشتد عارياً يقول لي النجدي يا أخي قيذه رايات المسودة فضررت بيدي على دنانير تناولها ونجوت بنفسي والصبي أخى معي . وأعلمت أخواني يتوجهي ومفسدي ، وأمرتهم أن يلحقوني ومولا يدر معن أن مات ، وخرجت فكنيت في موضع نا ، عن القرية ، فلما كان الأساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار ولم تجد الرأ ، ومضيت ولحفي بدر ، فأبوت رجلاً من معارف بشط الفرات فأمرته أن يتابع لي دواب ، وما يصالح لسفري فدل على عبد سوء له العامل . فلما رأينا الأجلة المائل تخفرتنا فخرنا وقد أحاطت بالأسعة ، فتبادرنا وسبقناها إلى الفرات فترامينا فيه وأقبلت الخيل فصاحوا علينا من الشط أرجعوا لا بأس عليكم !! فصبحت حائلاً لنفسي ، وكنت أحسن السبع ، وسبع الغلام أخى ، فلما سرنا مائة سبعة سبعة بالسباحة وقطعت قدر نصف الفرات ، وقصر أخى ودهش ، فالتفت إليه لأقوي من قلبه وأمر به عليه ليلحقني فإدا هو لا سمع نأمينهم إياه أصغى إليهم وهم يحدسونه عن نفسه ، وخلف الفرق فهرب من الفرق إلى الموت فنادته تقتل يا أخى إلى إلى . فم يسميني وأمر بأماتهم وخشي الفرق فاستعمل الانقلاب نجوهم ، وقطعت أنا الفرات وبمضهم قد هم بالسباحة في أري فاستكفه أمهاتيه عن ذلك فتركوني ثم قدموا الصبي أخى الذي صار إليهم بالأمان فضربوا عنقه ومضوا برأسه وأنا أنظر إليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، فاحتملت فيه شكلاً ملائياً غزافاً ومضيت إلى وجهي احسب أني طائر وأنا ساج على قدمي فلجأت إلى غيضة أشبه فتوأرت فيها حتى انقطع الطالب ، ثم خرجت عارياً أوم المغرب حتى وصلت إلى إفريقيا .

هرب عبد الرحمن الى افريقية :

هلم عبد الرحمن وعلى وجهه منسكراً وسار متراجلاً جنوباً الى ان وصل فلسطين بعد صعوبات جمة ، وهناك لحق به بدر مولاه الوفي ، فتوجه كلاهما غرباً حتى وصلا شمالي افريقية ، والح عاملها عبد الرحمن بن حبيب في طلبه ، فهرب منه غرباً معهداً يتنقل مع بدر من قبيلة الى اخرى ، والعباسيون يجردون في طلبه الى ان وصل الى سبته بعد خمسة أعوام الى عند أخواله الذين يقيمون في تلك النواحي ، فلجأ اليهم فأحسنوا وفادته .

كان عبد الرحمن قد جعل افريقية مطمح أماله ، ولكن بعد ان تحول فيها بضع سنين رأى ان الاستيلاء عليها امر مستحيل ، فحول أنظاره الى الاندلس ، وأرسل اليها بدر مولاه ليسير غور القبائل ، وليجمع كافة أنصار بني أمية فيها ووافق قدومه ما كان بين اليمانية والمضرب من النزاع على الحكم فالتحزرت اليه اليمانية وقبائل الشام . وولد بدر بسفينة فيها إحدى عشر رجلاً من اليمانيين يدعو لامارة الاندلس فركب السفينة ووصل الى الاندلس في ربيع الثاني سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) فانضم اليه أهالي اشبيلية وعامل ربة وصاحب شدونه وذهب الى قرطبة ليؤسس ملكه فيها .

توطيد عبد الرحمن الداخل ملكه في الاندلس

كانت والي الاندلس عند دخول عبد الرحمن تلك البلاد يوسف بن الرحمن الفهري وكان الصميل بن حاتم مساعده ووزيره مسبقاً في الأمور ، وأساء معاملته اليمانيين انتقاماً لقومه القيسيين ، فانضم اليه اليانيون لعبد الرحمن . وكان يوسف الفهري في حرب مع ثوار أهل الشمال عند قدوم عبد الرحمن . فلما سمع بالخبر عاد الى الجنوب ، وجرت المفاوضات بين الطرفين كانت نتيجةها الحرب في مكان يعرف بالمصخرة على شفاف الوادي الكبير في ١٠ ذي الحجة سنة ١٣٨ هـ (٧٥٦ م) فانصر عبد الرحمن على خصمه ودخل قرطبة ظافراً وقضى زمن حكمه وهو يحارب اعداءه في الداخل والخارج وقضى على الثورات التي قامت عليه وهي ثورة يوسف بن عبد الرحمن الفهري في طليطلة (٢) ثورة هشام بن عبد ربه الفهري في ضواحي طليطلة (٣) حركة المعتز بن مغيث والي القيروان الذي أرسله المصور العباسي لاسترجاع الاندلس (٤) ثورات اليانيين والبربر قضي عليها جميعها . وانفتحت الى الحروب الخارجية .

وفي زمن عبد الرحمن جاء شارلمان كما مر معنا الى الاندلس وانسحب قبل ان يلتقي بجيوش امير قرطبة .

اصطراحت عهد الرحمن الداخل

شيد عبد الرحمن الداخل ملك بني أمية في المغرب بعد أن تغلب على أعدائه ومنافسيه على الحكم وقضى أكثر أيامه في اخضاع الثورات والفتن . فم شح له الوقت الكافي للقيام بأعمال إصلاحية واسعة فقد نظم الجيش وجعله دائماً ، وحارب قتل العصية القبليلة المنتشرة بين اقراة بني سوار قرطبة ، وسمل اليها الماء العذب بواسطة قناة . وأنشأ بلدة الرصافة بظاهر قرطبة ، وأحاطها بالجنان ، وزرع فيها المشمش والرمان والتخيل ليتذكر رصافة جده هشام في بلاد الشام . وقد ثارت التذكيرات يوماني نفسه عندما رأى نخلة منفردة فأشدد يقول :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة تنابت بأرض المغرب عند بلد النخل
فقلت شبيهي في المغرب والنوى ودلول الثنائي عث بني وعن أهلي



مسجد قرطبة في الاندلس

وأسس عبد الرحمن في سنة ٧٨٦م جامع قرطبة العظيم الذي ، ليس في بلاد الامم اعظم منه . فهو جوهرة في الفردوس المفقود لا يزال قائماً بأعمدته الرخامية المستطلة بسلام وتناسق كأنها غابة كثيفة . ولم يتمكن عبد الرحمن من إتمامه فأكنه ابنه هشام من بعده ، وقوالى امرأ بني أمية وخلفاؤها على الزيادة فيه حتى صار مضرب المثل بالجمال والقفلة ، وقطع عبد الرحمن الداخل الخطبة للخليفة العباسي المنصور . الا أنه لم يتخذ لقب الخلافة .

هشام

١٧٢ - ١٨٠ هـ أو ٧٨٨ - ٧٩٦ م

صفاته :

خلف عبد الرحمن ابنه هشام بعهد منه ، وكان حازماً ذا رأي وشجاعة وعدل وخير ، محباً لأهل الخير والصالح شديداً على الاعتداء ، رغباً في الجهاد ، بلغ من تواضعه انه كانت بطوف في شوارع قرطبة مختطفاً بالرعية ، يسمع المظالم بنفسه ، ويمود المرضى ويشهد الجنائز . وكان يذهب بميزبه مذهب محمد بن عبد العزيز . فكان يبعث يقوم من ثقافته الى الكور فيسألون الناس عن سير عماله وحفائرها فاذا انتهى اليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه .

اعمال هشام الزاغبة والخارجية

ثار على هشام اخواه سليمان وعبد الله في طليطنة ، فقمع ثورتها وطلبها العبور الى اقرقية فاجازها واعطاها مالا مسلحاً على تركه أبهما . وقامت عليه ثورات أخرى قمعها بشدة . ووقد حاول الفرنج في الشمال العصيان على هشام ، واضرام نار الثورة ، فجهز جيشين سار أحدهما الى فرنسا واستولى على نربونة ، وجيرونة وعدة ممالك أخرى . وهزم جيشاً أرسله شارلمان بقيادة الكونت دي تولوز سنة ٧٩٢ م . وسار الجيش الآخر الى جليقية لمحاربة ثوارها الذين تجمعوا تحت لواء زعيمهم برمودة . وساعدهم خلفاؤهم أهل البشكاس . فهزموهم جيش هشام وشتت جمعهم . وساد الأمن في المقاطعات الشمالية حينئذ من الزمن .

اعمال هشام الداخلية

أتم هشام بناء مسجد قرطبة وبنى عدة مساجد أخرى ، وزين قرطبة بالأساني القواء وجمد قنطرة التي بناها السبع ، ونشر المذهب المالكي ، وحمل الناس على اعتناقه ، وأصبح بعد ذلك المذهب أهل الاندلس . وكان لانفقاء خود في عهده وكلة مسموعة فكثرت تدخلهم في مصالح الناس وظلموا كذلك حتى وفاته .

الحكم

١٨٠ - ٢٠٦ هـ أو ٧٩٦ - ٨٢٢ م

تولى الحكم بعد وفاة أبيه هشام بعهد منه ولقب بالمتنصر وقيل استكثر من المالكة والجنود

المرتزقة والخدم والجواري ، وجمع كثير من الاسلحة والعدة والحيول ، وكان ميالا الى اللهو مولعاً بالصيد يؤثر مجالس الشعراء والمغنين على مجالس الفقهاء الذين اشتد نفوذهم في عهد ابيه . وكانت سياسة الحكم ترمي الى ابعادهم عن التدخل في سياسة الدولة ، وقصر نفوذهم على اقامة الدين فقاوموه وأخذوا ينددون به على المنابر ، وحرصوا عليه المولدين (مسلحوا الاسبان) المتعصبين لديهم الجديد ، والفاضين على العرب لكبريائهم وانتمهم ، وناقضين على الحكم لاقصائهم عن مناصب الدولة ،

اعمال الحكم الداخلية والخارجية

قامت ثورات في قرطبة على الحكم بدافع من الفقهاء حاول الثائرون بهامرة اغتيال الحكم ، فاكشف المؤامرة وقضى عليها وقضى على ٧٣ من زعماء الحركة وسلبهم في قرطبة . ونار عليه أهل ماردة قمع ثورتهم ، وخرج عليه أهل طليطلة ، وكانت هذه المدينة عاصمة الاسبان ، وكان أهلها يذكرين مجدهم الماضي فيثورون من وقت الى آخر ، فولى عليها عمروس بن يوسف من المولدين ، وكتب الى أهلها يقول : اني اخترت لكم فلاناً وهو منكم لتعلمن قلوبكم اليه ، وعافيتكم من نكروهن من عمالنا ومواليينا ، وتعرفوا جميل رأينا فيكم ، فمضى عمروس اليهم فأفس به أهلها ونظاهر أمامهم باليفض نبي أمية والمواقفة على طاعتهم ثم بنى بظاهر المدينة قلعة حصينة دعا اليها وجهاء المدينة بمناسبة عودة عبد الرحمن بن الحكم من حرب القرنج ، فكان كعادته دخل واحد منهم الى القلعة ونومطها يضرب عنقه ويبقى في حفرة حتى قضى على جميع زعماء المارضة . وهلك في تلك المذبحة التي تعرف بواقعة الحفرة نحو خمسة آلاف من أنصار طليطلة : وبعد هذه الواقعة قضى على روح المقاومة في تلك المدينة مدة من الزمن .

ونار المولدون في قرطبة تحريض من زعيم الفقهاء يحيى بن يحيى اللبتي وخلعوا الحكم وبايعوا أحمد نقاريه من الامويين الا أن الحكم قضى على ثورتهم بواسطة مماليكه الملقبين « بالخرس » لأنهم لا يتكلمون العربية وشتت شملهم .

وأعظم ثورات المولدين هي قيامهم سنة ١٩٨ هـ في الربض وهي (ضاحية في جنوب قرطبة يسكنها المولدون) وحاصروا قصر الحكم وحاصروه ، الا أنه تمكن بواسطة جنوده الخرس أن يقضي على ثورتهم ويحرق منازلهم ويحلبهم عن البلاد فرحل قسم منهم الى قرطبة واقدم الآخر الى الاسكندرية واستولوا عليها الا أن عبد الله بن طاهر قائد المأمون أخرجهم منها فترحوا الى أفريطس (جزيرة كبريد) وظلوا يحكمونها حتى استعادها اليونان منهم .

بينما كانت ربح الحرب الاعلى تعصف بالولايات الاسلامية ثار عبد الله وسليمان هما الحكيم وسعي
عبد الله في مقابلة شارلمان في ايكسلاشايل لمساعدته في القضاء على الحكم ، فابى شارلمان المسودة
وارسل ابنه شارل ولويس على الولايات الشمالية وادقما الخراب فيها ، الا ان الحكم تمكن من ابتلاء
الفرنج عن بلاده وفشل همه سايان وعفا عن عبد الله . وفي سنة ٨١٦ م عقد الحكم الصلح مع لويس
ابن شارلمان الذي خلف اياه على عرش فرنسا ثم يدم الصلح طويلا .
وقد وطد الحكم الملك لعقبه بالاندلس . وكان يشبه المنصور في شدة الملك وتوطيد الدولة
وقمع الاعداء .

عبد الرحمن الثاني

٢٠٦ - ٢٣٨ هـ / ٨٢٢ - ٨٥٢ م

بعد وفاة الحكم تولى الامارة عبد الرحمن الاوسط ، وكان المتنفذ في زمنه أربعة أشخاص :
فقيه ، ومفتي وجزيرة ، وخمسي .

أما الفقيه فهو يحيى بن يحيى البجلي المصمودي : زعيم الفقهاء الذي نقل نفو الحكم من قبل
واستعاد نفوذه في زمن عبد الرحمن الثاني . فلهذه مقاليد الحكم واصبح صاحب الكلمة العليا في
البلاد ، احترمه الملك وامانته الفقهاء ، وحانه الاغنياء ، وعظمه العوام ، وهابه الشعراء ومدحوه
فسيطر هو وشيعته .

أما المفتي فهو زوياب : تنفيذ اسحق الموصلي تم منته ثم تأس استاذة في بلاط هارون الرشيد
فهذه اسحق واضطره ان يقادر بغداد ويذهب الى المغرب وارفع مقامه في بلاط عبد الرحمن حتى
صار رتبة الشهري مفتي دينار عدا ما وجهه من الاراضي والقصور ، وقدمه على جميع المنيين . وكان
زوياب عالماً بالنجوم . وتقوم البلدان ، وقبل انه كان حافظاً لمسرة الآف مقطوعة من الاغاني
بالحنان . جمع الى ذلك لحظ المعاصرة وطيب الحادثة ، فكان الامير عبد الرحمن يذاكره في احوال
الملوك وسيرة الخلفاء ونوادر العلماء .

ادخل زوياب الى الاندلس ازياء جديدة لثياب النساء والرجال تتلاءم مع فصول السنة واحتراع
بعض الوان من الاطعمة والطهي فتوجد بقلة الخاليون والتفاية ، وفضل آنية البور على آنية الذهب
والفضة على الناهدة . واستخدم ريش النسور للظرب على العود عوضاً عن قطع الخشب الممتعة قبل
ذلك . واصبح زوياب مطرب الملوك ومهذب شعور اهل الاندلس ، وموحد روحيتهم بأغانيه التي
كانوا يقرنون بها رجالاً ونساءً وصبياناً .

أما الجارية فهي سلطنة ماروب التي كان لها على عبد الرحمن تأثير كبير واشتركت مع الخدي
نسر في تدبير المؤامرات والتمسك في داخل القصر وخارجيه وبلغ بلاط عبد الرحمن الأوسط
من الأبهة والفضامة ما نال من خلفاء بغداد ، فعمله زائراً بحاشية كبيرة وترف عظيم ، وقرب
التمراء وأهزل لهم العطاء . وزي عاصيته قرطبة في فيها الجذور والقصور وشيد المساجد وجلب
الياه من الجبال .

وفي زمن عبد الرحمن الأوسط جرت ثورات داخلية كثيرة وغزاه الجيوش (النورمان) شواطئ
الاندلس فرددوا الأسطول الأندلسي . وحياء وفد من القسطنطينية وسعه من هدايا ، وبلغ عبد الرحمن
مخالفة إمبراطور البيزنطي له ضد الخليفة المأمون العباسي . وفي نهاية حكم عبد الرحمن اشتد تعصب
نصارى قرطبة وأصبحوا في قتل الحياتة أصولاً سفاكين وفي الفصح شهداء قديمين . وجاهروا
بالاستياء على مقام النبي (ص) ودينه . وفسدوا الجوامع في أثناء الصلاة ورفعوا عقيرتهم بالشتائم
المفكرة فؤكوا وأعدموا . وعقد جمع كنسي من القسس قرروا منع المباهرة بسب النبي ، وقرروا
اتخاذ إجراءات شديدة ضد المصبيين .

وتوفي عبد الرحمن سنة ٣٣٨ هـ وتولى ثلاثة أمراء من بعده وهم محمد والمنذر وعبد الله جرت
في أيامهم ثورة عمر بن حفصون .

ثورة عمر بن حفصون

٣٦٧ - ٣٠٦ هـ

هو عمر بن حفص كان أبوه من كبار الزوارعين النصارى في منطقة رندة في جنوبي الأندلس
وكان ابنه عمر شريكاً من صغره حرب إلى إفريقية وقضى بضع سنوات في مدينة طاهرت ، ثم عاد
إلى الأندلس وأعلن عصيانه على الأمير محمد الأموي واتخذ حصن بوبشر مقلاً له ، وأعتد نفوذه
على المناطق الجبلية في الجنوب ، فأرسل له الأمير محمد حملة بقيادة وزيره فصاحه وقدم ابن حفصون
لقرطبة ، واشترك مع الأمير محمد في بضع غزوات ، وما لبث أن هرب إلى بوبشر وعاد إلى العصيان
واتمسك نداء طاماً إلى الأسبان قال فيه : « مض عابكم زمن طويل وملاك قرطبة يحضركم بالخرائب
قبل تقوى طول الدهر مستعبدين لعرب ، الذين يقتلون اليكم فظلمكم لمبيد ؟ لا تقنوا أني غافلكم
من أجل مظلومي الشخصية بل انلموا أن أمتي الوسيطة هي الانتقام من أساء اليكم ونحايكم من
المهودية ، فجاء إليه جميع المستأجرين من الحكم الأموي والقفوا حوله ، وعظمت قوته ، فأرسل
الأمير محمد ابنه المنذر لقتاله ، فحاصر بعض قلاع ، إلا أن موت ابنه اضطره إلى الانسحاب ليأخذ

الامارة لنفسه . فغتنم ابن حفصون الفرصة وقوى مراكبه دفعه في المناطق الجبلية الجنوبية ،
وعاد المنذر لحربه ، وشدد الحصار عليه وفتح أكثر قلاعهم وحصونه فغالب ابن حفصون الصالح
فأجابه المنذر اليه ، ولكنه عاد لثورة فرجع المنذر لحربه ، وما زال يحاربه ويصالحه حتى دس عبد
الله السم لاختيه المنذر وأخذ الامارة منه وأخرج عن ابن حفصون .

وفي زمن عبد الله توسع نفوذ ابن حفصون حتى استولى على كثير من البلاد وأصبح على مسيرة
يوم واحد من قرطبة عاصمة الامارة الاموية . وكانت الانابة في افرقية يطلب مساعدتهم وأظهر
الدعوة العباسية ، إلا أن الانابة كانوا مشغولين دته في اخضاع الثورات في افرقية .

فجاء اليه الأمير عبد الله وحاربه واستولى على بعض حصونه فنصر ابن حفصون واتخذ اسم
سامر بن ليثوي جانباً بأنفسهم نصارى الشمال الاسبان اليه . إلا أنه خسر مساعدة المسلمين الاسبان
والجبر ، ولم يتمكن نصارى الاسبان من مساعدته فكاتب الفاطميين وأظهر الدعوة الفاطمية في
الاندلس . ونوفي عبد الله قبل أن يتمكن من القضاء على ابن حفصون بالرغم من الجلود العظيمة
التي يملكها للقضاء عليه .

وتولى عبد الرحمن الثالث الامارة الاموية وكانت خاتمة ابن حفصون على يد سنة ٢٠٠ هـ .
وفي زمن الأمير عبد الله قام جماعة من شجعان العرب بحملة مؤلفة تغلبت في اوربا ، ومرت
بجنوب فرنسا واحتل رجالها مرسيليا ونيس ، وهدروا الى إيطاليا . وذهب فريق منهم الى سويسرة
وحلوا بجوار بحيرة كونسانس وانتشروا مستعمرة بها .



الفصل الرابع

الخلافة الأموية في الأندلس

٣١٦ - ٤٢٢ هـ أو ٩٢٩ - ١٠٣١ م

قامت الخلافة الأموية في الأندلس على نفس الخلافة العباسية في بغداد لقب الخلافة والسياسة والمخاطرة وحكم تسعة خلفاء أشهر منهم عبد الرحمن الناصر وأبوه الحكم . وانتقلت السلطة بعد ذلك من الخلفاء إلى الحشاش الذين أشهر منهم أبو عامر . ولم تلبث الخلافة الأموية أن سقطت وقم على انقاضها ملوك الطوائف الذين أخرجهم الأسباب من البلاد بسبب تنازعهم وتفرقهم وسقطت عنهم عن ذلك بإيجاز .

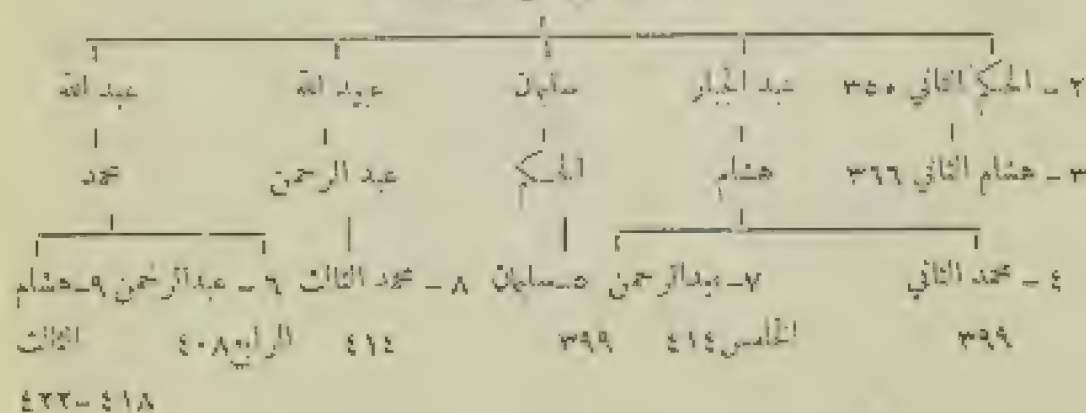
عبد الرحمن الناصر (١)

٣١٦ - ٣٥٠ هـ أو ٩٢٩ - ٩٦١ م

تولى عبد الرحمن الثالث الأموي الأموية سنة ٣٠٠ هـ وظل يحكم البلاد متخذاً لقب الإمارة حتى سنة ٣١٦ هـ . ولما بلغه أن الخليفة العباسي القادر بالله قد مولاه مؤنس المظفر الخليفة متعة الخلافة وتسعى بأمر المؤمنين عبد الرحمن الناصر لدين الله فكان أول أمير من بني أمية بالأندلس اتخذ ذلك اللقب . واستدعت المدونة أبي ثوبة بألقاب الخلافة في الأندلس والمغرب الأقصى من بعد ذلك .

(١) لائحة بأسماء ولسي حكم الخلفاء الأمويين في قرطبة

١ - عبد الرحمن الثالث ٣١٦



قولى الناصر عرش مملكة مزقها التفريق واستنفذت مواردها الثورة فتأهب لقمع الفتن وقوات
حملاؤه على الثوار ففضى على ثورة عمر بن حفصون ، وحارب نصارى الشمال ، وفضى على ملوك ليون
ونافار ، وضم أكثر حصونهم الى مملكته . وجاءت وصل امبراطور بيزنطة وسفراء ملوك ألمانيا
وفرنسا وإيطاليا والبابا متفرق بإسطانه ، ووفدت عليه طروطة أميرة نافار ، وعقدت معه الصلح فكافأها
بأن أقر ولدها على مملكة نافار ، وبلغت دولة الاندلس ذروة الجود والظلمة في زمانه . فقد غنى بالمواع
الجيش وتقويته . إلا أنه أخطأ باستخدام السفاليين الذين زاد عددهم في عهده وكان هؤلاء السفالية
في أول الأمر أسرى من قبائل الألاف قبض عليهم الأندلس وسواهم وأخروهم من العرب . ثم
أطلق هذا الاسم على جميع الأجناس الذين يخضعون في الناصر . وفي الجيش مما كانت جنسيتهم .
وكان بين السفالية الذين يخدمون في بلاط الخليفة الناصر : النصارى ، وفرنسيون . وإسبانيون ،
ولبارديون ، وروس . وكان معظم هؤلاء السفالية يأتون بهم أمثالا بواسطة اليهود الذين يبيعونهم
من العرب فجربوهم تربية راقية ، وعلموهم القرآن واللغة العربية . وازداد عددهم كثيرا في زمن
الناصر فلما رأى أن رغم بهم أشرف العرب ووقفا على القبائل على الخضوع . وولى أئدهم المسيحية
بقيادة الصقلي . على جيش من العرب لمحاربة نصارى الشمال فترك العرب القتال في واقعة الخندق
وانتهزوا فكسر الجيش وقتل قائده .

واهتم عبد الرحمن بالاسطول كثيرا فاستعان به على غزوة الفاطميين الذين طعموا بفتح الاندلس
عند ما كانت دولتهم قائمة في إفريقية قبل توجههم الى مصر ، وبيت المعز الفاطمي عدله على قيادة
لغزو الساحل الأندلسي فغزا منطقة القرية ، وبعث فيها غسادا ونهب اموالها فرد الناصر عليه بأن
أرسل أسطول الاندلس المؤلف من مئتين سفينة تحت قيادة مولاة غالب فغزا سواحل إفريقية
وعاد سالما .

وفي عهد الناصر ازدهرت قرطبة عاصمة البلاد ، وبلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة . وكان
فيها سبعة مائة مسجد وقنطرة حمام عام . وكان قصر الخليفة : دار الروضة ، من أعظم القصور جانب
الناصر اليه النساء من أعلى الجبل وبين حوله الحدائق والمنازل .

وفي سنة ٣٢٥ هـ بنى الناصر قصر الزهراء بمحيط قرطبة قال خلفه أحدى جواربه التي اوصت
أن ينفق لاقتناء اسرى المسلمين من أيدي النصارى . ولما وجد عبد الرحمن منهم اسداً بنى هذا
القصر واعتنى برخرفته وتزيينه . وجعله مركزا علميا ولتستقل في بنائه عشرة آلاف طالع والف
وخمسة مائة دابة وثمان مائة مئة . ووسع خلفه الناصر الزهراء وحسنوها حتى اصبحت ضاحية كبيرة

وكان عهد الناصر عهد رخاء ويسر زهت الزراعة والتجارة والصناعة والعلوم والفنون وساد الأمن في اقاصي المملكة ورخصت كلفة العيش وامتلات خزينة الدولة بالاموال مما كان يغنيه الجيش من الغنائم العطيمة ومن الواو دات الاخرى حتى بلغ دخل الدولة السنوي نحو (٦٠٢٤٥٠٠٠٠) ديناراً .

توفي الناصر في شهر رمضان سنة ٣٥٠ هـ في السبعين من عمره بعد ان حكم نصف قروناً ، وخلفه ابنه الحكم الملقب بالمتنصر بالله .

الحكم الثاني

٣٥٠ - ٣٦٦ هـ أو ٩٦٦ - ٩٧٦ م

كان الحكم الثاني مولماً بالعلوم وجمع الكتب ففتح معاهد العلم وأنشأ المكاتب العامة بقرطبة وغيرها من مدن الاندلس .

وكانت مكتبته في قرطبة تحتوي ٤٠٠ ألف كتاب وعدد دواوينها ٤٤ فهرساً ، وفي كل فهرس عشرون ورقة ، جمع الحكم كتبها من جميع الاقطار لاسيما من بغداد ، والقمعة ، ودمشق ، وبذل اموالاً طائلة في هذا السبيل حتى انه اشترى نسخة من كتاب الاغاني بألف دينار ، وانشر هذا الكتاب في بلاد الاندلس قبل ان ينتشر في بلاد الشرق .

قرب الحكم الثاني العلماء والفلاسفة والباحثين ، فقصده رجال الفكر من الشرق ، ومنهم ابو علي الغالي صاحب كتاب الاغاني وجعل الحكم الاندلس ثقافتها الخاصة بها بعد ان كانت تعتمد على ثقافة اهل الشرق ، ويحول دوزي أن الاندلسيين عموماً كانوا يعرفون القراءة والكتابة سوى القليل منهم ، بينما كانت اوربا لمية إذا استثنينا رجال الدين . وفتح الحكم في قرطبة ٣٧ مدرسة مجانية لتعليم اولاد الفقراء ، ودفع رواتب اساتذتها من جيبه الخاص فتوافد الطلاب من جميع الجهات لتلك المدارس . وقد ساعد الحكم في ادارة البلاد رجال قدبرون ومنهم حليبه (رئيس الوزارة) جعفر المصحفي ، ومحمد ابو عامر .

دولة بني عامر

٣٦٦ - ٣٩٩ هـ أو ٩٧٦ - ١٠٠٩ م

الحاجب المنصور

هو محمد وكنيته ابو عامر ينتمي الى امرة عربية من اهل بني عامر ، قدم اجداده مع طارق بن

زباد الى الاندلس ، وسكنوا في ضواحي الجزيرة الخضراء ، يتولى بعضهم القضاء في اشبيلية وقرطبة .
 تعلم محمد بن أبي عامر في قرطبة ، درس اللغة على ابن الفوطية والادب على أبي علي الغالي ، ثم
 اتخذ مكاناً لكتابة المرائض بجوار قصر الخليفة الحكم الثاني فتمرف على خدم القصر وحشيه ، وكان
 للخليفة الحكم الثاني زوجة تدعى (صبيح) وهي من بلاد البشكس غنمها الحكم في حروبه الشمالية وتزوجها ،
 فطلبت صبيح رجلاً يقوم بإدارة أملاكها وأملاك ابنها ، فوقع اختيارها على أبي عامر فأمنت اليه واستحسنته
 وأحبته ، وما زالت تبذل له رعايتها وتقدمه لدى زوجها الحكم ولدى ابنها هشام بعد توليه الخلافة من بعده
 وفاء أبيه حتى أصبح أبو عامر والحاجب المصحفي والمكة صبيح اوصياء على هشام الصغير سنة .
 دكة : تورية الحاجب المنصور

تولى أبو عامر الوزارة وأخذ يعمل على التخلص من كبار رجال الدولة والاستئثار وحده
 بالحكم . وكان يناقسه السلطة رؤساء الجند من الصقالية وأعظمهم جوهر ، وفائق وكان للصقالية
 نفوذ واسع وأملاك وأموال وأتباع من الشعب والجند انفقوا حول المغيرة أخي الحكم ، وحاولوا
 توليته الخلافة وطلع هشام الذي كان يؤيده حزب أبي عامر والمصحفي . ونجح الحزب الأخير في قتل
 المغيرة والقضاء على نفوذ الصقالية . فنفى فائق الى حزر الباليار وقبلت استقالة جوهر .
 أراد أبو عامر التخلص من المصحفي وأشاع بين العامة ان المصحفي هو الذي أمر بقتل المغيرة
 فكرهه الشعب ، واستعان عليه بالقائد غالب الم رابط في مدينة سالم في الشمال الشرقي من الاندلس ،
 وتزوج بامرأته أسماء وكان عرسه أعظم عرس في الاندلس . ولما تمخض أبو عامر من فوته سار الى قصر
 المصحفي واتهمه بالخيانة وسوء الإدارة وعزله وأمر بمصادرة أمواله وحشيه ، وتمكن بعدئذ
 من القضاء على القائد غائب عندما شعر بخطرهِ وقوته وهكذا أصبح أبو عامر ديكتاتور البلاد
 وتم له الأمر .

سياحة الحاجب المنصور وأعماله

كثر حسد أبي عامر للمكة العليا التي بلغها في الاندلس فأثروا عليه العامة ، وصاروا
 ينشرون أخباراً عن علاقته مع صبيح أم الخليفة ، ودبروا مؤامرة على خلعهِ ، اكتشفها أبو عامر
 وقضى على رؤسائها .

وأنهمم الفقهاء بالإلحاد ليبله الى الفلاسفة وكثيهم . فلستدعى كبار الفقهاء إلى مكتبة الحكم ،
 وأمرهم بأن يخرجوا الكتب المتعلقة بالعلوم والفلسفة ، وأمر بحرقها أمام العامة فأضاع بذلك نزوة
 عظيمة في سبيل ارضاء عامة الشعب ، وصار يتظاهر بالتقوى والصالح .

كان الخليفة هشام يقدم بالنسب خلف أبو عامر بن يسلم عنه السلطة ، فبنى مدينة جديدة دعاها الزاهرة في شرق قرطبة . ونقل إليها عوالم الدولة . وبنى الخليفة في الزهرة ، وأشنه بالنساء ، وأبعد عن الناس ، وحجر عليه . وأعطاه باليونان والخراسان ، ولم يسمح له بالخروج فأتى ذلك إلى فقدان نشاطه وضعف عقله واكتفائه بجلائه .

خلا الجو لآبني عامر وعظم في عين الناس وخطب له على المنابر ، وكانت له السلطة جميعا ما عدا لقب الخلافة الذي أبقاه لحشام . وقام بحروب موفقة في الشمال فقب على أرها ، بالأسور ، وكذلك أرسل حملة إلى مراكتس أخضعت ثورة الإدارة . وقد غزا المصور (٥٢) غزوة لم يفلح في إحداها ، وكانت كلها انصرف من قتال العدو بأمر خادمه ابن بنفرض غبار ثيابه التي لبسها أثناء المعركة ، وأن يجمعها ويحفظها ، وقيل أن تحضره النية أوصى ما اجتمع من المنابر أن ينشر على كفته حين وضعه في قبره .

كانت أيام أبي عامر أيام غار وظفر . ورخا ، ورغد ، فازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة وزهت العلوم والآداب ، وضمت خزان قرطبة بالأموال والوعى أبو عامر ببناء فريد مدينة الزاهرة . ووسع جامع قرطبة وأنشأ قنطرة كبيرة على نهر الوادي الكبير انفق عليها (١٤٠٠) دينار وبنى قنطرة أخرى على نهر المستنبة . وتوفي أبو عامر سنة ١٠٠٢ وأوصى بنصب الحجابة لابنه عبد الملك الذي تلقب بالظفر ، وظل يحكم البلاد حتى سنة ١٠٠٨ م . كانت كلها أعيادا على أهل الأندلس . وتوفي بسم دسه له أخوه عبد الرحمن الذي حاول أخذ الخلافة بعد هشام ، فأجابه الخليفة بعد تردد وكتب له العهد من بعده ، إلا أنه نتيجة ذلك كانت سيئة عليه وعلى غيره من الأمويين . فقد ثار عليه أهل قرطبة وسكان بقية الأقاليم . وقد المعارضة الأمراء الأمويون الذين انتموا لفرضه غيابه في غزواته لبلاد ليون فاستولوا على قصره واضلوه على الاعتزال ، وبقيت عليه أهل قرطبة وأعدوه سنة ١٠٠٩ م) وانتهت بقوته الدولة العباسية .

نهاية الخلافة الأموية في الأندلس

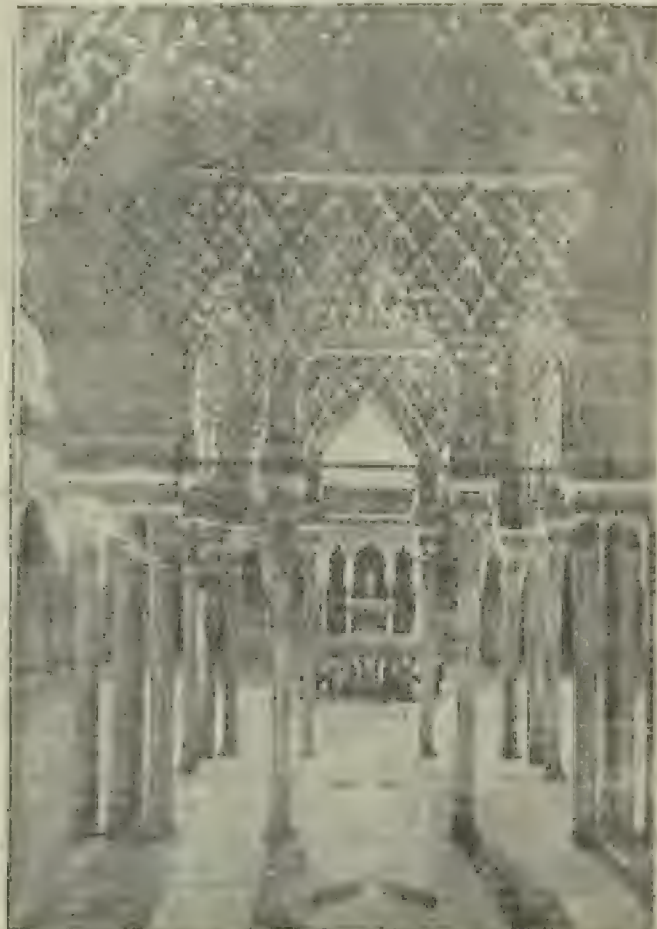
خلف هشام خلفاء خداف لم يمدوا إدارة البلاد فاضطربت الأحوال وكثرت المنازعات بين القرب والبربر والصقالبة ، وحاجم الأسبان البلاد وازدادوا في اضطرابها ، وفي من هشام الثالث سقطت الخلافة الأموية في قرطبة سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) وانقسمت البلاد بين أمراء الطوائف فذلك دعا المأزخون الدور الأخير من الحكم العربي في الأندلس بدور ملوك الطوائف .

الفصل الخامس

دور ملوك الطوائف

٢٤٢-٨٩٧ هـ أو ١٠٣١-١٤٩٣ م

ذهبت الخلافة الاموية في الاندلس منسية على يد الخوارج الطائفي وقوية بخصيصة العصابة الزرياء الذين ادخلهم الخلفاء الامويون لخدمة بنيوهم في حروبهم وكانوا ولايتهم وخزائنها دولتهم. ذهبت الاندلس صرخة منارات الدت الاموي وخصيصة العرب القبايلة ، والطامع للولاة ، والتمثال شعب فقد حبه وولاه الامير والحاكم ، في كل من دتس ووجوهه كان تخرج الى استخدام قواه لافي



مساحة الاسود في غرناطة وهي اسود حات في اسوار الاندلس

سبيل الدولة ، وانما لتحقيق جملة الشخصي وانائه .

هذه الاحزاب التي تقاسمت اشلء الدولة وقادتها الى الدمار لم تمت بذهاب الدولة الاموية ، وانما كان دهابها في الواقع بدء الاضال فيها بينها ، ونقسمت الدولة الاسلامية في الاندلس بايدي ذي بدء الى دويلات عديدة ، حتى كان اسكن مدينة تقريباً اميرها المستقل ، متخذاً لقب امير المؤمنين او الامير او الوالي او القاضي تبعاً لحجم المدينة او المنطقة التي يحكمها . فقام بنو حمود في مملكة الجزيرة الخضراء ، وبنو عباد في اشبيلية ، وبنو دى النون في طليطلة ، وبنو هود في سرغطة ، وبنو جهور في قرطبة ، وبنو عامر في بلنسية ، وبنو الاسمر في شرططة . . .



يهو السفراء في قصر اشبيلية

فسرطان مائتين ان هذه الدول لا يمكن ان يطول امرها :

اولاً : لما كان يحيط به الجميع من الاطماع .

ثانياً : لتباين القوى والرياسات .

ذلك ان القوى كان يحاول ان يبطش بالاضعف . فبحاول الاضعف ان يدرك الخطر بالتعاطف مع جبار أقوى ، يذودو انبأله ويماونه على احرار الضر على عدوهما المشترك او يهزم معه ، وكانوا احياناً يلجئون الى نصارى الاسبان لمساعدتهم ضد منافسيهم من المسلمين . الا ان هذه المساعدة كلفتهم غالباً اذ انهم اصاعوا والفر دوس الفغود ، بسبب استعانتهم بأعدائهم الاجانب وبسبب اختلافاتهم الداخلية واثانتهم الشخصية ، وأخرجوا من تلك البلاد على أسوء حال ، بعد ان خلفوا وراءهم حضارة زاهرة لاتزال بقاياها تشهد بما كان لهم من ايدي يضاء على بلاد اسبانيا خاصة وعلى نهضة اور بصورة عامة .

محتويات الكتاب

القسم الاول

صفحة	المقدمة
٢ — ٥٦	الباب الاول : الدولة الاموية
٥٧ — ٨٨	الباب الثاني : الحضارة العربية في عهد الخلافة الاموية
٨٩ — ٩٩	الباب الثالث : حالة أوروبا في زمن الخلافة الاموية

القسم الثاني

١٠٥ — ١١٢	الباب الرابع : الخلافة العباسية
١١٣ — ١٨٠	الفصل الاول : دور النفوذ الفارسي
١٨١ — ١٩٦	الفصل الثاني : دور النفوذ التركي
١٩٧ — ٢٠٣	الفصل الثالث : دور النفوذ البورمي
٢٠٤ — ٢١٧	الفصل الرابع : دور النفوذ السلجوقي الممالي
٢١٨ — ٢٢٨	الباب الخامس : الدولات المستقلة
	الدولة الفزنوية — الدولة الحمدانية — الدولة الطولونية — الدولة الاخشيدية .

القسم الثالث

٢٣٢ — ٢٤٣	الباب السادس : الخلافة الفاطمية
-----------	---------------------------------

القسم الرابع

٢٤٧	الباب السابع : حالة أوروبا في زمن الخلافة العباسية
٢٤٨ — ٢٥٨	الفصل الاول : الدولة الكارولنجية وشارلمان
٢٥٩ — ٢٦٥	الفصل الثاني : النظام الاقطاعي والفروسية
٢٦٦ — ٢٦٨	الفصل الثالث : حالة الفلاحين والعبيد في ظل النظام الاقطاعي
٢٦٩ — ٢٧٤	الفصل الرابع : اسرة آل كابت — تطور انكلترا حتى نهاية الفتح انورمندي — نشأة الامبراطورية الرومانية المقدسة .
٢٥٧ — ٢٨٠	الفصل الخامس : نشأة الكنيسة المسيحية
٢٨٢	الباب الثامن : الحروب الصليبية

القسم الخامس

صفحة

٣١٧ — ٣١٦

٣٣٣ — ٣١٨

٣٤٧ — ٣٢٥

الباب التاسع : المايك

الفصل الاول : دولة المايك البحرية

الفصل الثاني : دولة المايك البرية

القسم السادس

٣٣٠

٣٣٣ — ٣٣٠

٣٣٤ — ٣٣٣

٣٤٣ — ٣٣٥

٣٤٨ — ٣٤٤

٣٥٠ — ٣٤٩

الباب العاشر : الاندلس

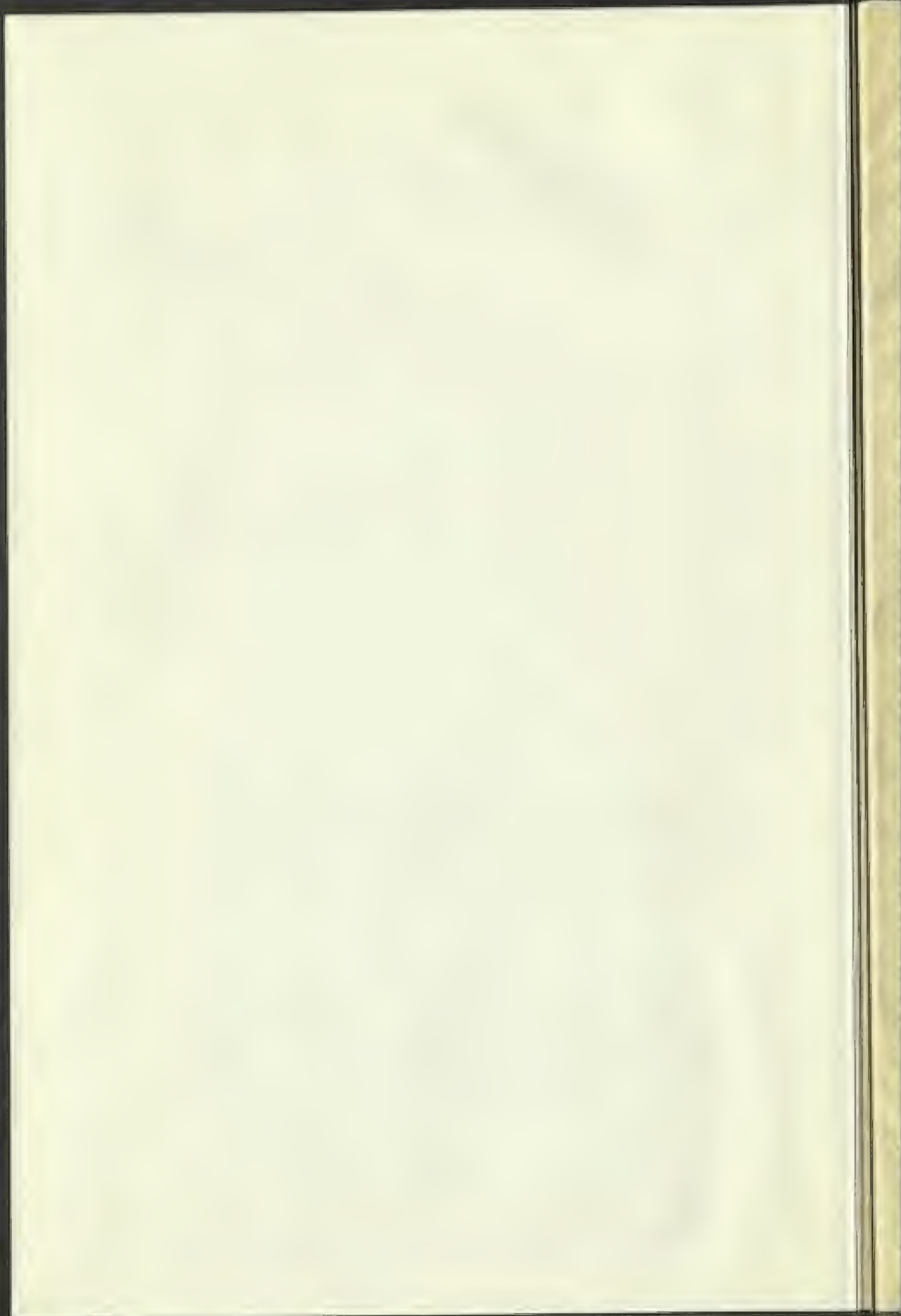
الفصل الاول : الاندلس قبل الفتح العربي

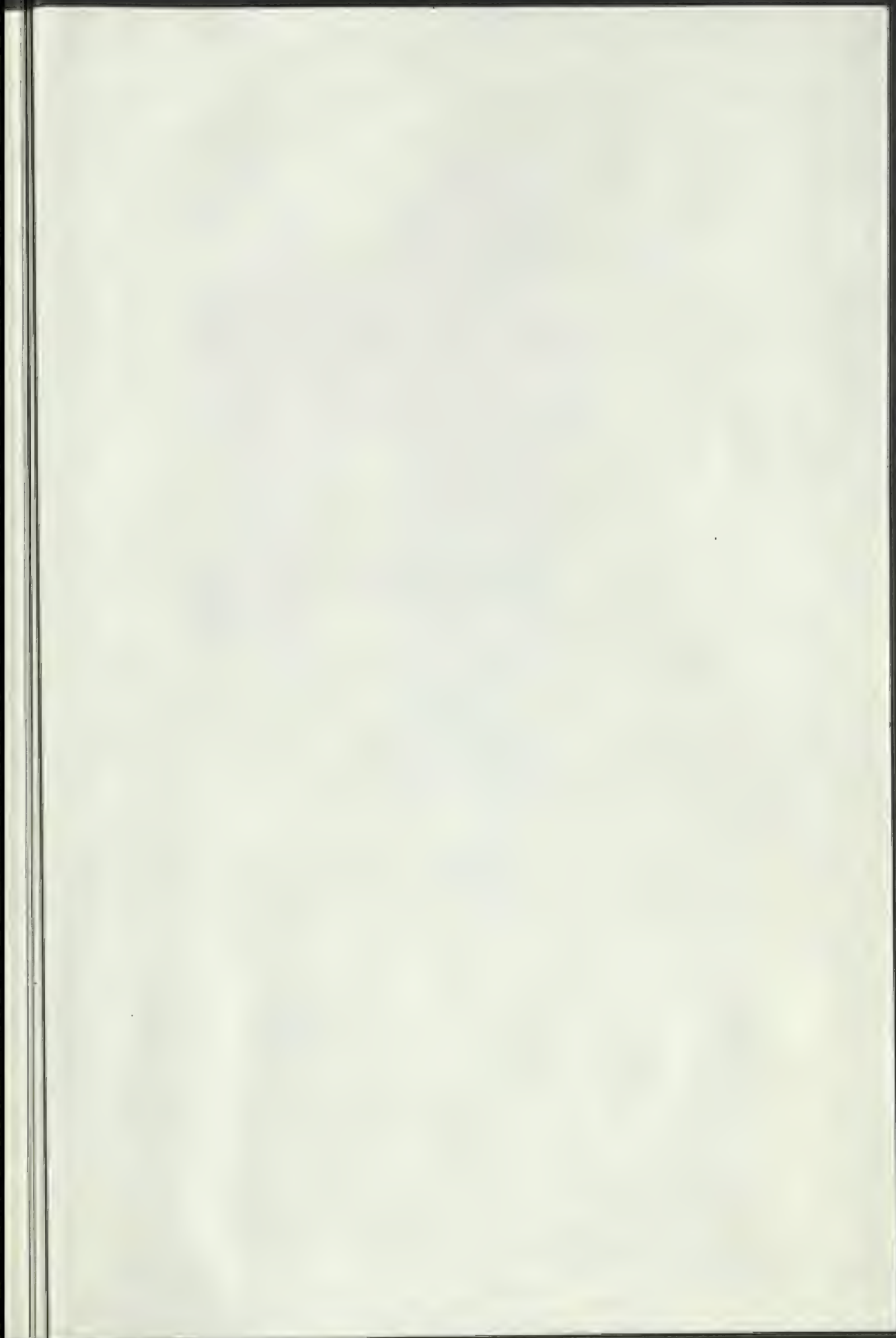
الفصل الثاني : الولايات المضطربة

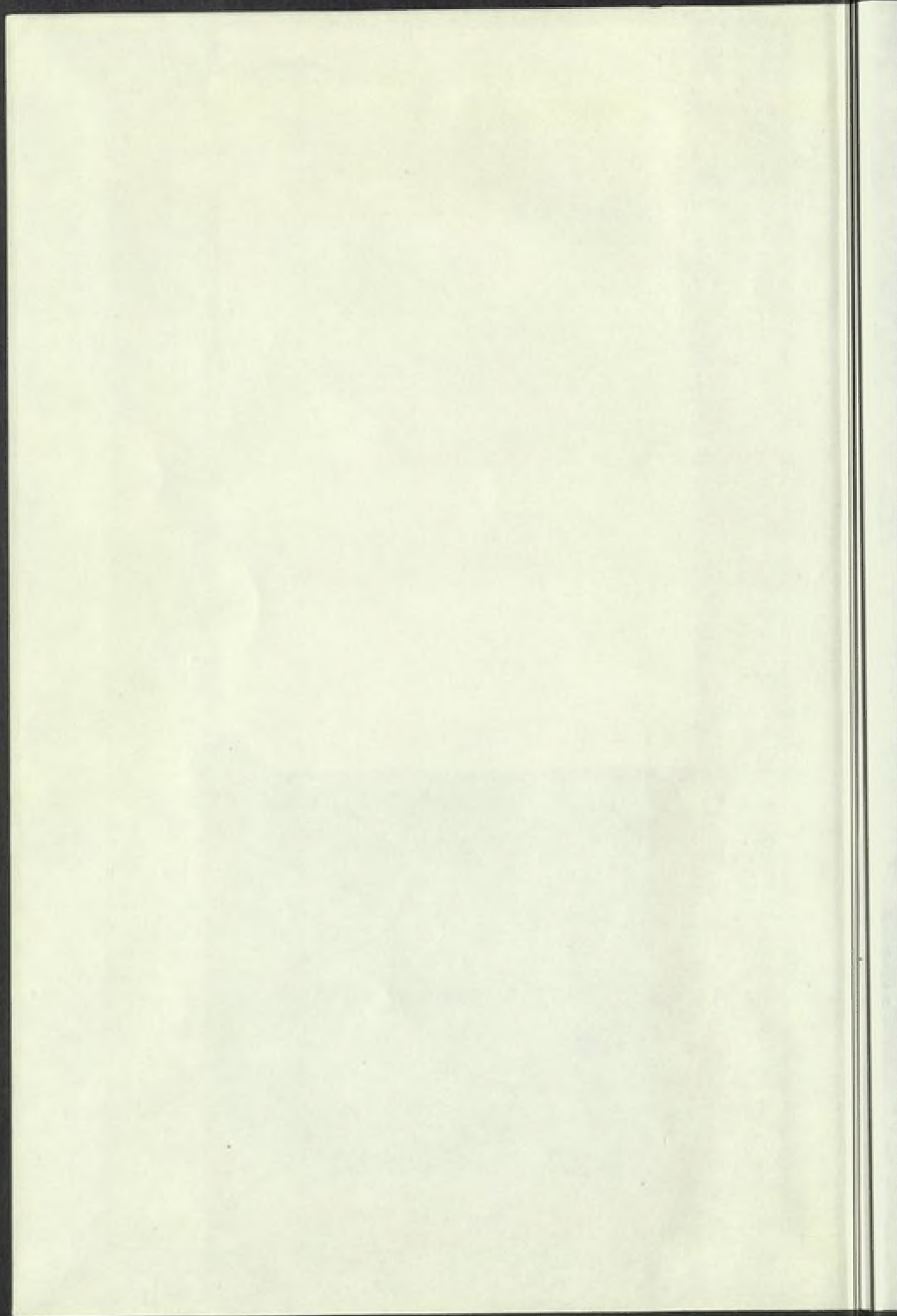
الفصل الثالث : دولة بني أمية في الاندلس

الفصل الرابع : الخلافة الأموية في الاندلس

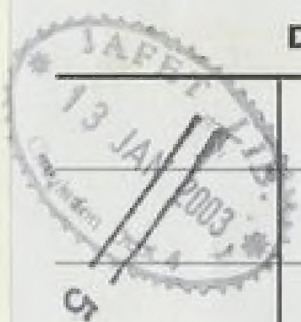
الفصل الخامس : دور ملوك الطوائف



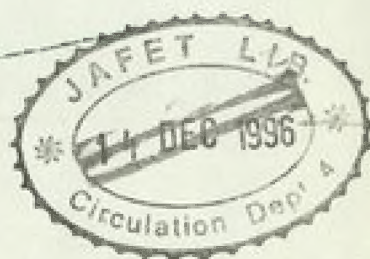




DATE DUE



CT



A. U. B. LIBRARY

297.09:M21tA:c1

المهاجر، رقية

تاريخ الخلافة الأموية والعباسية والدور

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01003005

297.09
M21tA



